مكتبة
Telegram Network
2019

جان دوست

كوباني

الفاجعة والربع

رواية

مكتبة

Telegram Network

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

(كـوبــانــي - الـفــاجـعـة والـربـع)

لـ (جــان دوســت)

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق اليكتروني:

«ماجدة علي»

قناة التليقرام

TELEGRAM
NETWORK

كوباني

الفاجعة والربع

رواية

جان دوست

لكي أنسى كلّ سحر استوطن عقلي، فقد تحتَّمَ عليَّ هذا الرّحيل.

آرثر رامبو- فصلٌ في الجحيم

* * *

كيف جلستْ وحدها المدينةُ الكثيرةُ الشَّعْب! كيف صارت كأرملة تبكي في اللّيل!

مراثي إرميا- العهد القديم

* * *

في القصف
انكسرت عكّازة أبي إلى نصفين:
نصف يلعن الحرب
ونصف أهُشُّ به على ألمي.

جان دوست

* * *

كلمة شكر

لا بدّ من شكر مجموعة من الأصدقاء والمختصّين الّذين قرؤوا العمل وساعدوني في صياغته النّهائيّة عبر إبداء الملاحظات أو إرسال المعلومات الّتي كنت أحتاجها خلال تدوين الوقائع العديدة. أذكر من هؤلاء بمحبّة، الصّديق البروفسور عقيل المرعي الأستاذ في جامعة سيانا الإيطاليّة الّذي لم يبخل عليّ بوقته وراجع النّصّ بدقّة وناقشني على مدى أيّام في كلّ فصل من فصوله وأرشدني إلى عثراتي اللّغويّة وسقطاتي ونبّهني إلى كثير من الأمور المهمّة وله الفضل في إخراج النّصّ بشكله النّهائيّ. ولم يكتف الدكتور عقيل بذلك بل شرّفني بمقدّمة جميلة تهتمّ بمعظم تجربتي الرّوائيّة باختصار ودقّة.

أشكر أيضًا صديقي النّاقد اليمنيّ رياض حمادي الّذي كان أوّل من قرأ الرّواية وأبدى لي ملاحظاته القيّمة الّتي استفدت منها وعملت بها. أشكر كذلك صديقتي الشّاعرة والنّاقدة الفلسّطينيّة ريم غنايم الّتي تقرأ منذ سنوات رواياتي قبل صدورها وتتكرّم عليّ بملاحظاتها القيّمة، ترشدني إلى الضّعيف في العبارات والسّبك والسّرد وتمدّني بنصائحها القيّمة دون تردّد.

أشكر أيضًا عددًا من النّاس لا أستطيع إحصاءهم أو ذكرهم جميعًا بالاسم، بعض هؤلاء هم شهود عيان على ما جرى من أحداث وبعضهم جزء من الأحداث نفسها ومنخرطون فيها مباشرة مثل ابن أختي محمّد شاهين «حمّودة» الّذي عاد لوحده إلى حارتنا المدمّرة وكذلك بعض عناصر البيشمركة وإحدى الفتيات اللّواتي قاتلن داخل كوباني وشباب نظّموا المظاهرات في شوارعها وشاركوا فيها ورأوا الدّم يسيل من جرحاها، وكذلك شباب رتّبوا للنّازحين إلى كوباني قبل الحرب وسائل عيش كريم كالإقامة والمأكل والملبس عبر إنشاء جمعيّة مدنيّة لمساعدة الوافدين إلى المدينة الآمنة من أرياف حلب وإدلب وغيرهما. كما أن هناك متضرّرين من آثار الحرب الّتي جرت وقائعها في مدينتي الصغيرة مثل أهلي؛ أعمامي وأبناء عمومتي وإخوتي وأخواتي وجيراني وعائلاتهم، سردوا لي فصولًا من المحنة وقد استمعت بحزن إلى شهاداتهم الصّادقة والدّقيقة. وهناك آخرون أشكرهم جزيلًا جدًّا وقد طلبوا منّي عدم ذكر أسمائهم وكثيرون لم أعد أتذكّرهم وليعذروني على نسيان أسمائهم وأخصّ بالذّكر منهم قارئاتي وقرّائي ممن شجّعني أثناء الكتابة وأرسل إليّ الصّور من داخل المدينة فمنحوني بذلك طاقة كبيرة للاستمرار في العمل والتّغلّب على الضّغط النّفسيّ الكبير الّذي ولّدته هذه الرواية لديَّ.

لا بدّ كذلك من شكر الموسيقار الياباني كيتارو الّذي رافقتني موسيقاه خلال كتابة الرّواية. وإنّني إذ أشكره أعتذر منه لأنّني تركت في كوباني شريط موسيقاه الرّائعة «ماستوري» الّذي أهدتني إيّاه فتاة من إسطنبول ذات هوى

في صيف 1992. بقي شريط الكاسيت ذاك بعد الحرب الهائلة التي دمّرت أرواحنا قبل بيوتنا متواريًا عن الأنظار يؤنس الأنقاض ويهدي صمتَ المكان كثيرًا من الرّوح ويوحي إليَّ في هذه الرّواية ما يوحي.

أخـيرًا، لا بـدّ مـن شـكر زوجتـي زيـن وابنتـيَّ مَيْ وپَري علـى تحمّلـهن تغـيّر مواقـيت نومـي ونَزَقـي المعتـاد أثنـاء الاشـتغال علـى الرّوايـات وابتعـادي عنـهنّ وتقـلّب مزاجـي بسبب ما دوّنته من كوارث حقيقيّة جرت على أرض الواقع قبل أن تنتقل إلى سجن الحكايات الورقيّ هذا والّذي نسمّيه اصطلاحًا بالرّواية. لقد كانت زوجتي خير معين لي خلال الأشهر الصّعبة الّتي قضّيتها مشتغلًا على روايتي الثّامنة بنسختيها الكرديّة والعربيّة، وقد قرأتُ عليها فصولَهما فصلًا وراء آخر، فشاركتني كما هو دأبها في كلّ رواية أكتبها في مناقشة الجمل وصياغاتها ومصائر شخصيّاتها والحوارات الّتي تدور بينها واستمعتْ إليّ بصبر وأنا أحدّثها عن كلّ شخصيّة وكيف يجب أن ينتهي بها الأمر، مبديين هي وأنا اهتمامًا لا حدود له بتتبّع مسارات كلّ شخصيّة ومآلاتها كما لو كنّا نناقش مصير أبناء حقيقيّين لنا.

للقارئة والقارئ أيضًا أينما كانا شكري ومحبّتي.

جان دوست
وموقعه في الرواية الكرديّة

تعرّفت على الرّوائيّ جان دوست بالصّدفة حين رأيت رواية ميرنامه على رفوف «دار كلمة» في معرض أبي ظبي للكتاب. ملحمة كرديّة ومترجمة إلى العربيّة! ها هي ذي الفرصة قد أتيحت لي أخيرًا لأطّلع على نصّ من الأدب الكرديّ مطبوع طباعة أنيقة ومن دار نشر مرموقة. لم يكن متاحًا لجيلنا أن يطّلع على الأدب الكرديّ.

كان ممنوعًا! كنّا نعيش جيرانًا في بلد واحد، ومع ذلك لم نكن نعرف شيئا عن هذا الأدب. كان زملاؤنا الأكراد في المدرسة الثّانويّة، يتداولون حكايات تشبه الأساطير عن الأدب الكرديّ. أراني أحدهم مرّةً، حين اختلى بي في غرفته الصّغيرة، ديوانًا لشاعر كرديّ قال لي إنّ اسمه جَكَرْخُوين، كان مطبوعًا على الآلة الكاتبة، عرضه عليّ لحظة ثمّ عاد لإخفائه كجوهرة ثمينة تحت النّضد وراء الفرش. مع ميرنامه، اكتشفت أنّ ثمّة أدبًا كرديًّا عظيمًا، وأن ثمّة كتّابًا أكرادًا، يبدعون في هذا الأدب.

كانت ميرنامه بالنسبة إليّ مفتاحًا لهذا الأدب الشّرقيّ الّذي ساهم في بناء التراث الإنسانيّ ولكنّه لم ينل حظّه من الشّهرة والنّشر.

أوّل نصّ كرديّ قرأته باللّغة العربيّة قبل ميرنامه، كان «مم وزين: قصّة حبّ نبت في الأرض وأينع في السماء» ترجمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، رحمه الله. قرأته كاملًا، إلاّ أنه لم يشكّل بالنّسبة إليّ، وإلى كثيرين من أمثالي، نصًّا أدبيًّا بالمعنى المتعارف عليه للنّصّ الأدبيّ. بل أستطيع أن أقول إنّه قدّم صورة غير حقيقيّة للملحمة وللشاعر أحمد الخاني. كانت شخصيّة البوطيّ الدّينيّة طاغية على النّصّ. كان نصًّا دينيًّا بامتياز، كما هو واضح من العنوان الفرعيّ الّذي أضافه البوطي إلى الملحمة، بعد أن اختصرها وأعاد صياغتها بما يوافق توجّهاته الدّينيّة. حين اطّلعت على مم وزين بترجمة جان دوست علمت لماذا لم تحقّق ترجمة البوطي الشّهرة المطلوبة. ولكن يذكر للبوطي أنّه، بحكم دوره ومكانته، استطاع أن يفتح أوّل ثغرة رسميّة أمام الأدب الكرديّ في بلاد الشام.

لماذا نجح جان دوست وفشل غيره في تقديم الأدب الكرديّ إلى العرب؟ أهمّ ما يميّز جان دوست أمر تحدّث عنه المستشرق الإيطاليّ الكبير أليساندرو باوزاني حين قال: كي تفهم العالم الإسلاميّ ينبغي أن تتقن لغاته الثلاث: العربيّة والتركيّة والفارسيّة. جان دوست يتقن هذه اللّغات الثّلاث بالإضافة إلى الكرديّة لغته الأمّ.

هذا ما هيّأ السّبيلَ لجان دوست كي ينتقل على هواه بين هذه الفضاءات اللّغويّة جميعها. كتب بالعربيّة والكرديّة وترجم منها وإليها. لم يصغ إلى من أراد أن يجرّه إلى مستنقع التعصّب القوميّ ليكتب بلغته الأمّ فقط. بل أكّد دائمًا أنّه ينتمي إلى الثقافتين العربيّة والكرديّة معًا.

ثمّة ثيمتان حاضرتان في مجمل أعمال جان دوست:

الثيمـة الأولـى هـي المسـألة الكرديّة بشـكل عـامّ، بـدءًا مـن ترجمتـه لملحمـة «مـم وزيـن» للشـاعر أحمـد الخـاني، ثـمّ «ميرنامـه» التـي اسـتعرض فيـها حيـاة أحمـد الخـاني وبداية ظهور الوعي القوميّ الكرديّ، وتغلغل في مكنونات النّفس البشريّة، على أنّ التّرجمة العربيّة مازالت ناقصة بسبب مقصّ الرّقيب المحافظ، وأتمنّى أن تتاح لها نشرة كاملة غير منقوصة. ثمّ ثورة الشّيخ سعيد النّقشبنديّ في «ثلاث خطوات إلى المشنقة». ثمّ جمهوريّة مهاباد في «وطن من ضباب». ليصل إلى بداية الحراك السّوريّ سنة 2011، وانخراط التّنظيمات الكرديّة في هذا الحراك، فيتصدّى له جان في «دم على المئذنة»، ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى العمل الّذي بين أيدينا الّذي يؤرّخ فيه لمأساة مدينته كوباني.

الثيمة الأخرى المحبّبة إلى نفس كاتبنا هي الأقليّات: كلّ أبطال جان دوست من غير الأكراد هم من الأقليّات، إمّا لأنّهم من مسيحيّي المشرق «مارتين السعيد»، وإمّا لأنّهم اختاروا أن يكونوا منها، كما في «عشيق المترجم» و«نواقيس روما». هل يمكن أن يكون مصدر الثّيمتين واحدًا؟! هل سيتاح لجان دوست من يحلّل كتاباته نفسيًّا كما حلّل هو مقتل أحمد الخاني، هذا الشّاعر القابع في لاوعي جان دوست، ويحاول جان قتله دون جدوى. هل يبحث جان دوست عن فيرجيل ليقوده إلى الجحيم أم ليخرجه منه؟ أسئلة متنوّعة تحتاج إلى دراسة مستفيضة ليس هذا مكانها. ولكن أيًّا كان ما قاد جان دوست فقد وصل به إلى الجحيم في كوباني – **الفاجعة والربع!**

حين تشرع في قراءة ملحمة جان دوست الفاجعة والربع، لن تستطيع تركها حتّى تنتهي منها. وربّما لن تستطيع النّوم أيضًا. حين قرأت المسوّدة، اتّصلت بالكاتب أرجـوه أن يشـفق قليـلًا علـى أبطالـه وعلـى قارئـه، ولكـن دون جـدوى! هـي روايـة صـادمة مثلـها مثـل معظـم أعمالـه، لكنّهـا صـدمة تـدفعك إلـى التـأمّل والتّفكـير، إلـى مراجعة حساباتك وأحيانًا إلى مراجعة ثوابتك!

يصوغ جان ذلك كلّه، في هذا العمل كما في سائر أعماله، بلسان عربيّ مبين، يتفوّق فيه على كثير من أبناء لغة الضّاد (نذكر أن أحمد شوقي ومحمّد كرد علي وسليم بركات كلّهم من الأكراد). يعتني مؤلّفنا بلغته أيّما عناية، فيذكرنا بلغة طه حسين وغيره من كتاب القرن الماضي، الّذين كانوا يكتبون بلغة رصينة

واضحة سهلة لكنّها صعبة المنال، يصف دقائق الأشياء كأنّك تراها. أعجب أحيانًا حين يصف موائد الطعام أو الألبسة أو الحركات، يخلقها خلقًا فتراها حيّةً أمامك. كلّ عمل من أعماله هو نصّ مختلف تمامًا عن سابقه، ويغريك، في الوقت نفسه، بقراءة ما بعده. صرت ألحّ على جان أن يرسل إليّ أعماله فور كتابتها، أتعطّش لقراءتها بل أحتاج إلى ذلك! هل السرّ وراء ذلك أنّ الكاتب يعبّر عن لاوعينا جميعًا؟ مغرق في محليّته، يتناول واقعة محدّدة واضحة، لكنّه من خلالها يتجاوز الزّمان والمكان، وفي النّهاية تجد نفسك أنت بطل الرّواية دون أن تشعر.

الرّواية الّتي بين أيدينا هي ملحمة بحقّ، استطاع من خلالها الكاتب أن يصوّر الأحداث في سوريّة بحنكة بالغة من جميع زواياها: المحلّيّة والإقليميّة والدّوليّة. لم يسقط جان في فخّ التعصّب القوميّ والعرقيّ فوضع يده على مواطن الخلل والضّعف مثلما وضعها على مواطن القوّة والمنعة في مدينته الصّغيرة كوباني (عين العرب). تلتقي في هذا العمل الأجيال والأجناس والأعراق، تتحاور، تختلف، تتشاجر، تتّفق. هو لوحة أنتروبولوجيّة بامتياز، تغريك إلى درجة أنّك لا تستطيع التّمييز بين الواقع والخيال، بل تريد للخيال أن يكون واقعًا، وأحيانًا تريد للواقع أن يصير محض خيال. ينقلك بحنكة وخبث -ربّما- من مستوى إلى آخر، يمتزج الموت بالحياة في جدليّة عجيبة، فتسرع في القراءة لتتابع ما يحدث في المستوى الآخر، وهكذا دواليك لا يترك لك الوقت لتلتقط أنفاسك، وهو ينتقل كراقص باليه بارع ليقدّم للقارئ عالمًا غنيًّا ومركّبًا ومحفوفًا بالمخاطر!

يحمل جان دوست همًّا وطنيًّا ومشروعًا إنسانيًّا، يمزج بينهما بحنكة بالغة عبر تأريخه للمجتمع الكرديّ من الدّاخل. إنّه مشروع ضخم وطموح يذكّرنا بالمشاريع الرّوائيّة الكبرى لبلزاك ونجيب محفوظ وغيرهما من الكتّاب العالميّين الّذين وصفوا بدقّة متناهية مجتمعاتهم الصّغيرة.

فهل نستطيع القول إنّ جان دوست هو بلزاك الرّواية الكرديّة؟

يوم جمعة عادي

- ناولني ذلك الإبريق لأتوضّأ.

نادى الحاجِ مسلم الملقّب بالمهاجر، جارُ مسجد سَيْدا والمؤذّن فيه أحيانًا، ابنَه المراهق لَوَنْدْ. لم تمضِ دقيقتان حتّى جاء لَوَنْدْ بإبريق البلاستيك، ووضعه بجانب أبيه المتربّع وسط الدّار قرب شجرة الزيتون.

- عفارم عليك يا ابني. قل لي من عندك؟

- قَهْرَمان.

- طيّب ألا تصلّون؟ يا حيف عليكم. ألستم شبابًا؟

- يا بابا سنذهب اليوم إلى المظاهرة.

توضّأ الحاج مسلم دون أن يعقّب على كلام ابنه أو ينتبه لكلمة «المظاهرة» التي تُسمعُ لأوّل مرّة في بيته.

كان يومًا لطيفًا من أيّام نيسان والسّماء صافية لم يعكّر صفوها سوى غيمتين تائهتين لم تجدا ريحًا توصلهما إلى مبتغاهما.

حامت بضع حمامات حول مئذنة مسجد سَيْدا المعدنيّة، ثمّ اتّجهت صوب هضبة مِشْتَنُورْ الواقعة جنوب مدينة كوباني طائرةً فوق بيوت حارة سَيْدا لتصل إلى مسجد الشّريعة، ثمّ تعود أدراجها لتتّجه هذه المرّة صوب الحدود التركيّة في الشّمال. لكنّها عادت من هناك دون أن تتخطّى الحدود وكأنّها تعرف أن ثمّة مواثيق وعهودًا يجب الالتزام بها، فعادت لتحوم مرّة أخرى حول المئذنة المعدنيّة دون أن تحطّ في أيّ مكان بينما تجوّلت ظلالها على الأرض بيتًا بيتًا.

انتهى الحاج من وضوئه. ألقى نظرة رضًا إلى السّماء، ثمّ رفع يديه يدعو ويبتهل، فرأى سرب الحمامات يطير فوق داره.

- رَوْشَنْ، يا رَوْشَنْ.

نادى ابنته ذات الاثني عشر عامًا بصوت مرتفع، فطارت يمامتان تعشّشان كلّ عام على شجرة الصّنوبر وسط الدّار لتحطّا على سطح غرفة ابنه البكر محمّد صالح الملقب حمِهْ.

خرجت رَوْشَنْ، آخر العنقود ومدلّلة العائلة، من إحدى الغرف وركضت إلى أبيها. لمعت جديلتها الذّهبيّة في وهج الشمس. واهتزّت يمنة ويسرة مثل أرجوحة من النّور. فنظر أبوها إليها نظرة امتنان.

- نعم يا أبي؟

- أحضري لي سترتي يا بنيّتي. هيّا بسرعة. سأذهب إلى الصّلاة.

تصاعد صدى الصّلوات من المئذنة المعدنيّة العالية وتدفّق النّاس إلى المسجد ودخان سجائرهم يعلوهم ويعلو أحاديثهم. وقد كانت أحاديث الجميع تدور حول محور واحد: ما الّذي يحدث في سوريا؟ وكيف ستنتهي الأمور؟ ما الذي ستأتي به المظاهرات ضدّ النّظام؟ وهل ينبغي للأكراد الانضمام إلى الثّورة أم لا؟

- تفضّل يا أبي.

قالت رَوْشَنْ وهي تناول أباها سترته ثمّ عادت إلى الصّالون.

ارتدى الأب سترته، وضع الكوفيّة والعقال على رأسه وأوشك أن يخرج، لكنّه رأى في جيبه بعضًا من السّكاكر فنادى مّرة أخرى:

- رَوْشَنْ، يا رَوْشَنْ.

- نعم يا أبي.

ردَّت رَوْشَنْ وهي تخرج رأسها من باب الصّالون.

- تعالي خذي هذه السكاكر.

قفزت الطّفلة من الفرح وأسرعت إلى باب الدّار حيث يقف أبوها. تراقصت جديلتها من جديد. نظر أبوها إليها بحنان ثمّ انحنى عليها فقبّلها وقال مبتسمًا:

- خذي هذه السكاكر يا ابنتي. أعطي واحدة لزوزان وأخرى لسيامند، والبّاقي لك.

ركضت رَوْشَنْ بكفّين ممتلئتين بالسّكاكر إلى غرفة أخيها الأكبر حَمِه بينما واصل أبوها النّظر إلى جديلتها الذّهبية بسعادة يخالطها حزن غريب. شعورٌ مزيج من الحزن والسعادة كان ينتابه كلّما نظر إلى جديلة ابنته الصغيرة.

أخيرًا خرج من باب الدّار يرافقه مزيج المشاعر ذاك، واتّجه إلى مسجد سَيْدا البعيد عن داره خمسين خطوة فقط.

كان محمد صالح، حمِهْ، الابن البكر للحاج مسلم، متخاصمًا مع والده، فلم يذهب بصحبته إلى المسجد، بل توضّأ في غرفته ثمّ بقي منتظرًا أن يغادر أبوه ليتبعه فيما بعد. وحين نظر من خلال الباب الموارب إلى باحة الدّار ليرى هل ذهب أبوه أم لا لمح أخته الصغرى تأتي مسرعة صوب غرفته ففتح الباب على عجل وسأل:

- خير رَوْشَنْ؟ ما الأمر؟ هل ذهب أبي؟

- نعم. ذهب.

- طيّب. سأذهب أنا أيضًا.

خرج حَمِه من الدّار وقد علا صوت الأذان وعجّ فناء المسجد بالروّاد منتظرين خطبة الجمعة.

مدَّت رَوْشَنْ، جديلة الذهب كما تلقبها أمّها خانِهْ، قطعة سكر إلى زوزان بنت الثلاثة أعوام وقطعة إلى سيامند ذي الخمسة أعوام، ثمّ عادت مسرعة إلى غرفة المعيشة، ألقت حبة سكر بطعم البرتقال في فمها بعد أن نزعت الغلاف عنها ورمته على أرض الدّار.

- حبيبتي اذهبي إلى المطبخ لتساعدي عَيْشه ريثما أصلّي. أختك خديجة ضيفتنا هذا اليوم.

- لكن يا أمّي سأستحمّ.

- أجِّلي الحمام الآن. اذهبي لمساعدة عَيْشه وفي المساء استحمّي. أختك خديجة على وشك أن تطرق الباب.

قالت خانِهْ وذهبت إلى سجّادة الصّلاة مستقبلةً القبلة.

ارتفع من غرفة الضيوف صدى نغمات البَاغْلَمَة[1]. كان باران ذو التسعة عشر عامًا يعزف. كادت أمّه أن تقطع صلاتها وتذهب إليه لتقف في الباب وتؤنّبه مثل كلّ مرّة قائلة: «ألا تخجل يا بني؟ إنّك جار المسجد وأبوك حاج ومع ذلك لا تترك هذه الطنطنات. أنت لا تصلّي فهمناها. لكن ما هذا الطنبور؟».

لكنّها أغمضت عينيها وذهبت إلى حضرة ربّها مبتهلة إليه، بخشوع وحرقة، أن يعيد إليها ابنها مَتِينْ الملتحق بالگريلا[2] سالمًا. كانت تتحرّق شوقًا إليه لأنّه كان فتى يانعًا بل صبيًا صغيرًا حين التحق بصفوف المقاتلين. مضت تسعة أعوام على غيابه دون أدنى خبر منه. كانت صورته الملوّنة في إطار ذهبيّ تزين الجدار الغربيّ لغرفة المعيشة بجانب صورة ابنها مصطفى الّذي قتل خلال الخدمة العسكريّة في الجيش السوريّ قبل ستّ سنوات.

دأبت خانِهْ حين تتذكّر ولديها كلّ ليلة على أن تبكي وتتضرّع إلى الله مخاطبة إياه: «يا ربّ لقد أخذت مصطفى منّي فأعد إليّ متين سالمًا. يا ربّ، أيّها العظيم لترفق بي أنا كسيرة الجناحين».

أصبحت آلام فراق متين ومقتل مصطفى بريّة شوك يتدحرج قلبها عليها وخاصّة في أيّام الجمعة حين تجتمع العائلة كلّها حول مائدة الغداء فتتذكّر ولديها ومكان جلوسهما، تزدردُ طعامها بصعوبة بالغة، وكثيرًا ما تترك الغداء وتقوم عن المائدة حزينة دامعة العينين.

ما إن أنهت خانِهْ صلاتها حتّى جاءت رَوْشَنْ غاضبة من المطبخ ووقفت تحت صورتي شقيقيها وهي تتمتم بكلمات غاضبة.

- خير حبيبتي! عَيْشه مرّة أخرى؟

- نعم، هي. إنّها تمنعني من أن أمدّ يدي إلى أيّ شيء. تقول دائمًا: هذا ليس شغلك. أنت طفلة.

وصارت تقلد عَيْشه في حديثها.

خرجت خانِهْ لتذهب إلى المطبخ فلمحت ابنها لَوَنْدْ مع قَهْرَمان عند باب الدّار يستعدان للخروج فنادته:

- إلى أين يا لَوَنْدْ؟ الغداء جاهز يا ولدي.

- سنعود بعد قليل يا أمّي.

أجاب لَوَنْدْ، ثمّ خرج وهو يصفق الباب خلفه.

لم تمض دقيقة حتّى حمل باران آلته الموسيقيّة وخرج أيضًا. ولما رأى أخته خديجة المتزوّجة حديثًا قادمة أبقى الباب مفتوحًا، سلّم عليها ومضى في حال سبيله.

* * *

عاد الحاج مسلم وابنه حَمِه من المسجد تباعًا. وحين دخلا البيت وجدا خانِهْ تتشاجر كالعادة مع كنتها وابنة أخيها عَيْشه. حاولت خديجة تهدئتهما دون جدوى.

لكنّ الشجار انتهى فجأة حين صفق باب الدّار ودخل الأب وابنه قادمين من صلاة الجمعة.

كان ذلك اتّفاقًا غير معلن بين المرأتين: ما إن يتناهى إلى سمعهما صوت الباب وتشعران بعودة زوجيهما حتّى تتوقّفا نهائيًّا عن الشجار وتذهب كلّ واحدة إلى عملها وكأنّ شيئًا لم يكن. فرضت الصفعات الكثيرة وضربات العقال الّتي تلقّياها ذلك الاتّفاق غير المعلن بين الحماة خانِهْ وعدوتها اللدود كنتها وابنة أخيها عَيْشه.

- أين لَوَنْدْ وباران؟

سأل الحاج مسلم.

أجاب حَمِه بلهجة غاضبة متّجهًا إلى غرفته دون أن يلتفت إلى والده:

- إلى أين سيذهبان يعني؟ لَوَنْدْ صايع ضايع، أمّا باران فدأبه أن يذهب كلّ جمعة إلى حديقة العشاق عند أشجار الحكومة.

رفع الحاج مسلم يديه إلى السّماء، وقال بصوت لم تسمعه زوجته خانِهْ:

- فليحلّ عليكما غضب من الله. أليس اليوم يوم جمعة؟ لماذا لا تحضران الخطبة؟ لماذا لا تبقيان في البيت لنتناول لقمة مع بعض؟ أيّ نسل لعين بلوتني به يا ربّ؟

ثمّ قال وكأنّه يرى ابنته خديجة للتوّ:

- ها؟ خَجِه أنت هنا؟ مرحبا يا بنتي[3].

أطبق الصّمت على مائدة الغداء. أمّا ولدا حَمِه فقد ذهبا إلى باب الدّار يتفرّجان على السيّارات الّتي تمرّ في الشارع، ثمّ عادا إلى باحة الدّار ليلاحقا قطط الجيران الّتي تستشرس كلّ يوم جمعة حين تفوح رائحة لحوم الدّجاج من كلّ بيوت حارة سَيْدا.

أمّا رَوْشَنْ فنأت عن الجميع بعد أن انتهت من تناول الغداء وجلست في وسط الدّار تحت شمس نيسان تراجع دروسها. كانت سببًا لكثير من الشّجارات بين أمّها وزوجة أخيها عَيْشه، والّتي أصبحت في الفترة الأخيرة شبه يوميّة. صار أخوها الأكبر حَمِه ينضمّ إلى حفلات الشّجار فيؤنّب أمّه، ثمّ يذهب إلى غرفته ليضرب زوجته وأحيانًا يشد رَوْشَنْ من جديلتها قائلًا:

- سأقصّ ذات يوم ذيل الحمار هذا. كلّ هذه المصائب والأفلام من وراء رأسك.

في ذلك اليوم، أثناء الغداء، فاجأ الحاج مسلم ولده حَمِه بالسؤال:

- إلى متى ستبقى تخاصمني؟ البيت بيتك فلماذا تريد أن تنفصل عنّا؟

وضع حَمِه اللّقمة التي هيأها للأكل جانبًا وقال:

- لقد بحثنا هذا الموضوع كثيرًا يا أبي. أريد بكلّ بساطة أن يكون لي بيت مستقلّ. ها هو باران أصبح في سنّ الزواج وسيتزوج. وأنت ترى الشجارات التي تحصل يوميًا بين أمّي وعَيْشه.

- فلتتشاجرا كلّ ساعة ولحظة. النّسوان مثل الدّجاجات. لا تهتمّ لأمرهنّ.

بعد لحظة من الصّمت، تابع الأب:

- في هذا البيت متّسعٌ لنا جميعًا. الحمد لله أنّ أبي المرحوم بنى هذه الدّار الفسيحة ليكون قريبًا من حضرة الشيخ صالح. أبناؤك هم أبنائي وعَيْشه بمثابة بنت من بناتي. ولكن إن كنت مصرًّا على رغبتك بالانفصال عنّا فلك ذلك. وسأدعمك بما يلزمك من مال.

فرحت عَيْشه حين سمعت هذا الكلام فرحًا لا يوصف. قامت إلى المطبخ لتعدّ الشاي للعائلة وتمتمت بينها وبين نفسها: «أخيرًا سأتخلّص من عجوز النحس هذه»، ثمّ نظرت برضا إلى ولديها في باحة الدّار.

لمحت عَيْشه من مكانها في المطبخ باران ولَوَنْدْ يدخلان البيت ممتقعي اللّون والخوف يقطر من وجهيهما.

- خير ما الّذي حدث يا ولديَّ؟ لماذا وجهاكما مصفّران إلى هذه الدرجة؟

سألهما الحاج مسلم حين دخلا الغرفة. لم يستطع لَوَنْدْ أن يجيب فقال باران غاضبًا:

- لا بدّ أن يوقعنا لَوَنْدْ في مشكلة.

ردّ الحاج مسلم:

- لماذا؟ ما الذي اقترفه هذا البغل الصغير؟

- لقد شارك في المظاهرة.

- العمى! أيّ مظاهرة؟

التقط لَوَنْدْ أنفاسه أخيرًا وقال:

- ألم أخبرك يا أبي أنّني وقَهْرَمان سنشارك في المظاهرة! لقد أخبرتك ولم تقل لي شيئًا.

- إي! وما الذي حدث؟ أيّ مظاهرة هذه؟

- لم يحدث شيء يا أبي. كنّا حوالي ثلاثمائة شخص. لاحقتنا المخابرات عند مبنى البريد لكنّها لم تعتقل أحدًا.

رفع الحاج مسلم صوته يؤنّب ولده:

- قل إنّكم كنتم ثلاثمائة حمار. لو كرّرت ما فعلته اليوم فلا تلم إلاّ نفسك. سأقتلع عينيك. ما لنا وللحكومة؟ نحن لا نقدر عليها. ثمّ ألم أقل لك مرارًا لا تصاحب قَهْرَمان الزفت؟

بعدها التفت إلى باران وقال:

- وأنت! ألا تترك هذه الفعال؟ يا بنيّ اليوم يوم جمعة. أبوك، جدّك وأخوالك، كلّنا مريدو الشّيخ صالح. أنا حاج يا باران. أيليق بي أن تصاحب معاقري الخمر وتعزف الموسيقى؟

الفاجعة والربع

توقظني نغمة وصول رسالة عبر الفايبر.

الثلج يتساقط بهدوء. والصباح لا يزال باكرًا في يوم الاثنين الأخير ذاك من شهر كانون الثاني.

- أففف. أف.

أقول متبرمًا بصوت خفيض. أحمل نظّارة القراءة من جانب السرير، وأمعن النّظر في شاشة الآيفون.

إنّها رسالة صوتيّة:

«جانو. لقد مات أخوك يا جان. لقد مات خلّو».

رسالة من تسع كلمات فقط. من تسع طعنات. رسالة قصيرة بصوت مرتعش بعثتها زوجة أخي من إسطنبول.

ولكي أتأكّد من أنّني لست في كابوس أغادر الفراش وأذهب إلى الصالون. أستمع مرّة أخرى إلى الرّسالة الصّوتيّة. لا، ليس كابوسًا. إنّها حقيقة على شكل شجيرة شوك يخرطها المرء براحة يده العارية. لقد مات أخي. أخي الّذي قضّى شهرًا أو نحو شهر في أحد مستشفيات ضاحية أَسَنْلَرْ في إسطنبول مات، ولن يستطيع كتابة قصائد أخرى بعد اليوم.

تشير عقارب السّاعة السوداء المعلّقة على حائط في الصالون إلى الخامسة وأربع عشرة دقيقة صباحًا. إنّها الفاجعة وأربعة عشر جرحًا إذن. الفاجعة والرّبع تقريبًا.

ابنتاي وزوجتي نائمات في أسرّتهن وأنا وحدي مع النبأ الأليم. أنا وحدي مع ألم جديد في هذه الغربة اللّعينة. أنا ونصل خنجر انغرز للتو في صدري نتجاذب الألم بصمت.

مازالت هناك ساعتان لتستيقظ زوجتي وبنتاي من النوم. كيف سأقضّي هاتين السّاعتين لوحدي تنهشني الآلام وتتقلّب روحي على برّيّة شوك الذكريات؟

أعود إلى غرفة النّوم وأحاول أن أوقظ زوجتي. ليس من طبعي أن أوقظ أحدًا من النوم مهما كان. حتّى أثناء خدمتي العسكريّة لم أكن أوقظ رفاقي حين تحين ساعة مناوباتهم، بل كنت أحرس عوضًا عنهم وأدعهم يحلمون.

أعود مرّة أخرى إلى الصالون وأجلس أمام اللابتوب وأفتحه.

أحدّق من خلال النافذة المقابلة لطاولتي إلى نتف الثلج. إنّها تتهاوى ببطء وتهطل بهدوء ونعومة ورقّة وصمت مثل فراشات بيضاء هشّة، على العكس

تمامًا من ذلك النبأ الفاجع الذي لسعني مثل عقرب في ذلك الصباح الباكر. أكتشف من خلال التّحديق في النافذة أنّني لم أسقِ زهرتي الأوركيد، فأنهض لأضع قليلًا من الماء في أصيصيهما وأعود إلى مكاني.

تمـــرّ بضـــع دقـــائق وأنـــا متســـمّر أمـــام اللابتـــوب دون أن أعـــرف لمـــاذا فتحتـــه. ثـــمّ أدرك أنّنـي يجـب أن أبحـث فـي الإنتـرنيت عـن أوّل طـائرة يمكنـها أن تقلنـي مـن مطـار دوسلدورف إلى مطار أتاتورك في إسطنبول. لا أجد مبتغاي لذلك اليوم.

أبحث لمدّة ساعة ونصف في الإنترنيت دون نتيجة.

- ألو توران! صباح الخير. لقد علمت بكلّ شيء. ما الّذي تنوون فعله الآن؟

أقول لصهري المقيم في إسطنبول. فيجيبني بهدوء:

- البقيّة في حياتك خال. سنغادر غدًا صباحًا إلى أورفة. كوباني تحرّرت. سنحاول دفن الجثمان في كوباني وإلاّ سيكون الدفن في أورفة أو سُروج.

- ألا تستطيعون انتظاري؟

- من الأفضل أن نغادر بسرعة. سنغادر غدًا. لقد حجزنا تذاكرنا.

«لن ألتحق بهم». أقول لنفسي بتحسرّ ثمّ أتابع: «الأفضل أن أذهب الآن لأحضر ابنتي أخي المرحوم من مدينة فوبرتال حتّى لا تبقيا وحدهما».

يرنّ جرس منبّه ساعة زوجتي معلنًا السابعة والربع. وحين تدرك أنّني لست في الفراش تأتي إليّ في الصالون وتقول:

- خير يا جان! ماذا تفعل في هذا الصباح الباكر؟ هل استيقظت من زمان؟

- زين.........

تحبس الحشرجةُ صوتي في منتصف الحنجرة. أشعر بحرقة في الحلق، لكن كان لا بدّ أن أضع الحمل الّذي يئنّ قلبي تحته بصمت، لا بدّ أن أخرج تلك الشّوكة من حلقي:

- لقد مات خَلّو يا زين. مات أخي.

* * *

أنـا فـي الطـريق إلـى فوبرتـال. أزيـح بالماسـحتين نتـف الثّلـج الّتـي تتسـاقط علـى واجـهة السـيّارة. دموعـي تتسـاقط أيـضًا. يـداي علـى المقـود. لا أسـتطيع حبـس دموعـي. لا أسـتطيع مسـحها. أكـاد لا أتبـيّن طـريقي بسـببها. الطـريق خاليـة مـن السـيّارات. علـى الجـانبين تنتصـب أشـجار كئيبـة. تبـدو كـأنّها تـرتعش بـردًا. تنظـر بدهشـة إلـيّ

وإلى سيّارتي المسرعة. تتقافز الذّكريات في خيالي بشكل أسرع من سيّارتي.

أخي خَلّو، الشاب اللّطيف، الشاعر الرقيق الذي زرته قبل شهرين في أربيل مات.

أكاد لا أصدق الخبر.

الموت حقيقة تتكرّر يوميًّا، تتكرّر مليارات المرّات، ومع ذلك لا يصدّقها الإنسان ولا يقبلها.

يألف الإنسان كلّ شيء إلاّ الموت.

لم أصدق أنا أيضًا ذلك الصباح موت أخي، ابن أبي وأمّي. صحيح أنّه كان مريضًا، صحيح أنّ أطبّاء كردستان أعلنوا عجزهم عن معالجته، لكنّ الأمل في شفائه لم يكن قد مات بعد.

حاولت كثيرًا أن أجد طريقة يأتي بها إلى ألمانيا للعلاج. باءت محاولاتي كلّها بالفشل كما تذوب نتف الثلج التي تتساقط الآن على واجهة سيّارتي.

كنت قد عدت منذ شهرين من إقليم كردستان. في اليوم الأخير وحين ودّعت أخي، عانقته وهو جالس في فراش المرض. بكينا سويّة. بكينا وكأنّنا نعرف أنّه الوداع الأخير. كأنّه العناق الأخير. نظرت إلى عينيه. وجدت فيهما انكسارًا هائلًا، انكسارًا أعظم من سماء الغربة.

لم أجده يائسًا كئيبًا، صامتًا، خائفًا من الموت كما وجدته في ذلك اليوم. عرفت أنّ أجله يقترب. إنّه مريض، مريض يوشك على الموت.

- لست على ما يرام هنا في أربيل يا أخي. أشتاق إلى كوباني.

قال شقيقي حين زرته في الربيع السابق لموته بمناسبة عيد النيروز. كان يسعل بشدّة، لكنّه يتمتّع ببعض الصّحّة.

- روحي قلقة هنا يا جانو. أعيش هنا حرًّا، لكنّني مع ذلك أشعر بشيء ينقصني. ثمّة فراغ مجهول تعانيه روحي.

- أتريد أن تحدّثني عن وطأة الغربة يا أخي؟ لي أربعة عشر عامًا في بلاد الاغتراب وأعرف هذه المشاعر جيّدًا. اسأل روحي المحترقة عن الفراغ الذي تحدّثني به ستخبرك بما تعانيه.

- هل تعرف؟ لن أجد في الدنيا مكانًا أفضل من حارتنا حارة سَيْدا. لقد أقمت في القامشلي، في حلب، في دمشق وفي إسطنبول. وأقيم منذ عام في أربيل لكنّني لم أجد مدينة تستأنس بها روحي مثل كوباني. سأعود إليها يا جانو. سأعود إليها ولو ملفوفًا بكفن ومحمولًا على الأكتاف.

- بعيد الشرّ عنك يا أخي.

- بعيد أو قريب. ذاك عشُّنا، ترابنا، فلندفن فيه.

ردّ أخي منهيًا الحوار الكئيب محدّقًا في شاشة التلفزيون، ثمّ أجال بصره على الجالسين الصامتين.

* * *

- كوباني تحرّرت.

ترنّ هذه الجملة التي قالها لي صهري توران صباحًا في أذني مثل ناقوس. ترنّ كما لو أنّني أسمعها من جديد.

«تحرّرت كوباني».

بشرى خير لكنّها لا تزيح عنّي كآبة الخبر الفاجع، خبر موت أخي.

«تحرّرت كوباني».

يا إلهي. أصحيح هذا الخبر؟

أركن سيّارتي في مرآب جانبي على الطريق وأتّصل من جديد بتوران:

- توران هذا أنا مرّة أخرى. ألا يمكنم تأجيل سفركم يومًا واحدًا من أجلي؟ لعلّي أستطيع اللّحاق بكم. سأرافق جنازة أخي. ألا تقدرون على إلغاء بطاقاتكم وحجز أخرى جديدة؟

- سنطير الثلاثاء في الصباح الباكر يا خال. لقد نظمنا ورتبنا كلّ شيء ولا نستطيع التأجيل للأسف. لا تأسف خال. نحن موجودون.

أتابع سفري كسير القلب مرّة أخرى. أقود هذه المرّة بسرعة أكبر. أريد أن أصل إلى ابنتي أخي قبل أن يخبرهما أحد بالفاجعة ويصيبهما بصدمة.

يتوقّف الثّلج عن الهطول فينوب عنه مطرٌ خفيفٌ. مطرٌ رذاذٌ يزيد كآبةَ الأشجار على جانبيْ الطريق.

تتماوج الصور والأحداث في خيالي. أتذكّر من جديد زيارتيَّ إلى كردستان في الربيع والخريف الماضيين.

في زيارتي الأخيرة خريفًا، جلست بجانب سرير أخي أنظر إلى وجهه الشّاحب بصمت.

- لقد تآكلت رئتاه. لكنّه لا يريد زيارة الطبيب. يقول اتركوني وشأني.

يهمس لي ابن أختي المهندس الّذي التجأ إلى إقليم كردستان قبل احتلال كوباني بعد أن رأى خاله مطبقًا عينيه.

- وما الحلّ؟ لا يجوز تركه في عناده.

- مرضه خطير يا خال. لقد قضى التدخين على رئتيه. ألا تراه! لا يقدر حتّى على شرب الماء.

سرت همهماتنا التي حرصنا على أن تكون خفيضة في الغرفة المظلمة على ضوء شموع قليلة. وضعت زوجة أخي طبق الشاي أمامنا، ثمّ قالت:

- فجأة مرض خلّو. صار يذوب يومًا بعد يوم مثل هذه الشموع. لقد أثّرت فيه أحداث كوباني كثيرًا. حين احتلّت داعش المدينة بكى كالنساء. كان يشاهد الصور في التلفزيون ويبكي. هو يقول لقد انتهت كوباني.

- نعم. كوباني انتهت.

فتح أخي عينيه ونطق جملته تلك بصعوبة بالغة. حاول أن يستوي جالسًا ففشل. اتكّأ بكوعه على الوسادة، أطبق عينيه وقال:

- عودتنا سالمين إلى كوباني صارت حلمًا. كوباني التي نعرفها انتهت. انتهت حارة سَيْدا. ها قد تشتّتنا. صرنا حفنة حُمُّصٍ رماها مجنون على صخرة. لا أحد يقدر الآن على جمع هذه الحبّات المتناثرة في كلّ مكان. لا أحد. لقد انقطع خيط مسبحة العائلة. انتهى كلّ شيء. انتهينا يا جانو.

استطعت رغم ضوء الشموع الخافت مشاهدة دمعتين شفافتين تنحدران على وجهه الذي بدا أكثر شحوبًا في تلك اللحظة.

* * *

بعد ساعة ونصف أصل بصحبة ابنتي أخي إلى مدينة بوخوم حيث أسكن. حاولت في الطريق أن أبدو عاديًا. لم تنتبها إلى حصول مكروه. وأين لهما أن تحسّا بشيء غير طبيعي؟ طوال الطريق كنت أمازحهما حتّى إنّني وضعت قرص سي دي بصوت المغني مظهر خالقي واستمعنا سويّة إلى أغانيه الشّجيّة.

اشتدّ هطول المطر ولم تستطع الماسحتان الأماميتان درأ خيوط الماء عن زجاج واجهة السيّارة. بدت ابنتا أخي سعيدتين، غير عالمتين بما تخبّئه لهما الساعات المقبلة من حزن.

نصل إلى البيت.

زوجتي في العمل وابنتاي في المدرسة. لا أعرف كيف أفاتح ابنتيْ أخي بموضوع وفاة والدهما. تلزمني شجاعة كبيرة.

أتذكّر ذلك اليوم حين أنبأت أخي خلو بوفاة أحد أبناء أختي. كان بصحبة بعض الأصدقاء قرب السكّة الحديد، قريبًا من بساتين الحاج رشاد. ركضت إليه بعد

سماعي النّبأ وصحت من بعيد حين لمحته:

- لقد مات توفيق يا أخي.

هكذا، من دون مقدّمات. نبأ جافّ.

فاجأني ببرودته. واساني قائلًا: «مات. لقد ارتاح. ما الذي نستطيع فعله؟».

لم ترث عنه ابنتاه تلك البرودة. أستجمع كلّ شجاعتي وأقول بصوت مرتعش حزين:

- العمر لكما. لقد مات أبوكما.

تتحوّل بنتا أخي، خاصّة الصغرى، إلى نار لا تخمد بالرغم من محاولاتي تهدئتهما. كيف؟ لماذا؟ متى؟ أين؟ أسئلة لا أعرف كيف أجيب عنها في ذلك الصّباح الحزين.

الموت عادة كريهة يجب أن نتخلّص منها. كثيرًا ما قرأت هذه الجملة لأحد أصدقائي الشعراء. نعم الموت عادة كريهة جدًا يمارسها في الأخير جميع النّاس، لكنّنا لن نتخلّص منها مهما حاولنا.

يستغرق الأمر ساعتين كاملتين حتّى يبرد حرُّ قلبيهما قليلًا.

عليّ أن أطير إلى إسطنبول لحضور العزاء هناك. بنتا أخي لا تستطيعان. هما لاجئتان جديدتان ولم تحصلا على الإقامة بعد.

أحجز لنفسي تذكرة لليوم التّالي على الخطوط التركيّة، في الصباح أطير متجهًا إلى إسطنبول.

* * *

طوال الرحلة إلى إسطنبول، والتي امتدت ثلاث ساعات وعشرين دقيقة يدور شريط الذكريات في مخيّلتي مثل فيلم سينمائي. فالآلام، بعكس المسرات، تحفز الذاكرة وما التذكّر إلاّ تعويضٌ عن الألم الطارئ ومحاولةٌ لاسترجاع زمن سعيد. يحاول الخيالُ نقلَ المرء على جناحيه من واقع تعيس إلى ماضٍ بهيج بعكس حالة المرء حين يكون سعيدًا مبتهجًا. ففي تلك الحالة يبدو المرءً كأنّه بلا ذاكرة فيستغرق في سروره خوفًا من فقدان تلك اللّحظات التي لن يعوضه عنها سوى التذكّر حين لا يفيد التذكّر.

يعود بي الخيال الذي استفزّه الألم إلى ذكرياتي مع أخي في كوباني، حلب، إسطنبول، أربيل، إلى السّياسة، قراءة الشعر، الجزيري، أحمد خاني، تولستوي، نيقولاي غوغول ومعطفه، الإلياذة، دانتي، جريدة هاوار وجلادت بدرخان والعشرات بل المئات من عناوين الكتب والمؤلّفين الذين أدخلني، هو وشقيقي الأكبر منه، إلى عوالمهم الجميلة.

عـلّمني خـلّو القـراءة والكتابـة بالأبجـديّة الكـرديّة اللاتـينيّة، فأصـبحت بفضـل ذلـك محـرّرًا فـي أوّل مجـلّة أدبـيّة كرديّة ملوّنـة فـي سـوريا تُورَفان أي الأديـب أشـرفنا أنـا ودلبخوين دارا وهو أحد زملائي على طباعتها ونشرها سرًّا من حي الشيخ مقصود بحلب في منتصف ثمانينيات القرن العشرين. علّمني أخي الشطرنج والتأنّق في الملبس أيضًا، أرشدني إلى فخامة موسيقى الجاز الأمريكيّة، دلّني إلى دروب البهجة في أغاني البوني إم والارتعاشات العذبة في صوت ديميس روسوس، جعلني ألمس الحرير الأندلسيّ في صوت خوليو إغليسياس وأشمّ أنسام فجر بحيرة كلير يعبق بها صوت ديانا روس. علّمني خلّو إصلاح الساعات، وحرّضني على هدم ما جعله الزمن حقائق لا تقبل النقاش.

يستقبلني أهلي في المطار. أهلي الّذين لم ألتق بهم منذ أربعة عشر عامًا، أهلي الّذين كنت أعدهم على الدوام بأنّني سأعود وأزورهم في حارة سَيْدا، أهلي الّذين تدمّرت بيوتهم وحارتهم ومدينتهم وقلوبهم، أهلي الّذين احترقت أعشاشهم فهرب كلّ طائر إلى جهة. يستقبلني أولئك الأهل الحزانى مثلي بوجوم. لا نتكلّم. لا يُحدّث أحدٌ أحدًا. نتعانق بصمت ونبكي.

* * *

في أَسَنْلَرْ، قريبًا من مستشفى أوزَل غوناي هاستانه سي، حيث عولج أخي خلّو ثمّ لفظ أنفاسه بعد أقل من شهر، اجتمعنا في بيت أخي سعيد الذي طال الدمار بيتـه فـي كوبـاني بـالكامل، كلـنّا نبكـي: إخوتـي وأخواتـي الـلّواتي تشـرّدن فـي المـهجر ودمّرت الحـربُ منازلـهنّ. إنّه لـيس بكـاء علـى فقـدان شـقيق وحسـب. نحـن نبكـي وطـنًا فقدناه، نرثي ذاكرة في طريقها إلى النّسيان. الآن ندرك أن الغربة صارت تلمّ شملنا بدل الوطن. الآن ندرك أنّنا لن نجتمع بعدُ إلاّ في المصائب.

رقّقت الغربة قلوبنا، حوَّلنا تشرّدُنا وبعدنا عن بلدنا وبيوتنا الخالية المدمّرة إلى ما يشبه جرحًا حديث العهد ينزُّ بمجرّد أن تلامسه أنامل الريح.

بعد موجة بكاء جماعيّة، ننتبه إلى أنّنا لم نتبادل التّحيّة ولا سأل أحد عن أحوال أحد. وما الذي سيسأله أحدنا من الآخر؟ أخٌ مات غريبًا. نزح عن كوباني ومرض في أربيل ثمّ مات في إسطنبول بعد أن بقي في الغيبوبة بضعة أيّام. وأخوات تدمّرت بيوتهن وصرن لاجئات غريبات في مدن غريبة. كوباني، عشنا الّذي كنّا نأمل في العودة إليه بعد طول غياب، ذاب كدمية ثلج على وهج القنابل. لكنّنا، ومع كلّ الغصّة التي في حلوقنا والمرارة التي في أفواهنا، نجد فرصة لنتبادل الحديث:

- الحمد لله فقد تحرّرت كوباني الآن. سيتمّ دفنه هناك.

- هذه نعمة من الله.

- حظّه جيّد. فلو أنه مات قبل أسبوع لوجب علينا أن ندفنه هنا في إسطنبول أو ننقل جثمانه إلى أربيل.

إنّه نوع من العزاء أن يُدفن المرء في وطنه.

أتذكّر عملي في إحدى مقابر مدينة هِرْنه في ألمانيا. كنت أنظر بخوف إلى شواهد القبور والأسماء الأجنبيّة المحفورة عليها. صرت أتخيّل أنّ المرء لو دفن بين هذه القبور فسيكون قبره غريبًا مثله. سيكون ميتًا غريبًا. ستعاني روحه أيضًا الغربة. إنّ الموت في الغربة غُربة إضافيّة. ولولا ذلك لما رأينا كثيرًا من النّاس يوصون بدفنهم في مساقط رؤوسهم، مع أنّهم يعرفون تمامًا أنّه لن يكون لهم إحساس بوجودهم بعد الموت.

أنا في إسطنبول. أجلس وسط حلقة من أخواتي الحنونات. يُحطن بي كما لو أنّهن يخشين فقدي.

يمضي نصف اللّيل. نقترب من الفجر ونحن نزجي الوقت في استعادة حياتنا الماضية السعيدة. استعدنا كلّ ما هو جميل لعلّنا نمحو أثر الحزن من قلوبنا، فالذكريات الجميلة مكانسُ يزيح بها الخيال ألم الواقع.

أخيرًا يصل توران وأخي سعيد اللّذان رافقا الجثمان إلى كوباني.

ننخرط في البكاء من جديد.

بعد هنيهة، وحين تهدأ موجة البكاء الثّانية، يخرج صهري توران هاتفه النقّال ويريني صور التّشييع والمشيعين. يريني صور كوباني المدمّرة الذبيحة والقبر الكئيب الذي دفن فيه أخي على عجل.

إنّه فجر بارد صامت تتخلّله أصوات سيّارات في الشارع وجلبة غير مفهومة. السّاعة تقترب من الخامسة والربع. ريح عاصفة تبدّد صمت الفجر.

- خالو، هذا هو جارك أحمد حَيْدو وهذا عَفْدو كوسي وهذا أخوه سَمْعو. وهذا هو صديقك الدكتور عز الدين تمو وهذا هو ابن أختك حمُّودى وهذا الخال سعيد و...

أسهو عن شرح توران. لا أرى الصّور الّتي يريني‌ها، لا أسمع نشيج أخواتي المُرَّ. ولا أسمع صفير تلك الريح الإسطنبوليّة الغاضبة. أهوي في بحيرة سكون عميقة.

أغوص وأغوص. أشعر بأنّ روحي تنفصل عنّي مثل طائر خفيف الحركة. تغادر روحي قفصَ الجسد، تعبر وترتفع حتّى سطح البحيرة وتهرب، أراها تطير وتطير متخفّفة من كلّ ثقل لا تأبه بشيء حتّى تصل في لحظات قليلة إلى المقبرة الغربيّة في كوباني.

حَمْزِراقْ المهاجر

هرب حَمْزِراقْ في ليلة ظلماء باردة مع أمّه وأخواته من قارص إلى أَلْعَزيز وعمره ستة عشر عامًا. وألعزيز مدينة يذكرها المؤرّخون المسلمون باسم معمورة العزيز.

وقد نشبت في تلك الأصقاع حرب هائلة بين الروس والعثمانيّين وانهزم الأخيرون شرّ هزيمة بعد أن قضى عشرات الألوف من جنودهم بردًا في معركة ساري قاميش قريبًا من نهاية الحرب العالميّة الأولى.

كما في جميع الحروب ومثل كثير من العائلات الكرديّة في قارص تفرّقت بسبب الحرب عائلة حَمْزِراقْ أيضًا. توجّه قسم منها إلى القفقاس، وقسم ولّى وجهه صوب حدود إيران والعراق، بينما انحدر قسم آخر جنوبًا. لم يعلم حَمْزِراقْ الفتى بعد هروبه بمكان أبيه ولا أعمامه ولا أخواله. ألحّت عليه أمّه بأن يهرب لئلاّ تسوقه السلطات العثمانيّة شأنه شأن الكثيرين إلى ميادين الحرب.

وحين اندلعت انتفاضة الشيخ سعيد بيران في عام 1925 بلغ عمره الحادية والعشرين. رمى حَمْزِراقْ الشاب بنفسه في أتون الانتفاضة كالآلاف من أترابه. وقعت أمّه ضحيّة مرض عضال، تزوّجت أخواته، وأخمدت تركيا الانتفاضة.

ترك حَمْزِراقْ والدته المريضة وأخواته وراءه، وانحدر جنوبًا مرّة أخرى. لم يستطع البقاء ضمن حدود الجمهوريّة الناشئة خشية المخبرين والجواسيس وهربًا من حبل المشنقة. هرب من ألعزيز إلى ملاطية ومن هناك إلى آديَمَان ثمّ أورفة. ومن أورفة يمّم وجهه شطر الجنوب في خطّ مستقيم لعلمه أن ثمّة سكّة حديد هي الحدود التي تفصل تركيا عن مناطق الانتداب الفرنسيّ في سوريا. لقد سمع أنّ كثيرًا من المحكومين يهربون بالقطارات إلى سوريا. يستقلّونها في تركيا ثمّ يقفزون منها أنّى سنحت لهم الفرصة بذلك إلى الجانب الآخر. مشى يومًا وليلة حتّى وصل مع الفجر إلى قرية آقجة، القرية التّركيّة المقابلة لقرية تل أبيض في الجانب الآخر من الحدود. شاهد من بعيد في تلك القرية محطّة كانت تتوقّف فيها القطارات القادمة من جهات عنتاب وحلب وجرابلس من الغرب، وكذلك القادمة من نصيبين وماردين ورأس العين وغيرها من جهة الشرق.

اقترب حَمْزِراقْ رويدًا رويدًا وبوجل شديد من المحطّة. رأى في عتمة الفجر قطارًا يغادرها إلى الشرق. فندب حظّه وكاد يركض وراء القطار ليلحق به، لكنّه توقّف منتظرًا قطارًا آخر. بعد ساعة سمع صافرة قطار قادم من الشّرق هذه المرّة. هدأت حركة القطار القادم من نصيبين قبل الوقوف في

المحـطّة، فوجـدها حَمْزِراقْ فرصة سانحة ليقفز إلى إحدى العربات. لم يعرف حَمْزِراقْ أيضًا كيف واتته الشجاعة في ذلك الصباح ليجلس في أحد المقاعد الفارغة كأي راكب عادي. لم يطل تـوقّف القطـار فـي المحـطّة، بـل غـادرها بعـد عشـر دقـائق مواصـلًا سـيره إلـى الغـرب. وبعـد ربـع سـاعة مـن المسـير لمـح حَمْزِراقْ مفتـش التـذاكر فأخـذ يتـهيّأ لتقـديم أعـذار مقبولة كأن يدّعي مثلًا أنه نسي تذكّرته في البيت أو أضاعها، لكنّه رأى بعد ذلك جنديًّا متنكّبًا بندقيّته يتبع المفتش. صار الوضع الآن خطرًا. إن بقي في مقعده ربما يتمّ إلقاء القبض عليه وأخذه إلى أقرب محكمة من محاكم الاستقلال ليحكم عليه بالإعدام ويُشنق فورًا. لم يكن عنده مجال كثير ليفكّر. رأى في الجندي القادم برفقة المفتش موتًا يتحرّك نحوه. هبّ واقفًا وانسحب إلى الخلف. تراجع عربة عربة وهو ينظر خلفه. كانت العربات مكتظّة فطال التّفتيش عن التّذاكر. مضت ثلاثة أرباع السّاعة وهو خائف مترقّب يتراجع رويدًا رويدًا حتّى لا يلفت الأنظار. فجأة هدأت حركة القطار. عرف أنّه يقترب من محطّة ما. لم يعرف ما هي. سأل أحد الجالسين عن المحطّة القادمة فأجاب: «بعد عشر دقائق سنصل إلى عَرَبْ بينار» وهو الاسم التركي الموازي لاسم كانيا عَرَبانْ الكرديّ وفيما بعد عين العرب بعد تعريب الاسم ليبقى كوباني الاسم الأشهر.

تنفّس حَمْزِراقْ الصعداء، اقترب من أحد الأبواب. لكن في هذه اللّحظة دخل الجنديُّ برفقة المفتّش المقصورةَ التي يقف حَمْزِراقْ عند بابها. كاد يفقد الحيلة بسبب المفـاجأة. لـم يبـق ثـمّة مجـال أمامـه إلاّ الـهرب. وفـي حركـة خاطفـة لـم تلفـت إليـه انتبـاه أحـد فتـح حَمْزِراقْ البـاب. نظر أسـفل قـدميه فـرأى الأرض المزروعـة بالأشـواك والحصى الصغيرة تمرّ كأنّها فخاخ موت. لكنّه لم يأبه بذلك بل رمى نفسه في لمح البصر إلى الجانب الجنوبي وصار يتقلّب على الأرض وسط دهشة الركاب والجنديّ والمفتش. سدّد إليه الجندي فوهة بندقيته بعد أن أدرك أنّه فتى هارب وأخذ يطلق النار. لكن القطار ابتعد فيما نهض حَمْزِراقْ واقفًا وأخذ يهرب صوب أشجار الدلب والحور والتوت حتّى اختفى بينها والرّصاصات تئزّ من حوله.

حين اختفى القطار وتوقّف أخيرًا في محطة عرب بينار، اختفى حَمْزِراقْ أيضًا بين الأشجار بعيدًا عن الحدود. نظر خلفه. لم يرَ شيئًا سوى نجمة القطب وجاراتها.

ولـم يسـمع سـوى نبـاح كـلاب القـرى القريبـة وخشـخشة الأشـجار التـي تـداعبها أنسـام ذلـك الفجـر والتـي سـترته عـن الأعـين وكـأنّها تحـدّثه وتـرحّب بقـدومه وبنجاتـه.

حدثه قلبه أيضًا:

- لا عودة بعد الآن.

كاد يبكي.

- الرجال لا يبكون يا محمد، يا حَمْزِراقْ؟ ماذا جرى لك؟ أنت قادم من بين نيران انتفاضة عارمة. أليس من العار أن تدمع عيناك؟

قال لنفسه وهو يتّجه غربًا.

ملأ هواء ذلك الفجر البارد رئتيه كطفل ولد للتوّ لكنّه لم يصرخ. كان ذلك هواء الحرّيّة والولادة الجديدة. هواء الغربة استنشقه القادم لتوه بمحض الصدفة إلى أرض غريبة لا يعرفها.

* * *

هرب كثيرون مثله من مناطق سَرْحَدان على حدود الإمبراطوريّة الروسيّة شمال شرقي بلاد العثمانيين إلى جنوب السكّة الحديد حيث يحكم الفرنسيون أعداء الترك. أطلق عليهم السكّان المحلّيّون من أبناء القبائل اسم «مهاجر». وقد وصل بعضهم من أيّام النّفي الأوّل خلال الحرب العالميّة الأولى حين هرب أبناء القبائل السَرْحَديّة في كلّ اتّجاه، ثمّ تبعتهم موجة ثانية بعد عشر سنوات حين فشلت انتفاضة الشيخ سعيد بيران ضدّ الجمهوريّة التركيّة.

كان حَمْزِراقْ رجلًا محبًّا للعمل لا يعيش إلاّ من عرق جبينه وكسب يده. وكان له، قبل أن تندلع الانتفاضة، حانوتٌ صغير في بلدة ألعزيز يرتزق منه ويكسب قوت أمّه وأخواته. واستطاع أن يوفّر من عمله نقودًا لأيّامه السود حيث اصطحبها معه في رحلة هروبه.

بتلك النقود التي وفّرها وبمساعدة مهاجرين آخرين بنى بيتًا بالقرب من غدير قرية مرشد بينار. بعد ذلك بمدة أنشأ حانوتًا صغيرًا في تلك القرية وصار بين حين وآخر ينزل إلى البلدة المولودة حديثًا والتي أسموها كوباني. كان الأرمن الّذين هربوا أيضًا قبل عشر سنوات من المذابح التي ارتكبها الاتحاديون الترك بحقّهم يسكنون في مركز البلدة ولهم فيه بيوت عامرة وحوانيت كثيرة ومدرسة وكنيسة.

دأب حَمْزِراقْ على شراء ما يلزم لحانوته من البضاعة من أرمن المدينة. كان من العيب أنَ ينشئ أبناء العشائر البرازيّة حوانيت ودكاكين بسبب احتقارهم لأصحاب المهن والصناعات اليدويّة. ولم يقتصر الأمر على عشائر البرازان القاطنة في سهل سروج والرها وحرّان وحدها بل نفرت جميع عشائر الكرد وفي كلّ مكان تقريبًا من المهن والحوانيت وحتّى الزراعة والفلاحة، فكان الأرمن والكلدان واليهود وبعض أبناء الشرائح الدنيا من المجتمع الكرديّ هم الذين يقومون بأعباء تجارة البضائع واحتراف صناعات كالحدادة والنجارة والخياطة وتبييض الأواني والبيطرة وغيرها.

صار حَمْزِراقْ يشتري من التّجار الأرمن فتائل المصابيح، دهن السراج، زجاج المصابيح، الإبر، المسلاّت، المغازل، الخيوط وغير ذلك مما يحتاجه النّاس ويبيعه بعد ذلك في حانوته الصغير في القرية.

ورويـدًا رويـدًا تحسّنـت أوضـاعه المـادّيّة وازدهـرت تجارتـه مـع تـوسّع البلـدة الصـغيرة وقـدوم كثـير مـن أبنـاء القبـائل الضـاربة فـي البـرّيّة جنـوبًا وغـربًا للاسـتقرار وبنـاء مساكن حسب التّخطيط الفرنسيّ للبلدة.

لكنّ أوضاعه الجديدة لم تنسه والدته المريضة ولا أخواته، لم تنسه تجارته المزدهرةُ قارص وألعزيز وملاعب طفولته ومدارج الشباب. صار يصعد بين فترة وأخرى إلى سطح منزله وينظر في اتّجاه الشمال، ثمّ يغمض عينيه ويبقى صامتًا يبكي بقلبه.

تدحرجت السّنوات دون أن تخمد جذوة حنينه إلى موطنه. صار يتذكّر والدته كثيرًا حتّى إنّه بات يؤنّب نفسه مخاطبًا إيّاها بصوت مسموع أحيانًا: «لو لم تكن ولدًا عاقًا لما تركت تلك المرأة المسكينة في تلك الحال لتنجو بجلدك. مِمَّ هربت؟ أمن المشانق؟ وهل أنت أفضل من الشيخ سعيد ورفاقه؟ أليست هذه الغربة مشنقة تتدلّى منها كلّ لحظة!».

أضـناه الشـوق إلـى الأمـاكن الّتـي ألفـها فـي موطنـه. صـار يتـذكّر بـحزن شـديد جبـل هَزار، الجبـل الأبـيض، نـهر مراد وتلـك السـهول والأنـهر والوديـان والغـابات. قادتـه الخيالات إلى أشهر الحرّيّة الثلاثة الّتي عاشها في ألعزيز عقب انتفاضة الشيخ سعيد. أصبحت ألعزيز منذ نهاية شهر شباط حتّى بداية شهر حزيران من عام ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين إحدى البلدات التي وقعت في قبضة أتباع الشيخ سعيد من الثّائرين الّذين كان حَمْزِراقْ واحدًا منهم. لقد أنساه طعم الحرّيّة الّتي ذاقها هناك حتّى مسقط رأسه مدينة قارص. «موطنك هو حيث تعيش حرًّا»، كان يقول لنفسه مغتبطًا.

حين شاع خبر وقوع الشيخ سعيد أسيرًا بيد الجيش التّركيّ هرب كثير من أتباعه كلٌّ في اتّجاه. أصدرت سلطات أنقرة حكمًا غيابيًّا بالإعدام على كلّ من اشترك في الانتفاضة. «الهرب من الموت ليس جبنًا». كرّرت والدته هذه الجملة على مسامعه عشرات المرّات لكي ينفذ بجلده. هرب الكثيرون صوب الجنوب خاصّةً، صوب حدود رسمها سايكس وبيكو بقلمٍ حبرُه دماء النّاس وبمسطرة قُدَّتْ من عظامهم ولجؤوا إلى ذويهم ومعارفهم القاطنين جنوبي سكّة الحديد.

في نهاية الأمر وبإلحاح من والدته، هرب حَمْزِراقْ أيضًا وولّى وجهه شطر الجنوب.

* * *

حينذاك كانت كوباني في بداية نشوئها، تتحوّل إلى مدينة. جاء من القرى المحيطة بها من يستوطن فيها ويستعمرها. من الشّرق قرية كانيا عَرَبانْ «عين العرب»، ومن الغرب قرية كانيا مُرْشدى «مُرْشِدْبينار»، وفي الوسط كوباني الوليدة حديثًا صارت تقترب بعضها من بعض. بنى الفرنسيون سراي الحكومة والمخفر ببرجيه الشمالي والجنوبي، أنشؤوا الريجي أو دائرة حصر التبغ والتنباك، بنوا المدارس وشقّوا الشوارع في المدينة ورصفوها بالحجارة السّوداء في المركز. لكنّهم تركوا كلّ شيء وراءهم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، تركوا وراءهم سوريا المتعبة الخارجة من مخاض عسير ورحلوا.

رويدًا رويدًا زحفت قبائل البَرازان على المدينة: كيتكان، شيخان، شدَّادان، بيجان، مَعافان، زِرْواران، عِليدينان، قَرَه گيجان، وغيرها من العشائر والأفخاذ. صار هؤلاء الوافدون لكثرتهم هم أصحاب المدينة حتّى حوصر الأرمن في المركز. ومع ذلك لم يجد أبناء تلك العشائر بدًّا من الذهاب إلى المدارس الّتي أنشأها الأرمن بينما ذهب بعضهم إلى المدرسة ذات الثلاثة طوابق الّتي بناها الفرنسيّون غربي المخفر بحوالي مئتي متر وسُميّت فيما بعد بالمدرسة الريفيّة. كان النّاس وقتذاك يطلقون اسم كانيا عَرَبانْ على مدينتهم. لم يكن اسم كوباني قد شاع بعد. وحتّى حين انتشر الاسم وشاع بين النّاس فقد أطلق في بداية الأمر على مركز المدينة وتقريبًا على محلاّت الأرمن ومناطق سكناهم فقط.

والبرازان قبيلة كرديّة كبيرة وعريقة، ورد ذكرها في كتاب شَرَفْنامَه الّذي ألّفه أمير بدليس المؤرخ شرفخان أواخر القرن السادس عشر حيث قال: إن فرقة بَرازي انقسمت مع سبع فرق أخرى من السليماني التي ينتهي نسب أمرائها إلى مروان الحمار آخر خلفاء بني أميّة. ويضيف الأمير المؤرّخ أنّ المروانيين استطاعوا بعد اشتداد عود العباسيين مغادرة فلسطين بعد أن هربوا إليها في عهد أبي العباس السّفّاح ولجؤوا بقيادة ثلاثة من أولاد مروان إلى ولاية قُلْبْ (كليب) في ديار بكر وسكنوا في وادي الخوخ من أعمال ناحية غزالي. فالتفَّت حولهم عشيرة البانوكي، وعلا شأنهم وفتحوا قلاعًا عديدة وحرّروا قلاعًا أخرى من يد الگرج والأرمن، ولحق بهم معظم المروانيّين المشتّتين في مصر والشام، ثمّ انقسموا إلى ثماني فرق أساسيّة منها فرقة بَرازي.

وورد ذكر هذه الطائفة أيضًا في كتاب الحديقة النّاصريّة في تاريخ وجغرافيا كردستان الّذي ألفه علي أكبر كردستاني بالفارسيّة بعد ثلاثة قرون من تأليف شرفنامه، واعتبرها هذا المؤرخ من الطّوائف الّتي سكنت مدينة سِنَه (سَنَنْدَجْ) الكرديّة عاصمة إمارة بني أردلان في إقليم كردستان إيران. ويقول كردستاني إنّ جدّ البرازية الأكبر هو كَيا صالح الذي أحضره تيمورلنك مع ثلاثة آلاف

عائلـة مـن بـلاد العثمـانيّين ورحَّلـهم إلـى كردسـتان. وهنـاك أسـكن تيمورلنـك قسـمًا منـهم فـي هوبـاتو وقَراتـوره، وقسمًا في منطقة مَريوان حيث ترقَّى بعضٌ من رجال هذه الطائفة إلى منصب نوّاب حكّام كُردستان.

أمـــا ســـبب تســـميتهم بـهذا الاسـم، كمـا يـورده المـؤرّخ الكردسـتاني، فـالمعروف أن بَراز فـي الكرديّة تعنـي الخنزيـر، وبمـا أنّ أفـراد هـذه القبيلـة مشـهورون بالشـجاعة واقتحام صفوف الأعداء مثل الخنازير التي تهجم دون أن ترتدّ على أعقابها، فقد أطلقت عليهم هذه التّسمية حتّى باتوا يفتخرون بها. ويُروى أنه أثناء رحلة صيد قام بها حاكم ولاية كردستان أمان الله خان الكبير اصطاد رجاله خنزيرًا برّيًّا وأتوه به على قيد الحياة. وكان من جملة مرافقي الأمير الكبير أحد أعيان طائفة البرازا وهو الكَدْخُدا جوانْمَرْدْ رقّ قلبه لحال الخنزير الأسير فعرض على أمان الله خان مائة تومان على أن يهبه ذلك الخنزير قائلًا له متضرّعًا: أطلق سراحه مولاي الأمير فإنّ بيننا وبينه نسبًا.

* * *

حاول حَمْزِراقْ المهاجر في تلك الأثناء -هكذا أصبح اسمه ولقبه في كوباني- عدّة مرّات أن يترك بلاد البرازان ويعود إلى موطنه، لكنّه باء بالفشل في كلّ مرّة.

وحين يئس من العودة أصبح يذهب إلى سكّة القطار حيث الحدود، ويبقى هناك ساعات يتأمّل الطّرف الشّماليّ، فيرى قرية عَتْمانَكْ وغيرها، ثمّ يناجي: «ربّاه! تفصلني عن هذه القرى فقط عشر دقائق مشيًا، فلماذا هذه الألغام والأسلاك والحرس؟ هأنذا أسمع قوقأة الدّجاجات وثغاء الخراف هناك، هأنذا أسمع لغط الأطفال وصخبهم. هناك موطني الذي حرمتني من زيارته. أهذا عدل يا ربّي؟». ثمّ يستدرك: «أستغفرك يا الله. اللّهم لا تؤاخذني يا ربّ العالمين».

يمرّ القطار فيحجب عنه الجهة الشماليّة في حين يمدّ له أطفال المسافرين أيديهم ويلوّحون له. أحيانًا كثيرة كان يحلم: «ومن يعرف كيف تسير الأمور؟ ربما يسّر الله لي ذات يوم رؤية إحدى أخواتي أو حتّى والدتي في هذا القطار. بل ربّما رأيت أحدًا من معارفي يقفز من القطار إلى هذه الجهة ليصبح مهاجرًا مثلي».

وفي الحقيقة فقد هرب كثير من النّاس بعد أن استقلّوا القطارات في نصيبين أو غيرها، يجلسون كمسافرين عاديّين، وحين يسير القطار ببطء مقتربًا من إحدى المحطات، يقفزون منه إلى الجهة الجنوبيّة أي سوريّة. لكن حَمْزِراقْ لم يشاهد أحدًا يقفز وعاد في كلّ مرّة خائبًا حزينًا إلى بيته.

حدّث أصدقاءه دائمًا عن العودة إلى دياره، لكنّهم ثنوه عن ذلك وكرّروا كلامهم أنّ كلّ من شارك في انتفاضة الشيخ سعيد محكوم بالإعدام في الجهة الأخرى. لقد أعدم الأتراك في ألعزيز وحدها أربعمائة شخص وزجّوا بمئات آخرين في

السجون. بل أقسم له أحدهم ذات مرّة أنه شاهد اسمه في قائمة «الحكومة» وإلى جانبه مكتوب بالحبر الأحمر: إعدام.

في نهاية الأمر غلب الخوفُ الحنينَ وصار حَمْزِراقْ يتصرّف كما لو أنّه بلا ماضٍ.

مضت الأعوام وازدادت أوضاعه تحسّنًا، فاستطاع أن يشتري حانوتًا في مركز المدينة قريبًا من حوانيت الأرمن في المنطقة الّتي صار النّاس يسمّونها چارْشِي أي السوق.

كان قد بلغ حينذاك أربعين عامًا من عمره دون أن يتزوّج. لم يشأ أحد من أبناء العشائر أن يصاهره. لم يكن أحد يزوّج ابنته من مهاجر. لم يهتمّ النّاس بأصول المهاجرين وعشائرهم الحقيقيّة، لم يعطوا أيّ أهمّيّة لأخلاقهم وطيبتهم وحسن معاملتهم. بات لقب المهاجر لعنة تطوّق أعناقهم. وحين يتقدّم أحدهم لخطبة فتاة، يتفاجأ بأوّل سؤال يُطرح عليه: ما هي عشيرتك؟

اضطرّ المهاجرون أن يتزاوجوا فيما بينهم فأنجبوا مزيدًا من المهاجرين.

لكن حَمْزِراقْ شذَّ عنهم. لم يشأ أن يتزوّج بامرأة من طينته مهاجرة مثله. فكّر في المستقبل البعيد. عرف أن العشيرة الكبرى هي الثروة والمال فصار يبني عشيرته الخاصّة تلك بكده وعرق جبينه. اشترى قطعة أرض قريبًا من كانيا عَرَبانْ، وبنى لنفسه بيتًا جديدًا في مركز المدينة، ثمّ تزوّج من فتاة تنتمي إلى إحدى العشائر البرازيّة بعد أخذ ورد من عائلتها الّتي ما كانت لتزوّج ابنتها من رجل ليس سوى مجرّد مهاجر.

* * *

وضعت خديجة، زوجة حَمْزِراقْ، ولدًا ذكرًا في أوّل ولادة لها. سمّى حَمْزِراقْ ابنه الوليد صالحًا مثل كثيرين من أهل كوباني تيمنا باسم الشيخ صالح النقشبندي الّذي وفد من عامودا في ذلك العام ليقوم بالدّعوة والإرشاد. لم يطل الأمر بالطفل صالح حتّى أصيب بعد عامين بالحصبة، فمات متأثّرًا بها. بعد عام أو أكثر وضعت خديجة ولدًا ذكرًا آخر سموه مُسْلِم وهو اسم دارج في قبائل البَرازية في سهل سُروج وحَرَّان حتّى الرُّها منذ القديم. وقد شاع الاسم تيمّنًا بأحد شيوخ الصوفيّة المشاهير يُدعى الشيخ مَسْلَمَة السروجي الذي دفن جنوبي سروج قبل حوالي ألف عام. ويضيف بعض البرازية لقب «شيخ» إلى الاسم، فيطلقون شيخ مسلم مركّبًا أيضًا على مواليدهم الذكور.

خرج الفرنسيّون بعد ذلك من سوريا، وصار النّاس في كوباني وغيرها يحتفلون فرحًا بجلائهم عن الدّيار. فرح الأكراد الّذين قاتلوا تحت راية القوى الشعبيّة (قواي مللي) وبقيادة الضابط العثماني علي صايب، وخاضوا الحرب في منطقة الرها ضدّ الفرنسيّين. آزر الكردُ الأتراكَ في حربهم ضدّ الفرنسيّين قبل نشوب انتفاضة الشيخ سعيد بخمسة

أعوام، فانضووا تحت لواء علي قليج بيك وهاجموا الفرنسيين المنسحبين من الرها، فقطعوا عليهم طريق الانسحاب وقتلوا الكابتن ساجو.

وكان من الطبيعي أن يحتفلوا بخروج الفرنسيّين من سوريا، فقد ورثوا كراهيّتهم من أيّام العثمانيّين. احتفل الأكراد في السّاحات في مدينة كوباني مرورًا بقرية مِكْتَلَة حتّى قرية شاهينْكْ، وعلت أصوات الطبول في كلّ مكان. يمّم حَمْزِراڤْ، مثل كثيرين آخرين، وجهه صوب أحد الطبول ليتفرّج على الجموع التي عقدت حلقة رقص، فقال بحسرة وألم:

- إيييه! قولوا لي بالله عليكم لماذا قتلتم الضابط الفرنسي ساجو؟ ما الّذي كسبتموه من وراء فعلتكم تلك أيها الحمقى؟ ألم يكن ذلك خدمة أسديتموها للأتراك ومصطفى كمال؟ ألم تشاهدوا كيف التف حبل الجمهوريّة على عنق الشيخ سعيد والدكتور فؤاد وأصحابهما؟ قولوا لي لم هذا الابتهاج أيّها البلهاء؟ ها أنتم ترون أنّكم انتقلتم من ظلال راية غريبة إلى ظلال راية أخرى غريبة فما الذي جنيتموه سوى السراب؟

في سوريا أيضًا قاتل الكردُ الفرنسيّين. ففي صيف عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين نشبت معركة شرسة في قائمقامية بياندور (بهاندور) في الحسكة بين الأكراد والقوات الفرنسيّة، وقتل هناك أيضًا ضابط فرنسيّ يُدعى ريكان. ألَّب التركُ الأكرادَ على الفرنسيّين لمصالحهم الخاصة وحماية حدودهم. رسموا حدود جمهوريّتهم جنوبًا بدماء الكرد الذين خرجوا من مهرجان بناء الدول بخُفَّيْ لوزان. كلّ مافي الأمر أنّهم انتقلوا من عبوديّة إلى أخرى.

* * *

بالرغم من انشغال حَمْزِراڤْ بحانوته وطفله الصغير مسلم وبأمور حياته، فإنّه بقي يعاني آلام البعد ويتذكّر عائلته ومدينته قارص وألعزيز، حتّى لم يعد قادرًا على الاحتمال أكثر ممّا احتمله. وذات صيف انطلق نحو تركيا بجواز سفره السوريّ الجديد، واسمه محمد العزيز حسب السجلات والقيود السوريّة. لم يكن أبوه ولا جدّه يحمل اسم عزيز، لكنّه رشى كاتب النّفوس في سراي الحكومة في كوباني ببضعة قروش، واختار العزيز لقبًا له تذكارًا لمدينة ألعزيز الّتي أصبح فيها ثائرًا تحت لواء الشيخ سعيد.

اتّجه محمد العزيز، أي حَمْزِراڤْ المهاجر، مباشرة من الرها «أورفة» إلى مدينة ألعزيز. مَرَّ من بلدات حلوان وأرغني وغيرهما من القرى والأماكن، وهو ينظر من شبابيك الحافلة الغاصّة بالركاب إلى الطرق والينابيع والسواقي والأنهار والجبال البعيدة. الأماكن هي نفسها حين غادرها. الجبال هي الجبال ذاتها، والأشجار هي عينها تلك الأشجار القديمة. لكنّ النّاس أصبحوا غير النّاس السابقين. استغرب حين رآهم يتحدّثون التركيّة مع علمه أنّهم

كـلّهم أكـراد أقحـاح. كـان جلـيًّا مـن وجوههم ومن أحاديثهم أنهم ليسوا أتراكًا. في عيونهم يسكن رعب هائل مدفون في أعماقها. وتحت تلك القبّعات الّتي يرتدونها استقرّت رؤوس كرديّة ممتلئة قهرًا وانكسارًا.

غمرته موجة حزن. ردّ باختصار شديد على أسئلة الركاب. خشي أن يفشي عن مقصده ووجهته. خشي أن يبوح للركّاب أنّه يسعى بحثًا عن عائلته المفقودة. خشي أن يقول لهم إنّه شجرة تبحث عن جذورها. خشي أن يقول لهم إنّني هربت من بطش الجمهوريّة، ففقدت كلّ شيء وهأنذا عائد لأبحث عمّا فقدته.

بعد ساعة، حين تجاوزت الحافلةُ بلدةَ أرغني، اقتربت من حلوان. قبل مدخل البلدة الصغيرة برزت نقطة تفتيش للجندرمة أوقفت الحافلة.

- انزلوا من الحافلة. هيّا. هيّا بسرعة.

صرخ أحد عناصر الجندرمة بالتركيّة وهو يمدّ رأسه من باب الحافلة القريب من السائق.

نزل الجميع صامتين حابسي أنفاسهم. أطفال ورجال ونساء حملوا هوياتهم بأيديهم ونزلوا. بدا أنّهم متعوّدون على هذا الأمر لذلك اصطفّوا على جانب الطريق في رتل أحادي طويل دون أن يأمرهم أحد بذلك. اتخذ حَمْزِراڤْ أيضًا مكانه خلف أحدهم وهو يحمل جواز سفره بيده.

حين جاء دوره، تكلّم بالعربيّة بضع كلمات، ثمّ قال بتركيّة تعمّد أن يظهرها غير متقنة:

- سياحَتْ، سياحَتْ.

قلَّب العنصر مكفهر الوجه جوازَ السفر في يده، ثمّ أعاده ممتعضًا لحَمْزِراڤْ وهو يركل عجوزًا بقبعة سوداء تحجب رأسه الصغير واقفًا في الرتل بذل وانكسار. في هذه الأثناء انتهى عنصر آخر من الجندرمة من تفتيش الحقائب ومقاعد الحافلة فنزل وقال للسائق: تمام استمر. وسرعان ما تدافع الركّاب إلى مقاعدهم مثل تلاميذ سمعوا قرع جرس الدّخول إلى الصّفوف.

قبـل أن تصـل الحافلـة إلـى سْوِيـرَكْ تكـرّر المشـهد: صـعود عنصـر جنـدرمة مكفـهرّ الوجـه إلـى الحافلـة وزعيقـه طـالبًا نزول جمـيع الـركّاب وبأيـديهم هويّاتـهم. فحـص وتفتيش للحقائبِ والبطاقات الشخصيّة.

في بلدة أَرْغَني، في بلدة مَعْدَنْ وغيرهما من البلدات تكرّر المشهد عينه ونزل الركاب في كلّ مرّة طائعين صامتين، ثمّ صعدوا إلى مقاعدهم دون أن يعلّق أحد على الأمر أو يتذمّر منه. فقد بات جزءًا طبيعيًّا من تفاصيل حياتهم اليوميّة.

* * *

في بلدة ألعزيز الّتي اتّخذها حَمْزِراقْ كنية جديدة له، صادفته تماثيل كثيرة أنَّى ذهب. في كلّ ميدان انتصب تمثال من تماثيل مصطفى كمال. استغرب الكتابة اللاّتينيّة الّتي ملأت أسفل التماثيل وعجت بها الجدران واللافتات المعلّقة في بعض الشوارع. استغرب محادثات النّاس فيما بينهم بالتركيّة. بحث عن رجل يتكلّم الكرديّة فلم يجد. ولمّا يئس في مسعاه اتّخذ سبيله إلى مسجد من المساجد القديمة. صلّى المغرب هناك وجلس. سمع الإمام يدعو بالتركيّة فانهار قلبه. لم يصدّق ما تسمعه أذناه. حتّى الثياب الّتي يرتديها النّاس تبدّلت. لا الكولوس[4] الكرديّ يعتمره النّاس ولا السروال الكرديّ ولا السترة يرتدونها. شاهد الجميعَ يرتدون البناطيل ويعتمرون القبّعات الّتي لم يألفها الكرد في حياتهم. انتظر حتّى يخلو المسجد. شغل نفسه بقضاء السنن ولما آنس من المسجد خلوًا من جميع المصلّين إلاّ الإمام ذهب إليه وخاطبه بالكرديّة:

- بالله عليك يا مولانا قل لي ما الّذي جرى لهذه المدينة؟

نظر إليه الإمام مرتابًا، صمت لبرهة قصيرة، لكنّه سرعان ما أجاب بالكرديّة:

- سبحان الّذي يغيّر ولا يتغيّر. لكن قل لي أوّلًا من أنت ومن أين أنت وإلى أين تريد الذهاب؟

استأنس حَمْزِراقْ بكلام الإمام ذي اللّحية ناصعة البياض والوجه البشوش والصّوت الدافئ الحنون والكرديّة النقيّة، وأيقن أنّه أهل للثقة فروى له نتفًا من سيرته والهدف من قدومه إلى تركيا. صمت الإمام مرّة أخرى، أغمض عينيه ثمّ فتحهما وحدّق في سارية بالمسجد قائلًا:

- يا محمد أفندي فكّر معي: أكان للسقف أن يثبت لولا هذه السارية ؟

- كلاّ يا مولاي. سينهار السّقف من دونها.

- قس على ذلك هذه البلاد. لقد زالت ساريتها وانهار عمودها.

- كيف يا سيدي؟

- أعني أنّهم قضوا على لغة النّاس وزرعوا لغة أخرى على ألسنتهم. أفرغوا قلوبهم من الطمأنينة والأمان، وسكبوا فيها الخوف. أطلقوا ذئاب البغضاء والكراهيّة على خراف القلوب وحرّضوا العشيرة على العشيرة وألّبوا الأخ على أخيه. أغلقوا المضافات ومنعوا المجالس. ما الذي سأسرده لك بعد؟ لقد قضوا علينا يا أخي.

في ذلك المساء تحدّث الإمام للزائر الجديد ما حصل بالبلاد والنّاس بعد القضاء على انتفاضة الشيخ سعيد وكذلك انتفاضة جبل آكري ثمّ ديرسم التي قادها رجل الدّين العلوي الكُرديّ سيد رضا. كان حَمْزِراقْ قد رأى

وسـمع عـن الأهـوال التـي أعقبـت الانتفاضـة، لكـن ما رواه الإمـام كـان شـيئًا لا تصـدّقه العقـول مـن قسـوتها المفرطة. فقد أُحرقت مئات القرى وقُتل الآلاف من الأهالي وتشرّد مئات الألوف واقتلعوا من قراهم وأبعدوا عن ديارهم ونفوا إلى غرب تركيا.

- كيف لي أن أرى وسط هذه الكارثة عائلتي؟ يبدو أنّ الوطن كلّه ضاع يا مولاي لا عائلتي فقط.

قال حَمْزِراڤْ بنبرة حزن عميق. تنهّد الإمام وقال:

- لا تقطع الأمل بربّ العالمين. إنّ الّذي أعاد حضرة النبيّ موسى إلى أمّه وحفظ النبيّ يونس في بطن الحوت بضع سنين لقادر على أن يجمعكم في صعيد واحد.

بقي الاثنان حتّى حلول موعد صلاة العشاء يتجاذبان أطراف المواجع. خلال حديثه الحزين مدّ الإمام يده إلى جهة غير بعيدة لاحت من خلال النافذة. كان ضوء خافت ينشر الحزن على تلك الجهة الّتي وصفها الإمام بنبرة أسى عميقة:

- هناك. هناك في تلك الكربلاء أعدموا سيد رضا.

ثم التزم الصّمت حتّى صلّى العشاء وتفرّق المصلّون كلّهم.

وحين أدرك ألّا أحد بقي معه في المسجد سوى حَمْزِراڤْ قال له:

- أنت اللّيلة ضيفي. سنذهب إلى منزلي لنتناول العشاء ونتحدّث بعضًا من الوقت. وسنرى غدًا صباحًا أيّ باب يفتح الله أمامنا.

وخرجا من المسجد صامتين.

* * *

لـم يعثـر حَمْزِراڤْ علـى أيّ أثـر يقـوده إلـى أهلـه فـي ألـعزيز. لـم يعثـر علـى أيّ شـيء يمـتُّ إلـى ماضـيه فـي تلـك البلـدة، لا اللّغـة ولا الـنّاس ولا صـخب الأطفـال فـي الأزقّة والحارات وهم يتراشقون بالشتائم الكرديّة المزيجة من لهجتي الكُرمانْجْ والزازا، لم تكن مجالس الرجال أمام الحوانيت هي نفسها ولا حلقات النسوة والصبايا اللّواتي تجعلهنّ الثّياب الكرديّة مثل ورود في الحقول تشبه، كما كانت، حلقاتهنّ في زمن مضى ولن يعود.

فقدت المدينة روحها.

فـي الـيوم التّالـي يـمّم حَمْزِراڤْ وجـهه شـطر أرضـروم. تكـرّرت الفجيعـة. لـم يجـد أحـدًا مـن أهلـه هنـاك أيـضًا. التقـى بـأناس يعـرفون أبـاه، لكنّهـم أجمعـوا علـى أنـهم لا يعرفون أين ذهبت عائلته. في قارص

وجد الأمر كما وجده في ألعزيز وأرضروم.

انسحق قلبه.

قارص الّتي قضّى فيها طفولته كلّها لم تكن قارص الّتي عرفها. تغيّرت كلّيًا. حتّى الشمس التي تشرق فيها لم تعد شمس أيّام الطفولة، واللّيل الذي يخيّم على المدينة لم يعد ليل الأيّام الخوالي، والنجوم الّتي تلمع في الليل لم تعد نجوم زمنٍ مضى. التقى أيضًا بأقارب تربطهم به قرابة بعيدة، كانوا بعض أبناء عشيرته، لكنّهم لم يهتمّوا لأمره كثيرًا وتبيّن أنّهم لا يعرفون أمّه ولا أخواته.

مضى شهر عليه في تلك الأصقاع وهو يبحث عن جذوره دون جدوى. انتقل من بلدة إلى أخرى ومن قرية إلى جارتها لكن غادر كلّ مكان ذهب إليه دون أن يعثر على بغيته.

- هذه البلاد لم تعد بلادي. لا أحد يعرفني ولا أعرف أحدًا فيها. لم تعد لي جذور. أنا شجرة معلّقة في الهواء. أنا مهاجر وحسب. سأعود. سأعود إلى كوباني حيث زوجتي وابني. لا طريق آخر.

عاد حَمْزِراقْ المهاجر بقلب محطّم كأنّ زلزالًا وقع فيه، عاد بلا أمل، عاد إلى كوباني حاملًا مأساته كجمرة بين ضلوعه.

* * *

بعد عودته من أرض آبائه وأجداده، تغير حَمْزِراقْ كلّيًّا. لم يعد يرتاد المجالس. صار يجلس في حانوته ويحدِّق إلى الخارج بنظرات لا معنى لها. صار ينسى ردّ التحيّة على زبائنه في كثير من الأحيان. يقفل الحانوت ويعود إلى البيت باكرًا. يشكو في المساء من آلام في صدره، ويقول لزوجته: «إنني أتألم. أتألّم كثيرًا لكنّني لا أعرف سرَّ آلامي».

كان الوقت خريفًا والطقس بدأ يبرد.

ردّت زوجته وهي تخفّف عنه: «لقد أصابك البرد يا حمِهْ. إن أردت يمكنك الذهاب إلى الطبيب. ثمّة طبيب جديد جاء إلى كوباني اسمه مظفّر عبّاسي يقولون إنّه حاذق جدًّا». أجابها حَمْزِراقْ بيأس: «الطبيب هو الله يا امرأة. ما نفع ابن آدم إن لم يكن ربّ العالمين هو المداوي!».

لم يذهب حَمْزِراقْ إلى الطبيب، بل قصد مسجد الشيخ صالح الّذي سمّي جامِي سَيْدا[5]. صار يداوم على الصّلوات الخمس جماعة. أطلق لحيته وجدّد توبته عند الشيخ.

بقي بضعة أيّام على تلك الحالة، فصار لا يأكل إلاّ القليل ولا يتفوه إلاّ بالقليل من الجمل. بات حَمْزِراقْ شمعة تذوب رويدًا رويدًا وتوشك أن تنطفئ.

وذات صباح من بداية سنة 1949 أحضرت زوجته طعام الفطور وانتظرته ليفطر ويذهب إلى عمله.

لم يستيقظ.

ارتفعت الشمس. صعدت رويدًا رويدًا في السماء الّتي زيّنتها الغيوم.

لم يستيقظ.

«اذهب وأيقظ أباك». قالت الزوجة لابنها ذي الأربعة أعوام.

ذهب الولد ونادى أباه: «قم يا أبي. قم. أمّي تقول يجب أن تقوم». لم يردّ. عاد مسلم الصغير يائسًا، ونادى أمّه: «ماما! أبي لا يستيقظ».

أسرعت الأم إلى زوجها. نظرت إليه. كان الزوج قد اختنق وازْرَقَّ وجهه. وضعت يدها على جبينه فوجدته باردًا. انتقلت إلى صدره وراقبت نبض قلبه. كان القلب صامتًا.

رفعت خديجة صوتها بالصراخ. ذهبت إلى منتصف الدّار وصارت تولول.

شموعٌ مدفونة

أنا في المقبرة. أستغرب ولا أصدّق كيف عبرتُ الحدود إلى هنا؟ رائحة الموت تفوح حولي. الصّمت يهيمن على المكان. الصّمت سلطان.

حولي تنتصب شواهد قبور حجريّة صغيرة. كثيرٌ منها بلا أسماء. بعضها مكتوب بالعربيّة وبعضها بالكرديّة. تكاد القبور تكون في مستوى الأرض.

ليست القبور سوى أكوام من التراب الأحمر وشاهدتين، إحداهما في الغرب والأخرى في الشرق. تفوح في الأجواء رائحة نار خامدة ودخان لا أراه.

أنا لوحدي في هذه المقبرة الموحشة. أبحث عن قبر أخي. أقرأ شواهد القبور شاهدة شاهدة. قبور كثيرة هي لشهداء سقطوا في حرب هزَّت الدنيا. أقف أمام قبر صغير. أتمعّن في شاهدته:

الشهيدة الخالدة رَوْشَنْ حَمْزِراڤْ مهاجر (بهار كوباني) ولدت بتاريخ: 1999.9.9 استشهدت بتاريخ: 2014.10.10 لا يبدو الاسم غريبًا. أبتعد بحزن. أقول لنفسي: هي في عمر ابنتي.

بعيدًا عن ذلك القبر أجلس على حجر. أسحب لفافة تبغ من علبة السجائر. لقد تركتُ التدخين منذ سنوات عديدة. فما هذه العلبة ومن أين أتت؟ لا أعرف الجواب. أنظر إلى المقبرة من خلال الدخان الذي أنفثه. المقبرة هادئة، صامتة، حزينة، يتيمة ووحيدة في هذا العراء غربيّ كوباني. أرمي لفافة التّبغ قبل أن أنتهي منها وأسحقها برأس حذائي. أغادر المكان. أبحث عن قبر أخي دون جدوى.

لقد أخبرني صهري أنهم دفنوا أخي في مقبرة غربي المدينة وهأنذا هناك فأين قبر أخي؟ أخاطب نفسي بصوت مسموع: «لقد بلغ بي الحزن مبلغًا عظيمًا. وربما أسأت فهم الموضوع. إذ لماذا يدفنون أخي في المقبرة الغربيّة ونحن لنا مدفن خاصّ بالعائلة في مسجد جدّي في حارة سَيْدا لا يبعد عن هذه المقبرة أكثر من كيلومترين؟ ها؟».

مع لفظة «ها» ألمح معدنًا دائريًا مثل طاسة نصفها في التراب ونصفها بارز. أمعن النظر فإذا هو يلمع، الصباغ الأخضر تقشّر عن بعض أجزاء ذلك المعدن الدائريّ.

- إنه لغم.

أصرخ مرتعبًا وأبتعد، ثمّ أمشي بحذر شديد بين القبور إلى أن أجتازها جميعًا.

أتّجه شرقًا. إلى الحارة الشرقيّة. في كوباني أطلق النّاس على المنطقة المحصورة بين المخفر وحارة سَيْدا حتّى كانيا عَرَبا وگرێ كانى أي تلة النبع،

اسمَ الحارة الشرقيّة.

كما أطلقوا على مركز كوباني اسم «بازار» أي المدينة وهي عبارة عن الدكاكين والسوق المركزي وعيادات الأطباء والصيدليات والبقاليات ومراكز بيع الخضر ومحلاّت الحرفيّين والصّناع.

رويدًا رويدًا أقترب من المنازل.

هل قلت المنازل؟

ما أراه ليس سوى أكوام من الإسمنت المسلّح المتراكم بعضه فوق بعض، وأعداد هائلة من قضبان الحديد الخارجة من بين تلك الأكوام، والحجارة، والوسائد والفرش وألعاب الأطفال والطاولات والكراسي، والأسرة مرميّة بعضها فوق بعض تبدو من بين الأكوام تستغيث وتئنّ تحت وطأة الإسمنت الثقيل. حارات بأكملها تفترش الشارع. أنقاضٌ أنقاض. أصحّح جملتي السابقة:

رويدًا رويدًا أقترب من الأنقاض.

الأنقاض التي تتكلّم الصّمت بطلاقة.

أحيانًا تتناهى إلى سمعي أصوات من بعيد. أصغي إليها بانتباه. هي أصوات درّاجات ناريّة.

وحدها تلك الأصوات علامة وجود حياة بين هذه الأطلال. ما من طائر يطير في السماء. ما من كائن حي يدبّ على الأرض حولي. أنظر إلى السماء. أكاد أصعق!

المئات من الغربان تطير فوقي. لا أرى السماء. السماء التي نعرفها غير موجودة. ليست هناك سوى ما يشبه أسفل قبّة معدنيّة. الغربان تحاول تجاوز تلك القبّة فلا تستطيع. ترتطم أجنحتها بالمعدن فتصدر طنينًا وتسقط الغربان على الأرض لتموت. يمتلئ الجوار بجثث الطيور السوداء.

أهرب فزعًا، أقول لنفسي محاولًا أن أهدّئ روعي:

- إنّه كابوس.

إنّني ألهث. أشعر بالعطش. أهرب عبر الأنقاض. أمرّ من المساجد والدكاكين والبيوت المدمّرة. رعب الألغام مازال يلازمني. لكنّني أسرع في الهرب. أسمع نشيجًا وحشرجة من مكبّرات صوت المساجد. يبدو كأنّ أحدًا يُنحر. المآذن مضطجعة على الأرض كأنّها جثث مرميّة على الأنقاض. إنها أصابع الرب المقطوعة هناك، صامتة ميّتة. وحدها تلك الحشرجة الصادرة عنها تشعرني بأنّ بها رمقًا من الحياة.

ألمح إبريقًا. إنه إبريق وضوء في المسجد الكبير وسط المدينة. يدفعني الظمأ

الشديد إليه. أرفع الإبريق لأشرب. أجده مليئًا بالدم. أرميه من يدي مرتعبًا وأهرب كمن أصابه مسٌّ.

أركض بضع مئات من الأمتار جنوبًا ثمّ أنعطف إلى اليسار، أي إلى الشرق، فأدخل في الشارع الطويل الذي يوصل إلى سراي الحكومة فالمخفر، ثمّ يمتد حتّى حارة سَيْدا ليصل بعدها إلى كانيا عَرَبا.

أركض عبر الدكاكين على طرفي الشارع.

الدكاكين؟

يصحّح خيالي المرعوب العبارة من جديد:

أركض عبر أطلال الدكاكين الجاثمة على طرفي الشارع، وكأنّها تعبت من الوقوف فأرادت أن تستريح فانهارت.

أركض دفعة واحدة من رأس السوق وحتّى حارة سَيْدا. لا أتوقّف.

ومع أن الأنقاض كلّها متشابهة فإنّني أعرف بالحدس أنّني وصلت إلى الشارع الذي يفضي بي إلى حارتي.

لا أستغرب. فأنا حتّى لو عميت، قادرٌ على تمييز حارتي الّتي ولدت فيها وفتحت قلبي فيها أوّل مرّة لأوّل فتاة أعرفها وأرسلت منها أوّل رسالة حب، حارتي الّتي شهدتْ أوّل قبلة لي، أوّل عناق، أوّل دمعة حزن، حارتي الّتي تعلّمت فيها أوّل حرف من الأبجديّة ونطقت فيها أوّل كلمة، خطوت فيها أولى خطواتي، كتبت فيها أولى قصائدي، الحارة التي يضمّ ترابها عظام أبي وأمّي وأخي وأبناء عمومتي وأعمامي وعماتي وجيراني الأقربين، الحارة التي عشت فيها خمسة وثلاثين عامًا من عمري بين الغبار والطين وصخب الحياة والحب والقهر والخوف.

* * *

أنا الآن في رأس الحارة.

ظهري إلى الشّمال ووجهي إلى الجنوب.

خلفي على بعد سبعمائة متر فقط إلى الشمال تقع حدود تركيا. حدود الرعب والألغام: الموت المدفون تحت طبقة رقيقة من التراب. هناك تقع سكّة القطار التي كثيرًا ما تجاوزناها في طفولتنا بمتعة عظيمة ممزوجة بخوف لا حدود له، لنذهب إلى الجهة الأخرى ونجمع اللوز من «أشجار تركيا» ونعود بنفس المتعة الّتي يخالطها الخوف.

أمامي في الجنوب هضبة مِشْتَنُور. تبدو مثل عجوز غاضب. نتبادل النظرات. تؤلمني نظراتها. إنها مليئة بالغضب والأسى. مليئة بحقد مقدّس. أرمقها بدوري بنظرات ملؤها الاعتذار. البيوت التي كانت فيما مضى تتسلّق سفح الهضبة تبدو

الآن مرتمية على الأرض. ميتة. لا حراك فيها ولا حياة.

تحتضن هضبة مِشْتَنُور تلك البيوت المهدّمة مثل أمّ ثكلى تضمّ أطفالها المذبوحين في مجزرة. أكاد أسمع نشيج الهضبة يمرّ كالريح من الحارات الوحيدة.

كانت الهضبة المقدّسة، بضريحها المجهول المبارك وشجرتي توتها المقدّستين، تستقبل كلّ سنة آلاف المحتفلين بعيد النيروز. أطفال بثياب مزركشة، نساء وفتيات في أبــهى الحلــل، شـباب يـدبكون، حلقـات رقـص علـى مـدّ البصـر. الـنّاس يرقصـون ويغـنّون محتفلـين بقـدوم الـربيع وانتـهاء عـهد الطغيـان وبـدء رأس السـنة الكرديّة الجديدة.

ولم يأت الاحتفال بالنّيروز مشرعنًا في الهواء الطلق إلاّ بعد أن سفحت رشاشات حرس القصر الجمهوري دم الشاب سليمان آدي على طريق القصر الرئاسيّ في دمشق في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر آذار عام 1986.

أراد الكرد الاحتفال بالنّيروز في دمشق فمنعتهم السلطات. وللاحتجاج على ذلك ارتفع صوت مجهول من بين الحشود الغفيرة في الغوطة يقول: ع القصر شباب.

توجّهت تلك الحشود الغاضبة إلى القصر. اهتزّت شوارع دمشق من وقع أقدامهم. كان مشهدًا غريبًا لم تعهده العاصمة العرين. لا احتجاج ولا هم يحزنون مذ استلمت ثلّة من الضباط زمام الحياة وتدبير شؤون السياسة في سوريا ربيع عام 1963. سار سليمان القادم إلى دمشق للعمل فيها ومساعدة عائلته الفقيرة مثل غيره من الفقراء في المقدّمة. هتفوا:

- بدنا نيروز بدنا. بدنا نيذروز بدنا.

وإذ تقدّمت الحشود أكثر ممن حرم القصر، هدرت رشاشات المدافعين عنه وانطلقت رصاصات كثيرة أصابت واحدة منها صدر الفتى الغاضب فأردته قتيلًا على الفور.

- بدنا الشهيد بدنا.

تحول الهتاف من طلب للاحتفال بالعيد إلى طلب بجثّة شهيد العيد.

تلوّن النيروز بلون الدّم القاني. صفرةُ النار لقحت حمرةَ الدّم فولدت الحرّيّة.

* * *

لا نيروز بلا نار. لذلك فقد كانت تلك الهضبة، التي أراها الآن أمامي وأنا أستذكر ما حصل قبل حوالي ثلاثين عامًا، تشتعل في ليلة النيروز حتّى تصبح مثل

سيناء، إذ تجلّى فيها الربّ لموسى. شباب مغامرون يصعدون الهضبة، يحرقون عشرات إطارات السيّارات، فترتفع ألسنة اللّهب إلى السماء وتخفق القلوب خوفًا وفرحًا.

لم تكن الهضبة التي أراها أمامي الآن سوى مهبط للسعادة فيما مضى. سعداء كنّا نصعدها ونحن أطفال نتزلّج على الثلج ونتنزّه في الربيع، نطلّ على الدّنيا كلّها.

سعداء كنّا نحتفل على سطحها مرّات كثيرة بنيروز، نرقص، ندبك، نتناول أطايب الطعام، يغني المغنّون وتخفق قلوب الكثيرين لحبّ ولد لتوّه على الهضبة.

شهد النيروز الأوّل الّذي أقامه بعض المغامرين على الهضبة إطلاقَ رصاص وتفريقًا وحشيًّا للمحتفلين. ثمّ أصبح الاحتفال شبه عادي بشروط فرضتها أجهزة الأمن على الأحزاب التي احتكرت نيروز كأنّه بضاعتها الخاصّة، تُنصب المسارح على الهضبة، تأتي بالفرق الفنيّة، تفرض ألوانها وشعاراتها ومسرحيّاتها الرّكيكة دون أن يهمّ النّاس شيء من ذلك سوى التعبير عن فرحهم بقدوم الربيع.

الآن أرى هضبة مِشْتَنُورْ باكية شاكية. لا تجد غير سهل سروج تشكو له همها، لا تجد غير السماء تصغي إليها، لا تجد غير الأنقاض تبكي في حضنها وتنوح.

* * *

يفصلني عن مسجد سَيْدا، أيْ مسجد جدّي الشيخ صالح، حوالي مائة وخمسين مترًا. بيني وبين منزلي مائتا متر لا أكثر.

يا إلهي.

قلبي ينبض بشدّة. أسمع دقّاته تبدّد صمت الحارة. قلقٌ أنا، قطرة مطر على زهرة في يوم ريح. أخطو بضع خطوات. الأنقاض تسد الطرقات حتّى ليخال المرء أنّ زلزالًا عنيفًا ضرب المكان.

المنازل مهدّمة. كتل الإسمنت المسلّح متراكمة بعضها فوق بعض.الأثاث محطّم، النوافذ مكسّرة، الأبواب مخلوعة، واجهات بعض المحلاّت مرميّة بعيدًا، الطوابق العليا تتمدّد الآن وسط الشارع، مدافئ الحمّامات بين الأنقاض، الجدران ليست سوى حجارة متناثرة. سيّارة بيضاء تبدو مغمورة بالأنقاض.

عليّ أن أمشي على مهل بين تلك الأنقاض التي تسدّ الآن طريقي. عليّ أن أنتبه لمواطئ قدمي وأمشي حذرًا. قد تكون ثمّة قنبلة غير منفجرة أو لغم مزروع هنا. الموت والصّمت والخوف ثلاثيّ يبسط سلطته على المكان، يغزو قلبي الّذي يدقّ بعنف أكثر استعدادًا للوصول إلى حارتي المدمّرة.

ينتصر قلبي. ينتصر من دون أدنى مقاومة من الغزاة الثلاثة المرعبين. أتقدّم أكثر. أعرف هذه البيوت بيتًا بيتًا. أراها من بعيد فأقول بلهفة من يكتشف شيئًا

فقده:

ذاك هو بيت جاري الحاج مسلم حَمْزراقْ المهاجر، والمنزل الذي يقابله هو منزل الخالة خَجو الداية التي ولد أغلب أبناَء وبنات الحارة على يديها المقدّستين. ذاك منزل عمي المرحوم مُدرّس اللّغة العربيّة، يليه بيت ابن أختي الّذي يعيش الآن وحيدًا في إسطنبول بعد أن لجأ أبناؤه وزوجته عبر البحر إلى أوروبا. ذاك منزل عمّي الآخر مدرّس الرياضيات المقيم الآن في تركيا، ذاك منزل ابن عمّي الّذي لا أعرف أين هو الآن، وذاك هو بيت صديقي وجاري وأخي في الرّضاعة الّذي قضى نحبه شهيدًا على ذرى جبال بعيدة، أمّه وإخوته الآن في أربيل، ذاك بيت ابن عمي المقيم الآن في الدانمارك، وأبناؤه وزوجته، أي ابنة أختي، في إسطنبول يستعدّون للحاق به ولم الشمل، ذاك بيت أخي المرحوم خلّو، ذاك بيت أختي، ذاك بيت أختي الأخرى، ذاك بيت أخي الذي قضى نحبه في حادث سيّارة منذ سنوات وتقيم زوجته في إسطنبول وابناها في ألمانيا، ذاك بيت أخي الأكبر المقيم حاليًا في إسطنبول وتناثر أبناؤه في كل مكان. ذاك بيت جارنا حيدو، جارنا حج ويس، جارنا بوزان حـج كوسـي، جـارنا حَمْسـيوي، جـارنا حَمْجِنْ، جـارتنا وَرْدِينـه، جـارنا حـج محمـد تـوب إبـرام. ذاك كـان بـيت حَمِه خوجـه، وليسـت البـيوت التـي أعنيـها وأراهـا سـوى أنقاض تمدّدت على الأرض. ولأنّ الجدران تهدّمت فإنّني أرى الشوارع المحيطة أيضًا: ذاك هو بيت أختي التي تقيم الآن في إسطنبول، ذاك بيت جارنا أحمدى كمال، ذاك بيت أمين مامى، وذاك البيت الذي يقع شرقي المسجد، البيت المؤلّف من طابقين والمهدم هو بيت أختي المقيمة حاليًا في أربيل، ذاك بيت ابن عمّي المقيم في مخيّم اللاجئين في علي كور في سروج، ذاك بيت عمي المرحوم شيخ الطريقة النقشبنديّة ملا حسين الّذي توزّع أبناؤه بين دول كثيرة. ذاك بيت أختي المقيمة في ماردين بتركيا، وذاك البيت البعيد المستوي مع الأرض هو بيت أختي القريب من مسجد الشريعة، إنّها أيضًا تقيم في إسطنبول وزوجها في اللاذقيّة وأولادها توزّعوا أيضًا في دول كثيرة، وذاك بيت، وذاك بيت...

كلّ ما أشير إليه أنقاض وذكرى بيوت.

يا إلهي. تستبدّ بي رغبة عارمة أن أذهب إلى كلّ تلك البيوت وأطرق أبوابها.

أبواب؟

وهل بقيت أبوابٌ تُطرق في هذه المدينة المنكوبة؟

لا أبواب ولا جدران تستند إليها الأبواب.

ولا أحد هنا يطرق الأبواب سوى الريح والفاجعة.

حين كنّا أطفالًا صغارًا، كنّا نمارس الشقاوة، فنمرّ باللّيل من أبواب الحارة ونرميها بالحجارة ثمّ نهرب. كنّا نرمي الحجارة حتّى على أبواب بيوتنا. يمنحنا ذلك لذّة

تفـوق الوصـف. تختلـط المتعـة بـالخوف فـيتولّد مزيـج غـريب مـن المشـاعر حـين كـنّا نـراقب مـن زوايـا الشـارع حـيث نختبـئ كـيف أنّ جيراننـا أو آبـاءنا أو إخوتنـا الكبـار أو أمّهاتنا يخرجون رؤوسـهم من الأبواب وينقبون في الظّلام عن زوّار متخيّلين.

لا أبواب الآن. لا أطفال يطرقون الأبواب من بعيد بالحجارة. لا أمّهات ولا أبواب ولا جيران يفتحون الأبواب.

ليس على مدّ البصر سوى الأطلال. الأطلال. الأطلال.

ما من أثر سالم في الحارة سوى مئذنة مسجد جدّي المعدنيّة.

أخطو خطواتي الأولى وأتقدّم.

أمرُّ بجانب بيت صديق المدرسة والطفولة حلمي محمود الملقّب منذ الطفولة هِرمي حِسْنيري. صديقي هذا قتل في تفجير البوّابة الحدوديّة في مرشد بينار وتمزّق أشلاء. أمام بيته أرى جثّة. أتفاجأ.

ليست هذه المرّة الأولى التي أرى فيها جثّة ميت.

في لبنان، وخلال خدمتي العسكريّة في بيروت شاهدت جثث عسكريّين سوريّين مقتولين. شاهدت الدماء التي تلطخ الجدران والأدمغة التي أريقت في الخوذات المعدنيّة. بل شاهدت حتّى الدود ينغل في تلك الأدمغة البشريّة الملتصقة بقعر الخوذات المعدنيّة. بالرغم من ذلك لم أخف.

لكنّني الآن أشعر برهبة. أخاف من هذه الجثّة. لا أعلم لماذا؟

رأس يعلوه شعر أشعث طويل، وجه مكفهرّ تغطّيه لحية غبراء طويلة. أثر دم سال من أذني صاحب الجثة وعينيه لا يزال طريًّا. يغطّي جسمه ثوب فضفاض من الجوخ البنّيّ الخشن الّذي لا يتجاوز الركبتين إلاّ بسنتيمترات فوق سروال قصير. قدماه حافيتان وحذاؤه مرميٌّ بعيدًا عنه: إنّها جثّة داعشي.

جثة لها رائحة وخّازة. أسدّ أنفي. أبتعد عن الجثّة وأقترب من بيت الداية خجو.

لم يبق بيني وبين مقبرة المسجد سوى ثلاثين مترًا.

لم يبق بيني وبين أبي وأمّي سوى حوالي خمسين خطوة.

كنت طوال أربعة عشر عامًا من الغربة أزور في خيالي قبريْ أبي وأمّي. كنت أنتظر عودتي إلى البلاد وأحلم بزيارة حارتي من جديد لأسلّم أوّلًا عليهما ثمّ أزور أخواتي وإخوتي وأقاربي وجيراني. كنت سأعتذر لأبي وأمّي قائلًا بخشوع أمام قبريهما: «عفوك يا أبي، عفوك يا أمّي. لقد تركت روحيكما هنا وهاجرت. تجاوزا عن خيانتي هذه. لا تؤاخذا ابنكما على عقوقه. عفوك يا أبي، عفوك يا أمّي».

كانت حارة سَيْدا نموذجًا فريدًا لا في كوباني وحدها، بل في الدّنيا كلّها. كانت قرية صغيرة داخل مدينة كبيرة. لم تكن تلك الحارة مثل باقي حارات كوباني يسكنها على الأغلب أبناء عشيرة واحدة. بل استقطب جدّي أبناء كلّ العشائر إلى تكيّته النقشبنديّة، والتفّ حوله مريدون من كوباني وقراها من كافة عشائر البَرازيّة. حتّى أنّ عائلات من العرب السّادة الّذين تابوا على يد جدّي سكنوا حارتنا ليبقوا قريبين من شيخهم. الحارة الوحيدة في كوباني التي التقت فيها كلّ العشائر وتجاورت كانت حارتنا الّتي أنا الآن على عتباتها.

الحاج مسلم حَمْزِراقْ

فقد مسلم والده وهو في الرابعة من عمره. لم يكن يفهم الموت ولم يكن يقبله أيضًا. وحتّى حين دفنوا حَمْزِراقْ في قبره وهالوا عليه التراب لم يستطع أيضًا أن يستوعب الحدث. سأل أمّه في المساء: «أين ذهب أبي؟». فأجابته: «سيعود، سيعود يا ولدي لكن ليس الآن»، فسألها: «لماذا لا تخرجونه؟» فردّت عليه بسؤال:

«نخرجه من أين يا ولد؟». «من باطن الأرض يا أماه. من القبر» ردّ مسلم الصغير.

ناب شقيق خديجة، بَصْراوِي، عن زوجها المتوفّى في إدارة الحانوت. لم تهمل خديجة ولدها مسلم ولا أهملت حانوت زوجها وثروته التي أورثها لها ولابنه الصّغير.

أصبحت تذهب كلّ أسبوع إلى شقيقها بصراوي وتحسب معه الغَلَّة لتأتي بقسم منها وتدّخره في البيت ضمانًا لمستقبل ولدها اليتيم.

في ربيع ذلك العام وقع أوّل انقلاب في سوريا. قاد الانقلاب عقيدٌ يُدعى حسني الزعيم. أمّه كرديّةٌ ووالده الشيخ رضا أفندي مفتي الجيش العثماني الذي قضى نحبه في الحرب العالميّة الأولى في مصر. أسند الزعيم بعد نجاح الانقلاب رئاسةَ الوزراء ووزارة الداخليّة إلى خريج السّوربون الحقوقيّ الدكتور محسن البرازي وهو من بَرازيـة حماة الكُرد الذين استقرّوا هناك منذ مائة وعشرين عامًا. أما نائب البرلمان السوري حسني البرازي، وهو أيضًا من برازية حماة، فقد أُسندت إليه محافظة حلب.

لم يعلم النّاس في كوباني بما يجري في دمشق. لم يكن في كوباني سوى قليل من أجهزة الرّاديو أغلبها بيد الأرمن. وحين انتهى الانقلاب الأول بمقتل حسني الزعيم ومحسن البرازي في آب من ذلك العام لم يسمع النّاس بما جرى.

لم يكد ينقضي العام حتّى بثَّت إذاعة دمشق البيان رقم واحد معلنًا انتهاء حكم سامي الحناوي الّذي قضى قبل أشهر على حكم الزعيم. بقي الحناوي في السجن لمدّة ثمّ أطلق سراحه ونفي إلى بيروت ليُقتل هناك على يد هِرْشو البرازي ابن عمّ رئيس الوزراء القتيل محسن البرازي.

في ذلك العام سجّلت خديجة ابنها مسلم في مدرسة ابتدائيّة شمالي مقبرة الأرمن إلى الجنوب الشرقيّ من المخفر. أرادت أن يتعلّم ابنها الكتابة والحساب على الأقل ليتمكّن من إدارة حانوت أبيه واستلامه من يد خاله نهائيًا.

ازدهرت عمليّات البيع في الحانوت ما جعل خديجة تتشاجر دائمًا مع أخيها بصراوي بشأن إيراداته. كان بصراوي قد تزوّج حديثًا وأعلن حاجته إلى المال بسبب الزّواج، وأنّه يأخذ نصيبه من الإيرادات، لكنّ أخته لم تقبل بذلك وحسبت أن أخاها يأخذ أكثر ممّا يستحقّ.

مضت السّنوات والأخت تتشاجر مع أخيها ووالدها لنفس الأسباب، مضت السّنوات والانقلابات تضرب دمشق، مضت السّنوات ومسلم يداوم في المدرسة القريبة حتّى حصل على شهادة الابتدائيّة «السرتفيكا». حدث ذلك في بداية صيف عام ألف وتسعمائة وستّة وخمسين حين نشبت حرب ضروس بين إسرائيل وجارتها اللّدود مصر بدعم من بريطانيا وفرنسا.

عملـت خـديجة الغافلـة عـمّا يجـري مـن معـارك فـي جبـهات بعيـدة حفـلًا صـغيرًا دعـت إليـه جاراتـها ومعارفـها وصـنعت لـهم أطـايب الطعـام والحلويـات فـرحًا بنجـاح ولدها الوحيد، وصارت تتحدّث مع هذه وتلك وكأنّها لا تعرف كيف يتوقّف الإنسان عن الحديث:

- مسلم أصبح رجلًا.

- قولي ما شاء الله.

- وهل سأصيبه بالعين؟ ما شاء الله.

- ما شاء الله. إنّه يشبه والده المرحوم.

- يا خجو ليتك تزوّجينه من الآن حتّى تبقى كنتك طوع أمرك.

- لا يا أختي لا. ليس هذا وقت الزواج. فليذهب أوّلًا إلى العسكريّة.

- عن أيّة عسكريّة تتحدّثين؟ هل جننت؟ أليس الولد وحيدًا لا أخ ولا أخت؟

- تبًا لعقلي. لقد نسيت هذا الأمر والله. وممن سنزوّجه؟

- ابنة خاله بصراوي إيسْلِمْ. إنّها جميلة جدًّا. اخطبيها له.

- إيسْلِمْ ما تزال صغيرة. عمرها ستّة أعوام.

- ولو. ما الضير في ذلك؟ بعد بضع سنوات ستصبح شابّة. البنات مثل البقلة الحمقاء ينبتن بسرعة.

وفعـلًا كبـرت إيـسْلِمْ وصـارت شـابّة بعـد خمـس سـنوات. انفـرط عقـد الوحـدة التـي جمعـت مصـر وسـوريا وتنـفّس الـنّاس الصـعداء بعـد مـا عـانوه مـن مبـاحث المكتـب الثـاني مـن قمـع ورعـب. وقـد تـمّ الإعـلان عـن الوحـدة بـين مصـر وسـوريا قبـل ثلاثـة أعـوام ونصـف مـن ذلـك وصـارت الجمـاهير تخـرج إلـى سـاحة أمـام مبنـى السـراي فـي كوبـاني لتـهتف للجمـهوريّة العـربيّة المتّحـدة التـي يقودهـا الزعـيم الأسـمر

جمـال عبـد الناصـر. نفـس الجمـاهير خـرجت حـين أعْلِن الانفصـال فصـارت تـهتف فـي نفـس الساحة تندّد بذلك الزعيم وتشتم حكم المباحث الذي لم يسلم النّاس من ظلم رجاله بعد إعلان إنشاء أوّل حزب سياسيّ كرديّ عرف تاريخيًا باسم البارتي قبل ستّة أشهر من إعلان الوحدة.

أصبحت إيسلم مكتنزة اللّحم بنهدين مثل كمأتين غِبَّ المطر على وشك الفرار من تحت ثوبها. بدت، بالرغم من صغر سنها، شابة بالغة رشيقة القدّ حلوة جذّابة.

انجذب إليها ابن عمتها مسلم الذي اعتبره أبوها «عريس لقطة» وصار يمنّي نفسه بالـ«بيت وحانوت وثروة». كان كلّ شيء سيسير على ما يرام، فيخطب مسلم ذو الثمانية عشر عامًا ابنة خاله إيسْلْمْ ذات الأحد عشر عامًا لولا أن ابن عم البنت، أي ابن أخي بصراوي وقف في طريقهما.

* * *

بقيت الأمور معلّقة والبنت محيَّرة حتّى التحق حاجِمْ، ابن خال مسلم، بالجيش في عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين ليقضّي عسكريته في قطعة على الجبهة بـين سـوريا وإسـرائيل. نشـبت فـي حزيـران ذلـك العـام حـرب شـعواء وانـهزمت جـيوش الـدول العـربيّة وتـمّ تـدمير الطـائرات الحـربيّة المصـريّة علـى مـدارجها واحتـلّت إسرائيل أراضي واسعة غربًا وشرقًا وشمالًا. قتل الآلاف من الجنود المصريّين والسوريّين والأردنيّين وكان حاجم واحدًا منهم تحوّل في إحدى معارك جبهة الجولان إلى كومة رماد.

لم يأتوا بجثّته إلى كوباني. لم يبق منه سوى متعلّقاته الشخصيّة الّتي جاؤوا بها في حقيبة وسلّموها إلى أهله ذات مساء صيفيّ حزين.

وصلت ذلك الصيف جثث كثير من الجنود من جبهات الحرب إلى عديد من المدن المتّكئة على الحدود شمالًا مع تركيا. تمامًا كما استقبلت المدن التركيّة المقابلة قبل خمسة عشر عامًا جثث جنود أكراد اشتركوا ضمن صفوف الجيش التركيّ في الحرب الكوريّة.

استغرق الحداد على حاجِمْ عامًا كاملًا. كان لزامًا على جميع أفراد العائلة والأقارب أن يلبسوا السواد حتّى إيسلم الصغيرة، كان لزامًا عليهم ألاّ يفرحوا ولا يذهبوا إلى عرس أو حفل سمر ولا يحتفلوا بالأعياد.

وما إن انقضى العام ونزعت النسوة السواد حتّى بادرت أم مسلم ذات يوم وذهبت إلى أخيها لتطلب يد إيسلم لابنها الّذي أصبح في عامه الحادي والعشرين.

انتهت الأمور بسرعة شديدة خشية أن يقوم ابن عم آخر فيقف في طريق زواج

البنت. تزوّج الاثنان وأقيمت لهما حفلة عرس لائقة.

* * *

استلم حزب البعث دفّة الحكم في دمشق في ربيع ألف وتسعمائة وثلاثة وستين. فرح النّاس بالانقلاب البعثيّ فهم مجبولون على حبّ التّغيير. لكنّ التّغيير لا يأتي بالخير دائمًا كما يظنّ النّاس. فقد تبيّن بعد سنوات أنّ اغتصاب السّلطة واحتكارها هو هدف الانقلابيّين الجدد الوحيد. انضمّ النّاس على استحياء إلى هذا الحزب القومي. حتّى إن بعض الأكراد الّذين اكتووا بنار الوحدة ثمّ الانفصال انضموا إلى حزب البعث الذي لم يغيّر سياسة الاضطهاد تجاه الأكراد السوريّين، فأبقى على قانون الإحصاء الذي حُرم بموجبه عشرات الآلاف من جنسيّاتهم السّوريّة. ألقي كثير من الأكراد في زنازين البعث بتهمة الانفصاليّة وتأييد ثورة البارزانيّ. أعلن البعثيّون أنّ من يعيش في سوريا هم فقط العرب السوريّون، وكان لزامًا أن تحمل جوازات السفر في باب الجنسيّة عبارة عربي سوريّ للدلالة على جنسيّة حاملها بغضّ النظر عن عرقه وقوميته.

لم يكن مسلم ولا زوجته إيسلم يكترثان بما يحصل في العاصمة من تغييرات. نشط البارتي الكرديّ في كوباني رويدًا رويدًا واستقطب شريحة لا بأس بها. لكنّ مسلمًا المتزوج حديثًا لم يأبه بذلك أيضًا. كان همّه أن يداوم في حانوته ويلتزم اتّباع الطريقة الصوفيّة النقشبنديّة ويواظب على الطاعات فلم يترك صلاة تفوته في المسجد القريب من داره والّذي ورثه عن أبيه حَمْزِراقْ مريد الشيخ صالح وتكيته في حارة سَيْدا. كان كلّ هم مسلم المهاجر وزوجته أن يرزقهما الله ولدًا يملأ حياتهما أُنسًا وبهجة. مرّ عام ولم تظهر على بطن إيسلم آثار الحمل. مرّ عام آخر وآخر وآخر ولم يستجب الله لدعائها ودعاء زوجها. دأبت كلّ ليلة جمعة على زيارة قبر الشيخ صالح الّذي توفّي قبل زواجها بعامين ودفن في مسجده الذي بناه في حارة سَيْدا. كانت تحضر قليلًا من التراب لتلقي بعضه في فمها والباقي في صرّة تلفّها على بطنها لعلّ الله يشفع لها ببركة الشيخ فيمنح بطنها الخصوبة.

لم يبق شيخ لم تزره. لم يبق مزار لم تذهب إليه. دأبت على أن تصعد هضبة مِشْتَنُور لتربط قطعة قماش هناك على أغصان شجيرة التوت المقدّسة والتي سمّاها أهل المنطقة دارا مِرازان أي شجرة الأمنيات، وهي تدعو الله أن يرزقها ولدًا. أحيانًا كانت تحكّ حجرًا صغيرًا بجدار المزار الموجود عند الشجيرة على رأس الهضبة وحين كان الحجر الصغير يلتصق بالجدار دون أن يقع، كانت تفرح كثيرًا، فذلك علامة قبول دعائها. لكنّ بطنها ظلّ يبدّد أحلامها وأمنياتها.

أمّا زوجها مسلم فقد ذهب مرّات عديدة إلى حلب ودمشق حيث أكّد له الأطبّاء

هناك أنّه بخير وألاّ ذنب له في عدم الإنجاب. لم يكن هو أقلّ تشوّقًا من زوجته إلى ولد يحمل اسمه واسم أبيه ويرثه من بعده. كان يشفق على زوجته ويراعي مشاعرها وتوقها إلى الأمومة خاصّة بعد أن أجمع الأطبّاء ألاّ أمل في إنجابها أبدًا.

في آخر مرّة عاد مسلم من دمشق التي شهدت منذ سنة تقريبًا انتخاب حافظ الأسد رئيسًا للجمهوريّة، وجد زوجته كعادتها كئيبة حزينة وحيدة. أكّد له الأطبّاء هناك أن لا مشكلة لديه في الإنجاب مطلقًا وأنّه خصب أكثر من نبع عين العرب كما قال له أحد الأطبّاء المعالجين ضاحكًا.

استقبلته إيسلم بلهفة شديدة، لكنّها لم تسأله عن نتائج الفحوصات الطبيّة. خجلت من طرح هذا الموضوع الّذي أثار غضب زوجها في أحيان كثيرة. وضعت له بـهدوء طعـام العشـاء وانتظرتـه ليتكـلّم. انتـهى الزوج مـن عشـائه، وبـدأ يلـفّ سـيجارته علـى مـهل. لـم يمـض سـوى وقـت قليـل حـتّى جـاءت إيسـلم بطبـق الشـاي، ووضعت أمامه كأسًا يعلوها بخار لطيف.

- مسلم. سأقول لك شيئًا ولكن أرجو ألاّ تنزعج.

قالت إيسلم بلهجة يغلفها حنان بالغ. ردّ الزوج بعصبيّة:

- ما الأمر؟ ماذا هناك أيضًا؟

- أريد أن أقول إنّ هذا الذي يمضي هو عمرنا. أرجوك تزوّج. أعرف أنّني لا أنجب وأنّ الأطباء كرّروا لك ألاّ مشكلة لديك. هذا قدري وعليّ القبول به. ليس لك ذنب في أن تعيش من دون ذرّيّة.

- ماذا قلت؟

كان لسؤال مسلم نغمة هي مزيج من الفرح والغضب والدّهشة. ظنّ أنّه يحلم، لكنّ زوجته كرّرت الكلام وقالت بتضرّع:

- قلت لك تزوّج. ولو شئت لبحثت لك بنفسي عن زوجة تناسبك.

صادف عرضُ إيسلم هوىً في نفس الرجل فمضت الأمور بسرعة كما شاءت. بحثت عن زوجة لزوجها، بحثت عن ضرّة لنفسها ولم تمض بضعة أشهر حتّى رأتها:

زَرْكَه.

* * *

كانت زَرْكَه أرملةً قتل زوجها في حرب تشرين التي نشبت بين العرب وإسرائيل عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين. عاد كثير من الجنود الأكراد من جبهات تلك

الحرب أيضًا محمولين في صناديق ملفوفة بالعلم السوري إلى بيوتهم ليتمّ استقبالهم بالعويل والنحيب واللّطم والصراخ والبكاء. تركت زَرْكَه بيت زوجها بعد مقتله وذهبت لتقيم عند أبويها حتّى انقضى العام فخطبوها لمسلم وتزوّجته.

لم يكن بطنها أفضل حالًا من بطن ضرّتها إيسلم. مرّت سنوات ثلاث دون أن تبدو أيّ إشارة على حملها. كانت إيسلم تهتمّ بأمر إنجاب ضرتها أكثر من زوجها حتّى بات النّاس يستغربون أمرها ويعجبون لهذه المرأة التي تريد الخير لضرتها!

كانت إيسلم تعرف قصة مسلم الذي عاش يتيمًا وقدّم والده هاربًا من بطش الدولة التركيّة. كانت تشفق على حال زوجها بغريزة الأنثى الحنون. كانت أصغر من زوجها لكنّها عاملته مثل أمّ على الدوام.

- لا تحزن أبدًا يا مسلم. النساء كثيرات.

- يبدو يا إيسلم أنّك ستسعين وراء الموضوع إلى يوم القيامة. ألا يكفيك ضرّة واحدة؟

- يا مجنون! يجب أن يكون لك أولاد.

- دعي الموضوع الآن. سأذهب إلى بيت الله وأطرق بابه، فربّما فتح لي.

لم يتزوج مسلم بل ذهب إلى الحجّ ليعود بعد فترة. جلب معه بعض التّمر وعددًا من المسابح والمساويك وماء زمزم وأثوابًا ومناديل وكحلًا وشالًا هنديًّا وصورًا للكعبة ومسجد النّبيّ. صار اسمه الحاج مسلم حَمْزِراقْ المهاجر أو اختصارًا الحاج مسلم المهاجر.

حتّى ذهابه إلى الحج لم يُزِل عنه صفة المهاجر التي التصقت به وبعائلته. كادت تلك الصفة تصبح طوق لعنة حول عنقه. لكنّه ألف اللّقب كما يألف العبدُ البلاءَ حين يدوم. بل كان لذلك اللّقب فضلٌ كبيرٌ في تمييزه عن كثيرين أسماؤهم أيضًا الحاج مسلم.

لم تتركه زوجته. بل ألحّت عليه في الزّواج حتّى جاء عام ألف وتسعمائة وثمانين فتزوّج الحاج مسلم للمرّة الثالثة. غضبت زَرْكَه كثيرًا وظنّت أن هذا الزواج انتقام من ضرّتها إيسلم ولم تقتنع بما قاله لها زوجها الحاج.

في زيارته إلى تركيا ذلك العام، قضّى الحاج مسلم بضعة أشهر هناك. تعرف على امرأة من مدينة بينغول الكرديّة اسمها أليفة تبلغ ثلاثة وثلاثين عامًا ترملت قبل عامين حين قتل زوجها الجنديّ ضمن صفوف الجيش التركيّ الّذي غزا قبرص صيف عام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين. كان زوجها واحدًا من أربعمائة وثمانية وتسعين جنديًا تركيًّا قتلوا في الجزيرة وعادوا إلى أمّهاتهم وزوجاتهم في صناديق ملفوفة بالعلم التركيّ.

قبل الانقلاب العسكريّ في أيلول من ذلك العام بأيّام قلائل عاد الحاج مسلم

صحبة زوجته الثالثة أليفة البينغوليّة إلى كوباني.

كان رحمها أيضًا برّيّة قاحلة لا تنبت زرعًا. لم يستطع بطنها أن يحمل ولدًا يملأ الدّار الكئيبة بهجة وسرورًا. أجمع الأطباء على أنّها عاقر لا تنجب.

- إنّه امتحان من ربّ العالمين. ليس ما يحصل صدفةً أبدًا.

ردّد الحاج مسلم وهو يستلم تقرير أحد الأطباء.

لكنّ زوجته الأولى إيسلم لم تتركه في حاله هذه المرّة أيضًا:

- لقد حلّل الله للرّجل أربع نساء. تزوّج هذه المرّة أيضًا وبعدها أعدك أنّني لن أحدّثك عن الزواج أبدًا.

- طبعًا لو أصبحتنّ أربع نساء فلن يجيز الشرع لي زواج الخامسة.

ردّ الحاج مسلم ساخرًا.

تمايلت زَرْكَه وقالت بغنج ودلال:

- ولماذا لا تطلّق أليفة؟ يمكنك بعدها أن تتزوّج الخامسة.

هذه المرّة وضعت زركَه يدها في يد إيسلم وبحثتا معًا عن زوجة رابعة لزوجهما الحاج مسلم. كان هدفها يختلف عن هدف ضرّتها إيسلم. هي كانت تريد الانتقام من ضرتها «التركيّة» أليفة البينغوليّة وحرق قلبها كما حرقت الأخيرة قلبها.

أخيرًا، وبعد بحث حثيث، ومضيّ سنوات قليلة وجدت الضرّتان زوجة رابعة لزوجهما الحاج مسلم المهاجر: امرأة جميلة، حلوة، تصغر زوجها بعشر سنوات ورحمها أكثر خصوبة من الأراضي الواقعة شمالي گرێ كانى في شرقي كوباني.

قبل أن يحلّ العام ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون تزوّج الحاج مسلم المهاجر من خانِهْ وخصّص لها منزله القريب من مسجد سَيْدا بينما سكنت الأخريات في بيته الذي ورثه عن أبيه في المدينة.

حشرجة في المسجد

أمشي لكن بخطوات حذرة أحسبها بالملّيمتّرات. لا أدوس إلاّ الأماكن الصلبة التي أعرف أنّها لن تكون مزروعة بالألغام. أتذكّر المهربين الّذين يجتازون الحدود فجرًا وفي منتصف اللّيل. كانوا محاطين بالموت. من جهة يتربّص بهم حرس الحدود الأتراك، ومن جهة أخرى تتربّص بهم الألغام المدفونة تحت التراب على طريقهم.

أدقّق في طريقي فأرى أحيانًا إسفلت الشارع. أفرح. هو ذا نفسه إسفلت الشارع الذي كنت أركض عليه حافيًا غير آبه بشيء إبَّانَ طفولتي. ها هي الأنقاض تستر عريه الأليف.

أمشي في الخراب. أمشي وأطأ الذكريات. أنقاض الذكريات. أنقاض الخيال.

المدينة خرابٌ.

البيوت خراب.

الذّاكرة خراب.

يسحق الخراب قلبي.

حارتي تتجاذب أطراف الخراب مع نفسها.

أنا الآن أمام باب المسجد. أسمع حشرجة. الحشرجة قادمة من مكبّرات الصّوت المعلّقة بالمئذنة المعدنيّة النحيلة. أصغي منتبهًا. لا أتبيّن طبيعة الحشرجة. إنّها تشبه صوت محطّة إذاعيّة حين تشوّش عليها محطّة أخرى. بعد برهة من الإصغاء يتّضح لي أنّها حشرجة أبي حين عانى سكرات الموت.

أتذكّر موته. كنّا نجتمع عند رأسه كلّ مساء ونتناوب على رعايته والسّهر على راحته حتّى الصّباح. أتذّكر خوفه الغريزيّ من الموت. ثلاث سنوات بقي أبي ينتظر موته ونحن معه من المنتظرين. ثلاث سنوات بقي أبي على تلك الحال حتّى زاره الموت ذات صباح شتائيّ بارد.

هذه الحشرجة هي نفسها حشرجة أبي أوان النّزع.

أرفع رأسي قليلًا وأحدّق في المئذنة المعدنيّة النّحيلة. هي عبارة عن أربعة قضبان معدنيّة عموديّة طويلة تعترضها قضبان أفقيّة بطول متر واحد تقريبًا على شكل سلّم بأربعة وجوه تظلّلها قبّة معدنيّة أشبه بخوذة جنديّ أيّوبيّ. يعلو القبّة المعدنيّة هلال كنت أتخيّله في طفولتي منجلًا يحصد حقلًا لامرئيًّا من الأحلام. هلالٌ يشبه فمًا يصدح بالتّكبير، مفتوحًا على جهة هضبة مِشْتَنُور.

لا. ليس الهلال منجلًا ولا فمًا يصدح بالتكبير. ذاك خيال الطّفولة. الآن أتخيّل هذا الهلال فمَ رجل شعُر بطعنة غادرة في الظّهر فصاح آآآآه.

الحشرجة لا تتوقّف. أدفع الباب الموارب وأدخل المسجد بحذر. أراعي آداب الدّخول كما تعوّدت قديمًا، فأبسمل وأدخل الفناء الفسيح بقدمي اليمنى. تصدم عيني هناك أيضًا قطع الإسمنت المسلّح، أباريق وضوء متناثرة، سجاجيد صلاة مرميّة على غير هدى يعلوها غبار كثيف. من بعيد أرى الجدار الواطئ في الجهة القبليّة من المقبرة. إنّه الجدار نفسه الّذي تركته قبل خمسة عشر عامًا حين ودّعت أبي وأمّي في قبريهما. المقبرة تقع في الزّاوية الشّماليّة الشّرقيّة من المسجد. ألمح بضعة قبور حديثة العهد. لا أرى البئر التي كانت تتوسّط الباحة. «غارت فردموها» أقول لنفسي.

كانت البئر قد نضبت منذ زمن بعيد حين أصبح الْزَّراع يعتمدون في سقاية بساتينهم على الآبار الارتوازيّة. في مراهقتي كنت أنزل إلى قاعها مغمورًا بفرحة عظيمة نابعة من كوني أستطيع فعلَ شيء لا يقدر أقراني عليه، يتهيّبونه، يخافون الجنّ القابعين في قيعان الآبار.

أتردّد. ترى هل أذهب إلى المقبرة أوّلًا أم أدخل بهو المسجد؟ يتردّد صدى عبارة حزينة قالها لي أبي ذات يوم حين أوشكنا على أن نهجر كوباني: «يا بني! اعلم أنّ أيّ أرضٍ لا تضمّ عظامَ أمواتك فهي ليست وطنك».

ألتفت إلى جهة المقبرة. أريد أن أزور عظام أمواتي فيها أوّلًا. لكنّ الحشرجة الّتي أسمعها من مكبّرات الصّوت تجذبني بقوّة غامضة.

أخلع حذائي وأضعه بجانب الباب وأدخل.

* * *

لا أعلم متى دخلت المسجد أوّل مرّة في حياتي. ربما جرى ذلك حين بدأت خطواتي الأولى فأخذني إليه أبي أو أحد إخوتي. لكن المرّة الأولى الّتي أتذكّرها هي حين كنت في الخامسة من عمري. حفّظني أبي حديثًا نبويًّا ثمّ أخذني معه إلى صلاة المغرب. بعد انقضاء الصّلاة قال للمصلين: ابقوا في أماكنكم فإنّ ولدي سيحدّثكم بحديث للنّبيّ عليه السلام.

وقفت في المحراب وصرت أقرأ بصوت مرتجف، خجلًا، لكن بطلاقة: «بُني الإسلام على خمسٍ، شهادة ألا إله إلاّ الله......» إلى آخر الحديث. منحني جارنا الحاج محمد توب إبرام نصف ليرة. قبضت على العملة المعدنيّة الفضيّة بكفّي الصغيرة وصرت أتخيّل الأشياء التي يمكنني شراؤها بالخمسين قرشًا.

كـانت تلـك وقفتـي الأولـى أمـام الجمـهور. ونصـف اللـيرة ذاك جـائزتي الأولـى. ثـمّ تكـرّرت المـرّات: قـراءة حـديث، أو تـلاوة سـورة

قـرآن، أو إلقـاء قصـيدة شـعر أو خطبـة قصيرة أو مشاركة في مسابقات المدارس على مسرح المركز الثقافيّ في كوباني وخطف الجوائز.

أنا الآن لوحدي هنا في بهو المسجد. أنا وذكرياتي. أنظر إلى الجهة اليمنى فأرى ما كتبته يمناي على حائط غرفة تضم صنابير الماء قبل عشرات السنين: الميضأة.

لا أذهب إلى هناك. لست محتاجًا إلى الوضوء. أتوجّه إلى الصندوق الذي يحوي الميكروفون. أعرفه. هناك وقفت عدّة مرّات أؤذن بصوت مرتعش من الخجل. في الزّاوية القبليّة إلى الشرق يوجد ذاك الصندوق مثبتًا إلى الجدار على علوّ بقامة المرء. محا الزمن دهانه الأخضر. الصندوق مفتوحٌ على غير عادته. اعتاد المؤذّن أن يقفله بعد كلّ أذان خشية عبث العابثين. لا ميكروفون في الصندوق. لكن الحشرجة ما تزال مسموعة من مكبّرات الصّوت في أعلى المئذنة. أشتهي أن أؤذّن. تستبدّ بي الرغبة في الصراخ. لا بدّ من أن أطلق صرخة مّا تعبّر عن حزني وغضبي. لا صوت يصدر عن حنجرتي.

مرّات عديدة كان النّاس يأتون إلينا لنعلن لهم عبر مكبّرات الصّوت عن أشياء فقدوها: أطفالًا، خرافًا ونعاجًا، ذهبًا ونقودًا.

والآن!

من سينادي على مدينة ضائعة؟

من سيرفع صوته معلنًا ضياع رجل يبحث عن مدينته الضائعة تحت الركام؟

وهل بقي أحد أعلن له ضياعي وضياع حارتي؟

كلّ شي ضاع، كلّ شيء.

قبل أن تدمع عيناي أرجع إلى الخلف مبتعدًا عن الصندوق. أرجع عشر خطوات إلى أن أصل إلى باب يفصل القسمَ الغربيّ الّذي فيه الميضأة وصندوق الميكروفون وبهو للصلاة عن القسم الشرقي الذي تسند سقفَه أربعةُ أعمدة أسطوانيّة ويتوسّط جدارَه القبلي محرابٌ محفور فيه.

أدخل.

أشمّ رائحة أبي.

أنـا أميّزهـا حـتّى لـو فـي محـلّ للعطـور فـي الشـانزيليزيّه. إنّهـا رائحـةٌ مزيـجٌ مـن فـوح العـرق وشـذى الحبـر وعبـق الأوراق الصـفراء يفـوح مـن الكتـب القـديمة. إنـها رائحـة خالدة لا تخفُّ بمرور الزمن. أحس بوجود أبي هناك. أسمع حشرجته وأشمّ رائحته. أتوقع أن أراه في أيّ لحظة بعمامته البيضاء وجبته جالسًا في المحراب يسألني مبتسمًا، كدأبه كلّما رآني عائدًا من سفر: «ها! هل عدت يا ولدي؟».

الضوء الباهت في الداخل يمنعني من رؤية الأشياء بوضوح. لكن بعد برهة تتسع حدقتاي فأرى كلّ شيء. تعلن الأشياء عن حضورها فأرى المنبر في الزاوية الغربيّة إلى الجنوب. مازال القماش الأخضر يغطي درجاته الخشبيّة. في أعلى المنبر ما تزال سجادة صلاة عليها رسم الكعبة. لا يمكن رؤية البسط والسجاجيد بسبب الغبار المتـراكم. مـن النوافـذ الجنوبـيّة الأربـع ينسـكب ضـوء لـم أره فـي الخـارج آنـفًا. سـاعة الحـائط المعلقـة علـى يمـين المحـراب تشـير إلـى الخامسـة وأربـع عشـرة دقيقـة. أكـاد أصعق! الزمن ثابت! منذ متى تشير السّاعة إلى الخامسة و أربع عشرة دقيقة؟ إنها لا تتقدم. أصغي إليها. تك تك تك تك. هي نفس الدقات التي سمعتها قبل خمسة عشر عامًا حين ودعت أهلي وقبر أبي وأمّي وخرجت من البلاد. إنها تدق إلى الآن. السّاعة لم تتوقّف. ما توقّف ربّما هو الزمن نفسه. على جانب المحراب الآخر لوحة مكتوب فيها أسماء الله الحسنى. مائة اسم إلاّ واحدًا. قنديلان بلا ضوء على طرفي المحراب. وفي الأعلى آية من سورة مريم تزين محاريب أخرى كثيرة في العالم: كلّما دخل عليها زكريا المحرابَ وجده عندها رزقاَ.

أذهب متهيبًا إلى المحراب. تمحو خطواتي الغبارَ المتراكمَ على السجاجيد فتبدو نقوشها الملونة البديعة.

أجلس في المحراب تمامًا كما كان أبي يجلس ويعظ النّاس بالكرديّة وهو ينظر إليهم من فوق نظارته. أكاد أتذكّر وجوه المصلين أيّام الجمعة وجهًا وجهًا، ثلاثمائة مصلٍّ كانوا يأتون حتّى من القرى لأداء صلاة الجمعة.

كانت الخطبة العربيّة التي ألقيتها أنا أيضًا عدّة مرات تلبية لرغبة والدي، على المنبر، مسموعة من خلال الميكروفون، أما الكرديّة فكانت داخل المحراب على الأرض وبصوت خفيض. نقش هذا المشهد عميقًا في وجداني الطفولي. لم أستوعب وأنا طفل سبب هذا التمييز. حين أصبحت فتى يانعًا لم أقدر أيضًا على استيعاب هذا التمييز: العربيّة التي لا يفهمها أغلب الحاضرين، في الأعلى وبصوت يسمعه حتّى ربات البيوت في الحارة، أما الكرديّة التي ترتاح لها أسماع المصلين ففي الأسفل، فهي داخل المحراب لا يكاد يسمعها أصحاب الصف الأخير من المسجد.

أنهض وأخرج من المحراب لأذهب إلى نافذة تطل على كرم العنب جنوب المسجد. كان فيما مضى كرمًا واسعًا. الآن ليس سوى بعض البيوت وبضع أشجارٍ من التّين بالإضافة إلى بضع شجيرات عنب مهملة.

في الصيف، كنت بين الحين والآخر أذهب مع أبي إلى الكرم لنقطف العنب. أحمل في الصباح الباكر قبل أن تبدأ موجة الحر سلة قش وأتبع أبي. كرمة كرمة، غصنًا غصنًا نبحث عن العنب الناضج، يقطف أبي العناقيد بسكين صغيرة

ويرميها في السلة إلى أن تمتلئ.

- احذر العقارب المختفية بين حبات العناقيد يا ولدي.

ينصحني أبي وهو يرمي بضع حبات تين فوق العناقيد استعدادًا للعودة إلى البيت.

في جدار المسجد الجنوبي الشاهق كانت قرب السقف أربع نوافذ أشبه بكوىً صغيرة تتخذها البواشق أعشاشًا لها. وقد كانت البواشق تلك تصبح شرسة جدًا وتهاجم أي شخص يدخل الكرم عندما يفقس بيضها عن فراخ صغيرة. بمجرّد دخولنا إلى الكرم كان الباشق، أو أنثاه، ينقض من الأعلى ويضرب أحدنا بخفقة خاطفة من أحد جناحيْه. كنت أخاف من هجمة البواشق كثيرًا. فقد كانت تهاجم بسرعة وشراسة دون أن يشعر المرء بذلك حتّى تضرب في غفلة.

الحشرجة التي كنت أخال أن مصدرها هو المحراب. تأتي الآن من الخارج. المحراب صامت. لا شيء داخل المسجد يثير الشبهات. أتراجع إلى الخلف دون أن أوليَ القبلةَ ظهري. هكذا تعلمت. لا ينبغي أن أجعل الرفوف المليئة بكلام الله خلفي.

من النوافذ الشماليّة ذات الزجاج الملون أنظر إلى الخارج. لا شيء سوى ضوء يشبه ضوء الفجر.

الحشرجة تزداد.

أخرج خائفًا على عجل.

مظاهرة

بعد أن شرب ثلاثة كؤوس من الشاي المعتق مع ابنه محمد صالح، نادى ابنيه الآخرين:

- يا لَوَنْدْ. يا باران. تعالا وانظرا أي شاي رائع نشربه هنا.

خرج الأخوان اللذان تناولا غداءهما للتو من المطبخ. تبع أحدهما الآخر حتّى دخلا غرفة المعيشة وجلسا على بساط هناك. وضعت رَوْشَنْ أمام كلّ واحد منهما كأس شاي يعلوه البخار، ثمّ ذهبت لتجلس عند الباب وهي تضع وجهها بين كفيها كما في كلّ مرّة، وصارت تصغي إلى حديث أبيها مع إخوتها باهتمام. نزع الحاج مسلم كوفيته البيضاء عن رأسه، ثمّ مد رجليه وخاطب ابنه:

- هات يا لَوَنْدْ. حَدِّثْني عن المظاهرة. ما الموضوع وماذا حدث؟

عرف لَوَنْدْ من نغمة صوت أبيه أن غضبه قد زال فأتته الجرأة وقال دفعة واحدة: «لقد قمنا نحن الشباب بصنع اللافتات وكتابة الشعارات ثمّ خرجنا إلى المظاهرة. كنا حوالي ثلاثمائة شخص يا أبي. فجأة رأينا عناصر الأمن يخرجون علينا من جهتيْ الشّارع....».

قطع الأب حديث ابنه الذي مازالت كأس الشاي أمامه لم يشربها بعد وقال:

- يعني أن النار وصلت إلى كوباني أيضًا؟

رفع باران الكأس إلى فمه وتناول جرعة كبيرة من الشاي ثمّ قال:

- لا يا أبي لا. أيّ نار تتحدّث عنها؟ هؤلاء لم يكونوا سوى بضعة أولاد لا ندري من جمعهم ودفع بهم إلى الشارع.

غضب لَوَنْدْ وقال:

- أنت تكبرني فقط بسنتين. كيف تقول نحن أولاد؟ إن كنتُ ولدًا فأنت أيضًا ولد.

- أنت ولد ولن تكبر أبدًا. يعني إذا شاركت في مظاهرة صرت رجلًا؟ إن كانت هذه رجولة...

- ما هي الرجولة إذن؟ قل لأفهم. أنت لا تبالي بشيء وتريد أن نكون كلّنا مثلك.

احتدَّ باران:

- ألا يعجبك؟

- لا لا يعجبني.

- انطح الحائط إذن.

- أصلًا المستنقعات تحسد الأنهار الجارية.

- أأنا مستنقع يا نهر الأمازون؟

لم يشارك حَمِه في شجار أخويه. ظلّ يفكّر في منزل مستقل ينتقل إليه لكنّه حين رأى أنهما رفعا صوتيهما نهرهما قائلًا: «ألا تخجلان؟ الوالد موجود وأنتما تتشاجران».

لكن الوالد لم يعد «موجودًا». أصبح الآن يغط في نوم عميق، وربما لم يكمل الإصغاء إلى بقيّة رواية ابنه لَوَنْدْ عن المظاهرة. اعتاد منذ سنوات على نوم القيلولة، وكان لا بدّ أن ينام بعد الغداء لبرهة من الوقت مهما حصل. حتّى وهو في السوق كان يذهب بعد الظهر إلى المسجد الكبير لينام ولو لبضع دقائق مثل كثير من رفاقه أصحاب الحوانيت.

* * *

صار الشباب يتظاهرون كلّ يوم جمعة. يشاركهم لَوَنْدْ فيها جميعًا. يجهز اللافتات، يخيط الأعلام الكرديّة عند صديقه الخياط كولو شامليان. ويخرج مع شباب الحارة قبل صلاة الجمعة إلى ساحة الانطلاق. صارت صيحات آزادي آزادي[6] تهز الأرض والجدران في شوارع كوباني. خصّص أحد الناشطين سيّارته الصغيرة البيضاء، والتي أطلق المتظاهرون عليها اسم سيّارة الثورة، لحمل مكبرات الصّوت ونقل هتافات الثورة وهي تسير وسط الحشود التي تهتف: حرّيّة حرّيّة. لم يفوِّت لوند على نفسه أيّ مظاهرة. رأى قوته فيها، ومستقبله فيها أيضًا. رأى رجولته ووجوده كلّه في حضور المظاهرات أيّام الجمعة حين كان يهتف مع أقرانه للحرّيّة الغائبة.

وكم كان يفرح حين يعود إلى المنزل ويشاهد على شاشة قناة الجزيرة مظاهرة كوباني التي كانت مع غيرها من مظاهرات المناطق الكرديّة أولى المظاهرات التي تنطلق في سوريا أيّام الجمعة.

بعد مدة لاحت مظاهر غريبة على المشهد العام لم يكن أحد يتوقعها: «مظاهرات أردوغان».

هكذا سمّى الشباب مظاهرات بعض الأكراد في كوباني وغيرها.

خرجت مجموعات صغيرة من الشباب بلافتات مكتوب عليها «الموت لأردوغان، يحيا أوجلان» أو «أطلقوا سراح شمسنا». «شمسنا لن تحجبوها» إلى غير هذه الشعارات التي استهزأ بها الكثيرون، خاصة حين صارت تلك المجموعات الصغيرة تتجه صوب بوابة الحدود في مرشدبينار لترفع تلك اللافتات باتجاه الجانب التركي.

تندَّر الشباب على هؤلاء النّاس:

- ليسوا سوى مجموعة أولاد.

- نعرفهم واحدًا واحدًا. ليسوا سوى صعاليك.

- شغلتهم فاضية. سيرحلون مع رحيل النظام.

- ليسوا سوى أوساخ. ابتعدوا عنهم.

لكن هؤلاء «الأوساخ» الذين «شغلتهم فاضية» صاروا يزدادون يومًا بعد يوم. لم يعرف أحد ما الذي يريدونه وكيف بدؤوا يتكاثرون؟ لم تكن مطالبهم تشبه مطالب بقيّة الشّباب الذين يخرجون إلى الشوارع والسّاحات السوريّة. بدوا وكأنّهم من كرد دياربكر أو ماردين أو باطمان أو جزيرة بوطان أو غيرها من المدن الكرديّة في تركيا. لم تكن مطالب الأكراد السّوريّين من ضمن أولويّاتهم. لم تكن لهم شعارات معادية للنّظام في دمشق. حتّى إنّ أعلامهم الملوّنة لم تكن تشبه الأعلام الّتي يرفعها باقي الشّباب واصطلح على أنّها أعلام كرديّة.

في بعض الأحيان كانت تلك المجموعات الصغيرة تأتي بأعلامها ولافتاتها وشعاراتها وتتقدّم المظاهرات التي ينظّمها الشّباب ثمّ يأتي مصور فيلتقط لها صورًا ويرسلها إلى وسائل الإعلام ليظهر ضخامة جمهور الجهة التي تنتمي إليها تلك المجموعات.

شاعت هذه الظاهرة على طول الحدود الشماليّة الفاصلة بين سوريا وتركيا. انشطر الشارع الكرديّ. شطرٌ انحاز إلى نبض الشارع السوري الثائر وشطرٌ آثر أن يسلك وحده طريقًا سماه الطريق الثالث لا علاقة له بمعاداة النظام وهمه أن يحول أنظار المحتجين إلى الشمال.

انضم لَوَنْدْ إلى الشطر الأوّل المتناغم مع الشباب السوري. صار يهتف بإسقاط النظام ويصرخ باسم الحرّيّة مع أقرانه. لم يعد يهتم بمدرسته ولا بأمّه أو أبيه أو عائلته. يجتمع كلّ ليلة مع أصدقائه الشباب يخطّط معهم للمظاهرة المقبلة، مكان انطلاقها، موعدها، الشوارع التي يجب أن تمر منها والشعارات التي يجب رفعها. يأتي بالأعلام التي يخيطها رفيقه كولو شامليان ويضعها عند صديقه الناشط الفتى ولات حسي.

صار شباب الأكراد ينسخون شعارات الشّارع العربيّ في حمص وحماة والشام ويرفعونها في مظاهراتهم. بالموازاة مع تناغم الشباب العربي في حمص ودرعا وغيرهما مع شعارات الشباب الأكراد حتّى أصبحت كلمة آزادي الكرديّة اسمًا لمواليد عدد من العائلات العربيّة في مدن سوريّة بعيدة عن مناطق الأكراد ما أقلق النّظام الّذي عمل لمدة نصف قرن على بث الفرقة وإذكاء نار الكراهيّة بين جميع مكونات الشعب السوري.

اهتز العرشُ في دمشق.

اتسعت المظاهرات المعادية للنظام في المناطق الكرديّة. اعتقل كثير من النّاشطين والمشاركين في المظاهرات الكرديّة. اعتقل لَوَنْدْ مع عدد من شباب حارة سَيْدا فيما اختفى بعض الناشطين عن الأنظار خوفًا من الاعتقال.

وطنٌ مسفوح على الإسفلت

صادف ذاك اليومُ الثانيَ من أيلول عام ألفين وأحد عشر. كان يومًا نسيت فيه الغيومُ زيارة السماء. الطقس دافئ والقلوب أكثر دفئًا. وَفَدَ الشبابُ من جميع الحارات الشرقيّة إلى حي مِكْتَلَة وهم يرفعون الأعلام ولافتات مكتوب عليها بخط جميل مطالب تتلخص في الاعتراف بالشعب الكرديّ كثاني قوميّة في سوريا والسماح باستعمال اللغة الكرديّة لغة رسميّة في الدستور القادم. صدحت الحناجر مرّة أخرى بالحرّيّة وعلا هتاف آزادي آزادي حتّى كادت هضبة مِشْتَنُور ترتج لها.

تقدم المظاهرةَ لَوَنْد وبضعةٌ من شباب حارة سَيْدا الذين أطلق سراحهم حديثًا. «كلّ شيء يرخص في سبيل الحرّيّة». ردّد لَوَنْدْ في سره وهو يمسك بيد رفيقه في السجن هَفَال سَيْدا، ثمّ توقف فجأة. عند مَكْتَبا رَشْ، أي المدرسة السوداء وهي من المدارس القديمة وتقع عند سفح مِشْتَنُور، وقفت سيّارات الأمن العسكري ونزل منها العناصر وسدوا الطريق أمام المظاهرة ثمّ صرخوا: «يا شباب ارجعوا إلى بيوتكم لئلا نلقي القبض عليكم. إن لم تفضوا هذا التجمع فسنقودكم واحدًا وراء الآخر إلى الفرع».

تفرق الشباب، أخذوا معهم راياتهم، شعاراتهم، حناجرهم وكذلك قلوبهم التي تنبض بالحرّيّة، وعادوا إلى بيوتهم. تحدثوا في الطريق عن المظاهرات القادمة، عن مستقبل البلاد، الثورة، النظام وعن خلافات الأحزاب المحليّة. وقبل أن يصل شباب حارة سَيْدا إلى مدخل الحارة أوقفتهم سيّارة جيب تابعة للأمن العسكري.

«وقفوا». زمجر أحد العناصر الذين خرجوا من الأبواب الأربعة التي فتحت فجأة. وجه العناصر فوهات بنادقهم إلى القلوب التي نبضت للحرّيّة قبل قليل.

اعتقلت تلك المجموعة وتم سوق أفرادها إلى منبج أوّلًا ليتم التحقيق معهم وتعذيبهم مع آخرين كثيرين مثلهم من باقي مدن سوريا المنتفضة. تخللت حفلات التعذيب محاولات من مسؤولي الأمن لإقناعهم بترك هذه «التصرفات الصبيانيّة». بعد كلّ حفلة تعذيب يأتي ضابط أمن ليقول لهم بلهجة ناعمة: «يا شباب أنتم أكراد فما لكم وللآخرين؟ ما لكم ولأهل حمص ودرعا وحماة؟ أنتم لكم قضيّة تختلف عن قضيّة هؤلاء فلا تردّدوا شعاراتهم ولا تقلدوهم».

نقلت المجموعة بعد يومين إلى حلب لاستكمال التحقيق. من هناك سيق الشباب إلى السجن المركزي الذي ازدحم بالمعتقلين من الناشطين والمشاركين في المظاهرات.

ضـعف لَوَنْدْ بسـبب قلـة الأكـل والتعـذيب حـتّى بـات مثـل عـود رفـيع. وحـين أطلـق سـراحه مـع رفاقـه بعـد ثلاثـة أشـهر وعـاد إلـى البـيت ببنطـال ينسـلت منـه وتيشـيرت مهترئ ورائحة عرق واخزة، لم تعرفه رَوْشَـنْ التي فتحت الباب بل سألته مستغربة:

- من أنت وماذا تريد؟

رد عليها لَوَنْدْ بفرح:

- ألم تعرفيني يا رَوْشَـنْ؟ أنا لَوَنْدْ.

- ماماااااا. لَوَنْدْ خرج من السجن.

صرخت ودخلت الدّار بسرعة. لمعت جديلتُها الذهبيّة في وهج شمس آب. غمرت السعادةُ قلبَ الفتى لَوَنْدْ بسبب ذلك المشهد. أبهجه الشعورُ بدفء البيت ومذاق الحرّيّة الطيب.

* * *

مرت الشهور على ذلك المنوال. كانت شهورًا متشابهة إلاّ أن حركة الشباب المنتفض ازدادت فيها زخمًا وقوة. خشي النظام من تناغم حراك شباب الأكراد مع حراك الشباب العربي السوري. لم تهدأ المناطق الكرديّة بالرغم من محاولات السلطات. أرسل الحاكم الفرد وراء قادة الأحزاب الكرديّة يطلب لقاءهم لكنّهم لم يذهبوا.

كان النظام والأنظمة التي سبقته قد فتحوا جرحًا عميقًا في ذاكرة الكرد لم تعد تنفع معه الوعود والكلمات المعسولة.

بعد عدّة أشهر، في التاسع عشر من شهر تموز من السنة التّالية اختفى فجأة أي أثر للنظام في كوباني. تم إحراق بعض صور الحاكم وأبيه التي انتزعها الشباب من جدران المراكز الأمنيّة، وسُمع صوت إطلاق نار وأُحرِقت إطارات السيّارات في بعض الشوارع، لم يُقتل أحد، لم يُعتقل أحد من عناصر السلطة. مَرَّ الأمر بسلاسة حتّى شك النّاس في أمر تحرير المدينة وزعم بعضهم أن النظام سلم مقاليد السلطة لحلفائه تسليمًا. لكن آخرين قالوا إن كوباني تحررت بالفعل وأن عناصر النظام هربوا تاركين كلّ شيء وراءهم. لقد اختفت آثار السلطة فعلًا. لم يعد العلم السوري يرفرف على المباني الحكوميّة ولا عاد عناصر الأمن يجوبون الشوارع ويخيفون النّاس كسابق عهدهم، وأصبحت المراكز الأمنيّة التي كانت تبثّ الرعب في السابق مكاتب لبعض الأحزاب الكرديّة.

صباح اليوم التّالي شاهد النّاس علمًا ضخمًا ذا ثلاثة ألوان هي الأحمر والأخضر والأصفر يجلّل واجهة مبنى السراي الذي بناه الفرنسيّون زمن الانتداب.

فاختلطت لديهم مشاعر الفرح بالخوف. الفرح بالتّحرير والخوف من المآل والمصير. الكرد يخافون الحرّيّة. هكذا علمتهم التجارب. فالتاريخ يسرد أنّ الأكراد وبعد كلّ سكرة خفيفة بخمرة الحرّيّة لا بدّ أن يتعرضوا لكارثة مستفحلة تنهي سكرتهم وتعيد لهم صحوهم الأليم.

انحسـر الخـوف مـن النّظـام عـن قلـوب الأهـالي. لكـنّ خـوفًا أكبـر حـلَّ محـلّه. أكـد الكبـار أن الـهدوء الـذي أعقـب اختفـاء النظـام لـيس سـوى رمـادٍ يُخفـي تحتـه جمـرات متقدة، ما هو إلاّ طبقة من التّبن تخفي تحتها ماءً عميقًا، وإنّه الهدوء الذي يسبق العواصف الشديدة عادة.

أمّا عوام النّاس فقد ابتهجوا وردّدوا في مجالسهم أنّ زمن البعث ولى إلى غير رجعة وأنه آن الأوان ليحكم الأكراد أنفسهم بأنفسهم.

* * *

هطل مطرٌ رذاذٌ في الجمعة التي صادفت التاسع من شهر تشرين الثاني. كان مطرًا خريفيًّا ناعمًا. مشى لَوَنْدْ تحت قطراته اللّطيفة برفقة أبيه إلى المسجد. ألح أبوه عليه كثيرًا لمرافقته:

- ألست من نسل المسلمين يا ولد؟ ألا يمكنك أداء الصّلاة، ثمّ الذّهاب إلى المظاهرة؟

لم يكسر لَوَنْدْ كلمة أبيه هذه المرّة. رافقه إلى الصّلاة، لكنّه ما إن سلم التسليمة الثانية حتّى خرج من المسجد بسرعة، انتعل خفافتيه واتّجه مع بعض أصدقائه من الحارة إلى مركز المدينة.

عند السّاعة الواحدة ظهرًا اجتمع المئات من الشباب كعادتهم ليتوجّهوا من هناك إلى ساحة الإكسبريس التي باتت تسمى ساحة آزادي. اتفق لَوَنْدْ وولات حسي على أن يقودا المظاهرة بنفسيهما:

- أطلق أنت يا لَوَنْدْ الهتاف الأوّل ولتردّد الجماهير وراءك حتّى يدبّ الحماس فيهم ثمّ سأبدأ أنا.

- ولماذا لا نهتف سويّة؟

- لا. أنا أهتف بشعار ثمّ أنت بشعار آخر، وهكذا حتّى نصل إلى ساحة آزادي.

- يا رجل! هكذا لن ننهي المظاهرة حتّى الغد.

اتّفق الصديقان بعد خلاف قصير حول طريقة قيادة المظاهرة على أن يتقدّما الحشد الشبابي ويهتفا بصوت واحد.

فجأة ظهر شباب من مؤيّدي السلطة الجديدة بوجوه ملثمة والعصيّ في أيديهم وقطعوا الطريق على المتجمهرين طالبين منهم التفرّق. لم يذعن الشباب لأوامر

الملثّمين. استمر وَلَاتْ ولَوَنْدْ في الهتاف إلى أن هاجم الملثّمون وبدؤوا بضرب الشّباب، حينها انقسم المتظاهرون إلى أربعة فرق، فريقٌ اتّجه إلى سوق التلل، وهو شارع يمتدّ من بوابة مرشد بينار حتّى المصرِف الزراعي، وفريقٌ اتّجه إلى حارة عَبِكو، وآخر اتّخذ سبيله إلى الكراج. أمّا لَوَنْدْ وولات فقد قادا المجموعة الرابعة واتّجها بها إلى ساحة آزادي.

لكنّ الملثّمين لم يتركوهم وشأنهم، بل لاحقوهم وهم يشتمون ويضربون حتّى رد الشباب أيضًا وقاوموهم.

تلك كانت المرّة الأولى التي تشهد فيها كوباني شجارًا عنيفًا بين الشبّان الأكراد. فريق ملثّم لا يدري أحد من أين أتى عناصره، لكنّه يناصر السلطة الجديدة. وفريق ثانٍ مكشوفُ الوجه عاري السواعد مفكوك أزرار الصّدر مشدود القبضات يرفع شعارات الحرّيّة.

فجأة لعلع الرّصاص.

كان عناصر أمن السلطة الجديدة المسمّاة آسايش فوق أسطح المنازل يطلقون الرّصاص على أولئك الشباب في الشارع.

- اختبئ خلف الجدار يا لَوَنْدْ.

- وهل بقيت جدرانٌ يا ولات! انظر إلى الشباب الذين سقطوا جرحى!

- ما هذا؟ إنهم يستهدفون قتلنا! هذا ليس مزاحًا. إنهم يصوبون تجاهنا. أفواه البنادق إلى الأسفل!

لم تمض ثانيتان حتّى صرخ ولات:

- آخ يا أمّي. آخ يا أبي. لقد أصابتني رصاصة.

مع تلك الصرخة، أصابته رصاصات أخرى. سقط ولات على إسفلت الشارع وسقطت بجانبه الراية التي كان يحملها قبل قليل.

اجتمع رفاقه حوله وحاول لَوَنْدْ أن يحمله على ظهره ويسعفه لكن شابًا نهره:

- ولات جريح ولا يجوز حمله. لنسحبه إلى جهة آمنة أفضل.

جرّوه على الأرض، جرّوا الوطن الجريح على إسفلت الشارع حتّى مددوه بجانب أحد الجدران. أشرقت شمس الراية التي لم يتركها من يده على البراعم الحمر التي تفتحت في جسده الغض. كان جرحى آخرون يتأوهون. اصطدم الكرديّ بالكرديّ والأنين بالأنين والألم بالألم والغضب بالغضب والطيش بأخيه.

تـم إسـعاف الجـرحى علـى عجـل إلـى المشـفى.سأل الأطبـاء والممرضـات عمـن بإمكانـه التبـرع بالـدم، سـألوا عـن زمـر الـدم، لكنّـهـم لـم يسـألوا عـن الـذي سـفك الـدم. لِمَ سفكه ولأجل من؟

لا مجال للأسئلة حين تنزف الدماء. الأسئلة تبدأ حين تبرد الدماء ويتوقف النزيف، وحينها لا تنفع الأجوبة.

حين يعم الهدوء تنبت الأسئلة مثل زرع خُرافي. لكنّها حين تنشب الحروب تهرب كالأرانب مذعورة، إذ تشعر بقدوم الصيادين. أما عندما أسعفوا في تلك الظهيرة الجرحى إلى المشفى القريب من البوابة الحدوديّة فقد ظهرت الأسئلة بقعًا حمراء على شراشف الأسرة وإسفلت الشارع.

كان جرح الفتى ولات عميقًا، مؤلمًا مثل الرّحيل وكبيرًا بحجم وطن[7].

حاول الأطباء في المشفى أن يسعفوه لكن جراحه كانت عميقة عصيّة على البرء. لم يكن ولات يتحرك، لم يكن يفتح عينيه، كانت القلادة المصنوعة من نوى الزيتون في عنقه صامتة. عيناه مغمضتان وجراحه تنزف.

في الخارج لم يعرف أصدقاء ولات الغاضبون كيف يتصرّفون! كان والده يبكي في صمت وعجز.

- أسعفوه إلى تركيا، نحن لا نستطيع إنقاذه، جراحه خطيرة.

قال الأطباء.

أيوجد وطن ليست جراحه خطيرة؟

أسعفوه على عجل إلى عنتاب في تركيا ليهدي بعد ساعات أنفاسه الأخيرة إلى هذه الدنيا.

في منتصف اللّيل، مات ولات. مات الفتى ذو السبعة عشر ربيعًا شهيدًا برصاصات منتشية. استشهد الفتى الذي كان أيقونة الشباب ويحول المظاهرات بخفة دمه المعهودة إلى حفلات ثوريّة، وهو يحمل رايته الملونة بيد ويحمل ميكروفونًا باليد الأخرى التي تحيط بمعصمها ساعة سايكو حزامها جلدٌ أحمر.

- عود ريحانٍ انقصف.

قالت النسوة اللواتي حضرن مجلس عزائه.

- السلطة هي هي أينما كانت: الخوف قاعدتها. لكن الفرق هو هل القانون مصدر ذلك الخوف أم القمع!

هكذا دوَّن الروائي الذي يسرد لكم الآن هذه الكوارث، في صفحته على الفيسبوك حين شيعوا جثمان الفتى ولات إلى قريته تل حاجب الّتي تبعد عشرة كيلومترات إلى الجنوب الشرقيّ من كوباني.

الهرب من الطوفان

مساء إصابة وَلَاتْ بجراحه الخطيرة بعد رش المتظاهرين بالرّصاص الحيّ، عاد الحاج مسلم المهاجر من حلب وكان قد سمع أخبار المظاهرة فخفق قلبه خوفًا على ولده لَوَنْدْ. لم يعرف كيف يتصرّف. عرف بعد اتّصاله بكوباني أنّ ابنه ليس بين المصابين لكنّه مع ذلك احتدّ كثيرًا وقال: «لا بدّ أنّ هذا الأحمق سيأتي بالبلاء إلى باب دارنا يومًا مّا».

فور وصوله إلى البيت نادى:

- لَوَنْدْ! يا لَوَنْدْ. أيّها الشؤم لَوَنْدْ.

ردّت زوجته خانِهْ:

- لَوَنْدْ في الدّاخل. خير؟ ما بك؟

في هذه اللحظة خرج لَوَنْدْ الغاضب بسبب مقتل صديقه وسأل:

- خير يا أبي؟

- خير؟ ومن أين سيأتي هذا الخير؟ أكيد كنت في المظاهرة!

- وما العيب في ذلك يا أبي؟ أنا أذهب دائمًا إلى المظاهرات.

- أيّها الجحش ابن البغال متى ستعقل هاه؟ ألم أقل لك ألف مرّة ابتعد عن هذه الأمور؟ هذه نيراااان. أتفهم؟ نيران. لو اقتربت منها كثيرًا فستحرقك وتحرقنا. لا مزاح مع النار يا ولد.

ثم خفّف من لهجته وقال بوداعة:

- يا بني أطع أباك. أتعرف الرّعب الذي نال منّي؟ حين سمعت أنّهم أطلقوا النّار على المظاهرة لم أعرف كيف سأعود إلى البيت.

- هؤلاء شبّيحة يا أبي. إنّهم أكراد لكنّهم شبّيحة.

- وهل هذا شغلك؟ ليكونوا من يكونون. أأنت مجنون؟ اُغرب عن وجهي أيّها الحمار.

ابتعد لَوَنْدْ. همهم ببضع جمل وهو يتّجه إلى المطبخ القريب.

هناك كان باران يسكر محتضنًا آلته الموسيقيّة ويدندن لحنًا ما. حين لمح أخاه لَوَنْدْ ثار وقال:

- أغلق الباب وراءك يا صعلوك.

- هششششش. لا ترفع صوتك. لقد عاد البابا غاضبًا من حلب.

وضع باران آلته الموسيقيّة جانبًا ثمّ رفع كأس العرق من أمامه وأخفاه وقال:

- هذا الحجي يعود مثل اللّصوص. أهذا وقته؟ لقد أوشكت على أن أسلطن.

مدّ يده إلى الكأس ثانية وارتشف جرعة من العرق قائلًا:

- أُخرج يا أخي أريد أن أسلطن. أغلق الباب وراءك وأطفئ النّور. سأسلطن وأتكلّم مع حبيبتي سوسن.

عرف لَوَنْدْ أنّ سهرة أخيه ستطول. أطفأ النّور وخرج بصمت.

كثيرًا ما كان الأخوان يتشاجران، يقول لَوَنْدْ لأخيه: إنّك لا تعبأ بما يحدث في المنطقة أبدًا، ولاتعرف من أين تهب الريح. فيردّ باران بجملة واحدة يكرّرها كلّ مرّة:

«كأس العرق تملأ رأسي أكثر من كلّ هذه الأمور ولتهب الرّيح من أيّ جهة شاءت».

وحين فتح لَوَنْدْ الباب ليخرج، ناداه باران:

- تعال تعال.

- نعم! خيرًا؟

ردّ لَوَنْدْ متبرّمًا فضرب باران بإبهامه على وتر من الباغلمة مصدرًا نغمة مديدة وقال:

- تعال. اُدخل ولا تخف. لن آكلك.

- طيّب. ها قد دخلت. قل ما الأمر؟

- أريد أن أقول لك كلمتين قبل أن تذهب إلى الفيسبوك وتمارس هواية العاطلين عن العمل.

- إن شئت قل ثلاث كلمات أيضًا.

- أطعنـي واتـرك هـذه السـخافات وازرع الحشـيش مثـل بقـيّة الـنّاس فـي كوبـاني فـهو أربـح مـن كـلّ شـيء. صـدّقني موسـمه لا يطول سـوى خمسـة أشـهر. خـذ مثـل الآخـرين بضـعة صـناديق خضـار مـن الفـلّين الأبـيض إلـى سـطح هـذا المطبـخ واملأهـا بـالتراب الأحمـر وازرعـها حشـيشًا. لـن يعتقلـك أحـد كمـا تعـرف. هـذا أفضـل مـن السّياسـة اللّعينة الّتي تخوض في روثها.

- وهل ترى ذلك لائقًا بي؟ ألا ترى أنّني أحمل همّ ولات وأترقّب رجوعه سالمًا؟ هل ينبغي أن تسخر منّي وأنا حزين؟ قل لي كم كأسًا شربت؟ أكيد شربتها صرفًا!

ردّ لَوَنْدْ بعصبيّة وخرج.

* * *

في اليوم التّالي، أي يوم السبت الّذي تلا المظاهرة التي أصيب فيها ولات ورفاقه، وصل الخبر بوفاته في المشفى:

- استشهد ولات.

حين قرأ لَوَنْدْ الخبر على صفحات الفيسبوك ارتدى ثيابه على عجل وخرج كالعاصفة دون أن يردّ على نداء أمّه:

- عد يا لَوَنْدْ. عد يا بني. ستجلب لنا المصائب.

خرج الآلاف من الشّبان غاضبين واحتشدوا عند منزل ولات حسي رافعين الأعلام الكرديّة وعلم الثورة السوريّة وحناجرهم تهدر:

- الآبوجيّة شبيحة. الآبوجيّة شبيحة[8].

زاد بعض الشباب من عيار الشّعارات فصاحوا:

- الشعب يريد إسقاط ب ك ك[9].

كانوا على يقين من أنّ النّظام لم يغادر كوباني بل وضع قناعًا وبقي يحكم فيها من وراء حجاب.

- القشرة كُرديّة أمّا اللّبّ فهو ذلك الخراء السابق.

قال لَوَنْدْ محتدًّا لأحد المتظاهرين بجانبه.

خافت السّلطة الجديدة ذلك اليوم من أمواج النّاس الّتي تدفّقت إلى الشّوارع. احتارت ماذا تفعل! هل تقمع الجموع فتزيد أوار الغضب أم تترك النّاس يفرغون شحنات غضبهم عبر الهتافات والمسير في الشّوارع والأزقّة؟

أخيرًا، عرفت أنّ مزيدًا من الدّم يعني مزيدًا من الاضطراب والغليان فلاذت بجدار الصّمت.

ألقى لَوَنْدْ نفسه بين الجموع الغاضبة. ردّد معهم الشّعارات حتّى كادت تتمزّق حنجرته. تقدّم حتّى دفع أحدَ حملةِ نعش رفيقه بعيدًا وحلَّ محلّه وسار مع الآخرين بالنّعش حتّى دخلوا منزل الفتى القتيل.

صار قلبه قنبلة جاهزة للتّفجير. نهشه الغيظ من الداخل. انفجرت شظايا روحه مثل ملح مُلقى على صفيح مسجور.

- لا بدّ أن أنتقم.

قال لنفسه.

بعد حوالي ساعة سارت الجموع بالنّعش تحت جنح الظلام في موكب مهيب حتّى قرية القتيل.

دفنوا في تلك اللّيلة وطنًا وثبّتت السّلطة الجديدة كرسي حكمها بمسامير من دم.

شمّ الكثيرون رائحة الحريق القادم. فاحت روائح الخراب. عرف النّاس أنّ البركان على وشك الانفجار. وباتوا أمام خيارات ثلاثة لا رابع لها: إمّا أن يحملوا السّلاح ويقتلوا بني جلدتهم أو يختاروا الصّمت والخنوع أو يغادروا البلاد التي ضاقت بهم إلى أرض الله الواسعة.

كان لَوَنْدْ واحدًا من الّذين لم يريدوا حمل السلاح. لكنّه لم يشأ أن يبقى صامتًا أيضًا. وبالرغم من صغر سنّه فقد شمّ رائحة الحرائق. عرف أنّ الظّلمة تتسرّب إلى مناطق الأكراد مثل نقطة حبر، إذ تقع في كأس ماء.

- سأغادر يا أبي.

قال لأبيه ذات صباح من صيف ذلك العام، وهو يقف أمامه مثل رجل حقيقيّ.

كان أبوه يستعدّ للذهاب إلى السوق. وحين سمع من ابنه الفتى هذا الكلام تمعّن فيه جيّدًا: شاب رشيقٌ نابت الشاربين، وفي عينيه آمال جهيضة وبراكين توشك على الثّوران. جعله عامان من النّشاط والمظاهرات يبدو أكبر من عمره. شكر الحاج مسلم ربّه في قلبه وغمرته موجة سعادة، لكنّه سأل لَوَنْدْ بنبرة حزينة:

- وإلى أين ستغادر يا ولدي؟

- سأغادر سوريا.

- ولماذا يا بني؟ ماذا جرى؟

شعر لَوَنْدْ للمرّة الأولى أن والده يعامله معاملة رجل لرجل. صار يعتبره إنسانًا له فكّر مغاير وشخصيّة مستقلة. إنّه رجل اجتاز مرحلة الطّفولة. لذلك ردَّ بثقة كبيرة:

- إنّك ترى يا أبي أنّ الأرض تضيق بنا يومًا بعد يوم. لا نقدر حتّى على القيام بمظاهرة. إنّهم يطلقون النّار علينا بل يقتلوننا إن أمكن. لقد نجحت في البكالوريا، ولكنّني لم أقدر أن أسجّل في جامعة حلب وأكاد أخسر مستقبلي. لا نريد مواجهة مسلّحة مع هؤلاء. الشّباب يغادرون البلاد. حجّتهم أنّهم لا يريدون الانضمام لهم ولا مواجهتهم. هكذا يفكّر معظم رفاقي: الهجرة أفضل الحلول.

بعد أخذ وردٍّ اقتنع والداه بضرورة مغادرته البلد. لم يريدا لابنهما الانضمام إلى أيّ جهة ترفع السلاح. أدركا بحسّ الأمومة والأبوّة أنّ الموت بدأ يعقد حلقات رقصه

في تلك الأرض المشؤومة. لم يمرّ شهر حتّى اجتاز لَوَنْدْ الحدود من جهة قرية عَتْمَانَكْ الواقعة شمال السكّة الحديد. ومن هناك غادر مع بضعة من رفاقه صوب إقليم كردستان.

لم تنم أمّه تلك اللّيلة. سهر الحاج مسلم أيضًا مع زوجته. ومع بزوغ الفجر عاد ولدهما حَمِه من الحدود مبشّرًا والديه المتلهّفين للخبر.

- اجتاز لَوَنْدْ الحدود بسلام.

* * *

ما إن وصل لَوَنْدْ إلى الجهة الأخرى من سكّة الحديد، حتّى غادرها فورًا إلى بلدة سروج، ومن هناك توجّه صوب بوّابة إبراهيم الخليل الحدوديّة بين العراق وتركيا ليجتازها إلى مدينة زاخو تهريبًا.

في إقليم كردستان، أراد أن يكمل دراسته في كليّة الحقوق الّتي بدأها ولم يكملها في جامعة حلب. لم تشأ أيّ جامعة من جامعات الإقليم أن تقبله إلى أن قال له أحد معارفه إنّ العمل في مجال الإعلام هو السّائد حاليًا وإنّ قنوات التّلفزة بحاجة ماسّة إلى المراسلين ومعدّي البرامج. نصحه ذلك الرّجل بدراسة الإعلام أو الدّخول في ورشات عمل خاصّة.

في أربيل دخل معهدًا ألمانيًا ليدرس بضعة أشهر أصبح بعدها مراسلًا لفضائيّة من فضائيات إقليم كردستان، لكنّ ذلك لم يلبِّ طموحاته. كان هدفه أن يصبح مقاتلًا، ثائرًا، ينظّم المظاهرات، يلقي فيها الشّعارات، يصرخ، يواجه الشّرطة بصدره العاري ثمّ يهرب منهم.

دمه يفور، قلبه ممتلئ ببراكين على وشك الانفجار، هكذا كان لَوَنْدْ.

نحيب المئذنة

أسمع نشيجًا في الخارج. أسمعه بوضوح. إنّه قادم من جهة المئذنة. من مكبّرات الصّوت في الأعلى. تلوح المقبرة من جديد. الأرواح الخضراء المقدّسة الّتي بقيت تحت التّراب هناك لسنوات تناديني. أمّي الرّؤوم تناديني. أبي، أخي، عمّي، جدّي وجدّتي وجيراني كلّهم هناك في رقدتهم الأبديّة الهادئة.

أسمع أصوات أرواحهم كما لو أنّها أنسام عليلة تهبّ في الأسحار. أتردّد. هل أزور المقبرة وأسلم على تلك الأرواح أم ألبّي نداء المئذنة! النشيج المرعب يجذبني مثل مغناطيس. صوت النشيج القادم من المكبّرات الأربعة الّتي يتّجه كلّ واحد منها إلى جهة يولّد في ذاتي شعورًا غريبًا هو مزيج من الخوف والفضول. يدفعني ذلك الشّعور إلى حيث أسمع نحيب المئذنة.

ثمة درجٌ إسمنتيّ. أضع قدمي على الدرجة الأولى وأصعد. أصل إلى سطح الإيوان الّذي بُني بعد خروجي من كوباني. هناك قبّة صغيرة حديثة العهد أيضًا. أتأمّلها قليلًا ثمّ أنتقل إلى سطح المسجد. يزداد النشيج وضوحًا.

من ذلك العلوّ أنظر حولي حيث سهل سُروج في الشمال. أرى عند سكّة الحديد أشجار التّوت والصفصاف والحور عارية مثل روحي. هناك حدود الموت.

كنّا، في بداية صبانا، نسترق سويعاتٍ بعيدًا عن أهلنا وبيوتنا لنأتي إلى سكّة القطار ونشاهد اللّوريات. واللّوري لم يكن سوى عربة مخصّصة للسّير على سكّة الحديد للقيام بتصليحات هنا أو هناك مما قد تتعرّض له سكّة الحديد الّتي هي حدود تفصلنا عن الجزء الآخر من الرّوح. كنّا نسمّي تلك العربات «شيطان بابور» ولا أدري لماذا! وكم كنّا نبتهج حين نسمع أحد الموجودين في العربة يتكلّم الكرديّة.

كنا نضع العملات المعدنيّة على السكّة فيعبر القطار فوقها ويرقّقها مثل عجينة. العملات تصبح أكبر حجمًا لكن النقوش تُمحى.

أحيانًا كنا نلوح بأكفّنا الصّغيرة الطريّة لركّاب قطار قادم من الشّرق أو الغرب. فيلوّح لنا الركّاب بدورهم. كنّا نعرف أنّهم لا يستطيعون النزول في هذا الطرف تمامًا مثلما أنّنا لا نستطيع تجاوز تلك السكّة اللعينة.

حذّرنا الكبار كثيرًا من الاقتراب من القطارات: سيسكبون عليكم الماء الحارّ، ستنفجر الألغام بكم، سيقتنصكم العساكر الترك. ستصدمكم القطارات وتنسحق عظامكم الهشّة تحت عجلاتها.

رضعنا الخوف مع أوّل قطرة حليب تلقّفتها أفواهنا.

وها أنا أخاف الآن أيضًا. يرعبني ذلك النّشيج الغامض. أنظر صوب الشّرق. أين گرێ كانى؟ لا أراها. في الماضي كانت ثمّة تلّة صغيرة تقع في الشرق بجانب نبع ماء عذب نسمّيها گرێ كانى. ثمّة هياكل بنايات من عدّة طوابق تمنع عنّي رؤيتها.

في طفولتنا كنّا نصعد تلك التلّة حتّى نصل إلى قمّتها. كنّا نظنّها أعلى جبل في العالم. هناك كنّا نرى كلّ شيء حولنا على مدّ البصر: قرية عَتْمانَكْ في الجانب التّركيّ، سروج، جبال طوروس المكللة بالثلج على مدار العام، بساتين الحاج رشاد، المسلخ، حارة سَيْدا، هضبة مِشْتَنُور، حقول القثاء والخيار والبامياء والخس والحمص، أشجار المشمش، التوت، الزيزفون وذلك النّبع الصّافي الرقراق الّذي يصبح ساقية يتّجه صوب الجنوب، النّساء اللواتي يغسلن صوف الغنم على جانبي الساقية، أشجار الجوز في بساتين بوزان بيك، القناة الرومانيّة قريبًا من قرية مِكْتَلَة، القرى في الجنوب والشرق، حقول القمح الممتدة في ذلك السهل الفسيح، حقول القطن، مضخّات المياه التي تسقي آلاف الهكتارات من الأراضي الزراعيّة. على قمّة التلّ كنّا نرى سماء صافية فسيحة، بدرًا مكتملًا، شمسًا ساطعة، نجمة المساء.

على تلك التّلّة كنّا ملوك العالم الصغار: نقرأ أسفار الغيم ونحلم بأمطار السّعادة. هناك كنّا نرى كلّ شيء ونقرؤه بأعيننا لكنّنا عجزنا عن قراءة الغيب، ولم يكن بمقدورنا أن نتنبّأ بمستقبل هذه المدينة.

وهل الغيب إلاّ غيمٌ لا يعرف أحد ماذا يمطر غدًا؟

وأنا على سطح المسجد أرنو إلى جهة التلة يخطر على بالي هذا السؤال:

ترى هل رأى مسلّحو داعش ما كنّا نراه حين صعدوا سطحها وزرعوا رايتهم فوقها؟!

حين هاجم مسلّحو داعش البلدة من الجنوب والشرق، وشاهدت على شاشات الفضائيّات الراية السّوداء تخفق على قمّة التلّة الواقعة شرق البلدة، نفذ إلى أعماقي دخان أسود. «راحت التلّة»، كتب بعضنا لبعض على صفحات الفيسبوك. أرقت ليالي عديدة. شاهدت كوابيس مرعبة تخفق فيها رايات سود على وقع هدير نيران شيطانيّة.

أنظر الآن إلى جهة الغرب فلا أرى شيئًا. لا أرى شيئًا سوى أطلال بيوت أبناء عمّي، ابن أختي، بيت عمّتي، عمّي وجيراني الآخرين. لا شيء إلاّ الأطلال.

أطلال، أطلالٌ أطلال.

أين المخفر؟ يصيبني الذّهول.

إلى الشرق من حارتنا، وعلى بعد مائة متر فقط انتصب فيما مضى مبنى شاهق أصفر اللّون حصين مثل قلعة. لم يكن في كوباني مبنى أعلى منه. الآن لا أرى سوى البرجين السامقين. لم يبق من ذلك المخفر المهيب الّذي كان مجرّد المرور بجانبه يملأ قلوبنا رعبًا سوى برجيه. بنى الفرنسيون ذلك السجن رمزًا لسلطتهم. ولمّا خرجوا من سوريا تحوّل إلى نقطة للشّرطة المدنيّة وأطلقت عليه تسمية المخفر. لكنّ كثيرين كانوا يسمّونه الحبس أيضًا. كنّا في طفولتنا نذهب لجمع الخرز الملوّن الصغير بجانب جداره الشرقيّ. كانت الشرطة ترمي نفايات السّجناء هناك، وقد اكتشفنا أنّ بين تلك النفايات خرزًا ملوّنًا كثيرًا من بقايا الخرز الّذي يتسلّى السّجناء بصنع مسابح منه وعلب دخان ومحافظ منه خلال قضائهم فترة السجن.

لم نكن نعلم أنّ وراء كلّ خرزة أنّة سجين يتوق إلى الحرّيّة. لم نكن نعلم أنّ كلّ خرزة مغسولةٌ بدمعة مظلوم أو مشفوعة برسالة مجهولة. كنّا صغارًا لا وقت لدينا لهذه الأسئلة الكبيرة. وكم تشاجرنا على الخرز فيبدأ شجارنا هناك وينتهي هناك.

أنظر إلى السّجن المنهار وأتذكّر ذلك التفجير الهائل الّذي شاهدناه على الشاشات. بث مراسلو وكالات الأنباء والمصوّرون الصحفيّون مشهد ذلك التفجير مباشرة.

تابع العالم بهلع مشهد تدمير تلك المدينة في بثّ مباشر.

تابعت أنا أيضًا دمار هذه المدينة التي شهدت ميلادي واحتضنت ذكرياتي، شاهدتُ دمار روحي ورأيت كيف أنّ ما يُدمَّر ليس فقط بيوتًا متناثرة في مدينة صغيرة منسيّة، بل إنّه تاريخ من الأحلام يُزال، أعشاش آلاف من النّاس تُحرق وتُدمّر في وضح النهار وحلكة اللّيل.

أصبح ذلك المخفر بعد اختفاء آثار النّظام مقرًّا لقوات الأمن «الآسايش» التّابعة للسّلطة الجديدة. كان معقلًا حصينًا ورمزًا من رموز قوّة المدينة ما جعل المسلّحين المهاجمين يترصّدونه ويستهدفونه. عرفوا أنّ السّيطرة على المخفر تعني السّيطرة على نصف المدينة من سفح هضبة مِشْتَنُور وحتّى الحيّ الشرقي. فاستهدفوا المخفر عبر أحد الانتحاريّين بعربة مفخخة. لم تجدِ مقاومة عناصر الآسايش نفعًا. لم تستطع مئات الطلقات إيقاف عربة الموت المصفحة الّتي قادها الانتحاري الحالم بفراديس تعجّ بالحوريات.

صوت انفجار هائل. تبعه عمود دخان ارتفع حتّى بلغ الغيوم.

«راحت الحارة». قلت لزوجتي كما لو أنّني أبتلع شفرة حادّة وأنا أشاهد ذلك

المشهد المرعب. كتبت في صفحتي على فيسبوك: الانفجار في قلبي. وما ذلك العمود من الدّخان إلاّ روحي الّتي تفحّمت.

يزداد صوت النّشيج.

لا، لم يعد هذا نشيجًا. إنّه الآن أشبه بصرخة خروف يُذبح. أشبه بصوت تدفّق الدّم من شرايين متوثّبة ذاقت طعم الشفرة. إنّه أذان الدّم. المئذنة تبكي. أرفع رأسي وأنظر إلى مكبّرات الصّوت الأربع. إحدى تلك المكبرات متّجهة إلى الأسفل. أسلاكها مقطوعة. تبدو مثل رأس انفصل عن جسده، ولم يعد يربطه به سوى الوريد فمال على الكتف. النشيج صادر منها. «نعم، النشيج صادر من هذه المكبّرة». أقول مؤكّدًا ظنّي وأتّجه صوب المئذنة. «يا ربّ»، أقول وأصعد جذع المئذنة الشبيه بسلم رباعي الوجوه، قضبان أربعة تشكّل أربعة سلالم لكلّ منها بضع درجات من قضبان حديد صغيرة تعترض أفقيًا القضبان العموديّة. أصعد من دون خوف من التّيار الكهربائي. أنا واثق ألاّ كهرباء في هذه الكابلات. أصل إلى الدّرجة السّابعة ثمّ أتوقّف.

لا نشيج. أين اختفى ذلك الصّوت الشّبيه بالبكاء؟

أصعد أكثر حتّى يلتقي رأسي بمكبّر الصّوت المنحور. أنظر إلى باطن تلك القّبة المعدنيّة الصغيرة الّتي هي رأس المئذنة.

أرى أربعة مصابيح منطفئة، لا روح فيها، تمامًا مثل تلك المكبّرات الأربعة. أمدّ يدي إلى مكبّر الصّوت وأهزّه. أصغي إليه، لا صوت. أين اختفى النشيج؟

صمتٌ مطبق.

المدينة صامتة. مكبّرات الصّوت صامتة وأنا ذاهل.

أنظر مرّة أخرى إلى المدينة. أرى الآن، وأنا متشبّث بالمعدن البارد، تلّ النبعة في الشرق، مِشْتَنُور الحزين في الجنوب، ثانويّة البنين تنكمش على نفسها على الهضبة الغربيّة مثل يتيم. وفي الشمال أرى سكّة الحديد تتمدّد مثل سيف. لكن أين كوباني؟ أين مدينتي؟ أين تلك الشوارع والبيوت والمدارس والأسواق والمساجد وأين النّاس؟

لا أرى سوى كتل متراكمة من الإسمنت المسلّح، وبيوت منهارة صامتة مثل امرأة قام عنها المغتصبون توًّا. يا إلهي! أين مدينتي؟ حارتنا ليست سوى أنقاض. كانيا عَرَبانْ، السوق، البيوت التي كانت تغفو على سفح مِشْتَنُور، كلّ مكان صار أنقاضًا. الزلازل القويّة وحدها تفعل بالمدن ما أراه الآن.

ألتفت إلى جهة المقبرة. أُصعق. يا إلهي! أين تلك القبّة الخضراء الّتي كانت تعلو قبور أهلي في الركن الشماليّ الشّرقيّ من المسجد؟ آه. إنّها مدمّرة. محطّمة. لقد وقعت تلك الخيمة الخضراء النورانيّة على روح جدي الشيخ وأبي

وأمّي.

لا أرى قبر أبي ولا قبر أمّي. إنّهما مدفونان تحت قطع القبّة الخضراء والسّقف الإسمنتي المائل.

حزينًا، ذاهلًا، يائسًا أنزل بسرعة إلى المقبرة كما لو أنّني سأنقذ أبي وأمّي من تحت الأنقاض. تسابقني دموعي وتنزل قبلي.

أتبع دموعي وأنزل إلى الأرض مثل نبيّ قادم من معراج.

الباكورة

وضعت خانِهْ أوّل ما وضعت مولودًا ذكرًا. لم تكن قد مضت سنة واحدة على زواجها حين شمّرت الدّاية العجوز خجو في حارة سَيْدا عن ساعديها وأمسكت برأس الجنين لتسحبه من بطن أمّه بمهارة الولّادات الحاذقات. قطعت حبله السري فيما الوليد الجديد يملأ البيت صراخًا طال انتظاره.

سمّى الحاج مسلم ولده محمد صالح. وهو اسم مركّب من اسم والده محمد الملقب حَمْزِراڤْ واسم شيخه الشيخ صالح. لكنّهم صاروا ينادونه في الغالب باسم حمِهْ. وعرفه النّاس باسم حَمِه المهاجر. ولد حَمِه وفي عنقه طوق اللّعنة ذاك: لقب المهاجر.

الجد مهاجر، والابن مهاجر والحفيد مهاجر وهكذا إلى أبد الآبدين.

لم يكن من الممكن التّخلّص من تلك اللّعنة في مجتمع مرجعيته الأمُّ العشيرةُ قبل الدّين والقوميّة والوطن. لكنّ العائلة ألفت لعنتها ولم تعد تأنفها. «يا ولدي! أن يطلق النّاس عليك لقب مهاجر ليس عارًا. إنّه محض بلاء». كثيرًا ما ردّد حَمْزِراڤْ المهاجر هذه الجملة على مسامع ولده مسلم الّذي صار يردّدها بدوره على مسامع حَمِه وإخوته الآخرين مواسيًا إيّاهم بها مخفّفًا من وطأة «مهاجر» الثقيلة.

فرحت إيسلم بولادة حَمِه كثيرًا. طوال مدّة نفاس خانِهْ اعتنت بالوليد وصارت تغسّله، تهدهده في حضنها، ترضعه الحليب «الإفرنجي»، تقمّطه وتهزّ مهده الحديديّ كأمّ حقيقيّة.

لكن لم يكد يمضي عام على ولادة حَمِه حتّى أصيبت إيسلم بمرض عضال. شخص الأطباء حالتها وأكّدوا أنّ وضعها خطير. لم ينفعها نقلها إلى المدن. فماتت في أحد مستشفيات دمشق.

تألّم الحاج مسلم كثيرًا لموتها، فقد بموتها زوجة وفيّة، طيّبة القلب. تألّم لأنّها ماتت بحسرة أن تنجب. لكنّه عاد إلى ممارسة حياته الطبيعيّة بعد مرور أسابيع على الوفاة. شغله ابنه الوليد وشغلته تجارته المزدهرة حتّى نسي آلامه في خضمّ ذلك.

ضجرت أليفة البينغوليّة من الحياة في كوباني. لم يكن أقاربها يزورونها، فعاشت مثل سجينة مع ضرّتها زَرْگِهْ في بيت واحد. دأبت الضرّتان على الشجار باستمرار، ولم يكد يمضي يوم إلاّ وتذهب أليفة إلى بيت ضرّتها الأخرى خانِهْ لتشكو زَرْگِهْ لها.

لم يبق أمام الحاج مسلم لقطع دابر المشكلات ووجع الرأس إلاّ أن يطلق أليفة

ويعيدها إلى تركيا. وهكذا كان: أعطاها سوارًا ذهبًا وأخذها إلى بيت أهلها ثمّ عاد.

كبُرَ حَمِه ترعاه أمّه وتمنحه الكثير من الدّلال والاهتمام مثل نبتة ريحان. أصبح كرة ذهب يتقاذفها الأبوان كلّ ليلة بسعادة بالغة.

بعده رزقت خانِهْ بمصطفى ثمّ تبعته خديجة، ثمّ رُزِقا ولدًا سمّوه متين. وبعد متين جاء باران ليأتي لَوَنْدْ بعد بضع سنين، ثمّ أتت آخرُ العنقود وريحانة الدّار جديلة الذهب رَوْشَنْ.

في عام ألف وتسعمائة وتسعين أصبح حَمِه تلميذًا في الصفّ الأوّل في المدرسة الريفيّة الّتي لا تبعد سوى بضع عشرات من الأمتار غربي حارة سَيْدا. ازدهرت تجارة الحاج مسلم كثيرًا ونمت ثروته حتّى صار لا يعرف كيف يتصرّف فيها.

بات في حاجة ماسّة إلى من يساعده فاضطرّ إلى الاعتماد على بعض أقارب زوجته زَرْكِهْ وبعض أبناء خاله من إخوة زوجته الأخرى خانِهْ. أرسل بعضَهم إلى حلب لشراء البضائع ووضع بعضهم في محلاّته كبائعين. لكنّه لم يكن يرتاح إليهم، وعرف أنّهم يأكلون ماله، حتّى أنّه قال ذات يوم لإمام مسجد الحارة ملا بشير:

- يا مولاي إنّني أعرف تمامًا أنّ الذين يعملون عندي يأكلون مالي، فهل يمكنني أن أعتبر ما يأكلونه من زكاة المال؟

- أجل يا حاج مسلم. لكن عليك أن تعرف أوّلًا هل يستحقّون الزّكاة أم لا؟ ثمّ عليك أن تعرف مقدار ما يأكلونه من مالك كما أن عليك أن تخبرهم بأنّ ما يأكلونه هو زكاة.

لم تعجب هذه الإجابة الحاج مسلم، فعمد إلى آخرين يستفتيهم فلم يحصل إلاّ على نفس الإجابة.

- أمري لله.

أذعن الحاج مسلم للأمر الواقع واضطرّ إلى الاعتماد على أهل زوجتيه حتّى بلغ حَمِه سنّ الرشد. صار والده يرسله إلى الدكاكين يتدرّب على البيع، ثمّ أخذه معه فيما بعد إلى حلب ليتعرّف إلى التجار. اطّلع حَمِه على أسرار المهنة وتعلّم سريعًا أصولها حتّى نال رضا والده، فسمح له بالبيع دينًا أيضًا. فرح كثيرًا حين رأى حَمِه يدير تجارته وهو حديث السنّ وصار يعدّ الأيّام والسنين حتّى يرى أولاده الآخرين متوزّعين على محلاّته التجاريّة.

في تلك الآونة بدأ لَوَنْدْ يخطو أولى خطواته في باحة الدّار الكائنة قريبًا من مسجد الشيخ صالح في حارة سَيْدا. ثمّ مضى زمن اعتقد خلاله الحاج مسلم

أنّ زوجته انقطعت عن الإنجاب لكنّه فوجئ بحملها ووضعها صبيًّا آخر.

* * *

كان متين في الصفّ الأوّل حين بدأ يرافق والده أو أخاه الأكبر حَمِه إلى الدكّان ليتعلّم أصول البيع:

- إيّاك يا متين أن يكون جوابك «لا يوجد» لأيّ زبون مهما كان طلبه.

- ماذا أقول إذن؟

- قل: «نفدت البضاعة لكنّنا أرسلنا في طلب المزيد، وهي في الطريق إلينا» ثمّ سجّل اسم البضاعة عندك في ورقة.

أصبح دأب حَمِه الذهاب باكرًا والجلوس في الدكّان وانتظار الزبائن حتّى المساء. هكذا قضّى الأيّام شتاء وصيفًا، فنال بذلك رضا أبيه وإعجابه بموهبته في التّجارة بالرغم من أنّه ترك المدرسة وهو في الصفّ السّادس الابتدائيّ.

هكذا تفرغ حَمِه للتجارة التي استهوته بعكس السّياسة التي لم يأبه بها. لم تكن الأحداث تهمّه. وحين مات رئيس سوريا الأبديّ في صيف عام ألفين كان في الثالثة عشرة من العمر. وحين رأى أحد جيرانه يصغي باهتمام لأخبار الراديو كان قاعدًا في الدكّان مشغولًا بإحصاء علب حليب الأطفال: «هذه الأخبار كلّها لا تطعم خبزًا. المهمّ هو أن ربحي في كلّ علبة يبلغ إحدى عشرة ليرة. هذه خمسون علبة، الأرباح الصافية خمسمائة وخمسون ليرة. هذا هو الخبر الجميل».

في الحارة، في السوق وفي كلّ مكان ناقش النّاس موضوع تولي ابن الرئيس المتوفّى سدّة الحكم. ضجر بعضهم حين سمعوا بذلك وردّدوا سرًّا: «ألن ننتهي من حكم هؤلاء؟». لكنّ كثيرين أحسنوا الظنّ في الحكم القادم لأنّ الرئيس الجديد شاب و«درس في أوروبا».

نـأى حَمِه بنفســه عــن الخــوض فــي هــذه المواضــيع. كمــا أنّه لــم يعــر أي اهتمــام لقصــص العشــق الّتــي شــغل أتــرابُه فــي ســنّ المراهقــة أنفسَهــم بــها. يتحــدّث رفاقــه عــن مغامراتهم أمام ثانويّة البنات دون أن يخوض هو فيها ويردّد مثل رجل رصين: «هذه أمور صبيانيّة».

حين عرف طعم المال والثّروة أراد أن يستقلّ عن البيت. كان في الثامنة عشرة من عمره حين قال لأبيه ذات مساء بعد عودتهما من العمل وجلوسهما إلى مائدة العشاء: «هل تعلم يا أبي أنّ العمل في الحفّارات يدرّ أرباحا طائلة! لماذا لا نشتري حفّارة لأذهب بها للعمل في المغرب؟ جيراننا أصبحوا لوردات من وراء العمل في الحفّارات. وصلت حفّاراتهم إلى السودان والجزائر».

لم يجب والده. بقي مطرقًا حزينًا. لم يكن قد مضى على وفاة زوجته زَرْگِهْ سوى

شهرين.

كانت قد بقيت وحدها في بيت زوجها الحاج مسلم الواقع قريبًا من مسجد الحاج رشاد. رفضت خانِهْ رفضًا قاطعًا أن تنتقل زَرْگِهْ إلى بيتها:

- ألكي تتشاجر معي كلّ يوم؟ مستحيل.

- حرام يا امرأة. إنّها تعيش وحدها.

- إن شئت اذهب وعش معها. من يمنعك؟

لـم يسـتطع الحـاج مسـلم أن يقنعـها رغـم محاولاتـه الكثـيرة. بقـيت زَرْگِهْ تتجـرّع مـرارة الوحـدة والوحشـة إلـى أن دخلـت الحـمّام ذات مسـاء وسـكبت زيـت الكـاز علـى جسدها وأشعلته لتتحوّل بعد ذلك إلى كتلة متفحّمة لا يُعرف جلدها من ثوبها النايلون.

راودت هذه الأفكار الحاج مسلم حين سمع صوت الأذان فنهض يريد الذّهاب إلى صلاة العشاء. لكن حَمِه عاد فسأل أباه:

- ماذا قلت يا أبي؟ هل نشتري الحفّارة؟

- كما تشاء يا ولدي.

ردّ الحاج بانكسار وهو يضع الشماغ على رأسه ثمّ يتبعه بالعقال. وقبل أن يخرج صاح في ابنته الصغرى:

- رَوْشَـنْ. ناوليني سترتي.

سرعان ما أحضرت الصغيرة سترته وناولته إيّاها ليرتديها ويتّجه صامتًا إلى المسجد.

وحـين عـاد بعـد سـويعة ودخـل الـدّار سـمع دنـدنة مـن إحـدى الغـرف، فاتّجـه صـوبها ودفـع البـاب بعنـف. رأى ابنـه بـاران ذا الخمسـة عشـر عـامًا جـالسًا علـى اللبـاد يحتضن آلة موسيقيّة ويعزف.

- ما هذا يا كافرًا من نسل كفار؟ أنت لا تصلّي فهمناها، لكن ما هذا الطنبور أيّها القوّاد؟

- هذا ليس طنبورًا يا أبي. إنها آلة تسمّى باغْلَمَة.

- غِبْ عن وجهي يا رذيل. ألك لسان تتكلّم به أيضًا؟ باغلمة، طنبور، خراء، كلّها آلات حرام. ألا تخجل! أنت جار لضريح حضرة الشيخ صالح. العمى.

نهض باران وهو يحمل آلته الموسيقيّة وقال لأبيه:

- يا أبي كلّ شباب حارة سَيْدا يعزفون. لو كان العزف حرامًا لمنعهم آباؤهم من ذلك.

احتدّ الحاج مسلم، صفع ابنه وصرخ فيه:

- لا تكذب يا حيوان. ألم أقل لك غب عن وجهي أيّها الخبيث؟

نظر باران بحدّة إلى والده، حمل آلته ثمّ غادر الغرفة. حين صادفه حَمِه خارجًا سأله: «هيه! ما الأمر؟».

ردّ باران قبل أن يخرج من باب الدّار ويصفقه خلفه:

- لقد جُنَّ والدك بسبب موت زوجته زَرْگِه. زوّجوه قبل أن ينيكنا.

لم يشأ حَمِه أن يزيد من عصبيّة والده في تلك اللّيلة، لذلك لم يشأ أن يحدّثه ثانية عن موضوع الحفّارة، لكنّه استغرب حين دعاه والده قبل النّوم وقال له:

- تعال يا بني. حدّثتني قبل ساعة عن الحفّارات. ما الموضوع؟

- نعم يا أبي. قلت لو نشتري نحن أيضًا حفّارة لآخذها إلى المغرب. لقد كبر متين ويمكنه مساعدتك في التجارة.

- وهل تعتقد أن الحفّارات مربحة؟

- ألا ترى جيراننا؟ لا يعرفون أين يخزنون أموالهم. كلّ ذلك بفضل الحفّارات.

- سنبحث الأمر يا ولدي. أنا أيضًا أفكّر مثلك.

رائحة الذكرى

لا أعير أيّ اهتمام للنشيج المستمرّ.

أَلِفتُه.

أمشي بين قطع الإسمنت المسلّح وأكوام التراب والحجارة المتناثرة. أتّجه إلى المقبرة. يخفق قلبي. أشمّ رائحة مّا. رائحة عطرة تنعش ذاكرتي. رائحة تذكّرني بماض حزين وجميل معًا. كلُّ ماضٍ جميلٌ حتّى بآلامه. إنّه عطر الذاكرة إذن يجذبني إلى المقبرة.

بعد خمسة عشر عامًا سأمثل مرّة أخرى صامتًا أمام قبريْ أبي وأمّي. سأمسح شواهد قبريهما مستذكرًا وجهيهما النّضريْن. بعد خمسة آلاف ومائتين وتسعين يومًا على جفاف روحي، بعد خمسة آلاف حلم بالعودة حيث أقف في كلّ حلم على بوّابات الحدود دون أن أقدر على العبور وحين أستيقظ لا أرى سوى عرق يتصبّب من جبيني وغصّة في حلقي، بعد خمسة آلاف أمل ذابل هأنذا أتّجه إلى تلك القبور الّتي كنت أزورها في أنصاف الليالي أيضًا.

حين ماتت أمّي ضاقت بي الدنيا. تركت الدّراسة في جامعة حلب وعدت إلى كوباني. وبالرغم من أنّني كتبت قصائد رثاء كثيرة إلاّ أنّ حَرَّ كبدي لم يبرد. كثيرًا ما توجّهت في أنصاف اللّيالي وحيدًا إلى المقبرة لأبقى عند قبرها ساعة من الزمان، ثمّ أعود دامع العينين كسير القلب إلى البيت.

في طفولتي كنت أخاف من المقبرة كثيرًا. نشأنا على قصص عذاب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير وغضب الشّجاع الأقرع الّذي يحاسب الميت على ترك الصّلاة. نشأنا أيضًا على قصص نبّاش القبور الذي يلتهم لحم الميت حديثًا وقصص الأموات الذين يقومون من قبورهم وعزرائيل الذي يقبض الأرواح، وغير ذلك من الأمور التي يقشعرّ لها بدن المرء. بالرغم من كلّ ذلك كنت أذهب في عتمة منتصف اللّيل إلى المقبرة المظلمة لأجلس بجانب قبر أمّي وأستأنس بالوحشة.

غلب الحزنُ الخوفَ.

بقيت هكذا حتّى خافت أخواتي عليَّ.

- زوّجوه قبل أن يُجَنَّ أو يموت كمدًا.

هكذا قالت لأخواتي الخالةُ خجو، الداية التي ولدت على يديها، صديقة أمّي التي كانت تزورنا كلّ ليلة لتصلّي وراءها صلاة العشاء وتسمع منها «سورة ياسين».

لم أقبل أن أطفئ نار أحزاني بمباهج الزواج. لم يكن أمامي سوى المرور بتجربة قاسية لكي أنسى الجرح الذي سبّبه موت أمّي في روحي.

لم يكن أمامي سوى الالتحاق بالجيش. خدمت سنتين ونصفًا من أقسى سنوات عمري في بيروت.

أمشي الآن إلى المقبرة حزينًا صامتًا غارقًا في الوحشة والكآبة. تصمت الذاكرة قليلًا.

السكون سلطانٌ. أكاد ألمس الصّمت بيدي من ثقله. أكاد أرى الصّمت، أتذوّقه وأشمّه أيضًا. بل أكاد أسمع صوته يَرِنُّ حولي مثل ناقوس.

أتحسّس الصّمت بكلّ جوارحي.

«الصّمت قرين الموت». أقول لنفسي وأرى أنّني أصبحت بجانب أحد القبور.

أعرف ذلك القبر. أعرفه من رائحة دموعي الفائحة من ترابه. إنّه قبر أمّي. إنه ذلك القبر الذي نثرتُ فوق ترابه بذور شقائق النعمان وغرست فرع شجرة رمان ذات ربيع قاتل قبل سبعة وعشرين عامًا.

«لقد عدت يا أمّي». أقول وأنخرط في البكاء. في تلك اللّحظة أشعر بالصّمت آنية كريستال تتكسّر حين تقع على أرضٍ رخام.

لا أتوقف عن البكاء قبل أن أفترش الأرض وأحضن القبر. أحضن شجيرة الرّمان العارية. أحضن الشاهدة وأقبلها. أشمّ القبر وترابه الذي بلّله المطر. أشعر بسفافيد محميّة تنفذ من قلبي.

يتراءى أمام ناظري خيال تلك المرأة النورانيّة، صبرها وهدوؤها وآلامها.

- ليتني كنت شاعرة مثلك يا بني لأكتب عن أوجاع قدمي.

قالت ذات يوم متحسّرة بعد أن عادت من وقفتها الطويلة أمام التّنور لتجلس في ظلّ شجيرة الرّمان وسط الدّار.

في المساء كتبت وقرأت على مسامعها قصيدة على لسانها تتحسّر فيها على أيّامها الخوالي. كانت تجلس في غرفتها يقطر الحزن من ملامح وجهها المتعب حين أصغت باهتمام إلى ما كتبته. بكت. رأيت دررًا نقيّة لامعة في ضوء المصباح تتدحرج على وجهها، لم تعلق بشيء. استغفرت ربّها وقامت إلى سجّادتها تصلّي.

تمتزج صورة القبر البارد أمامي الآن بصورة تنّورها. صمت القبر يمتزج بصدى سعير التنّور في تلك الأيّام الخوالي. رويدًا رويدًا تتناهى إلى سمعي أنغام موسيقى الياباني كيتارو. تمتزج الأنغام بالصّدى والصّمت.

في عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين حصلت في حي كاراكوي بإسطنبول،

في شارع يُدعى شارع كَمانْكَشْ، على كاسيت للموسيقار الشهير كيتارو. لا أعرف لماذا لا أنسى اسم ذلك الشارع، لكنّني استمعت مئات المرّات إلى تلك الموسيقى التي كانت تذكّرني بشيئين: تنّور أمّي بناره المستعرة وأمواج البحر في أوّل الخريف. وبالرغم من اسم ماستوري الذي أطلقه الموسيقار على قطعته البديعة تلك فإنّني كنت أشعر بها مرعبة وحزينة في آن واحد.

أنا لا أخاف المقابر مهما كانت موحشة. لكنّ الوحدة تضجرني. المدينة الخالية تريق في قلبي كآبة لم أعهدها قبلًا. الحارة الخالية تغرز في أحشائي نصالًا مثل الشوك.

نار صامتة تستعر في كياني.

«ها قد عدت يا أبي». ألتفت إلى قبر أبي. قبره بجانب قبر أمّي. حين مات ذات شتاء قارس حفرنا له قبرًا بجانب أمّي ودفنّاه فيه. كانت هذه وصيّته. لم أكن أعرف أن أبي يكن لأمّي ذلك القدر من الحبّ. لم يكن يفصح عن عاطفته أمامنا. لم نسمعه يومًا يقول لها «أحبك».

لكن حين رحلت أمّي ربيع أحد الأعوام عرفت أنّه يحبها كثيرًا. اهتزّ كيان أبي لموتها. ذات يوم جلس بجانبي وبكى. بكى كثيرًا مظهرًا كلّ عجزه وضعفه وإنسانيّته ومشاعره التي أخفاها لعشرات السنين. كنا وحيدين في باحة الدّار نستند بظهرينا إلى جدار الغرفة التي ولدتُ فيها ونستقبل القبلة التي جادت علينا بشمس دافئة. شاهدت في ضوء الشمس لحية أبي التي بللتها دموعه مثل خيوط تحمل خرزًا شفيفًا.

تهدأ موجة البكاء فأتجوّل قليلًا بين القبور. ها هم أمامي: أخي الذي قضى قبل ستّة عشر عامًا في حادث سيّارة، جدّي، جدّتي، عمّي، أصهاري وعمّتي وقبور أخرى جديدة. لكن أين قبر أخي خلّو؟ لماذا لم يدفنوا أخي الذي جئت لأجله إلى هنا في هذا المكان؟

- مرحبًا خال.

أسمع هذه التحيّة فأرتجف رعبًا. أتسمّر في مكاني. تصطكّ ركبتاي ولا تكادان تحملانني. أقنع نفسي أنّ الصّوت يتهيّأ لي بسبب وحشة المكان والصّمت المطبق. أحاول أن أكلّم نفسي بصوت مرتفع دفعًا للخوف لكنّني لا أقدر على ذلك فأخلد للصّمت.

الصّمت مرّة أخرى.

- مرحبا خال.

يأتي الصّوت هذه المرّة واضحًا عاليًا. إنّه قادم من خلفي. ألتفت ليصيبني الذهول. إنّه أحد أبناء أخواتي النازحات.

- أهذا أنت يا حَمُّودة؟

- أنا هو يا خال.

شاحب الملامح. يرتدي بنطال جينز حائل اللّون وسترة سوداء ويتنكّب بندقيّة تتدلّى بلامبالاة بجانبه. بيده هاتف جوّال ويبدو أنّه يلتقط صورة ما.

- أرعبتني يا حمود. قل لي عمّ تبحث؟

- أنا الذي يجب أن يطرح هذا السؤال عليك خال! أنا صاحب المكان الآن وأنت ضيفي. أنا أرسم الخراب العميم فماذا تفعل أنت؟

يجيبني ابن أختي مع ابتسامة ذابلة.

- عندك حقّ يا ابن أختي. جئت لأحضر دفن خالك خلّو.

أجيبه بنغمة يلفها الأسى.

- لقد دفنّاه في الغرب قريبًا من مقبرة الشهداء يا خال. كلّ الطرق إلى حارة سَيْدا مغلقة بسبب الأنقاض. لا السيّارات ولا البشر يستطيعون العبور منها، لذلك لم نأت بالجثمان إلى مدفن العائلة. صحيح كيف جئت إلى هنا؟

- لا أعرف. لقد جئت.

- كيف عرفت حارة سَيْدا؟ لقد تحوّلت إلى أنقاض وأنت غائب عنها منذ خمسة عشر عامًا؟

- حين يكون القلب رائد المرء فإنّه لن يتوه.

- كلّ القلوب؟

- القلوب التي وقودها الحنين.

- التي يقودها الحنين!

- نعم وقودها يقودها.

- لم يبق شيء يا خال.

- كلّ شيء بقي يا ابن أختي. كلّ شيء.

- إنّها أطلال.

- الخيال بنَّاءٌ ماهر.

- خرائبُ هجرها أهلها. الحارة فرغت من سكّانها.

- إنها مليئة بالأرواح والحجارة التي بنينا بها بيوتنا في هذه الحارة. وأنت حارس الاثنين.

- الأرواح والحجارة؟

- نعم! الأرواح والحجارة.

لا أسـأله لـم هـو هنـاك. ولا كـيف يعـيش وحيـدًا بـين تلـك الأنقـاض. يـدير لـي ظـهره ويمشـي بضـع خطـوات، لكـن سـرعان مـا يتـوقّف، يلتفـت وينظـر إلـيّ مبتسـمًا تلـك الابتسامة الحزينة الذابلة ذاتها. ثمّ يدير ظهره ويمشي من جديد. تهتزّ البندقيّة على كتفه لا مبالية بأيّ شيء ويبتعد عن المقبرة.

- إلى أين يا حمودة؟

- سأقاتل الخراب وأقتنص الوحشة.

- حمودة! يا حمووود.

أصيح خلفه لكنّه لا يلتفت. إنّه الآن خارج المسجد.

تتخاطفني الظّنون. أشك في أنّ ما أراه حقيقة. أعتقد أن سبب ذلك هو وحشة المكان ووحدتي فيه.

أجلس بجانب قبر أبي. أنظر بحزن إلى الشاهدتين اللّتين تحطّمتا. أتحطّم أنا أيضًا.

«اعذرني يا أبي». أقول وأنهار مثل شاهدتي قبره المحطّمتين أمامي.

القبّة الخضراء التي كانت تظلّل قبور جدّي وأمّي وأبي والآخرين وكان النّاس يحلفون بها، منهارة متحطمة. لا أعرف إن كان قصف الطيران سبب ذلك أم داعش هي التي فجّرت ضريح جدّي أم مدفعيّة المقاتلين أصابت القبور. «وما الفرق؟ النتيجة واحدة. سواء كان هذا أم ذاك. الضريح المقدّس تحطم» أقول لنفسي بصوت حزين ومسموع.

تلك القبّة المحطّمة والواقعة أرضًا تحولت إلى شبه خيمة تحمي القبور. أتعجب من هذا المشهد. يبدو كما لو أنّ أعمدة لامرئيّة تحمل سقف الضريح لئلاّ يقع على قبر والديَّ أو أنَّ روحيهما ترفعان السّقف المنهار.

حين دخلت داعش المدينة ووصلت طلائعها إلى حارتنا، توقّعت أن يحدث مكروه لمدفن العائلة بسبب القبّة الخضراء المبنيّة على القبور.

«سيدمّرون الضريح ويلحقون الأذى بعظام أمواتنا الواهنة». كتبت منشورًا وأضفت: «أرى عظام ساقيك النحيلتين تتطاير في الهواء يا أبي».

وأنا أتذكّر تلك اللّحظات الأليمة، أنحني على قبر أبي لأرفع عنه الحجارة وقطع الإسمنت. أرمي ما تصل إليه يداي على ذلك السطح المنحدر إلى جهة الشارع شمالي المقبرة، ثمّ أصغي إلى السّكون الصاخب.

الخروج من غابة الزيتون

في أحد أيّام ربيع عام ألفين وقفت حفّارة جديدة أمام باب الحاج مسلم المهاجر. تدلّت منها في الخلف فردة حذاء من أحذية رَوْشَنْ، ونعل فرس وخرزة زرقاء كبيرة لدرء إصابتها بالعين ودفع شرّ الحاسدين.

طاف الحاج مسلم وولده حول الحفّارة الجديدة وصارا يردّان بين حين وآخر تحيّات المارّة وتبريكاتهم.

طافت رَوْشَنْ ذات العامين بدورها حول الآلة العملاقة وجديلتها اللاّمعة تنثر نورًا ذهبيًا. سألت أخاها بما تعلّمته من كلمات: «ما هذا يا أخي؟». أخذها حَمِه في حضنه، قبّلها وقال لها: «يقال لها حفّارة. إنّها تحفر آبارًا عميقة في باطن الأرض لاستخراج الماء». أفلتت رَوْشَنْ نفسها من حضن أخيها وركضت حتّى وقفت خلف الحفّارة، فوقع بصرها على فردة الحذاء المتدلّية فصارت تشير إليها وهي تكاد تبكي. وضع حَمِه حفنة من الحمص المحلّى بالسكر في راحتيْ يديها فهدأت.

- حبيبتي رَوْشَنْ. تعالي لأحمّمك.

أخرجت خانِهْ رأسها من باب الدّار وصاحت على ابنتها المشغولة بقضم حبّات الحمص وهي تنظر إلى فردة الحذاء بأسى.

* * *

بعد بضعة أيّام سافر حَمِه مع حفارته واثنين من العمال إلى تونس. كان في نيّته أن يكمل سيره إلى الجزائر أو المغرب لكنّه علم أن ثمّة مجالًا واسعًا للعمل في حفر الآبار بتونس نفسها، فبقي فيها ونصب خيمته على جانب طريق يصل بن قردان ببلدة تطاوين. رتب أشياءه وحاجاته في الخيمة وأوقف حفّارته قريبًا منها. لم يمض أسبوع حتّى أتاه مزارع تونسي ودعاه لحفر بئر في أرضه. بعد ذلك ابتسم الحظ لحَمِه فانهالت عليه طلبات حفر الآبار وصار ينتقل من بقعة إلى أخرى يواكبه النجاح أنّى ذهب.

مضت عدّة أشهر على ذلك المنوال، ثمّ استأجر حَمِه بيتًا في تطاوين ليأتي كل يوم بسيّارته البيك آب إلى موضع عمل الحفّارة ثمّ يعود.

ولم ينس في خضم العمل نصيبه من الملذات فصار يذهب بعض أيّام الجمعة إلى بن قردان لينزل نهارًا إلى البحر ويلجأ ليلًا إلى النوادي والكباريهات يشرب الخمر ويسهر مع الفتيات حتّى الفجر إلى أن علق قلبه بواحدة منهن.

كانت الفتاة أمازيغيّة حلوة من جنوب تونس. مكتنزة الشّفتين، سمراء البشرة لها عينان كأنّهما غابتا زيتون. مدوّرة الوجه قصيرة الشعر صوتها كأنّه العسل

يقطر في آذان السّامعين. وجد حَمِه نفسه غارقًا في لجّة هائجة من بحر الحب. «لا حول ولا قوة إلاّ بالله. لماذا لم أعشق سوى فتاة ليل! ما هذا البلاء يا رب؟».

حاول كثيرًا أن يكبت مشاعره لكنّ الحبّ غلبه.

وقع بين براثن حبّ جارف، واضطرّ أخيرًا إلى أن يخبر أهله عن رغبته في الزواج.

رفض والده بشدّة، رفض الموضوع جملة وتفصيلًا، وقال له ذات اتّصال:

- «هل انقرضت البنات في كوباني يا ولدي؟ حين تعود إلى كوباني سنتدبّر الأمر. أمّك تقول إنّها ستخطب لك البنت التي ترغب فيها. فقط عليك أن تشير إليها بطرف أصبعك».

لم يعرف حَمِه كيف وفي أيّ ليلة جرفه موج ذلك العشق العظيم. لم يعرف كيف جذب سحر غابتي الزيتون معدن قلبه مثل مغناطيس. لم يجد نفسه إلاّ وهو عاشق ولهان يستيقظ صباحًا فلا يذهب للعمل بل يتّجه بسيّارته إلى حارة قريبة من البحر في بن قردان حيث يروض قلبه ويطفئ نيران شهواته.

لم يكتف بذلك. بل سلّم بيته في تطاوين إلى عامليه واستأجر لنفسه بيتًا آخر في بن قردان ليكون قريبًا من حبيبته أسُّومة. لم يمض وقت كثير حتّى تعرف عن طريق حبيبته الأمازيغيّة إلى شاب لطيف اسمه زياد بن تاجي. كان زياد شابًّا حلو الملامح نشيطًا يرتدي بنطال جينز وقميصًا مفكوك الأزرار حتّى منتصف صدره، في رقبته قلادة ذهبيّة غليظة ويضع دائمًا على عينيه نظارة شمسيّة، يقفز من هنا إلى هناك، يعرف أماكن اللّهو ركنًا ركنًا ويقضّي أوقاته فيها. تعمّقت صداقته مع حَمِه فعرَّفه على فراديس مخبوءة وكنوز من اللّذة مخفيّة. ذهب به في ليالي الجمعة والسبت إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط عند بحيرة بيبان لينصبوا الخيام هناك ويحتسوا الخمر ويلهوا مع بنات اللّهو حتّى بزوغ الفجر.

تعرف حَمِه خلال ليالي لهوه إلى بنات كثيرات وعاشرهن لكن لم تستطع أيّ واحدة منهنّ أن تزيح من قلبه حبّ أسومة صاحبة العينين الشبيهتين بغابتي زيتون عند الغروب.

* * *

مضت ثلاث سنوات على هذا المنوال. ألقى حَمِه كلّ ذكرياته عن كوباني وشوقه إليها في صندوق النسيان. كان يردّ حين يشتكي والده تأخّره في زيارة أهله قائلًا: «يا أبي أنا أحفر الآبار ليلًا نهارًا. الإزميل لا يتوقف لحظة واحدة. لا أقدر على العودة الآن». وحين طلب أبوه حضور حفلة عرس أخيه مصطفى تذرّع بحجج شتّى ولم يذهب. وحدها ليالي الأنس، عينا أسومة وحفلات العربدة تحت الخيام المنصوبة على رمل شاطئ المتوسّط أصبحت عالمه البديل عن كلّ ما سواه.

ذهب بصحبة أسّومة مرّات عديدة إلى العاصمة. في إحدى المرّات تنزها في شارع بورقيبة ليدخلا عبر شارع روما إلى الأزقة الضيّقة ويصادفا شجرتين عملاقتين هرمتين في إحدى السّاحات الصغيرة. كانت أغصان الشجرتين متعانقة بشكل لا يميّز المرء بينهما. توقف حَمِه فجأة. غمره شعور غريب وهو يحدّق تارة إلى الشجرتين وتارة إلى غابتي الزيتون في عيني أسّومة. فجأة أخذ أسّومة في حضنه وهمس لها: «هاتان الشجرتان أنا وأنت. لن يفصل بين روحينا أحد». ثمّ صعدا إلى شقّة في الطابق الرابع من مبنى موحش ودخلا غرفة صغيرة بسرير معدنيّ بسيط ليقضّيا ليلة من ليالي جنون الأجساد.

ساءت أوضاع العمل على الحفّارة بعد انشغاله ومغامراته. قدم حفارو آبار آخرون من كوباني فنافسوه في العمل وضاربوا عليه حتّى قلّ العمل عنده رويدًا رويدًا، ولم يعد يستطيع أن يغطي نفقات عربداته وليالي لهوه على شاطئ البحر. أمّا أسومة فقد غابت فجأة مثلما ظهرت فجأة في حياته، غابت ولم تترك أيّ أثر يدل عليها. وأمّا زياد فقد توجّه إلى الجزائر واختفى عن الأنظار ليجد حَمِه نفسه بلا ظهير. احتاج إلى المال فصار يقترض من هذا وذاك قروضًا ربويّة. حتّى إنه اقترض من عامليه أيضًا وكاد يغوص في لجة الإفلاس. لكنّ اتّصالًا من أبيه أنقذه من مزيد الانحدار:

- يا بني عد بسرعة.

- يا أبي الحفّارة....

- تبًّا لك وتبًّا للحفّارة. أقول لك عد بسرعة. أخوك مصطفى أصيب بطلقات ناريّة. ربّما لن تدركه حيًّا.

- طلقات ناريّة؟ مصطفى!

بوجه متجهّم ونغمة حزينة وصوت مرتعش خائف قال لعامليه:

- قوموا يا شباب. سنعود إلى كوباني. فكّوا الخيمة.

* * *

وصل حَمِه بعد أيّام من السفر إلى سوق كوباني قادمًا من تونس. من هناك قاد سيّارته باتجاه حارة سَيْدا. وما إن وصل إلى رأس الحارة من جهة الشمال حتّى التفت يمينًا ليصل بعد ثوانٍ قليلة إلى باب بيته. خرجت رَوْشَنْ إلى الشارع كما في كلّ مرّة حين تسمع هديرًا لتشاهد السيّارة العابرة. صاحت بها أمّها من وسط فناء الدّار:

- يا مقصوفة العمر عودي إلى البيت. لا بدّ أن يأتي يوم تعودين فيه بلا رأس بسبب شقاوتك.

سمع حمِه الذي وصل في تلك اللحظة بسيّارته إلى الباب صوت أمّه. فنزل وابتسم في وجه رَوْشَنْ قائلًا:

- يا شيطانة! ألم تعرفيني؟ أنا حمِهْ.

وقبل أن تجيب أخته سألها ثانية:

- كيف حال مصطفى؟

- ماماااااا.

التفتت رَوْشَنْ إلى الخلف فبانت جديلتها اللاّمعة وصاحت دون أن تغادر الباب. احتارت بين أن ترتمي في حضن أخيها أو أن تعود إلى الدّار لتبشر أمّها الحزينة بقدومه.

وفيما هي غارقة في حيرتها وتردّدها أخذها أخوها في حضنه وأمطر وجنتيها بالقبلات ثمّ أمسك بجديلتها وقال:

- ما أخبار هذه الأفعى الذهبيّة يا رَوْشَنْ؟

فهمت خانِهْ أنّ ثمّة أشخاص غير رَوْشَنْ لدى الباب فخرجت من غرفة المعيشة لترى من هناك. في تلك اللّحظة دخل حَمِه البيت وهو يحمل أخته في حضنه.

حين رأته خانِهْ في وسط الدّار صرخت وصارت تضرب صدرها وهي تولول وترثي ابنها مصطفى.

لم يعد بحاجة إلى من يخبره بموت أخيه. تسمر في مكانه واتّسعت عيناه. وضع أخته الصّغيرة على الأرض وصاح:

«أمااااه. ماذا جرى لمصطفى؟ أين هو؟».

* * *

احتارت عيشة، بعد مقتل زوجها مصطفى، في أمرها. هل تبقى في بيت حماتها وعمّتها أم أنّ أباها لن يقبل بذلك وسيعيدها إلى البيت!

وذات مساء، بعد انقضاء أربعين يومًا على مقتل عريسها الذي لم تذق عسيلته إلاّ قليلًا، جاء والدها ليتباحث مع الحاج مسلم مصير ابنته الأرملة. في النهاية توصلا إلى أن تبقى عيشة في منزل الحاج مسلم بعد عقد قرانها على أحد إخوة مصطفى. ولأن حَمِه هو الأكبر بين إخوته فقد قال والده: «أفضل حلّ هو أن نعقد قران حَمِه على عيشة». سأل والد عيشة: «طيّب وإن لم يقبل؟». رد الحاج مسلم بحدة: «ما هذا الكلام؟ كيف لا يقبل؟ سيعود قريبًا ونعلن عن عقد قرانهما وانتهى الأمر».

حين عاد حَمِه حاول التّملّص من ذلك الزواج مختلقًا أعذارًا شتى. فكّر في أن

يعود إلى تونس، إلى ليالي أنسه وسهراته وعسل ملذّاته يقضيها مع ذلك الجسد الأسمر الذي أنضجته الشمس مثل حبة تين. في البداية رفض بشدّة. صار يبيت خارج البيت ويسهر في المقصف الموجود أمام مخفر الشرطة يسكر على أنغام أغاني أمّ كلثوم. يسرد لرفاق أنسه قصته مع أسُّومة. يخرج صورتها من جيبه، يتأوّه ويقول: «انظروا إلى حبّة الفستق هذه، انظروا إلى زمرّد عينيها! كيف تركتها أنا الحمار؟ قولوا لي بالله عليكم كيف سأنساها؟».

وذات ليلة، بينما كان يسهر كالعادة في المقصف مع أحد أصدقائه، يحتسي العرق ويسمع أغنية «الحب كده» لأمّ كلثوم، قال له رفيقه: يا حمِهْ! يا مجنون. تزوّج أرملة أخيك. يمكنك إن شئت أن تسافر بعد ذلك إلى تونس وتعود متى تشاء». أعجب باقتراح رفيقه، ضرب بقبضة يده على جبينه وقال: «يااااه! كيف لم تخطر هذه الفكرة على بالي قبلًا؟».

أخيرًا تزوّج أرملة أخيه. كان ذلك الزواج بالنسبة إليه مثل ابتلاع جمرة أو ازدراد لقمة مغمسة بالقطران أو تجرّع كأس من السم.

لكنّه بعد عدّة أشهر ألف زوجته وبدأ يحبّها ثمّ أنجب منها زوزان وسيامند. انشغل بطفليه وعمله حتّى نسي تونس واعتاد الحياة التي سيق إليها سوقًا.

بعد أن بدأت المظاهرات ضدّ النظام في كوباني وازدادت المشكلات في المنزل، رغب في أن ينفصل عن والديه وينتقل إلى بيت زوجة أبيه المتوفاة زَرْگه. لكنّ والده رفض بشدّة قائلًا:

- كيف ذلك يا ولدي؟ وإلى أين ستذهب المرأة المسكينة وأطفالها الذين يسكنون البيت؟ لن أخرجهم مهما حصل. حرام. هم ضحايا حرب ولجؤوا إلينا. أنطردهم؟

ألا تعرف من أين أتى جدّك؟ لقد هرب هو أيضًا من الحرب ولجأ إلى هذا المكان.

كانت امرأة نازحة من ريف إدلب قد سكنت مع أولادها الأربعة في بيت الحاج مسلم القريب من جامع الحاج رشاد في الغرب حيث سكنت زرگه من قبل وذلك بعد موجة نزوح كبيرة تعرّضت لها كوباني، فجاءها نازحون كثيرون من ريف إدلب وحلب وغيرهما هربًا من الحرب. في البداية غصّت بهم المدارس والمساجد ثمّ سكنوا البيوت. ارتفعت الإجارات إثر موجة النّزوح فاضطرّ بعض النّاس إلى بناء طوابق على عجل فوق أسطح بيوتهم وأسكنوا عائلات النّازحين بالأجرة وانتعشت سوق العقارات نتيجة ذلك.

أما الشباب الذين قادوا الحراك الجماهيري في المدينة فقد أنشؤوا هيئة إغاثيّة مهمّتها توزيع المعونات على النّازحين كالسكّر والأرزّ والزيت وحليب الأطفال ومواد التدفئة.

في صيف عام ألفين واثني عشر انتقل حَمِه مع زوجته وولديه إلى حلب وسكن في حي الأشرفيّة. لكن نار الحرب وصلت إلى ذلك الحي بعد أن امتلأ بالمسلّحين. لم يستطع ولداه النوم ليلًا بسبب صيحات المتقاتلين وأزيز الطلقات وهدير العربات المصفّحة. حاصرهم الخوف ولم يعد أمامهم إلاّ أن يعودوا إلى كوباني ويلقوا بأنفسهم في ظلالها الآمنة كما فعل كثيرون آخرون.

في ذلك الحين كانت المرأة الإدلبيّة قد اجتازت الحدود مع أولادها إلى تركيا ولم تبقَ حجّة لدى الحاج مسلم لكي يمنع ابنه الآن من الانتقال إلى ذلك البيت.

فخاخ الذاكرة

أسمع نعيق غراب. بدل ذلك النشيج المؤلم أسمع الآن نعيق غراب. أنا جالس تحت السّقف المائل المنهار فوق قبريْ أبي وأمّي. أصغي بانتباه إلى مصدر النّعيق. إنّه هناك، في الأعلى. ثمّة غراب جاثم على هلال المئذنة النحيل فوق القبّة المعدنيّة. ينعق ووجهه إلى الجنوب. أحمل حجرًا من فوق قبر أبي وأرمي الغراب به. يرتطم الحجر بالقبّة المعدنيّة فيصدر رنينًا مديدًا لكن الطائر الأسود لا يطير. أحمل حجرًا آخر وأعيد رجمه لكنّه لا يطير. أحمل حجرًا آخر وآخر وآخر دون جدوى. يبدو كأنّ الغراب ملتصق بهلال المئذنة المفتوح على القبلة.

أضيق ذرعًا بما أراه. أنهض. يصطدم رأسي بالسّقف الإسمنتي. «آه يا أمّي»، أقولها بتوجع وأنظر إلى قبرها. أشعر أنّ أمّي تتألّم لأجلي في قبرها. أكاد أراها تحني رأسي لتضعه في حجرها وتقبّله.

أحني رأسي لأتفادى السقف الواطئ المائل وأخرج. ألمح قبر مَجْحَانْ آغا ذا الشاهدة العالية المحفور عليها بالحروف العربيّة اسمه وتاريخ وفاته، وفي الأعلى كلمة الفاتحة منقوشة بخطّ جميل. أفتح كفيَّ. أغمض عينيَّ. وأقرأ الفاتحة.

كان مجحان آغا زعيم عشيرة البيجان رجلًا ثريًا وملّاكًا كبيرًا جوادًا. وحين وفد جدّي الشيخ صالح إلى كوباني بأمر شيخه أحمد الخزنوي، وهبه الآغا قطعة أرض ليبني فيها دارًا له ومسجدًا يؤمّ فيه المصلّين بالإضافة إلى تكيّة لنشر الطريقة النقشبنديّة. كما منحه أرضًا جنوبي البقعة التي بنى عليها المسجد، وقال له: «مولاي الشيخ. تستطيع أن تحوّل هذه الأرض إلى كرم عنب لو شئت». نهض المريدون لفلاحة قطعة الأرض تلك وزرعوها بشجيرات العنب والتّين، ثمّ سوّروها بحائط من الحجارة بعد أن انتهوا من بناء مسجد لشيخهم ودار تسكن فيها عائلته.

تغزو هذه الأحداث ذاكرتي وأنا أقرأ الفاتحة. أترك قبر الآغا الكريم مجحان لأقف عند قبر أخي الذي قضى في حادث سيّارة. ينعصر قلبي وتتكدّر روحي. أتذكّر عصر ذلك اليوم حين جاء وودعني:

- سأذهب إلى حلب. هل تريد شيئًا؟

- أريد سلامتك يا أخي. الله معك.

عاد إلينا في اليوم التّالي جثّة هامدة وترك وراءه ولدين يتيمين وأرملة ستعيش على ذكراه أبد الدّهر.

أدير ظهري للمقبرة. أخاطب الأرواح بصوت لا يخرج من حنجرتي: «أودّعكم الآن.

سأعود مرّة أخرى».

أغادر المسجد مسرعًا كما لو أنّ موعدًا على وشك أن يفوتني.

لا يزال الغراب هناك في الأعلى يمزّق ستارة الصّمت في حارة سَيْدا بمقصّ نعيقه الشبيه بقرقعة حجري صَوَّان. السّماء كما هي. لا الشمس تشرق ولا الظّلام يُخيّم. هي صافية لكنّها ليست زرقاء. الزمن لا يتحرّك. الزّمن صخرة صمّاء لا يمكن تحريكها.

عند باب المسجد خارجًا أسمع تكتكةً. أصغي بانتباه. إنّها صادرة من أطلال بيت ابن أختي أَحْمِهْ المواجه للمسجد. أتوجّه إليها. أقصد تلك التكتكة. بيت ابن أختي منهار تمامًا. يبدو الأثاث من تحت كتل الإسمنت والحجارة: صهريج الماء، الغسّالة، خزانة الثياب، التلفزيون، زجاجات الويسكي، زجاجات العرق وغيرها.

أقف أمام كومة حجارة. الصّوت يصدر من هناك. أزيح بعض الأحجار فتظهر ساعة حائط. ساعة بعقارب سوداء وميناء أبيض وأرقام رومانيّة. عقرب الثّواني مازال يدور. تك تك تك. العقارب تشير إلى السّاعة الخامسة وأربع عشرة دقيقة. أتعجّب. تبقى تلك السّاعة في يدي لبرهة دون أن يتحرّك عقرب الدقائق.

«لقد غطَّ زمن هذه المدينة في نوم عميق». أقول وأضع السّاعة من يدي ثمّ أخرج. أخرج؟ ما من جدار بقي قائمًا فكيف أخرج! ليست «أخرج» سوى كلمة مجازيّة.

أتراجع إلى الخلف لأجد نفسي في الشارع. ألمح بيت عمي المتهدّم أيضًا. عمي الذي قضى في حادث سيّارة، مدرس اللّغة العربيّة وجار الحاج مسلم المهاجر.

أتراجع إلى الخلف لأنظر في الشارع الذي يفصل بيت عمي عن بيت الحاج مسلم المهاجر. أنظر إلى بيت جدّتي وزوجة جدّي الشيخ صالح الثالثة، زوجته الجميلة من قبيلة السادة العربيّة. لا أثر له. بعده كان بيت أختي اللاّجئة الآن في إسطنبول. لا أثر له أيضًا. لا شيء سوى الأطلال.

أتوجّه مرّة أخرى إلى الجنوب. أخطو بضع خطوات من أمام المسجد لأصل إلى زقاق ضيّق شاهدت صوره حينما دخل عناصر داعش إلى عمق كوباني. كان بضعة دواعش، ظهرهم إلى الكاميرا، شاكي السلاح يسيرون وسط الرّكام في هذا الزقاق صوب بيت عمّي معصوم الواقع في نهاية الزقاق إلى اليمين مقابل بيت جارنا الحاج وَيْسْ.

كنت أنظر إلى صور الدواعش في حارتي ولا أصدّق أنّهم هناك يروحون ويجيئون بحرّيّة، ينتقلون من بيت إلى آخر، يدوسون ذكرياتنا، يدخلون بيوتنا ويأكلون من المونة التي أعدتها أخواتي، وزوجات إخوتي، وزوجات أعمامي وبناتهن وجاراتي. يتناولون الحلاوة، يفتحون مرطبات مربى اليقطين والمشمش والكرز وباقي

الفواكه.

يفتحون أكياس السكر والأرز والبرغل والعدس والباذنجان المجفّف الذي تعدّه النساء للمحاشي، علب الجبنة، المكدوس، علب رُبُّ البندورة والزيتون والمخلّلات واللّبن المجفّف المغطّس في الزّيت، علب السّمنة وزيت الزّيتون العفريني.

آه كـــيف لـــم تنفجـــر ذكريـاتنا بـهم؟ أليسـت الـذّكريات فخـاخًا وألغـامًا؟ لمـاذا رأينـاهم يسـيرون آمنـين مطمـئنّين وكـأنّ ذكريـاتنا عُطِّلـت عـن التـأثير؟ أهـي لا تنفجـر إلاّ بصانعيها؟ أهي لا تمزّق إلاّ قلوب أصحابها؟

أنا الآن في ذلك الزّقاق الضيّق. أريد أن أذهب إلى بيت عمّيِ، لكن الزّقاق مسدود. ابتداءً من بيت عمّتي في الشمال تراكمت الحجارة فَسَدَّتْ الزقاق. سابقًا كنت أتوجّه حتّى في أنصاف اللّيالي إلى بيت عمّي فأرى الكوّتين الصغيرتين في أعلى الجدار مضاءتين. كنت أعرف من ذلك أنّ ابن عمّي محسن مازال يسهر وحده أو مع جماعة من شباب الحارة. كنت أحمل حصاتين لأرميهما على النافذتين فأسمع صوتًا جهوريًّا يصيح من داخل الغرفة المضاءة: تفضّل تفضّل.

قبلـه، كـان صـديقي هـو ابـن عـمّي الملـقّب حـالِم الـذي اسـتشهد فـي وادي أولـودَرَه بتركيـا. تـألّم عـمّي وزوجتـه لاسـتشهاده كثـيرًا. كـاد عـمّي يصـاب بـالجنون ولـم تعـرف زوجة عمّي كيف توقف دموعها.

كنت أنا وحالم صديقين في الحارة، زميلين في المدرسة ورفيقين في الرحلة إلى بساتين البطيخ في قرية كولْمِدْ على طريق حلب جنوبي كوباني. كنّا رفيقي زيارات دوريّة إلى تلة النبع في الشرق وبساتين الخضرة وأشجار الجوز التابعة لبيت بوزان بيك. كان حالم رفيقي إلى هضبة مِشْتَنُور ووادي حَمَامان والقناة الرومانيّة والغدير المهيب الذي كنّا نسميه بَنْدْ، وكم ذهبنا سويّة إلى كانيا عَرَبانْ نمتطي صهوة فرس بيضاء تجوب بنا البساتين القريبة من سكّة القطار.

قتـل ابـن عـمّي ورفـيقي علـى يـد أحـد رفـاق الـحزب، حـيث ذهـب إلـى القتـال فـي سـبيل الحـرّيّة وتحقـيقًا لحلـم ثـوري راود جيلنـا كـلّه. قتـل صـديق طفولتـي ومـراهقتي، فاصطبغت أيّام شبابي بالأحزان.

* * *

كثـيرًا مـا مـررت تحـت تينـك الكوّتـين المضـاءتين لأسـمع صـوت ابـن عـمّ والـدي، عَفْدي، يـدوي متـرنّمًا بقصـائد غزلـيّة لشـاعر الـكُرد الأكبـر ملايـى جزيـري وجكـرخوين والخاني وفقى تيران وعلي

حريري، بريفكاني، سياهبوش، مينا، ماجن، سوادي، كنعاني وغيرهم.

يبقى عفدي كلّما جاء من عامودا ليزور الأهل في كوباني شهورًا طويلة. يسكن حجرة في المسجد أو إحدى الغرف في أحد البيوت، يملأ وجودُه الحارةَ بالأنس فنتحلّق حوله شبابًا وكهولًا لنتذوّق عسل القصائد الكرديّة يقطرها ذاك المنشد الأعمش بصوته الهادر في آذاننا.

كثيرًا ما وصفه شقيقي الأكبر بـ «حَمَّاد الراوية» بسبب روايته الغزيرة للشعر وذاكرته القويّة جدًّا. كان له دفتر يضمّ كثيرًا من القصائد يكتبها له هذا وذاك. طلب منّي مرّات عديدة أن أدون له هذه القصيدة أو تلك، وكنت أكتب له بحروف واضحة ليقرأها في اللّيل عدّة مرّات ثمّ ينشدها عن ظهر قلب علينا في اليوم التّالي.

وكانت طباعه في الإنشاد غريبة. فحين يطلب منه أحدنا أن ينشد قصيدة مّا، يضع كفّه العملاقة على عينيه ويتمتم غاضبًا: «وهل أنا مطرب لأكون جاهزًا للغناء حين الطلب؟ لا أستطيع. أذني تؤلمني». وهكذا يتذرّع كلّ مرّة بمرض أو تعب أو إرهاق يمنعه من الإنشاد. لم يكن ينشد إلاّ على السجيّة وحين يكون رائق المزاج.

عرفنا فيه هذا الطبع الصعب، فصرنا نتحايل عليه حين نريد منه أن ينشد. يتمتم أخي أو أي واحد منّا إحدى القصائد بإيقاع نشاز أو نتلو كلماتها بشكل خاطئ قصدًا حتّى نستفزّه.

حينذاك نراه يتململ في مجلسه، يتجهّم وجهه ثمّ يضع يده على أذنه وتهدر القصائد كنهر لا يعرف التوقّف.

أحيانًا كثيرة كان يزورنا سيد شريف البرزنجي أيضًا. وهو منشد يستعمل الدفّ مع الإنشاد، يأتي من قرية جُمْعَايا في القامشلي في زيارة طويلة إلى كوباني ويمكث طيلة الشتاء في المسجد أو في بيوتنا. كان سيد شريف ذو الحركات اللطيفة والقامة القصيرة والوجه المدور الذي تزيّنه لحية قصيرة يحول مجالسنا إلى حلقات نار بصوته وألحانه وإيقاعات أناشيده العجيبة. يجلس على ركبتيه متوثّبًا ينقر على الدفّ بطريقة تشي بأنّه والدفّ على وشك الطيران.

كان سيد شريف ينشد الغزليّات والأناشيد الدينيّة ويجمعنا نحن الأطفال حوله ليجعلنا كورسًا نردّد وراءه ما ينشده على مسامعنا. في هذه الحجرة التي أقف أسفل نافذتيها الصغيرتين الآن، كثيرًا ما اجتمع سيد شريف وعفدي وأشعلا سهراتنا بنيران الوجد الصوفي والغزل الجميل والفكاهة والطرب أيضًا. كانا يتحاسدان كبقيّة أبناء المهنة الواحدة، بل يتشاجران ويتخاصمان لكنّهما سرعان ما كانا يتصالحان لطيبة قلبيهما.

أحيانًا نادرة سمعت من هاتين الكوّتين أنغام بزق هادئة خفيضة حزينة. هكذا

كان أبناء عائلة سَيْدا يعزفون بهدوء. منع الآباء اقتناء الآلات الموسيقيّة أو العزف عليها أو حتّى سماع عزفها بسبب حرمتها، فلم يكن أمام الأبناء بدّ من تعلّم العزف في زوايا موحشة وفي ظلال الخوف وبعيدًا عن أعين الكبار.

بعض المرّات كان يتناهى إلى سمعي وأنا أمرّ في الزّقاق الضيّق أسفل الكُوَّتين صوت نشيج زوجة عمّي وبكائها المرّ على ابنها صديقي حالم. وها أنا الآن أقف أمام خرائب الغرفة التي قضّينا كثيرًا من ليالينا فيها. الخوف يدفع قلبي إلى الهرب منها. الذكريات تتقاطر مثل سهام في معركة قديمة.

في أمسيات الصيف أو أمسيات بداية الخريف كنّا، أنا وابن عمّي نجلس على سرير معدنيّ كبير مرتفع عن الأرض ونتسامر. نتحدّث همسًا عن الحبّ، عن الثورات المجهضة والقلوب المحطّمة. أقول لابن عمي متحسّرًا:

- يا پِسْمامْ! ما الفرق بين قلب محطّم وثورة مجهضة؟[10] فيردّ علي بابتسامة حزينة:

- كالفرق بين هذه النّجمة وتلك.

ويشير إلى السماء المرصّعة بالهموم.

وكم خضنا في أحاديث السياسة والأدب لنعرّج بعد ذلك على الموسيقى والفن والدين والتاريخ والجنس والبنات والله والجارات والجيران وآلام كالشموع تحترق وتحرق وتضيء. كنّا نشرب عصير الحصرم المثلج ونحن نروي أحلامنا الكبيرة، الكبيرة جدًّا، أحلامنا التي كانت أكبر من خيمة الله اللاّنهائيّة التي نتسامر تحت رهبة سكونها.

وحين نصمت متأمّلين ما قلناه، محدّقين إلى الفراغ المظلم في الخيمة التي تزيّنها النجوم فوقنا، مسافرين في دروب الخيال، يقطع صدى سقوط تينة ناضجة على الأرض من شجرة التين المنتصبة شرقي السرير المعدني تأمّلاتنا ويوقظنا من سبات الخيال.

- هذه تينة حَمْزَوِيَّة.

يقول ابن عمّي ضاحكًا.

- طيّب انزل وآتنا بها لنأكلها أيّها الخامل.

أردّ عليه.

والتين الحمزوي ليس نوعًا موجودًا في الواقع. نحن أطلقنا ذلك الاسم على أيّ تينة ناضجة متشقّقة مشتقًّا من اسم رجل من قرية شيران هو حمزة كان مشقوق الشّفة العليا مهووسًا بالجنس والنساء.

وذات يوم جمعة حين أنهى أخي الشاعر أبو سلمان الخطبة

وانتـهت الـصّلاة، اجتمعنـا كـالعادة فـي باحـة المسـجد حـيث تنتصـب شـجرة تـين هرمـة نتفيـأ ظلالـها ونتحدّث. أتانا حمزة وانحنى على الأرض ليحمل تينة ناضجة متشقّقة سقطت قبل قليل ورفعها في وجه أخي الخطيب قائلًا واللّعاب يسيل من فمه:

- سَيْدا سَيْدا. انظر. ماذا تشبه هذه التينة؟

ضحك الجميع. ضحك حمزة أيضًا ضحكة هستيريّة. ودون أن ينتظر الجواب ألقى حبّة التين بشهوة إلى فمه، ثمّ مشى وهو يقول:

- آه آه. إنها مثل الكُس. آه.

كلّ أشجار التين في حارة سَيْدان من سلالة التين في حديقة أمير البرازان بوزان بيك. وحين تمّ تخطيط الكرم جنوب المسجد زرع المريدون في زواياه وباحة المسجد أغراس تين أتوا بها من بستان الأمير. ثمّ أخذ كثير من النّاس أغصانًا من تين المسجد ليزرعوها في بيوتهم تبرّكًا.

سنةَ مات جدي الشيخ صالح زرعوا شجرة تين أسود عند شاهدة رأسه. ثمّ أخذ الكثير من المريدين فسائل من تلك الشجرة أيضًا حتّى أنّه سمقت في بيتنا شجرة تين من سلالة شجرة جدّي.

أتـذكّر كـيف قطعـوا بمقـدار شـبر ونصـف غصـنًا مـن تلـك الشـجرة ذات شـتاء وطمـروه تحـت تـراب الـدّار. كـانت شـجرةُ تـينٍ كامنـةً فـي ذلـك الغصـن الـرّطيب. حـين حـلَّ الربيع استيقظت تلك الشجرة الكامنة في ظلمة التراب معلنة عن نفسها بورقتين طريّتين.

أتى عمّي معصوم أيضًا بفسيلة من الشجرة النابتة عند قبر جدّي، أبيه، وزرعها وسط الدّار. كبرت تلك الشجرة وأصبحت من أعزّ الأشجار على قلبه، وحين حاول أبناؤه ذات مرّة أن يبيعوا الدّار وأحاط هو علمًا بذلك غضب أشدّ الغضب، وصار يصيح وهو واقف في وسط الدّار: «بأيّ حق ستبيعونها؟ كيف تبيعون وأنا مازلت علـى قيـد الحيـاة؟». ثـمّ تقـدّم بضـع خطـوات حـتّى أصـبح فـي ظـلال شـجرته المـدلّلة، مـدَّ يـده إلـى جـذعها وقـال بصـوت أقـرب إلـى البكـاء: «سـتبيعون الـدّار بيعوهـا. لا أستطيع منعكم من ذلك. لكن لا يمكنكم بيع هذه الشجرة. لن أسمح لكم. هل فهمتم؟».

موجة غريبة على ضفاف الراين

- أريد أن أسرد قصّة حبّي أوّلًا.

قالت خديجة بإنكليزيّة متقنة للطبيب النفسي ذي النظارة الصغيرة وهي تنظر بعينيها المحمرّتين من قلّة النوم عبر النافذة المطلّة إلى الغدران الثّلاثة خارج المشفى.

عقد الخريف في دوسلدورف كرنفالًا من الألوان حول مشفى الطبّ النفسي Klinik für Psychiatrie und Psychotherapie وارتدت كلّ شجرة حلّة ملوّنة.

هبّت نسمة رخيّة وهزّت أغصان تلك الأشجار، فنسجت الأوارق الساقطة بساطًا بديعًا يخلب الأنظار.

سار نهر الراين إلى الغرب من المشفى متثاقلًا دون أن يهتمّ للحكاية الحزينة التي ستسردها مريضة لطبيبها في الغرفة 214.

رفع الطبيب نظارته الصغيرة بظهر سبّابته وقال بلهجة هادئة مبتسمًا:

- نعم ولم لا! أنا هنا لأسمعك.

رمقت خديجة لوحة الأزهار الزّرقاء على الجدار خلف الطبيب، تنهّدت ثمّ بدأت تسرد قصّة حياتها:

«كان يكبرني بخمس سنوات. أحببته كثيرًا. درسنا اللّغة الإنكليزيّة. كان شابًا لطيفًا وسيمًا مثقّفًا يكتب الشعر. لأجله سجّلت في فرع الأدب الإنكليزي بكليّة الآداب جامعة حلب. في ثانويّة البنات، حين كنت طالبة بكالوريا، كنت أترقّب حصّته بتوتّر شديد. لا أعرف ما الذي كان يصيبني حين يدخل الصّفّ. تحدّثني زميلاتي فلا أنتبه لهنّ، لم أكن أرى سواه، لم أكن أسمع سواه. كان اسمه آمد وكنت أتابع بشغف بالغ أنامله التي تمسك بالطبشورة وتسجّل على اللّوح جمل اللّغة الإنكليزيّة، كان صرير الطباشير موسيقى عذبة في سمعي، أحببت حتّى الغبار الذي تثيره الطباشير حين يكتب على اللّوح الأخضر.

مع انتهاء الدّرس كنت أتبعه إلى الطابق الأسفل حتّى باب غرفة المدرّسين.

كتمت حبّي وحاولت أن ألفّه بقماط كأنّه طفل رضيع. لم أفلح في ذلك. عيناي فضحتاني. حركاتي وسكناتي وشين بي.

ما هو الحبّ يا دكتور؟ الحبّ يشبه الظواهر الطبيعيّة ولا يمكن إخفاؤه. المطر يهطل علانيّة وصوته يفصح عنه، الثلج يهطل من دون صوت، لكنّه يملأ الأرض بياضًا، اللّيل كذلك يعمّ المكان فيشعر به

الجميع. حتّى المياه التي تقبع في باطن الأرض لا بدّ لها أن تتدفّق ذات يوم وتسيل نهرًا هادرًا. كان آمد يقول لي: «الحبّ بركان يا خديجة. بركان في القلوب يحسبه المرء يخمد، لكنّه لا يخمد أبدًا. ولا يعرف المرء متى سيثور. لكنّه سيثور».

كنّا نلتقي في حلب. أذهب أيّام الامتحانات إلى بيت إحدى قريباتي في حي الشيخ مقصود لأبقى شهرًا كاملًا. كان آمد يسكن في بيت بحي الحمدانيّة يبعد ربع ساعة عـــن كلـــيّة الآداب. فـــور خـروجي مـن قاعـة الامتحـان أتّجـه إلـى الحمـدانيّة، أصـعد بخـوف وأمـل إلـى الطـابق الخـامس وأطـرق البـاب ثـلاث طرقـات متتاليـة وطـرقتين منفردتين. هذه كانت علامتي للتعريف بنفسي. يفتح آمد الباب، فأشعر أنّني على وشك الدخول إلى الجنّة».

أَحْنَت خديجة رأسها قليلًا، أطلقت تنهيدة طويلة ثمّ صمتت. انتظرها الطبيب الألماني. لم تتحرّك. بقيت محنيّة الرأس إلى أن قال لها الطبيب: «لست مجبرة على الحديث يا سيدة خديجة حَمْزِراقْ. لك كامل الحرّيّة في أن تسردي هذه القصّة أو لا. لكن ربما من الأفضل أن تبوحي بما عندك دون أن تخفي شيئًا».

رفعت رأسها من جديد. بلّلت دمعتان شفّافتان عينيها. ابتسمت قليلًا. نظرت عبر النافذة إلى الخارج وشاهدت أوراق الخريف تتساقط من أغصانها وتتطاير مع النسمة الرخيّة. بقيت صامتة لثوان معدودة ثمّ تابعت: «ربما بإمكان الفتاة الغربيّة أن تبوح ببساطة تامة بتفاصيل حياتها للطبيب. بل ربّما استطاعت أن تتكلّم عـن خصـوصيّاتها علـى المـلأ وفـي برنـامج تلفزيونـي يشـاهده الملايـين مـن النّـاس. الأمـر مختلـف بالنسـبة إلينـا. فلـو أردنـا أن نبـوح بأحـد أسـرارنا حـتّى لرفيقـة لنـا تعـرق أجسادنا ونتردّد ونتلعثم. اعذرني دكتور. لا يمكنني البوح بلحظات المتعة التي عشتها مع آمد. إنها ملك هذا القلب ومن دفائنه. إنها أيضًا ملك ذلك الرّجل الذي قاسمته تلك اللّحظات الفردوسيّة وستبقى معي إلى الأبد مثلما بقيت مع آمد إلى آخر لحظات عمره».

لمح الطبيب الذي يصغي إليها باهتمام شديد دموعها التي بلّلت عينيها، فهزّ رأسه وقال: «اعذريني سيدة حَمْزِراقْ. اعذريني».

اتّسـعت حـدود بحـيرة الصّمـت بينـهما. كـان لـدى خـديجة الكثـير مـن الأحـداث والكلمـات والـذكريات لتسـير مثـل نـهر الـراين، لكنّهـا آثـرت الصّمـت. لـم يكـن الطبـيب مستعجلًا لسماع كلّ ما تحكيه، بل فضل أن يستمع إليها بشكل متقطّع ويراقب حالتها بين الفينة والأخرى. جمع أوراقه التي دوّن فيها ملاحظاته من طاولة صغيرة كانت بينهما ووضعها في حقيبة جلديّة ثمّ نهض وهو يقول:

- استمرّي في تناول حبوبك. ربّما تكون جلساتنا في البداية كثيرة، لذلك أرجو أن لا تتبرّمي. سنقلّلها فيما بعد. سنلتقي مرّة في الأسبوع ثمّ مرّة كلّ شهر. أنا واثق من تقدّم صحّتك. أنت امرأة ذكيّة ولك دور في مساعدتي على تشخيصك. إلى اللقاء الآن سيدة حَمْزِراقْ.

خرج الطبيب بعد أن ودّعها. أغلق الباب وراءه بهدوء ثمّ مضى في الممرّ الطويل.

* * *

شعرت خديجة براحة نفسيّة كبيرة بعد خروج الطبيب. غيرت ملابسها ثمّ تمدّدت فوق السرير وسافرت بخيالها إلى أيّامها في جامعة حلب حيث كانت تذهب مرّتين كلّ عام لتجري الامتحانات، تشعر بنفسها أخف من فراشة تذهب إلى حقل ورود حين تستقلّ الحافلة الصغيرة من الجامعة إلى بيت آمد في حي الحمدانيّة. الكتب تملأ زوايا ذلك البيت الصغير، بضع لوحات مصوّرة عن لوحات شهيرة معلّقة على جدران الصالون الذي هو غرفة نوم أيضًا. سرير بنوابض تصدر أصواتًا مزعجة حين التمدّد فوقه، الكتب على الأرض، في النافذة، في الحمام وفي بضع كراتين موضوعة تحت السرير، روايات ودواوين شعر وكتب مختلفة إنكليزيّة، عربيّة وكرديّة. تكاد رائحة الورق وحبر المطابع تطغى على رائحة السجائر المطفأة التي تفوح من الكنبة الوحيدة والستائر الغامقة.

تدخل خديجة البيت، تسارع إلى رمي كتبها على طاولة في الزاوية ثمّ تتمدّد على الكنبة المغطاة بمخمل خمري اللون كثير الثقوب من أثر نيران السجائر.

يأتي آمد ليجلس بجانبها، يضع يده على كتفها ويقول:

- اسمعي قصيدتي الإنكليزيّة هذه يا خديجة.

وقبل أن تنتهي القراءة يتعانقان، الشفاه على الشفاه، عيونهما مغمضة، يدونان قصائد العشق بألفباء الجسد.

* * *

بعد يومين زارها الطبيب مرّة أخرى. ظهر الخوف والقلق في نظرات عينيها، ولم تستطع ابتسامة الطبيب ذي الوجه الحنون أن تبدّد قلقها.

جلس الطبيب على الكرسي قبالتها، وبادرها بالتحيّة والسؤال ثمّ قال:

- مهما كان الخريف حزينًا ففيه جمالٌ يسعد المرء.

ألقت خديجة نظرة عبر النافذة إلى الأشجار الملوّنة الجميلة، صمتت هنيهة ثمّ قالت:

- لكن حتّى في الربيع الأكثر نضارة، ثمّة قلوب تتحطّم.

فوجئ الطبيب بهذا الجواب الشاعري، وأدرك أنّ مريضته امرأة مثقّفة وحاضرة البديهة وأنّ علاجها لن يكون سهلًا. أراد أن يوغل عميقًا في نفسها يعاين طيّاته ويبحث في منعرجاته ليتعرّف إليها ويستطيع علاجها. أراد أن يعرف كلّ الجوانب في حياتها، يسافر معها في دروب ذاكرتها لعلّه ينفذ إلى أسباب حالتها. سألها:

- هل كتبت الشّعر؟

فرحت خديجة بهذا السؤال، استعاد وجهها بعض نضارته وقالت بحماس: «لا. لكنّني قرأت الكثير. كان آمد يكتب الشعر بثلاث لغات. أغرمت بقصائده الجميلة.

وفي الجامعة تعرّفت إلى شعر شكسبير واللورد بايرون، ت. إس. إليوت وجون ملتون وكثيرين آخرين. وقرأت ما لا يحصى من القصائد باللّغة العربيّة وعددًا أقل من القصائد الكرديّة. فتح آمد أمامي أبواب الشعر، فدخلت عالمًا زاهيًا بديعًا مليئًا بالمشاعر الرائعة والرقيقة. صرت فتاة حالمة أرسم لي وله حياة ملوّنة هادئة. لكنّ حلمي تحطّم وانتهى بجرح مفتوح في القلب لم يندمل وأتألم منه كلما تذكّرته إلى الآن».

- هل يمكن أن تحدّثيني ولو باختصار عن العلاقة مع آمد؟ ثمّ يمكنك سرد بقيّة أحداث حياتك إلى حين مجيئك إلى ألمانيا. لن أقاطعك حتّى تنتهي. طبعًا أنت لست مجبرة على سرد كلّ التفاصيل مرّة واحدة. لكن أودّ أن أسألك قبل ذلك، هل تناولت أقراصك لهذا الصباح؟

- نعم دكتور. أنا أواظب على تناولها. لقد استفدت منها.

- طيّب. أسمعك الآن. هل تأذنين لي أوّلًا أن أسجل صوتك عبر جهاز التسجيل؟ إذ ربّما فاتتني في التدوين معلومة مهمّة فأعود إلى التسجيل الصّوتي. هل تأذنين؟

هزّت خديجة رأسها موافقة ثمّ بدأت تتحدّث: «فشل حبّنا يا دكتور. لا، ليس الحبّ هو الذي فشل. لا أعرف كيف أصف الأمر! تحوّل الحبّ إلى جرح عميق. إن مجتمعنا يبدو من الخارج جميلًا نوعًا مّا، لكنّه محاصر بالقبح والعفونة في العمق. مازالت المعايير الإقطاعيّة بمثابة قوانين تحكمنا منذ مئات السنين. وافق أبي على أن نتزوّج أنا وآمد. وقد التقى به عدّة مرات فأعجب به، لكنّه خشي ألاّ يتمّ الزواج وأفصح لي مرارًا عن خشيته هذه وقال: «لا أظنّ أنّ الزواج سيتمّ يا ابنتي».

لماذا لن يتمّ يا أبي؟ ألست فتاة متعلّمة؟ ألست أنت من الأثرياء؟ لم يخطر على بالي مطلقًا أنّ لقب عائلتنا «مهاجر» سيصبح حائلًا بيني وبين آمد. والمهاجرون يا دكتور هم قسم من الأكراد نزحوا خلال الحرب العالميّة الأولى من مناطق كرديّة بعيدة على الحدود الروسيّة

مـع تركيــا، ثــمّ اســتقرّوا فــي ســوريا وحصــلوا علــى جنســيّتها. لكــنّ أهــل كوبــاني اعتبــروهم نــاسًا غــير معــروفي العشــائر، وهــذا يعتبــر منقصــة فــي مجتمــع عشــائري حــتّى العظــم. للأســف اعتبــرتني عائلــة آمــد المرموقــة مــن طبقة أدنى في الهرم الاجتماعي. رفضتني العائلة تمامًا. كنت أظنّ أن العشائريّة لا يمكنها أن تغلب الحبّ ولا تقترب من فردوسه. كنت مخطئة. لم يستطع آمد أن يقنــع عائلتــه. لكــنّه تــراخى أخــيرًا. اســتسلم. لــم أكــن أتــوقّع منــه ذلــك. اعتقــدت أنّه ســيحارب لأجــل الحــبّ، ســيقاوم العــادات الباليــة. اعتقــدت أنّه شــاعر يعتبــر الحــبّ عشيرته وأنّ قراره ملك يده، الشاعر لا يخون حبّه، لا يستسلم لكنّه حطّم قلبي للأسف. ونحن نقول يا دكتور إنّ القلوب أوانٍ من زجاج إذا انكسرت لا يمكن جبرها.

فقدت إيماني بالحبّ. قلت ما هو إلاّ سراب خادع وكذبة كبيرة. ركلت كلّ شيء. أحرقت كلّ قصائده ورسائلنا المتبادلة والصور ذات ليلة غاضبة في الحمام. كدت أموت من كثافة الدّخان. تحوّل حبّنا إلى دخان أسود وصعد في تلك اللّيلة إلى أعلى سماء.

تزوّجت بعد ذلك من زميل لي في ثانويّة البنات اسمه إبْرامْ. كان مثلي مدرّسًا في الثانويّة. أعجبنا ببعض وتزوّجنا. كان من قرية تسمّى تل غزال. في تلك القرية قتلت السلطة الكرديّة أبًا وابنه وابن خاله. كان الثلاثة من عشيرة إبرام ومن أقاربه. شعرت العشيرة بعار كبير يجلّلها لأنّها لا تستطيع الأخذ بالثأر، وهي التي عرفت بين النّاس بأنّها تنتقم حتّى لدجاجاتها. لم تتمكّن تلك العشيرة من رفع الحيف وغسل العار خوفًا من السلطة الظالمة! منذ ذلك اليوم قرّر إبرام الخروج من كوباني دون أن يعلمني بقراره».

ازدادت نبرة الحزن عند خديجة إلى أن عجزت عن الكلام فتوقّفت. سجّل الطبيب النفسي بضع ملاحظات. نظر في عينيها فرأى فيهما آثار حبّ آفل وجرح غائر غابر.

سألها:

- وماذا فعل آمد؟ هل تزوّج أيضًا؟

- تزوّج من الموت.

- من الموت؟ كيف؟

- لقد قتل. قتل في جامعة حلب خلال الامتحانات. حدث ذلك في بداية عام ألفين وثلاثة عشر. قبل عامين تقريبًا.

- هل يمكنك الحديث عن الواقعة بقليل من التفاصيل؟

تنهّدت خديجة. وضعت كفّ يدها اليسرى على جبينها، فركت صدغيها كأنّها

تعصر ما في رأسها من ذكريات، ثمّ أغمضت عينيها وقالت: «أصبح آمد من ناشطي الثورة السوريّة. صار إلى جانب دراسة الدبلوم ينظّم المظاهرات، يجهّز المنشورات ويوزّعها مع رفاقه في الأحياء الكرديّة في حلب. يكتب الشعارات باللّغات الإنكليزيّة والعربيّة والكرديّة على اللاّفتات التي تُرفع أيّام الجمعة. قبل أن يُقتل بيوم واحد اتّصل بي وقال: ما زلت أحبّك. أودّ أن أعتذر منك وأعرف أن أوان الاعتذار قد فات.

لقد أجرمت بحقّك كثيرًا. أطلب عفوك يا خديجة. أمامي سفر طويل. لم أعرف كيف أجيبه! كان قد مرَّ شهران على زواجي، وكنت أحاول أن أنساه قدر الإمكان.

بقيت ذاهلة لدقائق، لكنّني تشجّعت أخيرًا وقلت له: أرجو ألا تتّصل بي مرّة أخرى يا آمد. أنا زوجة رجل آخر الآن. لقد حطّمت قلبي لكنّني عفوت عنك بشفاعة تلك اللحظات الجميلة التي قضّيناها معًا. كان الله في عونك. سافر كما تشاء لكن أرجو أن تحذف رقم هاتفي من عندك ولا تتّصل بي مرّة أخرى.

وبالفعل لم يتّصل بي مرّة أخرى.

في اليوم التّالي سمعت أنه قضى مع حوالي مائة آخرين من الطلاب في قصف كليّة العمارة».

* * *

نوبة صمت أعقبت بكاء خديجة وجدها الطبيب فرصة لتدوين بعض الملاحظات الأخرى. في الخارج استمرّت الأوراق تتساقط عن أغصانها وتتهاوى متثاقلة إلى الأرض. لم تعد خديجة تهتمّ بما تكشفه نافذة غرفتها من منظر خريفي خلاّب، بل حدّقت في روحها، حدقت عبر نوافذ الخيال في خريف الروح، أمعنت النظر في الأحداث التي مرّت على مدينتها وعائلتها وعليها شخصيًّا وهي تمر مرَّ السحاب في سماء خيالها. هي الآن بعيدة عن مدينتها الخراب، بعيدة عن حارتها المدمّرة، وحيدة على سرير وحيد في غرفة من مشفى ألماني للأمراض النفسيّة مع طبيب ارتاحت لحديثه وفتحت قلبها له.

رفعت رأسها قليلًا لتحدّق بحزن في الخارج، في ستائر الغرفة التي تزيحها الممرّضة كلّ صباح، في اللّوحات الجميلة، تحدّق في عيني الطبيب وتحاول أن تضع عن ظهرها أحمالًا ثقيلة عبر التحدّث إليه.

- من قصف الجامعة؟

- طائرات النظام. شاهدها الطلاّب وشاهدوا الصاروخين اللّذين أطلقتهما أيضًا. كانت جامعة حلب قد انتفضت مثل بقيّة جامعات سوريا ضدّ النظام وانطلقت منها فيما مضى مظاهرات ضخمة. لم أكن أعرف أن آمد هناك في لحظة

القصف. لكنّ قلقًا غامضًا دهم روحي ذلك اليوم. قتل ولم يتعرفوا إلى أشلائه. لقد اختفى.

لكنّ أخته التي تدرس الهندسة المدنيّة كانت هناك في ذلك اليوم. تعرفت إليه من خلال ساعة سايكو في معصم يده. كانت ذراعُه الشّلِوَ الوحيدَ الباقي من جسده بعد القصف. كثيرًا ما لفَّ خصري بها وهو يقبّلني بجنون.

أوقف الطبيب التسجيل الصّوتي، ثمّ وجّه دفة الحديث إلى جهة أخرى فقال:

- أمر محزن. ربّما نعود إلى هذا الموضوع فيما بعد. لكن لنتحدث قليلًا عن الأحداث القريبة.

- لا بأس. فليكن.

- هل يمكنك الحديث عن مجيئك إلى ألمانيا، متى، ولماذا وكيف؟

حطّت ابتسامة خفيفة على شفتيْ خديجة. لكنّها ردّت بنبرة حزن: «سأجيبك مع أنّني أعرف أنّ سرد الوقائع بالنسبة إليّ مثل ابتلاع الرّماد وخرط الشوك. حسب التواريخ الموجودة في ملفّي، وصلت في شهر تشرين الأوّل عام 2014 إلى دوسلدورف. كيف وصلت ومن أتى بي إلى هنا، هذا ما لا أعرفه. كنت امرأة محطّمة حين وصلت. امرأة بلا وطن، بلا عائلة، منهارة الكيان، شبه غائبة عن الوعي. كنت قد جننت باختصار. كلّ الذي أعرفه أنّني فتحت عيني نصف ميّتة في إحدى المشافي الألمانيّة».

ابتسم الطبيب وقال: «أنا سعيد لأنّني أشرف على علاجك وأنّك تتحسّنين يومًا بعد يوم. العاملون في منظّمة الصليب الأحمر الألماني هم الذين أحضروك. رأوك في المشافي اليونانيّة وانتبهوا إلى أنّ لك وضعًا خاصًّا فقرروا إحضارك إلى هنا. إن كانت الأحداث التي عشتها قاسية جدًا وتتألّمين من سردها فيمكنك ألاّ تخبريني بها أو على الأقلّ أن تؤجّلي سردها». ردّت خديجة: «بل أريد أن أبوح بها. أريد أن أفرغ هذه الكأس التي طفحت بالأحزان. أشعر براحة عميقة حين أروي لكم ما جرى لي.

تمامًا مثل حلاّق الملك ميداس، عليّ أن أفصح حتّى ولو لثقبٍ في الأرض أنّ للملك أذنا حمار. عليّ أن أنفض نفسي يا دكتور. أنا حقيبة مليئة، كأس عامرة، وعليّ أن أخفّف عن نفسي حمولتها. عليّ أن أقول إنّ للحرب أذنا حمار ومخالب وحش لا تعرف الرحمة».

- طيّب فلنستمع إلى قصّتك.

ألقت خديجة نظرات تائهة حولها، ثمّ قالت: «قبل أن تدخل داعش إلى كوباني بفترة قال زوجي إبرام: إنّني أشمّ رائحة الخراب، خراب كبير قادم إلينا. سألته مستنكرة: أيّ خراب تتحدّث عنه؟

أيوجد مكان آمن أكثر من كوباني؟ ردّ زوجي بحزن: هذا الأمان هو طبقة القش التي تعلو الماء. الوضع خطير يا خديجة. فلنغادر هذه المدينة قبل أن يداهمنا الطوفان. مازالت دماء أهلي في تل غزال نديّة. يقتلنا حُماتنا داخل بيوتنا وفي الخارج يتربص بنا وحش كاسر. وقعنا بين براثن إخوة لنا في الداخل يمارسون أقسى درجات الظلم، وحولنا داعش تهدّدنا وتركيا تقف بحدودها في الشمال. فأين الأمان الذي تتحدثين عنه؟ كانت كلماته صادقة، جعلتني أشمّ أنا أيضًا رائحة الخراب.

نعم يا دكتور. لقد كان ما قاله صحيحًا. فقد أوقف مسلّحو داعش زميلنا محمد مدرّس اللّغة الإنكليزيّة على حاجز من حواجزهم وقطعوا رأسه أمام النساء اللواتي كن معه في الحافلة الصغيرة. هاجم مسلّحو داعش القرى وصاروا يبثّون الرعب أينما حلّوا. تجهزنا للمغادرة. حملت ابني الصغير. أقفلت باب بيتي وأودعت المفتاح أمانة عند أمّي وأخبرتها أننا لن نطيل الغياب. قلت لها بثقة: ما هي إلاّ بضعة أشهر حتّى نعود. لم يكن والداي راضيين عن ذلك، لكنّ عناد إبرام غلب عدم رضاهما.

- يعني أنكم خرجتم خوفًا من داعش؟

- كان ذلك أحد الأسباب. ألم أقل إن أقرباء زوجي قتلوا على يد السلطة الكرديّة في قرية تل غزال؟ نثرنا القدر بين حجري طاحونة. لم يعد هناك أمان. بات رأس الإنسان مساويًا لرأس بصل كما يقول المثل الكرديّ.

- للأسف، للأسف.

- نعم يا دكتور. نحن في تلك الجغرافيّة المجنونة أبناء القسوة وأحفاد الألم. نحن من سلالة الخوف نرضعه ساعة نأتي إلى الدنيا. نحن نشبه جغرافيتنا في الجنون والخشونة أيها الطبيب.

- للأسف، للأسف.

سردت خديجة للمعالج النفسي بقيّة القصّة من مغادرتها المدينة إلى إقامتها في إسطنبول وعملها هناك، ثمّ استعدادها للهجرة مع زوجها وولدها الصغير. روت له أنّهم وصلوا إسطنبول في بداية شهر حزيران وأنّها عملت معلّمة في مدرسة «قادمون»، وهي إحدى مدارس المعارضة السوريّة في منطقة باغجيلار. روت له أنّها كانت تذهب مشيًا من بيتها في بايرام باشا حتّى باغجيلار في رحلة تستغرق ساعة كاملة لكي تتعرف إلى تلك المدينة العظيمة وتنسى همومها حين تنخرط بين الجموع الكثيفة في الشوارع.

لكن الحياة لم تكن سهلة هناك، هكذا روت خديجة لطبيبها، إذ لم يقبل زوجها

أن تعمل هي فيما هو يجلس في البيت وحيدًا مع طفله دارا. كثيرًا ما قال لزوجته إنّه يشعر بنفسه مثل زوج الغجريّة التي تذهب من باب إلى باب تتسوّل بينما يقبع هو في الخيمة يصنع الغرابيل. لم يوفّق في إيجاد عمل ولم يكن أمامه إلاّ أن يبقى في البيت يرعى الولد إلى حين عودة أمّه من المدرسة.

تركت خديجة العمل أخيرًا.

- فلنذهب إلى أوروبا.

قال زوجها ذات مساء وهو يراقب من نافذته حركات السيّارات في الشارع.

ردّت عليه خديجة بغضب:

- ألا يكفي أنك أتيت بنا إلى هنا؟ إن كنا سنغادر إسطنبول فسنغادرها إلى كوباني.

- عن أيّ كوباني تتحدثين يا خديجة؟ لقد ضاعت سنجار.

- وما علاقتنا نحن بسنجار؟ أنا أحدثك عن كوباني.

- ستحدث مصائب كبيرة. أنا واثق. داعش ذئب أطلقوه على مناطقنا. لقد تكلّمت مع أحد المهربين وهو سيوصلنا نحن الثلاثة إلى النمسا بخمسة آلاف دولار.

- إن شئت اذهب لوحدك. أنا سأبقى.

- ما هذا الكلام؟ لا يجوز لك أن تكسري كلمتي. أقسم بالله إن لم تأتي معي فسآخذ الولد وأذهب.

علا صوتهما واشتدّ السجال دون أن يتّفقا. وقبل أن يخلدا إلى النوم سمعا الخبر الصاعق: «داعش وصلت إلى هضبة مِشْتَنُور ورفعت رايتها على تلة النبع».

- ألم أقل لك؟ والله إنّني أشم رائحة كارثة كبيرة قادمة. تمامًا مثلما تفوح رائحة جثة متحلّلة فإنّ رائحة الكارثة القادمة تزكم أنفي.

محاولة حياة

في المرّة التّالية، حين جاء الطبيب إلى المشفى، كانت خديجة أحسن حالًا وأهدأ بالًا من ذي قبل. اقترح الطبيب الانتقال إلى غرفة محادثة في الطابق الثالث تطل على الراين وتبهج النفس، فوافقت خديجة على الفور وصعدا معًا إلى هناك.

لاحت سفن الشحن الكبيرة من بعيد تمخر النهر جيئة وذهابًا، وهي تحمل أعلامها الوطنيّة وأعلام الشركات والمصانع التابعة لها. الخريف الذي عَرَّى الأشجار من ثيابها بأنامل الريح، بات الآن يعانق بالريح ذاتها أمواج النهر وقامته المديدة. بدت الأشجار من بعيد صامتة تتأمّل عريها الكئيب في النهر.

- كيف تجدين نفسك اليوم يا سيدة حَمْزِراقْ؟

أعادها سؤال الطبيب من خيالها السارح في الخارج إلى غرفة المحادثة.

- أنا مثل شجرة خريف يا دكتور. ريح هوجاء أسقطت عنّي أجمل أوراقي وقصفت أغصاني. لقد اقتلعت مع جذوري عن تربتي. ما من تربة أخرى تستطيع أن تضمّني في بطنها. أنا شجرة معلّقة في الهواء.

- حسنٌ أن يعرف المرء حالته، إنّه بذلك يستطيع مساعدة نفسه والتحسّن سريعًا.

- لا أعرف.

- طيّب. أنا أعرف.

ردّ المعالج النفسي مبتسمًا وواصل:

- إنّ التعبير عن الحالة الداخليّة يؤثّر في نفسيّة الإنسان أحيانًا. على المرء أن يقبل وجود جوانب مظلمة للحياة ولا يدع لها مجالًا للتأثير العميق في النفس.

- ....

- هل يمكنني الآن أن أصغي إلى بقيّة قصّتك؟ كما اتفقنا سابقًا سأسجل حديثك وأكتب الملاحظات.

- نعم دكتور.

حـدّقت خـديجة فـي البحـيرات الثـلاث أمـام المشـفى. أغمضـت عينيـها نصـف إغماضـة وسـردت المشـاهد الأخـيرة مـن حكايتـها: «كنـا ثلاثـة أشـخاص مثـل هـذه البحـيرات الثلاث في الأسفل هناك. لم يعد في الإمكان الاستمرار في العيش في إسطنبول. رفض زوجي رفضًا قاطعًا استمراري في تعليم التلاميذ. كان مصرًّا على أن نهاجر إلى أوروبا مثل كلّ

النّاس كما قال. التقى مهربًا لبنانيًا في آكْسَرايْ واتّفق معه على نقلنا نحن الثلاثة على متن يخت سياحي بخمسة آلاف دولار إلى جزيرة لسبوس أوّلًا ثمّ نكمل الرحلة إلى النمسا».

توقّفت خديجة عن الكلام وصمتت. طال صمتها. تذكّرت ذلك المساء حين جاء زوجها وبشّرها بخبر الاتّفاق مع المهرب أبو ناصيف وما تلا ذلك من أحداث.

* * *

- كلّها نصف ساعة ونصل.

قال زوجها مستسهلًا عبور البحر إلى الجهة المقابلة.

بقيت خديجة تهدهد ابنها دارا وتنظر بين الفينة والأخرى إلى وجه زوجها إبرام الذي ينطق بالسعادة. شرح لها زوجها الطريق كما لو أنّه سافر عشرات المرّات من سواحل تركيا إلى اليونان:

«موضوع السفر سهل جدًّا. الأمواج هادئة هذه الأيّام. سنسافر باليخت. باليخت السياحي. سيسافر أربعون شخصًا فقط. نحن محظوظون لأنّ مهربنا هو أبو ناصيف اللبناني. يده نظيفة وغير طمّاع ولا يعرف الكذب. أما صاحب اليخت فهو رجل تركي من قونيّة. وهو تقيّ يخاف اللّه ولا يطمع في المال الكثير ولا يعرض حياة اللاجئين للخطر. قال لي أبو ناصيف: يا أبو دارا أمّك راضية عنك. لا يسافر كلّ النّاس بهذا اليخت. بالنسبة إلى السّعر لو كان نفرٌ غيرك لأخذنا منه سبعة آلاف وخمسمائة، عن كلّ نفر ألفان وخمسمائة. اسأل الجميع فهذا هو سعر السّوق. يا خديجة سنخرج في اللّيل أو فجرًا. سترين، سيمضي بنا اليخت وقبل أن نكمل حديثًا قصيرًا سنصل إلى الجزيرة».

وضعت خديجة ابنها دارا في السرير وقالت ساخرة:

- أبو ناصيفك قال وأنت صدقت؟

غضب زوجها، ذهب إلى النافذة حيث ازداد صخب الشارع، وقال دون أن ينظر إليها:

- وأنت لا تعرفين غير الاستهزاء! لماذا سيكذب الرجل؟ ما مصلحته في ذلك؟ سنسافر باليخت أتفهمين؟ باليخخخت. لو كان بالبَلَمْ لما سافرت أنا أيضًا[11].

أعاد إبرام ما قاله المهرّب كلمة كلمة لزوجته التي لم تصدقه، فيما بدا هو مقتنعًا بكلّ حرف قاله أبو ناصيف.

* * *

رفعت خديجة رأسها كما لو أنها تعود من سفر طويل، نظرت إلى الطبيب وقالت:

- اعذرني يا دكتور لقد سرحت بعيدًا. تذكّرت أمورًا كثيرة.

- هل لي أن أعرف ما هي؟

- بلا شكّ.

ساقت خديجة لحظات اتّخاذ القرار مثل جداء مشاكسة إلى حظيرة الخيال المرهق وقالت بصوت هادئ وإيقاع حزين:

«ذات صباح باكر استيقظنا على رنة هاتف زوجي. كان على الخطّ مهرب لبناني يُدعى أبو ناصيف. اتّصل يطلب من زوجي أن نستعد للسفر.

- بعد نصف ساعة ستأتي حافلة لتقلّنا.

قال زوجي، وهو ما يزال متمدّدًا في السرير يحدّق في شاشة الهاتف، ثمّ نهض. بقي دارا نائمًا. كان يحلم أحلامًا سعيدة بلا شكّ. نظرت إلى ملامح وجهه الملائكي.

لم يطاوعني قلبي على إيقاظه. انحنيت عليه وقبّلت جبينه بلطف. أتبعت قبلتي الأولى بقبلة ثانية، ثمّ ثالثة ورابعة وخامسة حتّى أيقظته بالقبل».

مرّت لحظة صمت.

حزن ثقيل.

على بعد مئات الأمتار كانت سفن كبيرة تمخر نهر الراين.

لم يدرِ ذاك النهر بأنّ امرأة منكوبة خائرة القوى تسرد على مسامع طبيب ألمانيٍ ذكرياتها مثل زوارق تتقاذفها الأمواج.

الخريف مازال مصرًّا على أن يعرّي الأشجار حتّى آخر ورقة.

بضع غيوم تسبح حائرة في سماء دوسلدورف. أنواع مختلفة من الطيور تحوم في تلك السماء الغريبة.

نظر الطبيب بصمت إلى عيني خديجة المزدحمتين بالحكايات والألم.

- إلى أين ذهبتم بالحافلة؟

سألها وهو يبتسم عارفًا أن الابتسامة تُعدي. أراد أن يجذب زورق خيالها المرهق من بحيرة الصّمت إلى ضفة الكلام لتبسط نقوش النفس أمامه وتروي بقيّة قصّتها.

أرادت خديجة أيضا أن تفضي بما يثقل روحها من أسى وآلام فأجابت:

«لم نذهب فورًا يا دكتور. هكذا هم المهرّبون. يخدعون

النّاس، يستسهلون الأمور حتّى يدفعوا بالمرء إلى الفخ. «هيّا جهزوا أنفسكم»، نجهّز أنفسنا. «للأسف السائق غير جاهز»، ننتظر السائق. «تعالوا إلى آكْسَراي»، نذهب إلى آكسراي. أصبحنا كالكرة بين أرجلهم يتقاذفوننا كيفما يشاؤون. وحين أيقظتنا رنّة الهاتف ذلك الصباح لم أرد الذهاب، لكنّ زوجي أقنعني أن الموضوع جادّ هذه المرّة وأنّها ستكون المرّة الأخيرة. ومع ذلك فقد تأخّرنا حتّى الرابعة عصرًا. تعب ابني دارا كثيرًا. لم يعد بإمكانه المشي أو الوقوف في تلك الشوارع المكتظّة. تناوبنا أنا وإبرام نحمله على أكتافنا حتّى تعبنا. وليته بقي على كتفي إلى الأبد ولم نغادر بذلك المركب في ذلك اليوم الأسود».

ألقى الصّمت بنفسه مرّة أخرى بين الطبيب الألماني ومريضته، لكنّ الطبيب أبعده سريعًا بسؤاله:

- كم شخصًا كنتم؟

أطلقت خديجة تنهيدة طويلة ثمّ قالت: «كنا أربعة عشر نفرًا. هكذا أصبحوا ينادوننا. نفر. نفر لا أكثر. بلا اسم ولا هويّة ولا حتّى رقم. لقبٌ وحسب. لقب وحيد يُطلق على آلاف الحائرين التائهين لا يفرقون بين هذا وذاك. إنّها عدالة المأساة.

اتّصلت قبل أن نغادر إسطنبول بالعائلة لأودّع أبي وأمّي وإخوتي. حمل أخي الأكبر السمّاعة وأخبرني أن كل سكان كوباني قد غادروها وأن داعش تهاجم المدينة.

توتّرتُ وقلقتُ كثيرًا. خفت وخشيت على أهلي. كم تمنّيت لحظتها أن أكون بين أهلي نازحة مثلهم ولا أكون مجرّد نفر يُساق إلى أوربا سوق العبيد. ماذا نفعل؟

إنّها تراجيديا. فيلم حزين ورواية مأساويّة من بدايتها إلى نهايتها التي هي نهايتنا أيضًا. الخلاصة أنّنا توجّهنا إلى شاطئ تُرى منه أضواء جزيرة ليسبوس. أعتقد أنّه كانت ثمّة أشجار زيتون جلسنا تحتها متعبين إلى أن غلبنا النعاس فنمنا. ولكن أيّ نوم! كان نومًا كنومة الذئب بعين واحدة بينما الأخرى مفتوحة يقظة. كادت تحترق أعصابنا، صرنا نرتجف من برد اللّيل، يستبد بنا الخوف من قرب موعد الانطلاق. بدأ دارا يشعر بالبرد والجوع ويشكو ويبكي، يشاركه في ذلك ثلاثة أطفال لنساء إيزيديّات إحداهن تبكي وتدعو بينما يحاول زوجها تهدئتها دون جدوى. لقد أفقدها الخوف من ركوب البحر عقلها وصارت تهذي.

مع بزوع الفجر أيقظنا المهرّبون من ذلك النوم القلق. لا أعرف لماذا تحولوا فجأة إلى ناس متوحّشين قساة القلوب! كانوا يصرخون ويشتمون مع أنّنا دفعنا لهم أموالًا طائلة وعرضنا أنفسنا لذلك السفر الخطير. تعاملوا معنا على أنّنا قطيع يجب أن يُساق إلى هنا وإلى هناك. كنا حوالي سبعين نفرًا: نساءً، رجالًا،

أطفالًا وشبابًا. بضعة منهم كانوا من أفغانستان وثلاث نساء إيزيديّات من سنجار مع أولادهن وأزواجهن والباقي سوريّون.

كانت الدنيا ما تزال مظلمة. لكننا أبصرنا، قبل أن نبحر، زبدَ الأمواج يلمع في ضوء النجوم وأضواء هواتفنا النقّالة. سمعنا هديرها وصخبها. أرعبتنا تلك الأمواج جدًّا، لاحت لنا وكأنّها تهدّدنا بالويل وهي تضرب الشاطئ الصخري بغضب عارم.

نهش الخوف قلبي. جرفتني أمواجه. واساني زوجي وحاول أن يخفف عنّي قائلًا: «سيأتي اليخت حالًا. الرحلة لن تستغرق أكثر من نصف ساعة. أغمضي عينيك وستجدين نفسك في جزيرة ليسبوس. سأشعل سيجارتي هنا وأطفئها هناك. ها هي أضواء الجزيرة. أترينها؟». بالفعل كانت أضواء الجزيرة تلمع في عتمة السَّحَر وتوحي بأنهّا في متناول أي زورق. كم كانت جميلة تلك الأضواء! تولّد لديّ شعور مزيج من الخوف والرّجاء. لم يبق بيننا وبين الخلاص من وضعنا المزري سوى نصف ساعة. لم يبق بيننا وبين أن نشمّ نسيم الحرّيّة سوى هذه الأميال القليلة. على متن هذه الأمواج الغاضبة سنصل إلى عالم آمن، هادئ، سعيد بعيد عن الحروب وويلاتها. عمّا قليل سيرسو بنا مركبنا في ساحل النجاة، سنصل إلى ذلك الطرف من الدنيا حيث الإنسان إنسانٌ له الحقّ في حياة سعيدة ومستقبل بهيج.

هبت نسمة باردة.

ألبست ابني دارا سترة النجاة وغطيته ببطانيّة. ارتدينا جميعًا سترات نجاة اشتريناها من محلّ يبيع النظارات الشمسيّة والقبّعات.

- من هنا إلى ساحل الجزيرة مشوار صغير. أقلّ من ساعة. لا تخافوا أبدًا. معكم أرقام هواتف خفر السواحل الأتراك واليونانيين أيضًا. إذا حدث طارئ لا سمح الله فاتّصلوا بهم وحدّدوا موقعكم عن طريق غوغل وسيأتونكم حالًا. لكن يجب أن تعلموا أن عودتكم غير ممكنة. كلّ شيء إلاّ العودة.

وقف المهرّب مثل خطيب على صخرة وألقى على مسامعنا تلك الكلمات. ثمّ نزل من منبره الصخري وقال بحدة:

- من منكم يعرف قيادة السيّارة؟

- أنا.

أجاب شاب منهمك في ارتداء سترة النجاة.

سحب المهرب وراءه زورقًا مطاطيًا يسمّونه بالبلم ولا أدري لماذا يسمّونه هكذا؟ على كلّ حال فإنّ البلم والمهرّب والبحر والغرق واليونان هي خمس مفردات غزت قاموس السوريّين بشكل عامّ. ما من سوري لا يردّد هذه المفردات عدّة مرات في اليوم.

كان طول المركب حوالي سبعة أمتار. خفت حين رأيته. ظننته قارب نجارة يرافق اليخت الذي سيأتي بعد قليل.

تقدّم المهرّب وشرح لذلك الشاب كيفيّة تشغيل المحرّك في دقائق معدودات ثمّ صفعنا بأوامره: «هيّا اركبوا».

خفق قلبي بشدّة. هل هذا هو اليخت؟ أأنا في كابوس؟

نظرت إلى وجه زوجي الذي بدا ذابلًا وقلت: «أين اليخت؟ أين سفينتك ذات الطابقين والتي لن يصعد إليها أكثر من أربعين نفرًا؟ أين صاحبك التّقيّ الورع من قونية يا إبرام؟». لم يجبني زوجي. أدار ظهره لي ولم يأبه بما أقول وكأنّني أخاطب الأمواج والبحر المقنع بالظلام.

فجأة رأيته يقفز إلى القارب. ارتجفت، لا من البرد هذه المرّة بل خوفًا. رفعت رأسي إلى أعلى فاصطدمت نظراتي بسماء خرساء مكفهرّة تلمع فيها حفنة نجوم بدت مثل خراف تخلّفت عن القطيع.

بعد أن استقر إبرام في المركب مدَّ يده إليَّ وناداني: «هات يدك يا خديجة. تعالي. لا تخافي. الله كريم. النّاس كلّهم يعبرون البحر بالبلم ونحن لسنا أفضل منهم».

خفت، تردّدت، ضممت ابني دارا إلى حضني كما لو أنّ أحدًا يريد خطفه. كان نائمًا. ربما كان يحلم بكوباني، ببيت جدّه والدي الحاج مسلم وأزاهير أمّي خانِه التي تعتني بها أكثر من اعتنائها بأولادها. ربّما كان يحلم بأنغام موسيقى خاله باران. فقد كان يحب الموسيقى كثيرًا، وكان كلّما ذهبتُ في زيارة إلى بيت أبي ركض دارا إلى غرفة صغيرة حيث تصدح أنغام عزف أخي. لا أدري بما كان يحلم ابني وقتها لكنّني أتذكّر جيّدًا أنّ مهرّبًا مفتول العضلات أمسك بساعدي وقال بغلظة:

- ياللا اطلعي. لازم نبوس قندرتك حتّى تنقلعي؟

ودفعني بخشونة جعلتني داخل المركب بعد أن أوشكت على السقوط.

أمسك زوجي بيدي وساعدني على الثبات. جلست بخوف عظيم وصمت أعظم ولففت ذراعيَّ على ولدي. ارتفعت الصلوات والأدعية والآيات مع تشغيل المحرك.

شعرت بأنفاس دارا الدافئة على عنقي حيث يضع وجهه. آه كم كانت أنفاسًا لذيذة، دافئة، فردوسيّة، رقيقة هبت على عنقي في ذلك الفجر اللعين!

أشارت السّاعة إلى الخامسة والربع فجرًا تقريبًا حين انطلق الزورق وصار يهتز يمينًا ويسارًا مثل بهلوان يمشي على حبل ويكاد يفقد توازنه. ازداد خوفي كلما ازداد الزورق إيغـالًا فـي ظلمـة البحـر. وفجـأة سـمعنا صـرخة امـرأة

إيزيديّة: «زوجي وابني. زوجي وابني لم يأتيا. إنهما ليسا معنا. لقد تركناهما على الساحل التركي».

وصارت تولول. فشلت كلّ محاولات تهدئتها. إلى أن قالت لها جارتها إننا سنصل الآن وسنتكلّم مع زوجك لكي يلحق بك فسكنت. كانت قد صعدت وحدها حين صرخ المهربون بنا لنركب قبل أن تأتي السلطات التركيّة. رفض بعض الأنفار ركوب البلم مطالبين بتنفيذ الوعد بأن المركب الموعود يخت سياحي، لكنّ المهربين هددوهم بتركهم على الساحل ما لم يركبوا بسرعة، فاختلط الحابل بالنابل وصار النّاس يقفزون إلى المركب حتّى كدنا أنا وزوجي نفترق بعضنا عن بعض أيضًا.

تأملت الشاطئ الذي صرنا نبتعد عنه فتناهبتني الأفكار: ها نحن نبتعد عن الشرق الجائر، الدموي، المظلم، ونتجه إلى الغرب دون أن نعرف كيف سيستقبلنا هذا الحضن العادل المشرق كما يُشاع. الخوف والرجاء، الحزن والفرح، رائحة البحر، رذاذ الأمواج المالح وسماء تفقد نجومها نجمًا وراء نجم، أصبح كلّ ذلك مشهدًا خرافيًا. أضواء الجزيرة التي كنّا نقترب منها امتزجت مع الأخيلة التي راودت ذهني.

فاجأنا الموج وتدفّق الماء إلى الزورق فنهش الرعب قلوبنا.

- لا تخافوا.

واسى الركاب بعضهم بعضًا. أمسك كلّ واحد بيده حافة الزورق من خلف ظهره، مكفهر الوجه، صامتًا تكاد عيناه المغرورقتان بالخوف تتضرعان إلى الموج تطلبان رحمته.

ارتفعت موجة قويّة وضربت الزورق حتّى ظننّا أنّه سينقلب. لم تمض ثانية واحدة حتّى ضربتنا موجة أقوى من سابقتها. لا أعرف كيف فاجأتنا الأمواج في ذلك الفجر. تذكّرت مقولة دارجة كالمثل: البحر غدّار. حين انطلق الزورق كان البحر هادئًا فكيف ولماذا انتابه كلّ هذا الغضب؟

إنّه البحر وله ألف سرّ وسرّ. هكذا قرأت في إحدى الروايات. تذكّرت رواية الشيخ والبحر لإرنست همنغواي. تذكّرت صراع العجوز مع البحر وأسماك القرش، والسمكة التي علقت بصنّارة العجوز وكفاحه الأسطوري لأجل سحبها إلى الشاطئ وباقي تفاصيل الرواية.

لقد علّمتني الحياة، كما الروايات، أنّ المرء يخرج من بطن أمّه مقاومًا حتّى الممات. إنّه مخلوق معذّب. والحياة مثل هذه الأمواج غدَّارة.

صلوات النساء الإيزيديّات وتمتمات ذلك الرّهط من الشباب الأفغان أعادتني من تلك الخيالات إلى الزورق المتأرجح في وسط البحر الذي بدا لي كأنّه غولة تلد الأمواج.

حاصرنا الموج وتبلّلنا جميعًا. أردت أن أمسك بيد زوجي، لكن كيف؟ كان دارا في حضني أعانقه بيد وأمسك باليد الأخرى حافّة القارب. استيقظ دارا على صخب الأمواج وجلبة الركاب. سألت زوجي فزعة: «أهذه الأمواج عاديّة؟» أجابني بنبرة لا أثر للثقة فيها: «نعم. أعتقد أنّ الأمر طبيعي. لا شيء سوى أن البحر هائج قليلًا.

الحمد لله مازال المحرّك يعمل».

لم يكد زوجي ينهي حَمْدَلَته حتّى توقّف صوت المحرك. أصابه عطل. ازداد اهتزاز القارب الذي يلطمه الموج من كلّ جانب.

* * *

لاحظ الطبيب النفسي أنّ خديجة متعبة وأنّها توشك أن تبكي مع كلّ جملة. عرف أنّها بحاجة إلى استراحة وتغيير جوّ فقال لها:

- سيدة حَمْزِراڤْ. تستطيعين الرّاحة قليلًا. تلك الشرفة المزيّنة بالورود تطلّ على نهر الراين. لو شئت يمكنك الترويح عن نفسك هناك.

نهضت خديجة واتّجهت إلى الشرفة دون أن تتكلّم. وقفت عند الدرابزين الذي تزيّنه أصص ممتلئة بأزهار اللّيلك والبنفسج والغاردينيا وغير ذلك من أزهار لم تعرفها. نظرت إليها بحزن، مرّرت أصابعها بين الأوراق الناعمة والبتلات النديّة الملوّنة كأنّها تمشط شعر ابنها دارا، ثمّ اتّخذت مجلسها على كرسي صغير وصارت تحدّق صامتة في نهر الراين الذي رأته يجري غير ملتفت إلى هموم أحد.

تذكّرت ذلك الفجر البارد وتلك الريح التي عصفت بالزورق فجعلته أرجوحة موت. تذكّرت أنّ الجميع بدؤوا يصرخون ويستنجدون مرعوبين. أمّا هي فقد لفَّت يديها على ولدها الباكي خوفًا من الصّراخ والعويل الذي حرمه من نومه فجأة. أغمضت عينيها وهي تنادي يا ربّ يا ربّ مكرّرة اللّفظة بعدد ما يحيط بالزورق من أمواج بينما ارتفعت صرخات الإيزيديّات يطلبن النجدة. تبلّلت البطانيّة التي كانت تلفّ بها ولدها دارا، فبحثت في حقيبتها عن بطانيّة جافة لكنّها لم تصادف سوى الماء.

ارتبك المتكفّل بقيادة الزورق. لم يعرف كيف يشغّل المحرّك رغم محاولاته العديدة. بقي المحرّك أخرس أكثر من تلك الخيمة التي تظلّلهم والمرصعة ببضع نجوم ترتعش. دفع زوج خديجة ذلك الرّجل بعيدًا عن المحرّك من شدّة غضبه، وحاول أن يشغّله بنفسه دون جدوى. بدأ الفتيان الأفغان في تلك اللّحظة ينزعون ثيابهم ويرمون بأنفسهم إلى البحر. بدوا وكأن مسًّا من الجنون أصابهم فذهبوا في كلّ اتّجاه. فجأة صرخ إبرام صرخة مرعبة: خديجة.

بدا الأمر كما لو أن يدًا امتّدت من الغيب وقلبت الزورق، نفضته نفضًا عن ركّابه.

ابتعد البَلَمُ فارغًا تتقاذفه الأمواج فيما تفرّق الركاب في كلّ اتّجاه. سمحت أضواء الفجر بقليل من الرّؤية. كرّر إبرام نداءه:

- خديجة. خديجة. هاتي الولد سأحمله أنا.

لم تشأ الأم أن تترك ولدها. ألصقته بصدرها. صرخ زوجها للمرّة الثالثة:

- قلت لك أعطيني الولد. ألا تفهمين؟

مدّت بالولد مضطرّة وعلى مضض إلى أبيه. في تلك اللحظة ارتفعت موجة غاضبة فحالت بينهما بعد أن خطفت الولد من يدها وألقته بعيدًا.

هدر صوت خديجة:

- الولد راح. الولد رااااح.

بحث الوالدان عن دارا ابن السنتين. صارا مثل سمكتين تتلبّطان في وعاء ضيّق بينما اتّخذ الذين يعرفون السباحة سبيلهم في البحر وتوجّهوا إلى أي ضوء يشاهدونه من بعيد.

قبل أن ينقلب الزورق اتّصل أحد الركّاب بخفر السواحل اليونانيّين محدّدًا لهم موقعه. ردّوا عليه: «إنكم في المياه الإقليميّة التركيّة وليس من حقّنا التدخّل. اتّصلوا بخفر السواحل الأتراك ليأتوا لنجدتكم».

شهق الذين تغمرهم الأمواج كما لو أن أرواحهم تصّاعد في السماء. انقلب بهم الزورق في بقعة لم يعترف اليونانيون ولا الأتراك بتابعيّتها لهم.

- داراااااا - داراااااا تناوب الأب والأم على مناداة ولديهما.

وجدت خديجة نفسها مرّة أخرى عند الزورق. لم تعرف كيف وصلت إليه! كان ثمّة آخرون ممسكين به. مدّت يدها وأمسكت هي أيضًا بحافته ورفعت رأسها قدر المستطاع. وقع بصرها على سماء خرساء صماء. ثمّ نظرت حولها في تلك العتمة التي تتبدّد رويدًا رويدًا باحثة عن أثر لابنها. صارت ترتجف رعبًا وبردًا مثل الأوراق التي تتساقط الآن أمام ناظريها من شجرة على ضفّة الراين.

لم تعد تسمع صوت الأطفال الإيزيديّين. طفت أجسادهم الصغيرة على الماء وبقرب كلّ واحد منهم منديل أمّه. خشيت أن تترك القارب فتغرق. بقي القارب في مكانه لا يتقدّم ولا يتأخّر بل يدور ويدور مع الموج. ما من أحد الآن يصارع الموج. أصبح السكون سلطانًا رهيبًا في تلك اللّحظة. السماء خرساء، الجو أخرس، النجوم القليلة التي بقيت تقاوم الرحيل، واجمة. وحدها تلك الأمواج المزبدة لم توقف عربدتها واستمرّت تلطم من الخلف أولئك النفر القليلين الذين تمسّكوا بالقارب.

فجأة سُمع صوت سفينة كبيرة. تذكّرت خديجة أفلام السينما

التي شاهدتها هي وحبيبها آمد في كليّة الطبّ بحلب: في كثير من الأفلام يعلق بطل الفيلم بين الأمواج إلى أن تمرّ بالصدفة سفينة كبيرة فتنقذه من براثنها. منحتها تلك المشاهد المستعادة من أفلام سابقة بعض الأمل إلاّ أن السفينة ابتعدت وسط صراخها وصراخ الآخرين المتشبّثين مثلها بحافّة الزورق.

- دارا. داراااا. إبرااام.

لم يجبها سوى صخب الأمواج والزبد المتطاير من أشداقها.

تناثرت الأجساد الغارقة حول الزورق. أصبحت خديجة ترى في جثّة كلّ رجل زوجَها إبرام وفي جثّة كلّ طفل ولدَها دارا. صارت الجثث الطافية ترتفع وتهبط مع حركة الموج الذي يدفعها إلى الشاطئ.

بدأ الظلام ينحسر رويدًا رويدًا. فجأة سلطت أضواء خاطفة على المكان. كانت أضواء زوارق خفر السواحل اليونانيّة القادمة من جهة جزيرة ليسبوس. استغلّت خديجة تلك الأضواء للبحث حولها عن ولدها وزوجها.

عدّت الجثث بعينيها: جثّة، جثّتان، ثلاث جثث، أربع، خمس، ست...خمس وخمسون جثّة لمع فوسفور سترات النجاة عليها في الأضواء الكاشفة لزوارق خفر السواحل ليست بينها جثّة زوجها وطفلها دارا. شعرت بالدوار. بدأت يداها تنزلقان عن حافة الزورق المطاطي. صارت تنزلق إلى الماء غائبة عن الوعي.

* * *

انهمك الطبيب في قراءة كتاب يرتشف بين الفينة والأخرى من كأس بلّوريّة بها ماء غازي. أيقظه من استغراقه صوت نحيب مُرٍّ قادم من الشرفة.

كانت مريضته خديجة تبكي بحرقة وألم. وضع الكتاب ثمّ مشى بهدوء صوبها.

- أرجو أن تكوني بخير؟

- أنا بخير يا دكتور. أنا بخير.

كرّرت وهي تمسح دموعها.

حين جلسا مرّة أخرى روت خديجة لطبيبها ما استعادته من مشاهد وهي على الشرفة. روت له كيف أنّها غابت عن الوعي وأن خفر السواحل اليونانيّة أنقذوها هي وعددًا آخر من اللاجئين وأوصلوهم إلى جزيرة ليسبوس. روت له كيف أنّ الأمواج جرفت جثّة زوجها وابنها إلى الشاطئ وسلمتهما إلى الرّمال مع إشراقة الصباح. روت له كيف أنّها أصيبت بانهيار عصبي، وأنّها كانت تحضن طفلها وتبكي وأنّها لم تر بعد ذلك شيئًا سوى أنها في ألمانيا.

- هل تستحقّ الحرّيّة التي خرج النّاس يطالبون بها كلّ هذه العذابات يا دكتور؟

ألقت خديجة هذا السّؤال بعد أن انتهت من سرد الفجيعة. لم تكن تعرف بعد ما الذي جرى في كوباني وماذا حصل لعائلتها.

موعد مع الراين

كان هاتف خديجة النقّال في جيب زوجها حين غرق. لم تعد تتذكّر أيّ رقم من أرقام أهلها ومعارفها. أما الحبوب المهدّئة التي كانت تتناولها فقد جمَّدت ذاكرتها ولم تعد تهتمّ كثيرًا بما يجري حولها. بالرغم من كلّ ذلك فقد كانت نوبات حزن تجتاحها بين حين وآخر فتبكي طويلًا. ثمّ تجتاحها نوبات صمت فلا تعود تكلّم أحدًا. تتذكّر ابنها دارا أكثر من كلّ شيء فيكاد الجنون يعصف بها. تراه دائمًا في الحلم، نائمًا في حضنها، تتّجه به إلى زورق يغصّ بالنّاس. بعد ذلك قلَّت أحلامها بفضل الحبوب وصارت تنعم بالنوم، لكنّها بدأت تعاني من جفاف هائل في الحلق.

- الأمر عادي. هذا من تأثير الحبوب.

طمأنها الطبيب حين شكت له ذلك.

آلمتها الأحداث التي تعرّضت لها مدينتها. شاهدت اسم كوباني في غرفتها على شاشة السي إن إن وفي نشرات الأخبار ورأت الدخان يتصاعد من حاراتها فاعتصر قلبها ألمًا.

عرضت الشاشات صور النّازحين البائسين التائهين فازدادت ألمًا على ألم. كلّما رأت عجوزين حسبتهما أبويها. وحين علمت أنّ الاشتباكات تجري داخل المدينة مزّقها الخوف على أختها الصغيرة رَوْشَنْ التي تقاتل إلى جانب البقيّة الباقية هناك، ارتسمت جديلة أختها الذهبيّة في خيالها. تذكّرت أنّها كثيرًا ما وضعتها في حضنها، مشطت شعرها وعقدت لها جديلتها بعد الحمَّام.

أصبحت خديجة تعيش على ما تبقّى من ذاكرتها. تذكّرت بيتها في غرب المدينة حيث بنى زوجها دارًا من طابقين على مزاجه. جعل الطابق الأرضي دكاكين ومحلاّت تجاريّة وفوقها بنى شقّة من أربع غرف وصالون فاره وشرفتين إحداهما في الجنوب والأخرى في الغرب. كان زوجها رجلًا ميسور الحال يدرّس اللغة الإنكليزيّة لطلاب الثانويّة إلى جانب الدروس الخصوصيّة التي فتحت لهما باب رزق وفير. كانا، هي وزوجها، قد خطّطا لنفسيهما مستقبلًا جميلًا ورسما حياة حلوة هادئة وعائلة سعيدة كبيرة.

- كانت للقدر خططه المغايرة.

قالت خديجة متحسّرة وتركت الشرفة المطلّة على نهر الراين لتعود إلى غرفتها وتتمدد على السرير.

مر قطار خيالها بجميع محطّات حياتها. طفولتها في حارة سَيْدا، دراستها الابتدائيّة والإعداديّة ثمّ الثانويّة في مدرسة البنات. دراسة الأدب الإنكليزي في

جامعة حلب، الحبّ، رحلات الجامعة إلى طرطوس واللاذقيّة ولحظات المتعة هناك تحت أشجار السرو، التدريس ثمّ الزواج وولادة دارا وكلّ تفاصيل حياتها السابقة.

- أين ذهب كلّ ذلك؟

سألت نفسها بحزن ثمّ أجابت:

- ذهب كلّ شيء مثل ما ذهب زوجي وولدي في البحر.

ضاع الوطن، ضاعت المدينة، العائلة والزوج والابن. ما من عزاء بعد كلّ هذا الضياع. ضاق صدرها كثيرًا. مضت نحو خزانة الثياب. ارتدت معطفًا أحضرته لها كاريتاس[12] دوسلدورف ووقفت قليلًا أمام المرآة:

- كأنّ الغربة لا تكفي حتّى صرنا متسوّلين أيضًا.

قالت وهي تبتسم بحزن. لفّت حول عنقها شالًا وقرّرت أن تخرج قليلًا.

حين خرجت من مدخل المستشفى لفحتها نسمة باردة، فشعرت بخفّة في الرّوح كسمكة تعود إلى الماء. لم يسألها أحد إلى أين تذهب فمشت بهدوء كمن خرج يتنزّه بين الأشجار.

كانت الشمس تغرب. الأشجار عارية سوى قليل منها كانت خديجة تراها من نافذتها كلّ صباح دون أن تعرف أسماءها. سلكت دربًا ضيّقًا للمشاة. لم يكن هناك أحد. مشت دون أن تفكّر في شيء. مرت بجانبها امرأة مع كلبها دون أن تلقي عليها التحيّة. سمعت صوت جرس خلفها فالتفتت لترى درّاجة قادمة. تنحت عن الطريق فشكرها سائق الدراجة ومضى في حال سبيله. الأجواء صامتة. السماء المختفية وراء الغيوم الرماديّة صامتة. هي أيضًا تمشي بصمت. لم تكن تسمع سوى وقع خطواتها وضجيج أفكارها.

لم تعرف إلى أين تتّجه. لم تعرف أيضًا أيّ قوة دفعتها إلى مغادرة غرفتها في المشفى إلى جهة مجهولة.

ذهبت جنوبًا. لم تمض دقيقتان حتّى صادفت ثلاثة غدران كبيرة، فعرفت أنّها التي تراها من النافذة كلّ يوم. كانت غدرانًا صامتة وساكنة المياه محاطة بأشجار سامقة تحجب كلّ شيء عن الأنظار لتتأمّل مفاتن خضرتها الغامقة في الغدران المرايا. مضت في طريقها إلى أن وصلت إلى ممرّ آخر للمشاة فاتّجهت غربًا، ثمّ التفَّتْ صوب الجنوب. ظهر نهر الراين من بعيد يناديها بصمت.

- إنّه لا يعرف لغتي ويناديني!

قالت وهي تحدق في النهر. وقبل أن تخطو خطوتها التّالية أردفت ساخرة:

- لكنّني سأردّ عليه بلغة الموج التي تعلّمتها في البحر.

حامت بعض الغربان في السماء الملبدة بالغيوم. حطّ بعضها على قرميد أسطح المنازل وأغصان الأشجار فيما نزل سرب صغير منها إلى الأرض ينبش باحثًا عن قوته الذي أخفته جثث أوراق الخريف. لاحت في السماء القريبة أيضًا طائرات تهبط في مطار دوسلدورف وأخرى تقلع منها تملأ الأجواء الصامتة هديرًا.

أخذت خديجة جانب الطريق السريع 44 العابر فوق النهر ومشت. ارتفع صخب السيّارات التي تسير على ذلك الطريق في الاتّجاهين لكنّها لم تعد تسمع سوى صوتها الداخلي. انتابها فجأة حزن عميق. أسرعت في المشي غربًا إلى أن وجدت نفسها فوق أحد الجسور.

بدأ الظلام ينتشر ولاحت الأشياء تختنق غاطسة في أضواء الشفق الكالحة: الأشجار والغدران والطريق والغيوم ونهر الراين والزبد المتطاير أسفل سفينة كبيرة تمخر فيه. لم تجد ما يدعو إلى البهجة. بدا كلّ شيء كئيبًا لحظة الغروب تلك.

واصلت سيرها، ويداها في جيبي المعطف، على الجانب الشرقي من الطريق السريع عبر ممرّ ضيق للمشاة والدّراجات حتّى بلغت رأس الجسر العالي. صارت تمشي بحذر وتثاقل كأنّها تجرّ قدميها جرًّا حتّى وجدت نفسها بعد دقائق عند منتصف الجسر. كانت مرهقة. وقفت في مكانها لترتاح قليلًا. اتّكأت على جانب الجسر وصارت ترنو إلى جهة المشفى. شاهدت من مكانها تلك الغدران الثلاثة والأشجار المحيطة بها. بحثت عن مشفاها فلم تره، اختفى نهائيًّا وراء تلك الأشجار الباسقة الملتفة.

وحين حانت منها نظرة خاطفة إلى الأسفل رأت الراين.

بدا لها نهرًا من رماد يتهادى مثل الغيوم التي تعلوه، يجري بطيئًا صامتًا حزينًا مثلها. أصاخت خديجة السمع إليه. أرادت أن تسمعه. كادت تسمع شكواه وأنينه.

هدرت السفينة التي لاحت قبل قليل قادمة من الشرق ومرّت من تحت الجسر ثمّ ابتعدت. خيّم سكون عميق على المكان بعد ابتعاد السفينة. داهمتها موجة رعب. نظرت في أثر السفينة والزبد الذي تركته خلفها. تذكّرت ذلك الفجر الأليم الذي خطفت فيه أمواج بحر إيجة ولدها وزوجها من بين يديها. تذكّرت تفاصيل تلك اللّحظات الأليمة. تراءى لها المشهد كاملًا. سمعت بوضوح صوت دارا يصيح «ماما ماما» وهو بين براثن الموج. سمعت جلبة زوجها يصارع الموج المسعور بساعديه بحثًا عن ولدهما. تناهى إلى سمعها استغاثات الإيزيديّات وبكاء أطفالهن الذين لم تكن ثمّة آذان تسمعهم. شعرت في تلك اللّحظة القاسية بلفح الرذاذ البارد المالح ساعة الكارثة، تناهت

إلى سمعها عربدة الأمواج وعلا في خيالها عواء الريح الهائجة.

تراءى لها الزورق المطاطي الذي لعبت به الرياح والأمواج على هواها، الوجوه المصوّبة بيأس إلى السماء، الأدعية والصّلوات التي لم تتوقّف، كلّ ذلك مجتمعًا هبَّ على خيالها مثل عاصفة هوجاء.

- ماماااااا.

وخز هذا النّداء روحها.

- ماماااااا.

تكرّر النّداء الواخز.

جمّدتها الدّهشة. نظرت حولها. ثمّة سيّارات وحافلات تروح وتجيء على الطريق السريع وفي الأعلى سماء تختبئ في معطف الغيوم. نظرت مرّة أخرى إلى الأسفل حيث يجري النهر حزينًا متثاقلًا. رأت في النهر زوجها وابنها وذلك الزورق المنحوس المليء باللاّجئين الساعين إلى النجاة مهتدين بنجم الوهم.

- مامااااااااا. أمّي.

تكرّر النّداء للمرّة الثالثة. إنّه صوت ابنها قادم من أمواج الراين أسفل الجسر. إنه ابنها دارا يناديها. دارا الذي ابتلعته أمواج فجر خريفي في بحر إيجة.

لم تعد خديجة ترى شيئًا. لم تعد تبصر سوى صورة ابنها يعكسها النهر الكئيب، الأمواج المسعورة تدفعه، موجة مسعورة تسنده إلى أخرى أكثر سعارًا.

غابت عن المشهد حولها كلّ الصور عدا صورة ابنها الذي يغرق، اختفى كلّ شيء عن بصرها إلاّ موج هائج يفترس ولدها النّحيل، صاحت فجأة:

- دارااااااا.

أحـسّت بـأنّها تضـيع بـين أمـواج ضـباب كثـيف. ارتخـت يـداها فلـم تعـد تمسـك بسـور الجسـر. كـانت قـد انحنـت علـى النـهر حـتّى خصـرها. غشـي عينيـها مـا يشـبه سـتارة كتيمة، فغابت عن الوعي وهي تحدق في الأمواج العابرة أسفل منها. لم تعد ترى أو تسمع شيئًا. انزلقت عن السّور تحت ثقل جذعها رويدًا رويدًا.

هوت الغريبة إلى أسفل.

وهي تهوي، بعثرت الريح الباردة شعرها في كلّ اتّجاه. انفرد شالها على هيئة جناحي طائر عملاق أصيب بطلقات صيّاد، فهوى من أعلى الشجرة يخفق بجناحيه مذعورًا دون أن يتمكّن ثانية من الطيران.

مدرسة الزاروب

أمدّ ذراعيَّ مثل جناحين لكي لا أفقد توازني. أمشي فوق أكوام الحجارة بشكل متعرّج. أتوجّه صوب تينك النافذتين الصغيرتين في أعلى الجدار الجنوبي لغرفة بيت عمّي. باب بيت الخالة إيسو الذي يرتفع درجتين عن أرض الزاروب مفتوحٌ. الخالة إيسو هي جارتي وأمّي بالرّضاعة. كان ابنها محمود كوسي، الملقّب حركيًا باسم عاكف، زميلي في المدرسة وأخي في الرّضاعة. أخًا وصديقًا وجارًا كان محمود الذكي المبتسم دائمًا. افتتحنا هو وأنا في بداية أعوام الثمانينيات مدرسة سرّيّة لتعليم اللّغة الكرديّة في غرفته الصغيرة التي تطلّ نافذتها الشماليّة على الزاروب الضيّق. وهي الغرفة التي أمرّ بجانبها الآن. اشترى محمود مستلزمات التلاميذ من دفاتر وأقلام وطباشير ولوح كتابة. بلغ عدد تلاميذنا ثلاثة عشر فتى من الحارة: عَفْدو شقيق صديقي عاكف، ابن عمّي محسن، أحمد ابن عمة عاكف، جاري عَفْدو حَيْدو، ابن أختي عَفْدي، أحد جيراننا الآخرين والباقون لا أتذكّرهم. علّمناهم شيفرة الطرْق على الباب: طَرْقتان ثمّ التوقّف لمدّة ثانيتين ثمّ طرْقتان أخريان.

بعد ذلك التحقت أنا بجامعة حلب لدراسة العلوم الطبيعيّة، وذهب عاكف إلى حمص لدراسة هندسة البتروكيمياء. لكنّه ترك الدراسة والتحق بصفوف الگريلا ليشتغل على كيمياء الحرّيّة ثمّ يضيع في معادلاتها القاتلة.

دأبت الخالة إيسو وزوجة عمّي على الاجتماع في أصائل الصيف في بيت إحداهما لتشربا الشاي حزينتين تحدّقان بأسى إلى آثار ابنيهما الشهيدين في الدّار الفسيحة.

لم تصدق أيّ واحدة منهما أن ابنها قضى في جبال بعيدة ووديان سحيقة قتلًا على يد رفاقه. عاشتا سنواتهما تنتظران فلذات الأكباد.

أنفض ذاكرتي من تلك المشاهد المؤلمة وأمشي بضع خطوات أخرى. أمرّ من باب الحاج وَيْس وأقف أسفل تينك النافذتين. أرفع رأسي وأسترق السمع.

النافذتان صامتتان، مغبرتان، معتمتان. أحمل حصاتين وأرمي كلّ نافذة بحصاة ثمّ أعيد استراق السمع. لا صوت. أينما أولي وجهي تتعثّر أقدامي بحجارة الصّمت. أصيح: «محسن، محى، محووووو».

يتحوّل النّداء الأخير في حلقي إلى نشيج وسرعان ما ينقلب النشيج بكاءً.

ألاحظ أن نصف الجدار الذي أقف أمامه متهدّم. ثمّة فتحة واسعة أرى من خلالها حوض الماء الذي كنّا نجلس على حافته نأكل العنب والتين والبطّيخ البارد في أمسيات الصيف. الحوض فارغ صامت حزين. يتناهى إلى

سمعي من جديد صوت حشرجة مّا. تشبه ما سمعته عند اقترابي من المسجد. لكنّه أقرب إلى صوت سكرات عجوز. أركّز في الاستماع أكثر فأميّز صوت كمان يمرّ قوسه على أوتار مقطَّعة.

يظهر ابن أختي حمودة من رأس الزاوية.

- أنت هنا أيضًا؟ أسأل مشدوهًا.

- أنا في الحارة كلّها خال. أتجوّل بين هذه البيوت الخالية وأحرس الجدران المهدّمة والأبواب المخلوعة. أرسم حنين التراب لوقع أقدام الرّاحلين عنه.

- أين كنت؟

- كنت في بيت العمّ معصوم.

- هل سمعت الحشرجة؟

- نعم.

- من أين تصدر؟

- رأيت كمانًا في غرفة مهدّمة. مقطوعَ الأوتار مكسور الصندوق ومحطّم الحقيبة.

- أريد أن أذهب إلى غرفة عمّي.

- لم تعد موجودة. سويت بالأرض.

يختفي حمودة. أشكّ في أمره مرّة أخرى. شكوكي تزداد في هويّته. شك يسندني إلى آخر. إنّه ليس ابن أختي بل هو طيف يظهر لي بسبب الصّمت والخوف والوحدة.

إنه مجرّد خيال.

كنت أودّ أن أزور حجرة عمّي. الحجرة التي كانت تعبق شتاء برائحة الحطب والتبغ المهرَّب والحبر والقصائد الكرديّة التي ينشدها عَفْدي ابن عمّ والدي. الحجرة التي كانت ترتج بسبب قهقهاتنا التي ترافق تفسيرات بوزان عمر ولي لآيات القرآن. وبوزان هذا كان أحد مجانين كوباني العقلاء وكان يتوهّم أنّه طبيب ويحمل في جيبه غالب الأحيان سمّاعة طبيّة. كانت لكلماته نكهة من السخرية المرّة من كلّ شيء. يفسر القرآن حسب هواه وفهمه للكلمات العربيّة قريبة الوقع من بعض الكلمات الكرديّة.

أنظر من خلال الكوة الواسعة إلى الحجرة. الجداران الغربي والجنوبي منهاران تمامًا، الحجارة الصفراء مبعثرة في ساحة الدّار.

أسمع حشرجة الكمان مرّة أخرى. كأنّها بكاء امرأة. أسمعها مترافقة مع أغنية حزينة للمغني بِرادَرْ مُوسِكي على لسان أمّ ثكلى تبكي ابنها هارون المقتول

في الجبال.

كثيرًا ما بكيت وأنا أستمع لهذه الأغنية التي تفطر القلب. كم من أمّ بكت على هارونها الذي لم يعد!

الآن أيضًا تعصر الأغنية قلبي ألمًا.

أعود خالي الوفاض حزينًا، ما تزال تتدفّق ورائي أغنية بِرادَرْ مثل نزف دم هارون الجريح.

أعود من نفس الطريق الذي سلكته قبل قليل. أصل إلى زاوية بيت كان سابقًا بيت عمّتي فاطمة. جدار الحوش الجنوبي هابط إلى الأرض. الحجارة المتناثرة تسدُّ الزاروب الضيّق.

زوَّج جدّي الشيخ صالح ابنته فاطمة من مريده الحاج علي وهو عربي من عشيرة السادة، وتزوّج أخته هَدْلة المرأة الشقراء الحلوة دائمة الابتسام والتي تتحدّث بلغة كرديّة مكسّرة محبّبة إلينا نحن أحفاد زوجها الشيخ.

أمّا أخوها الحاج علي فقد كان تاجرًا نشيطًا إلى جانب كونه مريدًا متديّنًا متطرّفًا في تديّنه، يتجوّل في القرى مع المريدين الآخرين المرشدين إلى الطريقة النقشبنديّة مثل صوفي حَيْدو، صوفي حَمْجِنْ، صوفي فخري، صوفي حَمَنوكى وغيرهم. وما إن تتناهى إلى أسماعهم جلبة عرس حتّى يُغيروا عليه يمزّقون الطبل ويكسّرون المزمار بعد أن يجرّوه من فم العازف جرًّا، ثمّ يفرّقون النّاس بتهمة مخالفتهم الشرع وارتكابهم ذنب اختلاط النساء بالرجال واستعمال آلات اللّهو الحرام.

ذات يوم، جاء غجريان، فتى وفتاة، إلى حارة سَيْدا معقل الطريقة النقشبنديّة ذاتها. كان الفتى قارع طبل والفتاة راقصة صنَّاجة. مثل جميع الغجر الذين كانوا يأتون ويخيّمون على أطراف كوباني في المواسم يجمعون الحنطة والسكر والبرغل وما إلى ذلك، جاء هذان الشابّان أيضًا يطلبان رزقهما عبر الفن الغجري.

حين وصلا إلى باب بيت الحاج علي المقابل للمسجد أدخل أولاد عمّتي الفتاة وحدها إلى الدّار فيما بقي الفتى لدى الباب. كان يحمل في عنقه طبلًا يقرعه بعصا في رأسها ما يشبه كرة من القار الأسود. تردّد صوت الطبل في الحارة كلّها بينما بدأت الغجريّة ترقص وهي داخلة وتقرع الصنجين الصغيرين المعقودين في كلّ يد بأصبعي الإبهام والوسطى. كان مشهدًا بهيجًا لم تألفه بنات الحارة، فتحلّقن حول الراقصة الصغيرة وبدأن يصفقن لها بحماس.

حين خرج الحاج علي من المسجد، وقد أفزعه صوت الطبل، فوجئ بالفتى الغجري على باب داره فكاد يفقد رشده. جمع حاشية دشداشته البيضاء بإحدى يديه وانطلق مثل نمر جائع شاهد غزالة ترد الماء.

المسافة بين باب المسجد وباب الخال حج علي، هكذا كنّا نخاطبه، تبلغ خمسة عشر مترًا. قطعها النمر الجائع في ثانيتين.

لم يشعر قارع الطبل الغجري بحركة الخال الخاطفة، لم يشعر إلاّ ويدٌ ثقيلة تصفع قفاه. وقبل أن يلتفت إلى الوراء انتصب الخال في مواجهته سادًّا الباب بجسده الصغير يحاول نزع الطبل عن عنق الغجري الذي أخرسته الصّدمة.

لم تمض ثوان قليلات حتّى كان الطبل بين يدي الخال الغاضب. ذهب به إلى وسط الشارع، وقف في منتصفه عند النقطة الفاصلة بين باب بيته وباب المسجد.

وضع الطبل على الأرض الحامية، حمل حجرًا كبيرًا، وألقاه على الجلد المشدود على آخره بسبب الشمس اللاهبة في ظهيرة ذلك اليوم الصيفي. ما إن ارتطم الحجر بالجلد المشدود حتّى ارتد إلى الأعلى وكاد يصيب وجه الخال. زادت سورة غضبه، حمل الحجر الذي سقط قريبًا من الطبل وهوى به ثانية على الجلد. تكرّر الأمر.

أعاد الكرة ثالثة ورابعة دون أن يصيب الطبل بأيّ أذى سوى أنّه يُقرع بالحجر فيصدر أصواتًا غريبة. ولما رأى الخال أن الحجر لا ينفع عمد إلى مفتاح باب الدّار، فأخرجه من جيبه وبدأ يضغط برأسه المدبّب على الجلد حتّى شقّه، ثمّ حمل الطبل المشقوق وضربه بالأرض.

في هذه الأثناء خرجت الفتاة الغجريّة من بيت عمّتي والتحقت بالفتى ليهربا معًا في الزاروب الضيق باتجاه المخفر. لاحقهما الحاج علي بضع عشرات من الأمتار لكنّهما غابا عن أنظاره، فعاد مزهوًا بانتصاره ليحمل إطار الطبل الخشبي الذي تدحرج حتّى هدأ بباب المسجد كجثّة قتيل.

وصل بَصْرو، وكان أحد مريدي جدّي ويرفع الأذان بالمقامات التركيّة، وفهم القصّة التي رواها له الحاج علي. ضحك قليلًا، أخرج ولاّعته من جيبه وأشعل النار في الإطار الخشبي، ثمّ قال: «يا حاج علي ها قد ألقيت بقايا الطبل في جهنّم الدنيا. وإلى أن يحين يوم القيامة ربنا كريم».

تحوّل الطبل الذي لقي الأعاجيب على يد المريد ذي اللّحية الصهباء الحاج علي إلى كومة رماد على باب بيت الله.

باشتعال الطبل، هدأت نيران الغضب في قلب الخال فمشى يتقدّم بَصْرو ودخلا المسجد سويّة.

وأنا أتخيّل هذه الذكرى أنظر إلى باب المسجد. أنا عند باب بيت عمّتي سابقًا. لا أعرف لمن باعوه.

في بداية الثمانينيات غادر الحاج علي، والحاج أمين والحاج عزّ الدين كوباني إلى الحسكة. وهؤلاء الثلاثة أقرباء، ومن العرب السادة، وأتوا إلى كوباني ليكونوا قريبين من شيخهم النقشبندي. لكنّ الأوضاع تبدّلت ولم تعد حارة سَيْدا تلك الحارة التي لا تعرف القوميّات ولا العشائر. تصاعد الشعور القومي في كوباني واصطبغت حياة النّاس حتّى في حارة سَيْدا بصبغة قوميّة متطرفة ترى في القوميّات الأخرى مجموعات أقلّ مستوى في سلّم الإنسانيّة.

لم نكن نحن في حارتنا نأبه بذلك كثيرًا. لم نلتفت إلى قوميّات هؤلاء الوافدين العرب السادة من الجزيرة السوريّة. ولم يأبهوا هم أيضًا بقوميّة ذاك الشيخ النقشبندي الذي صاروا يحلفون برأسه ويقدّسونه. لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل صاهرهم جدّي، تزوّج منهم وزوّجهم ابنته الجميلة. كنّا عائلة واحدة لا تفرّقنا الأعراق، ولم نكن نعرف هويّات سوى الطفولة.

مازال الغراب الجاثم على هلال المئذنة يفصح عن هويّته التي تميّزه من باقي الطير. أصغي إليه بانتباه. نعيقه يشبه أذان رجل منكر الصّوت. «اللّعنة عليك»، أتمتم وأنا أنحني على الأرض أحمل بضعة أحجار وأرميه بها. تصدر القبّة المعدنيّة الصغيرة في رأس المئذنة رنينًا بعدد الحجارة التي رميت الغراب بها فيطير. رفرفة جناحيه أقرب إلى أزيز الرّصاص. يحوم الغراب فوق حارة سَيْدا. يبحث عن مكان عالٍ يحطّ عليه.

«وأنا مثل هذا الغراب المشاكس أبحث عن مكان لم يتحوّل إلى أنقاض فلا أراه».

هكذ أفكّر وأنا أمضي جنوبًا في الحارة الخالية إلاّ من حفيف جناحي غراب.

في ظلال البندقية

«مرحبا يا أبي، مرحبًا يا أمّي. مرحبًا يا إخوتي وأخواتي. أبعث من ذرى جبال جودي تحيّاتي إليكم في كوباني فردًا فردًا».

بعد سبع سنوات وصلت أولى رسائل متين إلى عائلته. رسالة صوتيّة مسجّلة في كاسيت صغير:

«في البداية أريد أن أقول: عليكم أن تفتخروا بوجود ابن لكم في صفوف الثورة. عليكم أن تحسبوا أنفسكم أصحاب هذه الثورة. هذا شرف كبير. نحن اليوم نواجه الإمبرياليّة ونحارب الناتو، وقد حقّقنا مكاسب عظيمة في مواجهتنا للدول المغتصبة والمستعمرة. نحن على ثقة كبيرة في أنّنا سننتصر. لا شكّ أنّنا فرسان الحرب وأبطال السلام ونصرنا حتميٌّ. إنّ الماركسيّة اللينينيّة وكذلك فلسفة قيادتنا تبرهن بوضوح على هذه القضيّة.

لا أدري كيف أحدّثكم! لقد غادرتكم منذ بضعة أعوام وانقطعت بيننا الأخبار. أنا من جهتي بخير وكلّ شيء على ما يرام. أنا في جبال جودي. آكل وأشرب أفضل ممّا تأكلون وتشربون. رفاقي الكرد من الجنوب الصغير[13] كثيرون. لقد خفت حدّة المعارك الآن لكنّنا لا نثق في العدوّ. إنّ زمام السلام بأيدينا وليس بيده. أحيانًا يظهر العدوّ فجأة لكنّنا نسيطر على كلّ الطرق: قِلابان، بيت الشباب، هَزَخْ، سيلوبي، شيرناخ والجزيرة كلّها تحت سيطرتنا. نحن صقور جودي».

استمعت خانة وهي جالسة في غرفة صغيرة بإحدى زوايا الدّار للمرّة الثانية إلى صوت ابنها المقاتل وصارت تبكي. ولمّا أحسّت بالدموع على خدّيها مسحتها بطرف ثوبها وقالت:

- ما أنت إلاّ ولد صغير يا بني. هذه الكلمات أكبر منك. قل شيئًا نفهمه.

- وأنت اسكتي. إن لم توقفي هذه الطاحونة فكيف سنفهم ما يقوله الولد؟

قال لها الحاج مسلم بغضب، ثمّ رفع صوت آلة التسجيل. لكنّ باران نبهه:

- يا أبي أخفض الصّوت قليلًا. قد يمرّ عناصر المخابرات في الحارة.

- روح بعيد يا ولد. نهايتك ليست بأحسن من نهاية هذا الابن آوى. ألا أعرفكم! كلّكم بيض فاسد فقستكم هذه الدجاجة خانِهْ.

لم يجب باران. خرج من الغرفة وقصد المطبخ، احتضن آلته الموسيقيّة وصار يعزف.

تردّد صدى صوت المقاتل متين في الغرفة كلها. أصغت خانِهْ

دامعة العينين إلى ولدها الغائب بينما استمرّت أناملها تنسج جديلة لابنتها الصغيرة رَوْشَنْ التي انشغلت بملاعبة دمية صغيرة في حضنها.

أما خديجة، الطالبة في سنتها الأخيرة بكليّة الآداب، فقد انزوت عن البقيّة في ركن قصيّ من الغرفة وانشغلت بهاتفها النقّال ترسل وتستقبل الرسائل القصيرة، فيما كان حَمِه يطعم ابنته زوزان دون أن يبدي أي اهتمام بما يقوله شقيقه المقاتل متين.

«لقد حررت نفسي بإرادتي من قيود العائلة ذات البنية الإقطاعيّة. إن النضال الأكبر هو أن يواجه المرء العلاقات الأسريّة لأنّ الأسرة هي العائق الأكبر أمام الگريلا.

الگريلا لا يعرفون النموذج الكلاسيكي للعائلة، الثورة والثوار هم عائلة المقاتل. هنا رفاق نذروا أنفسهم للقضيّة لكن لا يخلو الأمر من بعض الضعفاء أيضًا. إنّهم مع الأسف لم يتخلصوا من الإرث الإقطاعي. لقد تعرفت على بعض الرفاق ممّن لا يفهمون الحب على حقيقته. حسب إدراكهم الحب هو ما كان بين ذكر وأنثى وهذا خطأ. حسب فلسفة القيادة إنّ هذا الفهم الخاطئ للحبّ يمكن أن يجر المرء إلى مستنقع العواقب الوخيمة. الحبّ الحقيقي هو حب الوطن. إن لم تستطع أن تحب وطنك فلن تحب إنسانًا في حياتك. إن موضوع العائلة مشابه لما قلته. العدوّ يحاول أن يربط المرء بأسرته، بأمّه وأبيه أو بزوجة وأولاد لكي يبقى في البيت ولا يلتحق بالثورة. لكنّ القيادة تعمّقت في شرح هذا الموضوع وقطعت الطريق أمامه. الوطن هو عائلة المرء، شرف الشعب هو عائلة المرء وللأسف فإنّ بعض الرفاق لم يستوعبوا هذا الموضوع إلاّ بعكس ما يعنيه. كانوا يخوضون في مسائل الحبّ وما إلى ذلك، لكنّ مزيدًا من التربية الثوريّة فتح أعينهم على حقيقة المسألة وجوهرها.

طبعًا كان هناك من لقي جزاءه مستحقًا ذلك. فلا مكان في جسد الثورة للميكروبات».

انتهى متين من كلامه وتوقفت آلة التسجيل، انتهت أمّه أيضًا من عمل جديلة لأخته الصغيرة رَوْشَنْ فدفعتها بعيدًا عنها، وقالت وهي تضرب ركبتيها بيديها:

- يا حاج هل تكلّم ابنك متين باللغة الكرديّة؟

- وهل تظنّين أنه تكلّم بالتركيّة؟ ألا تفهمين؟

- لا والله. لم أفهم شيئًا. فهمت قليلًا من الكلمات.

لم يفهم الحاج مسلم بدوره كثيرًا ممّا جاء في رسالة ابنه الصّوتيّة. لكنّ علامات السعادة والرضا بدت على وجهه. مدّ يده إلى الآلة وأخرج الكاسيت الصغير، ثمّ أخفاه في مكان آمن وقال لزوجته:

- فهمنا أم لم نفهم هذا لا يهمّ. المهمّ في الموضوع أنّ الولد بخير وأنّه ولله الحمد على قيد الحياة.

كانت تلك المرّة الأولى بعد سبع سنوات يسمعون فيها شيئًا عن ولدهم المقاتل في الجبال. قبل الظهر طرق شاب باب بيتهم، مدَّ شريط التسجيل إلى يد خانِهْ وقال لها: «يا خالة في هذا الشريط رسالة صوتيّة من الرفيق جودي». ثمّ استقلّ درّاجته الناريّة ومضى دون أن يعرف بنفسه.

بكت خانِهْ فرحًا. كان مقتل ابنها مصطفى في العسكريّة قد أصاب روحها بجِراح لا تبرأ، وصارت بعد ذلك شديدة القلق والخوف على ابنها متين تدعو ربّها دائمًا:

«يـا ربّ أخـذت مصـطفى فأعـد إلـيّ متـين». حـاولت حـتّى قبـل أن يعـود زوجـها وأبنـاؤها إلـى البـيت أن تشـغّل مسـجلة ابنـها بـاران فلـم تفلـح. وحـين لاحظـت رَوْشَـنْ الصغيرة حيرة أمّها جاءت ووضعت القابس في المقبس والكاسيت في المسجّلة، ثمّ ضغطت على زرّ التشغيل المكعب في الأعلى وهي تقول بفخر: «هكذا».

«لقد خضنا كثيرًا من المعارك وأوجعنا العدو في مواقع عديدة وسقط بعض رفاقنا شهداء. الحرب هكذا. أنت تُضحّي بدمك لكنّك تريق دماء العدوّ مقابل ذلك.

وإنّ تراب الوطن لا يتطهّر إلاّ بالدّم. هذا ما تعلمناه من الجبال. نعم فالجبال تلقي دروسًا حول كيفيّة ارتباط المرء بجذوره دون أن يهتزّ أمام الريح والأعاصير ولا أن يتألّم تحت ثقل الثلوج الأزليّة.

لا تهتمّوا بي. ولا تفكّروا في عودتي. لن أعود ما دام الوطن مكبّلًا بالأغلال. احسبوني شهيدًا. وإن سمعتم خبر استشهادي فلا تبكوا عليّ. ولتزغرد أمّي وخديجة.

ليرفع أبي وإخوتي رؤوسهم ويفتخروا بأنّهم أهل الشهيد. تحيّاتي لكم جميعًا. الوداع».

فـي المـرّة الأولـى أصـغت أمّه إليـه وحيـدة وبكـت. أمـا رَوْشَـنْ، التـي انسـابت جـديلتها الشـقراء علـى ظـهرها مثـل سـاقية عسـل، فقـد انزوت فـي ركـن مـن الغرفـة وصـارت تلاعب دميتها التي جلبها أخوها حَمِه من تونس. حين سمعت صوت توقّف آلة التسجيل نظرت إلى أمّها فرأت دموعها. احتضنت دميتها وهمست في أذنها:

- أتعرفين لماذا تبكي أمّي؟ لأنّ أخي متين أصبح مقاتلًا. أتريدين أن تصبحي مقاتلة أيضًا؟

* * *

حـين بلــغ متــين الخامسـة عشـرة مـن عمـره لاحـظ والـده أمورًا غـير

طبيعيّة طرأت عليه. تغيّر أسلوب كلامه، لباسه، تعامله مع الآخرين. أصبح فجأة شابًا مفرط النشاط، يعود بعد منتصف الليل إلى البيت، وفي قدميه خفّان رياضيّان أبيضان، يلفّ على رقبته شالًا ملوّنًا. تغيّرت حتّى طريقة تحيّته للنّاس، فصار يضغط بشدّة حين يصافح أحدًا مّا.

صار يغيب عن عمله في المحلّ ويتذرّع كلّ مرّة بحجّة مختلفة. شكّ والده في أمر غيابه المتكرّر عن العمل وأراد أن يعرف إلى أين يذهب. بعد أن سافر حَمِه للعمل على الحفّارة في تونس ازدادت مرّات غياب متين. كثيرًا من المرّات كان أبوه يذهب للاستراحة أو أداء صلاة الظهر في مسجد السّوق ويعود ليرى المحلّ مغلقًا. يسأل جيرانَه أين متين؟ فيخبرونه أنّ شابًا جاء على درّاجة ناريّة وأخذه معه. أو يقولون له: أغلق المحلّ وتوجّه شرقًا. وحين يعود ويؤنّبه على تصرّفه يردّ: كنت عند زميلي فلان نتذاكر الدّروس ونحلّ الواجبات المدرسيّة البيتيّة.

في المرّة الأخيرة ذهب متين ولم يعد. حدث ذلك في شتاء 2002. بقي أبوه ينتظره في الدكّان حتّى غربت الشمس. لكنّه لم يعد. ظنّ الحاج مسلم أنّه عند صديق من أصدقائه، وأنّه سيعود إلى البيت. أغلق المحلّ وعاد إلى المنزل فلم يجده. وقبل أن يصلّي المغرب أو يتناول طعام العشاء سأل:

- هل عاد متين إلى البيت؟

- نعم عاد. قال إنّه سيغيب ليومين، سيذهب إلى إحدى القرى ثمّ يعود.

ردّت خانِهْ وهي تُرتّب العشاء لزوجها. قال باران المنكب على دفاتره يحلّ وظائفه:

- ربّما هو في بيت عبد القادر.

- بيت عبد القادر؟

- نعم. هو يذهب كلّ ليلة جمعة إلى هناك.

- وأيَّ خراء يأكله هناك؟

لم يردّ باران على أبيه الغاضب. لم تهتمّ خانِهْ أيضًا بغضب زوجها، وضعت العشاء أمامه وقالت بلطف:

- يا حاج سيعود بلا شكّ. إنّه ليس طفلًا.

- أصلًا لم يفسده أحد غيرك.

- أنا؟ أليس الولد عندك في المحلّ طوال النهار؟ ما ذنبي أنا؟

- طيّب من أين أتتني هذه البيضة الفاسدة؟

- اسأل نفسك.

- تبًّا لك ولتربيتك. لقد أفسدت أولادي كلّهم. كلّ واحد شكل مثل أباريق المسجد.

- ما ذنبي أنا؟ لو كانوا أولادي فقط لجاز لك أن تعاتبني. إنّهم ذرّيتك أيضًا.

- ولك لسان أيضًا؟

ردّ الحاج مسلم محتدًّا، نزع العقال عن رأسه ونهض ليضرب زوجته به. انزوت رَوْشَنْ خائفة صامتة في إحدى الزوايا. ناداها باران بإشارة من يده، ثمّ قال لها وهو يأخذها إلى غرفة أخرى: «لا تهتمّي بهؤلاء المجانين. تعالي أعزف لك لحنًا جميلًا». ثمّ عزف لها مقطعًا موسيقيًا على مقام البيات.

بعد عدّة أيّام عاد متين.

- أين كنت يا كلب يا ابن الكلب.

- كنت عند الرفاق؟

- أي رفاق أيّها المنحوس؟

بقي متين واقفًا في مواجهة أبيه وفي قدميه خفّاه الرياضيان، وردّد بثقة زائدة كأنّه يستظهر نشيدًا مدرسيًّا: «العدوّ يريد دائمًا أن يفشل حركتنا. لكنّ فلسفة القيادة وإرادة الحزب تقفان في مواجهة هذه الرغبة. من دون فكر القيادة لا نستطيع أن نقاوم ونجابه المؤامرات. ومهما حاول العدوّ أن يحجب قيادتنا فإنّها ستشرق كالشمس من جديد وتزيح الغيوم مبشّرة بالحرّيّة».

- ها؟ ماذا قلت؟ إنّك يا صعلوك تتكلّم مثل سكران. أيُّ حمار سقاك بولَه؟

سأله والده مندهشًا من لهجته. تقدّمت أمّه التي كانت آثار العقال ما تزال بادية على جسدها، وقالت مخاطبة متين: «يا ولدي اترك هذه الأمور التافهة. تَعَقَّلْ وإيّاك أن تخالط أصدقاء السوء».

احمرّ وجه متين غضبًا فقال:

- لا تقولي ذلك يا أمّي. رفاق سوء؟ من أصاحبهم لا يلعبون القمار ولا يتعاملون بالرّبا وهم ليسوا بمخبرين ولا قليلي أخلاق. إنهّم رفاق الحزب. أتعرفين ما هو الحزب؟

- العمى! منذ متى صرت يقطينة وطالت رقبتك؟ أنت تلفظ كلمات أكبر منك. يبدو أنّني لم أقم بتربيتك جيّدًا. خذ.

ردّ أبوه وهو يضربه بالعقال.

منذ ذلك اليوم ترك متين البيت ولم يعد. بحث والده عنه في كل مكان دون أن

يجده. بعد عدّة أيّام رن جرس الهاتف فركضت رَوْشَـنْ وحملت السّماعة كعادتها:

- ألو.

- ألو.

- رَوْشَـنْ هذه أنت!

- إ إ إ.. من أنت؟

- أنا متين متين. أعطيني ماما.

نظرت رَوْشَـنْ فرحة إلى أمّها وقالت:

- ماما هذا متين.

- ألووو.

- هذا أنا يا أمّاه. لا أريد أن أقول أشياء كثيرة على الهاتف. ستصلكم رسالة منّي اللّيلة أو غدًا. رضاك يا أمّي. الوداع.

انهارت خانِهْ.

* * *

بعد أسبوع غادر متين مع مجموعة من خمسة شباب بلدته الصغيرة كوباني عابرين حقول الألغام والأسلاك الشائكة في الحدود التركيّة عند قرية عتمانك التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات شمالًا. بقي الشباب هناك يومًا واحدًا، ثمّ جاء بعض الرفاق ليأخذوهم في اتّجاه نصيبين ومن هناك إلى جزيرة بوطان. هناك جاءهم أحد رفاق الحزب بعلب حمراء مكتوب عليها بخطّ أزرق كلمة ميكاب، وهي ماركة أحذية شهيرة، كما كتب بالتركيّة باللون الأصفر ثلاث كلمات تصف ما بداخل العلب: متينة، مريحة وصحيّة. قال الرّفيق وهو يفتح العلب ويعطي كلّ مقاتل حذاء يناسب مقاس رجله: لا أحد يشتري أحذية معامل ميكاب سوانا. لا أعرف لم لا تغلقها الدولة؟ هي تمنع ارتداءها على الأهالي دون أن تغلق معاملها؟ دولة حمقاء. ردّ عليه رفيق آخر: لأنّ اليهود مساهمون فيها يا رفيق. لولا ذلك لمشينا حفاة في هذه الجبال. ضحك الرّفاق الجدد وهم يجرّبون أحذيتهم المتينة بسرور.

مع غروب الشمس صعد المقاتل متين مع مجموعة من سبعة مقاتلين آخرين جبل الجودي وتمركزوا في بقعة منه. هناك أصبح اسمه جودي كوباني، على كتفه بندقيّة وفي عنقه شال ملوّن يرتدي سروالًا كاكيًا. أصبح فخورًا بنفسه. ومع أنه كان في الخامسة عشرة إلاّ أنّه صار يرى نفسه رجلًا مكتمل الرّجولة تهتزّ الأرض تحت قدميه. نظراته حادّة، وقلبه عامر بالثّقة في النصر القريب.

شعر الرفيق جودي أنّه خفيف كفراشة، قويّ مثل جبل، متحرّر من الأسرة

والعشيرة والدين وغير ذلك من القيود التي يصعب على المرء الفكاك منها. أصبح حرًّا، تلاشى من قلبه الخوف من مخابرات النظام السوري. «الدول والجيوش تخاف منّا الآن»، قال لرفيقه وهما يجلسان على صخرة كبيرة ويرنوان إلى جزيرة بوطان أسفل الجبل.

العريس

أسند الجندي مصطفى ظهره إلى جدار مهجع الجنود، دخن لفافة تبغ طويلة من ماركة الحمراء مواجهًا الشمس واستمع بحزن عميق إلى صوت المغني بَيْتوجان يصدح بأغنية شهيرة تتحدث عن نيران تأكل القلب وأرق يغزو العيون وفراق عن الحبيبة دام سنوات.

حين انتهت الأغنية لم يجد في نفسه طاقة على قلب الشريط للاستماع إلى أغاني الوجه الآخر منه. كان من أشد المعجبين بالمغني المذكور ويكاد يستمع في اليوم عدّة مرات إلى ذلك الشريط الصادر حديثًا. حفظ تقريبًا جميع أغانيه وكان يغنيها وهو يعزف ألحانها على طنبور عتيق ويطلق الآهات.

التحق مصطفى بعد زواجه بعدّة أيّام بالخدمة العسكريّة، وكانت خانِهْ سعيدة لأن ولدها صار جنديًا في الجيش السوري. شرحت وجهة نظرها لزوجته، كنتها وابنة أخيها عَيْشه، قائلة:

- أليس هذا أفضل من ذهاب بلا رجعة إلى رؤوس الجبال يا بنتي؟ مهما يكن نعرف أين هو وأنه بخير وأنه سيعود إلينا قريبًا في إجازة ويستطيع أن يكلّمنا كلّ يوم وليس مثل متين يا حسرتي عليه.

ذاقت عَيْشه، ابنة أخ خانِهْ، لأيّام معدودات فقط حلاوة الزواج وعسله ثمّ تحوّل كلّ شيء إلى حلم. حزنت لفراق رجلها، فصارت تذهب كلّ يومين أو ثلاثة إلى بيت أبيها. فكّرت عَيْشه أنها لا يمكن أن تبقى في بيت حماتها تنتظر تسريح زوجها بعد حوالي ثلاث سنوات. قرّرت أن تخوض امتحانات البكالوريا، ثمّ تلتحق بكليّة الحقوق في حلب:

- حتّى ينتهي مصطفى من الجيش أكون قد بلغت نصف المرحلة الجامعيّة.

عبّرت عَيْشه عن أحلامها لنفسها.

- أليس من العيب أن تتركي منزل زوجك؟ ما الذي جرى لهذه الدنيا؟ لماذا انقلبت هكذا؟

- ولماذا ستبقى الدنيا على حالها يا عمّتي؟ مادام مصطفى ليس موجودًا فماذا سأعمل هنا؟ أكون عند أمّي أفضل.

- عند أمّك؟ من لا يعرف أمّك يظنّ أنّها أعظم أمّ.

- هي أمّي بالرغم من كلّ شيء. هل يبادلك مصطفى بغيرك مثلًا؟

لم يعلم مصطفى شيئًا عن هذه المشاجرات بين أمّه وعروسه. عرف أنّ أمّه ليست امرأة سهلة، وأنّها لن تترك عَيْشه مرتاحة لذلك صار يتّصل بزوجته بين

الفينة والأخرى يطمئنّ عليها. وحين اتّصل بها ذات يوم كالعادة وقال لها:

- تحمّلي يا حبيبتي. تعرفين أنّ أمّي «دقة قديمة». تحمّلي حتّى أعود.

ردّت عَيْشه ضاحكة:

- حتّى تعود سأصبح حاملًا من أمّك.

* * *

مع بداية عام 2015، كانت قد مرّت على انتفاضة قامشلو حسب ما سُمّيت في السرديّات الكرديّة عشرة أشهر. مارس النظام ضغطًا استثنائيًا على المواطنين من عفرين حتّى ديريك. وامتد هذا الضغط إلى المجندين الأكراد في صفوف الجيش العربي السوري. لاحظ النّاس وصول جنازات لعسكريّين أكراد إلى جميع البلدات الكرديّة. في البداية لم يلفت ذلك نظر أحد. لكن حين اتّسعت الظاهرة وبلغ عدد العساكر المقتولين أكثر من عشرين ارتاب النّاس في الموضوع، واتّهموا النظام بتصفية العساكر ولم يصدّقوا رواياته التي بات يسردها كلّما رافقت عناصره جنازة عسكري لتسلّمها للأهل:

- استشهد ابنكم أثناء التدريب. لقد أصاب نفسه بنفسه بطريق الخطأ.

- لقد انتحر ابنكم.

- سقط ابنكم من شاهق.

- صدمت سيّارة زيل ابنكم.

أسبابٌ ألف والموت واحد.

حين وصلت السيّارة العسكريّة إلى الحارة، كانت رَوْشَنْ تلعب مع رفيقاتها أمام باب المنزل في ظلّ الجدار الشرقي المترامي ساعة العصر.

- سيّارة عسكريّة.

قالت رَوْشَنْ بخوف لرفيقاتها، وسرعان ما دخلت البيت فتبعتها رفيقاتها وأغلقن الباب خلفهن.

- ما هذه السيّارة يا رَوْشَنْ؟

سألت عَيْشه حين سمعت صوت سيّارة الجيب.

- عساكر.

ردّت رَوْشَنْ مرعوبة. في هذه اللّحظة خرجت أمّها من المطبخ وهي تنظّف يديها بحاشية قفطانها وسألت:

- عساكر؟

ثم نادت ابنها:

- لَوَنْدْ. اذهب يا بني وانظر من هم هؤلاء العساكر. أكيد أنّهم مخابرات يسألون عن متين.

اتّجه لَوَنْدْ إلى الباب. وقبل أن يصل سُمِعتْ طرقاتٌ عدّة. فتح الباب فإذا بضابط من الجيش بشوارب مفتولة ونجوم كثيرة تلمع على كتفيه. سأل الضابط بالعربيّة:

- هل هذا هو بيت الحاج مسلم حَمْزِراڤْ؟

- نعم يا سيّدي.

- الحاج مسلم في البيت؟

- لا يا سيّدي.

- متى سيأتي؟

لم يكد الضابط ينتهي من طرح السؤال حتّى وصل الحاج مسلم إلى البيت على متن دراجته الناريّة ياماها. سأل بعربيّة مكسرة وهو ما يزال راكبًا:

- خير إن شالله؟ إشو في؟

أسبل الضابط ذو الشوارب المفتولة عينيه وقال بنبرة حزينة:

- لقد استشهد ابنك مصطفى.

- شهيد؟ شلون شهيد؟ وين شهيد؟

سأل الحاج مسلم وقد صدمه الخبر. فرد الضابط:

- ألست أنت الحاج مسلم حَمْزِراڤْ؟

- نعم يا سيّدي.

- ألم يكن ابنك مصطفى يخدم في الجيش؟

- نعم يا سيدي. هو يخدم في الجيش.

- اعذرني يا حاج. أعرف أن الخبر أليم. لقد فقد ابنك مصطفى حياته. لقد انتحر.

غطى صوت العويل والبكاء على كلّ شيء.

ألجمت الحيرة والد مصطفى. شعر بأنّه مشلول، أخرس أصمّ. وفجأة صرخ بعربيّة مكسورة مثل قلبه:

- هازا إبني مصطفاااااااا.

خرجت خانِهْ وهاجمت الجيب العسكري وهي تولول. ركض إليها الحاج مسلم

ونهرها، أمسك بكتفها وسحبها إلى باب الدّار، لكنّها أفلتت نفسها وذهبت لتقف خلف سيّارة الجيب العسكريّة. نزعت غطاء رأسها الحريري وصارت تشدّ شعرها وتضرب صدرها وتصرخ:

- دعوني أرى مصطفى، دعوني أرى ابني.

خرجت رَوْشَنْ، التي اختبأت قبل قليل في الدّار خوفًا من سيّارة الجيب، وأمسكت بقفطان أمّها وصارت تبكي هي أيضًا. أما عَيْشه التي كانت تعدّ العشاء لحميها الحاج مسلم فقد خرجت تستطلع سبب العويل، ولما فهمت ما جرى صرخت مثل ذئب جريح.

رويدًا رويدًا اجتمع الجيران عند باب دار الحاج مسلم. طلب أحد المجتمعين من عنصر الأمن العسكري الذي يرافق الجنازة أن يسمحوا لأم الشهيد برؤية وجه ابنها على الأقلّ وإلاّ فإنّها لن تترك النعش. بعد سجال قصير أمر الضابط عناصره أن يفتحوا غطاء النعش لترى خانِهْ وجه ابنها القتيل.

انحنت الأمّ الثكلى على وجه ولدها وأمطرته بالقبلات وهي ترثيه بكلمات مؤثرة. تبعها أفراد العائلة كلّهم في تقبيل وجه مصطفى إلا عَيْشه فقد منعها الحياء أن تتقدّم إلى النعش لكنّها استمرت تصرخ وتولول. جاء بعض النسوة وأبعدن خانِهْ عن نعش ابنها. دار الحاج مسلم حول نفسه دون أن يعرف ماذا يعمل. صار يتوجّه مرّة صوب مسجد سَيْدا القريب، ومرّة يعود إلى سيّارة الجيب حيث ابنه المسجّى فيها. أخيرًا دفع زوجته وأولاده بعيدًا وتقدّم إلى النعش، قبّل جبين ولده القتيل، ثمّ ردّ الغطاء مثلما كان. أطلق نظرة إلى السماء دامع العينين وقال بضراعة:

- ما ضرَّ يا ربّ لو أبقيت لي هذا الفتى المسكين؟ أأنا جبل حتّى أتحمل هذه المصائب؟ ابني متين هناك بين الجبال والوديان، حَمِه في بلاد نائية. وها أنت تخطف منّي هذه الزهرة. ماذا بعد؟ أستغفرك ربّي وأتوب إليك. أنا عبدك ولا أدري ماذ أقول بسبب فاجعتي.

ذلك المساء، توجّه الجيب العسكري الذي يحمل جنازة مصطفى وسيّارة الأمن العسكري مع بضع سيّارت أخرى تقلّ عائلة الحاج مسلم وبعض المشيّعين إلى المقبرة الغربيّة. أوضح الضابط ذو الشوارب المفتولة أنّ التعليمات تقتضي أن يحضر هو ومرافقوه عمليّة الدّفن.

بعد انتهاء الدّفن الذي رافقه كثير من النحيب والعويل، غادرت سيّارة الأمن العسكري برفقة سيّارة الجيب التي تقلّ ضابط الجيش مفتول الشاربين، مخلفتين وراءهما خيمة من الغبار غطّت ذلك الحشد من المشيّعين الحزانى.

الكَرْم اليتيم

أعود من تلك الذكريات، من مسألة الهويّات التي تسقيها الكراهيّة، من مشهد الصوفي أصهب اللّحية الذي انتصر في معركة الطبل قبل عشرات السنين، أعود من كلّ ذلك إلى أنقاض حارتي.

قلبي يعتصر ألمًا من جديد.

أغادر باب بيت عمّتي لأقطع الشارع المليء بالأنقاض وأكوام الحجارة والجدران المتهدّمة إلى الجهة الأخرى، إلى الجدار الغربي للكرم.

يقع الكرم جنوبي المسجد. كان فيما مضى كرمًا كبيرًا فيه أنواع مختلفة من العنب تزين أركانه الأربعة أشجار تين غزيرة الثمار كثيفة الظّلال.

قبل قليل، حين حدّقت في الكرم من النافذة الجنوبيّة للمسجد تذكّرت أمورًا كثيرة. أنا الآن بجانب جداره الغربي. الجدار المبني من الطين والحجارة والذي تسلّقته في طفولتي مئات المرّات ليس عاليًا جدًّا. أضع حجرين فوق بعضهما وأصعد لأشاهد ما كان ذات يوم كرمًا. أسافر عبر الخيال إلى زمن مضى منذ سنوات عديدة.

أتذّكر فصلًا من طفولتي. كان أبي يوقظني صباحًا لنذهب إلى الكرم لقطاف العنب. استهوتني الأنسام الصيفيّة المنعشة التي تهبّ في الصباح الباكر عندما أذهب مع طلوع الشمس، بيدي قفّة من القشّ أدور مع أبي على شجيرات الكرم كرمة كرمة.

- اصعدْ شجرة التين هذه واقطف تلك التينات.

يأمرني أبي فأصعد مثل سعدان نشيط. الغبار المتكاثف على أوراق التين يتساقط على رقبتي فيسبّب حكّة مزعجة. لذّة الوصول إلى التينات الناضجة تغلب ألم تلك الحكّة الغريبة. أملأ حاشية دشداشتي تينًا وأنزل.

- يا أحمق. هذه ما تزال فجّة لماذا قطفتها؟

يقول أبي غاضبًا وهو يعصر بين أصابعه تينة لم تنضج تمامًا.

فيما بعد أدركت أنّ التين الأكثر نضجًا هو ما نقرته العصافير، تمامًا مثل القلوب التي طَرَقَ الحبُّ أبوابها.

أحدّق الآن إلى هذه البقعة التي كانت فيما مضى كرمًا. لا أبي هناك، لا سلال العنب، لا شجيرات الكرم ولا الطفل ذو التسعة أعوام الذي يتبع أباه في برودة صباح صيفي بعيد وضائع.

ثمة الآن مكان الكرم القديم، دورٌ مبنيّة حديثًا بل مدمّرة حديثًا هي بيت عمّي،

بيت أخي، بيت ابن عمّي، بيت عمّ آخر، وبيت ابن عمّ آخر.

قبل أن أغادر كوباني قاصدًا أوروبا، زرع ابن عمّي، زوج إحدى أخواتي، ركنًا من الكرم بأشجار الفستق الحلبي والمشمش واللوز والكرز. مساءً كان يضع بضعة كَرَاسٍ بلاستيكيّة أو يمدّ حصيرة على الأرض جنوبي بيته حيث تلك الأشجار التي بدأت تكبر وتنمو، لتبدأ حفلة الشاي اليوميّة. يجتمع الذين يعودون من أعمالهم هناك دون اتّفاق ليدخنوا ويتسامروا ويرفعوا كؤوس الشاي في وهج شمس الغروب وهم يكيلون الثناء لابن عمّي أبو جيان ويمدحون مهارته في صنع الشاي الفاخر المعتّق.

الآن لا أشمّ رائحة إنسان من بقايا الكرم القديم. بيت ابن عمي انهار نصفه. لا أحد هناك. بيت عمّي في الركن الشمالي وبيت ولده تحوّلا إلى أنقاض. زاوية المسجد في الجنوب الشرقي منهارة تمامًا. بفضل ذلك أرى بيت أختي شرقي المسجد.

بيت أختي أيضًا ليس سوى أنقاض. الطابق الثاني منهار تمامًا، ويبدو أنّه دفن الطابق الأوّل تحته. تحوّل البناء إلى تلّة من أعمدة الإسمنت المسلّح وقطع الرخام وأحجار البناء الكبيرة.

أحجار البناء الكبيرة تلك كان يأتي بها أصحاب العربات من المقلع الكبير في هضبة مِشْتَنُور ويفرغونها أمام بيوتٍ اشترى أصحابها تلك الحجارة من عمال المقالع.

كان البنّاؤون يرفعون جدران المنازل من تلك الحجارة البيضاء. بُنيت غالبيّة منازل كوباني منها قبل أن يغزو الإسمنت سوق البناء وتتكاثر معامل الطوب الإسمنتي في البلدة. كلّ شيء في كوباني بني بحجارة مِشْتَنُور، المساجد، الدكاكين، البيوت وحتّى القبور وكنائس الأرمن القديمة ومدارسهم. ظلّت الهضبة تهدي حجارتها لعشرات الأعوام إلى سكان البلدة. في كلّ بيت فاحت رائحة مِشْتَنُور، ربط النّاسَ بتلك الهضبة حبٌّ خفي. كان النّاس يشعرون وهم داخل بيوتهم بأنّهم يعيشون في حضن تلك الهضبة الدّافئ كحضن أمّ حانية.

الآن لا أثر لتلك الحجارة في بيت أختي. إنّها تقبع تحت كتل الإسمنت الهائلة والسقف العريض. لكنّني أشعر بالحجرين اللذين تحت قدميَّ. قدماي تعرّفتا إليهما.

قدماي اللّتان حفظتا عن ظهر قلب الطريقَ المؤدية إلى الهضبة تعرفان ما تحتهما. قدماي اللّتان حتّى إن عميتا فإنّهما ستتعرّفان إلى حجارة مِشْتَنُور ولو بين كومة كبيرة من الحجارة الغريبة.

أحدق الآن بأسى قاهر في بيت أختي، أقصد في أطلال بيت كبرى أخواتي. أتذكّر الأيّام الخوالي: كان هذا البيت يستقبل الزوار على الدوام. ضيفٌ يأتي وآخر

يروح. كان أوّل بيت نرى فيه جهاز تلفزيون. يجتمع الأطفال، كذلك الشباب الذين يتابعون مباريات كرة القدم والقنوات الكرديّة الحديثة ميديا تي في، ثمّ كردستان تي في وأيضًا القنوات التركيّة التي سبقت القناة الوطنيّة السوريّة في البث الملوّن. يتحوّل الأطفال إلى تماثيل صامتة وهم يتابعون بشغف أفلام الكرتون. هناك تعرّفنا إلى حياة الطفولة العصريّة لأوّل مرّة.

شهد هذا البيت مجيء أوّل ثلاجة إلى الحارة أيضًا. صار النّاس يصطفون أمام باب الدّار طالبين الثّلج من أختي التي هالني صبرها وتحمّلها.

بجانب هذا البيت، الذي أحدق في خرائبه الآن، تمّ حفر أوّل بئر ارتوازيّة في حارتنا أيضًا.

عانت كوباني لسنوات طويلة من شحّ المياه. كان نهر الفرات يتدفّق غير بعيد عنها لكنّها عانت العطش حتّى أصبح الماء شيئًا نادرًا ودلالة ترف من يملكه.

يصطفّ الناس أمام باب بيت أختي: «خالتي بدرية من فضلك املئي إبريقي ماءً، سنتناول الإفطار بعد قليل». «يا خالة أرجوك املئي سطلي ماء»، كانت أختي توزّع الماء بصبر وأناة بالغة. لم يكن صبر زوج أختي الحاج نوري، وهو ابن عم والدي وخريج الأزهر، بأقل من صبر أختي.

كان صاحب محلّ في السوق، يعود كلّ مساء على ظهر درّاجته ليصلي المغرب، يتعشّى ثمّ يجلس متّكئًا على وسادة واضعًا ساقًا على ساق، يسحب علبة تبغه الفضيّة ويلفّ بهدوء سجائر التبغ المهرب، ثمّ يدير إبرة المذياع الصغير حتّى يصل إلى محطّة البي بي سي ليصغي إلى نشرة الأخبار العربيّة.

«دائرة الحرب تتّسع بين المتمردين الأكراد والجيش التركي»، يردّد أحيانًا خبر البي بي سي بقلق وخوف.

كان ابنه يقاتل في صفوف الأنصار ضدّ الجيش التركي وابنته تتدرّب في معسكر البقاع وتستعدّ للالتحاق بالمقاتلين في الجبال.

ذات يوم، حين ذهبت إلى بيت أختي رأيت صهري مستبشرًا. حين رآني قال: «تعال يا أستاذ أقرأ لك الرسالة التي كتبتها لولدي مَعْمِهْ»[14].

كانت رسالة حزينة. مليئة بالعتاب والشكوى وطلب العودة إلى البيت حيث تحترق الأم وتذوب مثل شمعة شوقًا إلى ولدها الغائب البعيد: «يا ولدي نحن أيضًا نعتقد بوجوب القتال طلبًا للحرّيّة ولكن...».

تتصادم الذكريات. أشعر بألم في الرأس. أنزل لأنظر إلى الجنوب الذي كنّا نسمّيه القِبلة. تبدو هضبة مِشْتَنُور مثل حسرة في قلب عاشق. الأنقاض حولي لا تدعني أفكّر كثيرًا في تلك الهضبة.

على الجانبين في حارة سَـيْدا أنقاضٌ متراكمة. محاصر أنا بالأنقاض.
يا إلهي.
أما من منزل سليم؟
منزل واحد فقط!
أيّها الإله الواحد.

جديلة مشاكسة

أشرقت الشمس فاستيقظت رَوْشَـنْ وتناولت الفطور مع أمّها ثمّ استعدت للخروج من المنزل.

كان والدها الحاج مسلم قد خرج لتوّه على متن درّاجته الناريّة ياماها متوجّهًا إلى دكّانه في السوق، بينما بقي باران نائمًا فوق السطح في سريره المعدني المسوَّر بغلالة بيضاء شفافة يحلم بحبيبته سوسن.

أنهت خانِهْ عملها في المطبخ فجاءت وجلست في ظلال شجيرة الأكيدُنيا، مدّت رجليها وصارت تجول ببصرها في باحة الدّار.

رفعت رَوْشَـنْ صوت أغنية تمجّد وحدات حماية الشعب جعلتها نغمة في جهازها الآيفون أيضًا، وبدت كما لو أنّها تريد أن تطير مع كلمات تلك الأغنية الحماسيّة.

فجأة ركضت إلى أمّها وجلست في حضنها.

- ما بك يا قطّتي؟ ألن تتركي هذا الطبع؟ لقد كبرت يا بنتي. كبرت على الجلوس في حضني.

- حبيبتي يا ماما. والله لا تكون الجديلة جديلة ما لم تنسجها أناملك. اعملي اليوم جديلة «ذنب الحصان» بعدها سأتكفّل أنا بذلك. أعدك.

- أمري لله.

انتهت الأغنية وانتهت معها خانِهْ من عمل الجديلة. استيقظ باران وصاح وهو ما يزال على السطح:

- رَوْشَـنْ بالله عليك أهذه أغنية! الأجدر بالمرء هذا الصباح أن يطهِّر سمعه بصوت فيروز أو لينا شماميان. هذه الأغنية تشعرني بأنّ الحرب تقع داخلَ البيت.

- ألا تعجبك؟

- لا. لا تعجبني. هيّا اعملي لي قهوة.

- وأنت تفهم الرجولة هكذا! على المرأة أن تكون خادمة. الأخت لأخيها، والزوجة لزوجها، والبنت لأبيها.

- تضربي أنت وهذه الفلسفة الصباحيّة. اعملي القهوة واتركي هذا الحكي الفاضي.

- سوف أعمل القهوة فقط كرمال الماما.

قالت رَوْشَـنْ سعيدة ثمّ ذهبت إلى المطبخ، حملت الركوة ووضعتها على موقد البوتاغاز، ثمّ عادت بعد دقائق ووضعت أمام أخيها وسط الدّار طبقًا فضّيًّا عليه

فنجان قهوة صغير وكأس ماء.

* * *

قبل أن تعشق رَوْشَنْ، ابنة الخمسة عشر عامًا شابًا ويخفق قلبها للحبّ عشقت البندقيّة. قبل أن تعانق حبيبًا، عانقت الكلاشينكوف ووضعت على صدرها جعبة مليئة بخراطيش الرّصاص. بدل أن تكون الكلمة الأولى في قاموس حبّها «أحبّك»، كانت كلمات مثل حرّيّة المرأة، الحرب، الوطن، الشرف، العدو، الخيانة ونظيراتها، زوادتها في دروب الحرّيّة الشائكة.

كان شقيقها المقاتل متين أيقونتها. صارت صورته المعلّقة في صالون البيت معلّقة في قلبها أيضًا.

- على المرء أن يكون مثل متين وليس مثل مصطفى الذي ضحى بحياته خدمة للعدوّ.

قالت ذات يوم لأبيها وهي تناقشه.

رَوْشَنْ الخجولة، رَوْشَنْ التي «القط ياكل عشاها» تحوّلت إلى لبوة. لم تعد تحسب حساب أحد. صارت تعتبر احترام الوالدين أو الإخوة من أخلاق المجتمع الإقطاعي. كثيرًا ما أنّبتها أمّها وتشاجرت معها:

- لماذا لا تتكلّمين مثلنا حتّى نستطيع الردّ عليك؟ ما هذه الكلمات الغامضة الفارغة؟

حين احتلّت داعش منطقة سنجار وترك كثير من البيشمركة قواعدهم وهربوا، احتدّت رَوْشَنْ كثيرًا وصرخت بحضور أبيها:

- هؤلاء خونة. كيف يمكن لهم أن يتركوا الشعب بين أنياب الذئاب؟ لو كنت أنا لبقيت أقاوم حتّى الطلقة الأخيرة.

غضب والدها كما لم يغضب من قبل، وقال بعصبيّة:

- لولا العيب والعار لجعلت جسدك نهبًا لهذا العقال. مازلت صغيرة كبقلة حمقاء وتطيلين لسانك على البيشمركة! هيّا اغربي عن وجهي يا عديمة التربية.

* * *

تطورت الأحداث وباتت الحاجة ماسّة إلى مقاتلات ومقاتلين. أصبح المناخ مناخ حرب. صار المسلّحون يحكمون سوريا من أقصاها إلى أقصاها. انكفأت المنظّمات المدنيّة والحركات السياسيّة وانحسرت المظاهرات التي ملأت الشوارع فيما مضى. في مناطق الكرد بدا الأمر شبيهًا

بما في غيرها من المناطق السوريّة. وحدها البندقيّة صـارت تتكـلّم. وحـده الـدم مـلأ الآفـاق بلونـه الصـاخب. وصـخب الـدم هـو الأعلـى فـي منعطفـات كتلـك: ثـمّة عـدوّ متـربّص ولا بـدّ مـن القتـال وكفـى. لا حاجـة لمزيـد مـن الشرح. كلّ الكلام باطل في حضرة الدم.

لكن بما أنه ليس كلّ النّاس يحبّون القتال، وليس كلّ النّاس مستعدّين للموت في سبيل الآخرين ولا حتّى في سبيل الأهداف الكبرى، كان لا بدّ من بروباغاندا عظيمة تجعلهم ينخرطون في صفوف قوات وحدات حماية الشعب وغيرها من التنظيمات المسلّحة في طول البلاد وعرضها.

ركّزت الدعاية الحربية في البداية على المراهقات والمراهقين الذين بإمكان المرء كتابة ما يشاء على صفحات عقولهم الطريّة. تم تجنيد الآلاف المؤلفة قسرًا وطوعًا.

كانت رَوْشَـنْ واحدة من تلك الآلاف.

أُسندت إلى الرفيقة زيلان، وهي من المقاتلات اللّواتي نزلن من الجبل بعد استلام السلطة الجديدة مقاليد الحكم في المنطقة الكرديّة، مهمة نشر الدعاية الحزبيّة العسكريّة في كوباني وفي حارة سَيْدا على وجه الخصوص.

- والله يا بنتي أنا لا أفهم ما تقولين. لكن ما أعرفه أن رَوْشَـنْ مازالت صغيرة فلا تضمّوها إلى صفوفكم رجاءً.

قالت خانِهْ ذات يوم للرفيقة زيلان وأضافت:

- إنّها آخر العنقود ولا أحد غيرها تخدمني أنا المسكينة.

- كلّ إنسان يختار طريقه بنفسه يا خالة. والرفيقة بُهار ليست صغيرة كما تقولين. المئات ممّن في عمرها يقاتلن حتّى في الجبال وقد استشهدت الكثيرات منهن.

- إنّها لا تعرف ضرّها من نفعها. إنّها طفلة. والله طفلة. ألا تخافون الله وتقلّدونها بندقيّة أطول من قامتها؟

- لا لا. إنّها ليست طفلة. حينما تزوّجون من في مثل سنها فإنهّن لسن طفلات! لكن حين يتعلّق الأمر بالقتال يصبحن طفلات. أليس كذلك؟ ما دامت المرأة تفكّر هكذا فإنها لن تتحرّر. ولا حرّيّة للمجتمع من دون حرّيّة المرأة يا خالة. الوطن كلّه لن يتحرّر ما لم تتحرّر المرأة.

* * *

فـي شـهري تمـوز وآب، حـيث تشـتدّ الحـرارة بـدءًا مـن الصّبـاح، درجـت العـادة أن ينـام سـكّان كوبـاني خـارج غرفـهم إمّا فـوق الأسـطح أو

فـي بـاحات المنـازل علـى أسـرّة معدنيّة عالية ومسورة ويلتحفوا سماء مطرّزة بالنجوم إلى أن يغلبهم سلطان النوم.

أمّا في بيت الحاج مسلم فلم يبق أحد يلتحف النجوم صيف ذلك العام. أصبح ذلك البيت الذي كان يضجّ بالحركة فيما مضى بيتًا هادئًا لا نأمة تعلو منه. هدأت أصوات الحياة في بيت الحاج مسلم المهاجر ولم يعد يُسمع فيه وفي الجوار سوى نداءات الحرب.

حملت رَوْشَنْ بندقيّة على كتفها ولم تعد تأتي إلى البيت إلاّ قليلًا. رفض أبوها في البداية بشدة وقال: «ألم يبق شباب يحملون البنادق؟ لا أعرافنا ولا عاداتنا تقبل هذا الشيء». لكن رَوْشَنْ وقفت بوجهه:

- يا أبي ما تقوله كلام الأوّلين في زمن مضى. كلام العصر الإقطاعي. ألا يقول الكرد الأسد أسد سواء أكان ذكرًا أم أنثى؟

- ألم يلفت نظرك غير هذا المثل يا بنتي؟ ألا يقول الكرد أيضًا: الفتاة الخجول تساوي مدينة والفتى الخجول يساوي بومة؟

- هذا شيء آخر يا أبي. لا علاقة للخجل بحمل البندقيّة. اليوم بلادنا في خطر والعدوّ يحيط بنا. أردوغان في الشمال وفي الجهات الباقية داعش. علينا جميعًا أن نحمل السلاح يا أبي.

بقي والدها صامتًا لفترة من الزمن وهو يحدّق في قامتها. داهمته موجة خوف وقلق. خاف على ابنته الحلوة الصغيرة رَوْشَنْ. أراد أن يأتيها باللين ويقنعها بترك السلاح والتدريب عليه. انفضّ أولاده الذكور من حوله ولم تبق سوى رَوْشَنْ التي عقد عليها كثيرًا من الآمال.

آباء كثيرون سبّبوا هروب البنات والأبناء من بيوتهم والالتحاق بصفوف وحدات حماية الشعب بسبب تعاملهم الفظّ معهم. أضحى المجتمع يسنّ أسنانه: العدوّ على الأبواب.

أسلحة في الشّارع.

أسلحة في البيوت.

أسلحة على شاشات التلفزيون.

أسلحة على ملصقات الجدران.

أسلحة أنّى ذهبت.

أسلحة حتّى في الأحلام.

تسلّحت الأرض والسماء.

أطلال أغنية

أعود بعد نزولي عن الحجرين إلى الجانب الغربي من الشارع. أمشي بضع خطوات حتّى أصل إلى باب بيت الخالة إيسو والدة صديقي عاكف.

الجدران مهدّمة. الحانوت في الزاوية المقابلة لبيت عمّتي محترق. باب الدّار تطاير إلى منتصف الشارع. يا إلهي! أي زلزال زار حارتي غفلة؟

يتناهى إلى سمعي صوت المغنية كُلِسْتان:

يا حبيبي يا ولدي فداك أمّك.

إنّها نفس الأغنية التي كتبت أنا كلماتها وأرسلتها قبل حوالي عشرين عامًا للمغنية الشهيرة كُلِسْتان فغنّتها.

ذات مرّة اتّصلت بي من السويد، دندتْ بلحن جميل وقالت: «هل يمكن يا جان أن تكتب قصيدة مستلهمًا هذا اللّحن لأغنّيها؟».

بقيتُ أيّامًا عديدة أنسج قصيدتي من خيوط الفواجع المتناثرة حولي إلى أن اكتملت.

كنت أنظر إلى زوجة عمّي وجارتي الخالة إيسو ساعة تلوذان بظلّ الجدار الشرقي كلّ عصر مثل طائرين جريحين، تقلّبان أبصارهما في فراغ السماء تبحثان عن فرخين ضاعا منهما بعيدًا في الجبال. استلهمت روح قصيدتي من أحزان وجهيهما وترقّبهما المؤلم الذي لا يعرف اليأس لعودة مستحيلة.

بعد فترة أرسلت القصيدة. أصدرت كُلستان أسطوانة تضمّنت كلماتي التي صارت أغنية محبوبة، ثمّ تحولت إلى فيديوكليب:

كلّما جاء الربيع شممت رائحتك من الورود والأزاهير فدتك أمّك يا روح أمّك يا حبيبي يا ولدي.

أصغي إلى الأغنية. الصّوت حقيقي وليس وهمًا. يتدفّق اللحن مثل ساقية في الشارع. يتناهى لحن الأغنية إليّ من بيت الخالة إيسو وهو نفسه بيت جارنا الحاج كوسي. هكذا كان لقب جارنا: كوسي. والكلمة تعني السلحفاة. فالنّاس في كوباني يشتهرون بألقاب مجتمعيّة خاصّة لا يُعرفون إلاّ بها.

كان جارنا الحاج كوسي أبًا لبنات وشباب كثيرين أنجبهما من زوجتين كلتاهما أمّي بالرضاعة.

كنّا أنا والشهيد عاكف، واسمه الحقيقي محمود، أكثر من صديقين وأكثر من جارين وأكثر من أخوين بالرضاعة. أذهب إليه في بيته ساعة أشاء، وهو يأتي إلي ساعة يشاء. نجتمع أحيانًا فوق سطح المنزل، منزلي أو منزله، فأراه يخرج

من جيب قميصه المفتوح الأزرار حتّى منتصف صدره، علبة مارلبورو. يسحب منها لفافة مفلترة يشعلها بقداحة جميلة، ينفث الدخان صوب السماء ويقول بابتسامة:

- الشام حلوة.

ثم يحدثني، ونحن جالسان في الظل عن الشام وشوارعها المغمورة بالضوء ليلًا والمعمورة بالسيّارات نهارًا، يحدثني عن المباني الشاهقة والبنات الفاتنات وعن المجلات التي تملؤها صور ممثلات شبه عاريات. يحدثني عن حياة حلوة ومستقبل زاهر.

لم يحدثني قط عن أنه سيموت ذات يوم بعيدًا عن داره بين الصخور والأدغال.

- أهذا أنت مرّة أخرى أيها الملعون؟ انزل رمتك السماء بسهمها. انزل.

تصيح أمّه وتفاجئنا فنختفي ويذهب كل واحد منا في اتجاه.

الأغنية تستمر. كأنّها الخالة إيسو تنادي ولدها الآن:

يا حبيبي فدتك أمّك.

لم لا تعود؟

أدفع الباب. الباب مفتوح أصلًا. أشمّ رائحة جثة. أسمع نعيق غراب. يتحول النعيق رويدًا رويدًا إلى حشرجة تشبه تلك التي سمعتها في المسجد قبل قليل. أنظر إلى المئذنة. لا غراب يجثم فوق هلالها. صوت الحشرجة يطغى على صوت الأغنية الحزينة الهادئة.

أرى أصص الورد منقلبة على الأرض. ورود الخالة إيسو ذابلة. الأصص مكسورة والأغنية تستمر:

يا ولدي يا حبيبي فدتك أمّك.

ألمح آلة تسجيل. أذهب وأتوقف عندها. أرى بضع زجاجات فارغة من عرق الريَّان مرميّة هناك. آلة التسجيل مطفأة. أسحب بحذرٍ من حجرة الأشرطة شريطًا مكتوبًا عليه بخط عربي جميل اسم كُلستانً مع تاريخ سنة 1999. الحشرجة تزداد. يبدو لي أن ثمّة من يعاني سكرات الموت، هناك من يحتضر الآن. أرمي الشريط من يدي وأبتعد عن المكان خائفًا. لا أحد هناك.

الشارع خالٍ تمامًا.

إنه صامت مثل المقبرة التي زرتها قبل قليل.

أخرس مثل شريط التسجيل الذي رميته الآن هناك.

في ظلال السوسن

كان الطقس باردًا قليلًا ذلك الصباح الجميل من بداية شهر آذار 2013. جلس باران على كرسي في باحة المنزل مستمتعًا بنور الشمس. احتضن آلته الموسيقيّة وبدأ يعزف بهدوء لحنًا حزينًا.

كان لَوَنْدْ قد رحل إلى إقليم كردستان وأخبر عائلته أنه التحق بصفوف البيشمركة. وانفصل حَمِه عن بيت والديه وسكن في بيت زوجة أبيه المرحومة زَرْكِه بعد أن غادرتها المرأة الإدلبيّة النازحة مع أولادها. بنى طابقًا ثانيًا فوقه مؤملًا تأجير بعض الغرف بعد موجة نزوح مترقبة. أما خديجة فقد تزوجت بزميلها المدرس إبْرامْ فيما بقي متين كما كان مقاتلًا في الجبال.

لم يتحقق حلم باران في الانتساب إلى المعهد العالي للموسيقى في دمشق. رغب في دراسة الموسيقى الشرقيّة والتخصّص في البزق والباغلمة وتعلم العزف عليهما حسب الأصول الأكاديميّة. لكن سوريا أصبحت ساحة حرب ضروس تقتل الأحلام هنا وهناك. صارت الأسلحة تعزف لحنًا واحدًا من شمال البلاد إلى جنوبها.

اشتعلت النار في قلبي وعيني لا تنام لم هذا الفراق أخبريني يا نور عيني.

عزف باران بإتقان كبير لحن هذه الأغنية التي يغنيها بَيْتوجان. كان مزاجه رائقًا فقد وعد حبيبته سوسن المقيمة في الرقّة أنه سيزورها الأسبوع الذي يلي عيد النيروز.

فجأة خرجت رَوْشَنْ ووقفت بباب غرفة المعيشة ونادت أخاها باران:

- باران باران! يقولون إن جيش النظام انسحب من الرقّة.

- صحيح؟

- نعم ودخلت جبهة النصرة.

- اللعنة. لن نستفيد شيئًا. الخراءُ أخو الروث.

ردّ باران باشمئزاز ووضع الباغلمة من يده ثمّ نظر بعطف إلى أخته ذات الثلاثة عشر عامًا. شعر بأنه عامل حماسها في نقل الخبر، بفتور جعلها تخجل. كان يحبها جدًا. وكثيرًا ما مازحها ممسكًا بجديلتها وهو يقول: لو لدغت هذه الأفعى الصفراء أحدًا لقتلته فورًا.

أحيانًا كثيرة تغالظ عليها ما جعلها تبكي وتشكوه إلى أمّها التي كانت تواسيها: «دعيه يا ابنتي. لا عتب على باران فهو مجرّد مجنون».

- اتركي يا رَوْشَنْ سيرة النصرة وغيرها. تعالي أعزف لك لحنًا.

قال لها بنبرة حنون فردّت عليه دون أن تخرج من الغرفة:

- الشباب يحملون السلاح ويقاتلون العدو وأنت في قعر الدّار تعزف على الطنبور.

- هذه باغلمة، باغلمة يا ناس. متى سيتعلم أهل هذا البيت أن الطنبور طنبور والباغلمة باغلمة؟

- لا فرق بينهما. قصدي أن على الشباب أن يشاركوا في حماية الشعب لا أن يبقوا في البيت يعزفون الطنبور.

- مرّة أخرى طنبور؟

- طيب باغلمة. لا تزعل.

- أليست الباغلمة سلاحًا أيضًا؟ ألا يعجبك عزفي؟ ثمّ تعالي إلى هنا. من علمك هذا الكلام الأكبر منك؟

قال باران وهو يضع آلته الموسيقيّة في حضنه. لم تسمعه رَوْشَنْ. غابت في جوف الغرفة وارتدت ثيابها: بنطال جينز ضيقًا، بلوزة سوداء وسترة جلديّة قصيرة. أخيرًا لفت حول عنقها شالًا ملونًا بالأحمر والأصفر والأخضر، وخرجت تصفق باب الدّار وراءها.

سمعت خانِهْ صوت الباب فخرجت من المطبخ وسألت:

- إلى أين ذهبت مقصوفة العمر! آه لو أعرف من الذي لعب بعقلها! منذ عدّة أشهر تأتي وتروح وتهذي بكلام فارغ. صارت تقلد لَوَنْدْ وتلفظ كلمات لا نعرف معانيها.

ضحك باران ونادى أمّه:

- طولي بالك يا أمّي. فليفعل كلّ واحد ما يشاء. تعالي أعزف لك هذا الصباح وأغني إحدى أغاني عارف صاغ.

وبدأ يعزف ويغني بصوته الرخيم.

جاءت أمّه وجلست بجانبه. وضعت كفها على عينيها تتقي نور الشمس وقالت متنهدة:

- لا أحب الأغاني التركيّة يا ولدي. إن لم تكن الأغنية بكرديّتنا الناصعة فلن أرتاح. إذا كان لا بدّ من أن تغني غنِّ لرشيد صوفي أو مجّو!

- مجّو؟ ومن هو مجّو؟

- مجّو كِنْدَشْ.

- يا أمّي أغاني مجّو صعبة أوّلًا، ثمّ هي لا تناسب هذا الصباح.

- طيب غنّ لباقي خدو.

- باقي خدو! لا صوته جميل ولا كلماته مفهومة.

- يا ابني أغنيته «فلك» تختصر أوجاعي. اسمعها بأذني وستفهمها جيّدًا.

- طيب مادام الموضوع يتعلّق بالفلك فسأغني لك أغنية المغني التركي روحي سُو «لا أدري ما الذي يريده الفلك مني»[15]. كلمات الأغنيتين متشابهتان.

- قلت لك لا أفهم الرطانة التركيّة. غنِّ «فلك» للمطرب باقي خدو والباقي علي. ربما لا تفهمها لكن مثلي ممن احترقت أكبادهن يفهمنها بلا شك.

لم يشأ باران أن يكسر خاطر أمّه. ضبط مفاتيح الآلة وشدَّ أوتارها ثمّ بدأ يغني ما طلبته منه.

صارت أمّه تجهش بالبكاء فأنهى الأغنية بسرعة، ترك الكرسي ليجلس بجانب أمّه. قبل يدها وقال:

- ما فات فات يا أمّي. الله أعطاك مصطفى والله أخذه. ألا يقولون هكذا؟ نحن موجودون والحمد لله.

- أنتم! أين أنتم يا ولدي؟ أين لَوَنْدْ؟ التحق بصفوف البيشمركة. أين متين؟ انضم إلى المقاتلين في الجبل. حَمِه انفصل عنا وذهب بزوجته. خديجة تزوجت. رَوْشَنْ لا تستقر في البيت. أخاف أن تصبح مقاتلة مثل متين وتذهب إلى الجبال.

- طيب وباران؟

سألها باران مبتسمًا فجذبت رأسه إلى صدرها، قبلته وقالت متنهدة:

- ستذهب أنت أيضًا. إنني أعرفك.

لم يجب باران. حمل آلته التي ترقد بجانبه بهدوء، وبدأ يغني أغنية روحي سو: سارت القافلة بالحبيبة.

وترٌ متمرد

انجذب باران منذ طفولته إلى عوالم الموسيقى الساحرة. كان دائم الإصغاء إلى الأغاني والألحان، حين يذهب مع والده إلى السوق يتوقف أمام واجهات محلّات بيع الأشرطة ويستمع إلى الأغاني الصادرة حديثًا. لم يهتم بشيء آخر. لم يستهوه الذهاب إلى المسجد كباقي أقرانه من الصغار والفتيان وربما ذهب مرّة أو مرتين إلى صلاة الجمعة في مسجد سَيْدا الذي لا يبعد عن بيته سوى خطوات. وحين شبَّ لم ينجذب إلى السياسة مطلقًا بعكس شباب كوباني. كره الأحزاب والنقاشات السياسيّة وسمى الخوض في أي نقاش سياسي «مضغَ هواء». كلّما رأى رفاقه يتجادلون في السياسة ضحك وقال: «ألا تملون من مضغ الهواء يا! تحدثوا في شيء مفيد».

لم يشترك في أيّ مظاهرة حتّى عيَّره أخوه لَوَنْدْ ذات يوم بالجبن: «إنك لا تشترك خوفًا من المخابرات»، فردَّ باران ببرود:

«يا أخي أنا جبان. جيد؟ هل أجبرتك أنا على حب الموسيقى مثلًا؟ كلّ واحد حر يا أخي. العمى!».

كانت الموسيقى وحياة اللهو حياتَه. لا يستهويه من دنياه إلا كأس الخمر، الحب، الألحان العذبة، الأغاني والسهرات مع أترابه من عشاق الموسيقى.

كان باران وترًا متمردًا.

- لماذا يتقاتل هؤلاء المجانين؟ أما كان من الأفضل لو حمل كلّ واحد منهم طنبورًا، كمانًا أو عودًا أو أيّ آلة أخرى وعزف عليها بدل هذا الدم المراق! أقسم بمقام نهاوند أن هؤلاء مجانين.

كثيرًا ما تشاجر مع أخيه لَوَنْدْ. اعتبره أيضًا من صنف المجانين وكثيرًا ما سخر منه:

- عاقبتك وخيمة يا ولدي. ستموت ولن نعرف أين قبرك.

وحين التحق لَوَنْدْ بصفوف البيشمركة وغاب عن البيت لم يبق أحد يشاكسه سوى أخته رَوْشَنْ ذات الأربعة عشر عامًا. علق ساخرًا من طريقة مصافحتها:

- أنت فتاة حلوة وعليك أن تخوضي مغامرة الحب لا أن ترتدي هذا الشال وتصافحي النّاس كأنك رجل فتعصرين الأيدي عصرًا. لو كنت بدل الشباب لهربت منك.

لم يكن على وئام مع والده أيضًا. كان الحاج مسلم يؤنبه كثيرًا على عدم الصّلاة وحين سأله ذات مساء: «كم عدد ركعات صلاة المغرب؟» رد دون أن يطيل التفكير:

«خمس ركعات». احتد والده وقال: «فلتصبك خمس رصاصات عمياء في جبينك. إنها ثلاثٌ يا غَجَري، ثلاااااث».

لـم يجـب أبـاه. خـرج بصـمت إلـى المطبـخ كعادتـه حـين لا يريـد النقـاش، أصـدر نغمتـين مـن الباغلمـة، وردّد بصـوت خفـيض: «أي إلـه هـذا الـذي يعـاملنا مثـل التجـار بالأرقام! ما الفرق لو كان عدد الركعات خمسًا أو ثلاثًا أو حتّى عشرًا؟ كلّه تكرار لنفس الكلمات ونفس الحركات. لن أفهم هذا الدين مطلقًا. تبًا».

وحين بدّدت الحرب حلمه في دراسة الموسيقى في المعهد العالي في دمشق، خطّط للذهاب إلى إسطنبول:

- هناك سأصدر أسطوانتي الموسيقيّة الأولى وسأدرس الموسيقى أيضًا.

لكن الذهاب إلى إسطنبول تطلَّب اجتياز الحدود المليئة بالألغام والعساكر الترك الذين يطلقون النار حتّى على الهواء العابر. لم يكن ذلك ممكنًا إلاّ عبر مهربين وذلك تطلب مبلغًا من المال لم يكن بمقدوره تأمينه. ما كان أبوه ليعطيه قرشًا واحدًا. ولم يستطع اقتراض المال اللازم من رفاقه أيضًا.

احتاج إلى سبعة آلاف دولار على الأقلّ للذهاب إلى إسطنبول وتسجيل أسطوانته الموسيقيّة الأولى ونشرها. لكنّه لم يكن يحصل مقابل عمله في الدكان إلاّ على مبلغ ضئيل يسدّ فقط حاجته إلى السجائر والشرب.

ضاع حلم الذهاب إلى إسطنبول أيضًا مثل نغمة يتيمة لم يسمعها أحد.

وصل مقام الحلم إلى نهايته.

* * *

اعتاد الحاج مسلم كلّ ليلة جمعة أن يغلق الحانوت ويذهب لزيارة بيت ابنه حَمِه عند مسجد الحاج رشاد غربي البلدة ليرى حفيديه، يلاعبهما ثمّ يعرج على بيت ابنته خديجة ويسهر هناك إلى منتصف اللّيل ثمّ يعود إلى البيت.

غادرت خديجة كوباني مع زوجها إبرام وابنها الصغير دارا وتوجّهت إلى إسطنبول لتكمل الرحلة إلى أوروبا من هناك، ولم يبق أمامه سوى منزل ابنه يزوره ليالي الجمعة.

حين ذهب ذات مساء صيفي كالعادة إلى بيت حمِهْ، استغل باران فرصة غيابه عن البيت فوضع طاولة صغيرة تحت شجرة الليمون غربي باحة المنزل وأتى بزجاجة فودكا وقدح صغير، وصار يشرب ويستمع من آلة تسجيل صغيرة إلى أغنية حزينة من أغاني مطربه المفضل بَيْتوجان:

احترق قلبي حبًا بالله عليك لا تتهميني بالجنون حبيبتي حلوتي بعيد عنك أنا

منذ سنوات.

هبّت نسمة عليلة فاهتزت أغصان الليمون ونشرت عبقًا لطيفًا. كان باران قد علّق مصباحًا كهربائيًا بأربعين شمعة في أحد الأغصان. مع هبوب تلك النسمة واهتزاز الأغصان المورقة اهتز المصباح أيضًا يمنة ويسرة فاهتزت ظلال الأقداح وزجاجة الفودكا والطاولة وكأنّها جميعًا سكرى تترنح.

مع الكأس الثالثة فتحت رَوْشَنْ باب الدّار ودخلت. حين رأت الضوء الشاحب صادرًا من بين أغصان شجرة الليمون عرفت أن أخاها يسكر كما في كلّ ليلة جمعة.

كانت رَوْشَنْ قد انضمت حديثًا لوحدات حماية الشعب وصار باران يشاكسها ويستفزها كثيرًا دون أن تردّ عليه. كان يسفِّه آراءها وحركاتها، يسخر من ثيابها ومن لوغو YPG الموجود على ذراعها اليسرى دون أن تتكلّم. لكن ما حدث في تلك اللّيلة كان مختلفًا إذ ما إن دخلت الحوش حتّى سألت:

- أين أمّي؟

- هي في جيبي. أين ستكون يعني؟ إنها في الصالون تشاهد مسلسل وادي الذئاب.

- وأنت تشرب العرق. أليس كذلك؟

سألت رَوْشَنْ بلطف حتّى لا يحتدَّ أخوها، لكنّه دفع ما تبقى في قعر الكأس من الفودكا إلى جوفه وقال:

- لا أدري كيف سأعلم أهل هذا البيت أسماء الأشياء؟ وحدها خديجة كانت تفهمني. أنتم تسمّون الباغلمة طنبورًا والفودكا عرقًا. لا شك أنكم تسمون شجيرة الليمون هذه يقطينًا؟ ألن تنزعجي يا رَوْشَنْ إذا أطلقت اسم داعش على YPG ؟

- طبعًا سأنزعج.

- وأنا أنزعج حين تكفرون وتسمّون الأشياء بغير أسمائها.

- طيب لا تعصب. أريد أن أقول إنّك تشرب الفودكا والفتيان الذين أصغر منك يحملون البندقيّة ويقاتلون العدوّ.

- هل قلت لهم قاتلوا؟ ما دخلي أنا؟

- يجب أن يقاتلوا. إنهم يحمون العرض والأرض.

- وماذا أفعل أنا؟ هل أرقص لأجلهم يعني؟

- لا لا ترقص يا أخي. لكن يجب أن نقول بحقّهم ما يليق بهم.

- وهل شتمتهم؟

- مثلًا...

- مثلًا ماذا يا رَوْشَنْ؟ لقد نزعت السكرة من جديد. كنت على وشك أن أسلطن. أين أنت يا لَوَنْدْ لكي أهديك صفعة يهوديّة. والله أنا لا أريد أن أؤذي هذه الفأرة.

ثم مد يده إلى الباغلمة فاختطفها وصار يعزف لحن أغنية حزينة من أغاني بّيْتوجان.

تركته أخته مع الفودكا يعزف تحت شجرة الليمون في نور المصباح الشاحب ودخلت لترى أمّها نائمة أمام المسلسل التركي المدبلج.

بعد أن هدأت سورة غضب باران وأنهى عزفه، وضع الباغلمة من يده وحمل هاتفه ليدخل في مكالمة هاتفيّة طويلة وحميمة مع حبيبته سوسن التي كانت مدرسة في ثانويّة البنات وزميلة لأخته خديجة. كانت سوسن تملك صوتًا عذبًا وغنت على أنغامه عدّة أغنيات للمطربة التركيّة بولنت أرسوي. جاءت سوسن عدّة مرات بصحبة خديجة إلى منزلهم فعلق بها قلب باران وعشقها. دامت قصة حبهما سنتين كاملتين يلتقيان فيهما كلّما سنحت الفرصة. وحين قرر الزواج منها اصطدم برفض قاطع من أهلها. قال والد سوسن حين سمع أن باران ابن الحاج مسلم المهاجر يريد أن يتقدم لطلب يد ابنته:

- أصله مهاجر ومهنته العزف على الطنبور. من ذا سيزوج ابنته لهذا الصعلوك؟

ثم توجّه إلى ابنته المدرِّسة:

- لا تقولي إنك مدرسة ومتعلمة ولا أدري ماذا. على من يطلب إحدى بناتنا أن يناسب عشيرتنا وعائلتنا. هل يُعقل أن يزوج أحد ابنته من هذا التافه؟

غضبت سوسن. وقفت للمرّة الأولى في حياتها بوجه أبيها وقالت:

- إن كنت لا تريد أن تزوجه ابنتك فما من داعٍ لأن تشتمه. بماذا هو أقل منا؟

- وتتكلّمين أيضًا؟ اغربي عن وجهي يا بنت الكلب. أصلًا لم ترثوا سوء الأخلاق إلاّ من هذه المدارس.

فشل مشروع الزواج.

نصحه أبوه بالزواج من إحدى بنات أخواله أو فتاة من تركيا فرد باران:

- أخوال أخوال أخوال! وهل سنتزوج كلّنا بنات الأخوال؟ غير معقول.

ثم خرج غاضبًا ولم يعد إلى البيت إلاّ بعد أيّام.

بعد اندلاع الثورة السوريّة في آذار 2011 غادرت عائلة سوسن كوباني لتستقر في الرقّة. لحقها باران إلى هناك وتجشم المصاعب الكثيرة في سبيل اللقاء

حتّى التقى بها مرّة أو مرتين، لكن كثرت الحواجز فيما بعد وساءت أحوال الطرق ثمّ انقطعت فلم يعد يراها.

في ربيع عام 2014 سيطرت جبهة النصرة على الرقّة فخاف شباب الكرد على أنفسهم وباتوا يخشون دخول المدينة أو الخروج منها والمرور من الحواجز. تم اعتقال بعض ناشطي الثورة على تلك الحواجز وانقطعت أخبارهم. وما إن حل الصيف حتّى انهارت جبهة النصرة وحليفاتها من الفصائل الإسلاميّة وحلت داعش محلّها، فقتلت المئات من أعضاء تلك الجماعات.

من خلال تلك النيران وذلك الدخان، وعبر صحراء من الشوك تُسمى داعش رغب باران في زيارة حبيبته سوسن.

أراد أن يلقي بقلبه في أتون لقاء حميم يحرق العفن العالق بروحه ويصقل آنية قلبه. أراد باران أن يذهب إلى شاطئ الفرات ليرعى السوسن هناك.

وذات صباحٍ استيقظ ليدندن بلحن أغنية فولكلوريّة من تراث كوباني. كان قلبه يخفق فرحًا. حمل آلته الموسيقيّة وبدأ يغني:

كوباني عند سكّة الحديد وحَسّو في القطار حبيبته تنتظره لكن العدو لا يفسح المجال ثم أخذه الحماس فحوَّر كلمات الأغنية وغنى:

حبيبة باران في الرقّة تنتظره في النافذة باران ينفجر من قهره فداعش لا يفسح له مجال اللقاء ضحكت أمّه ورَوْشَنْ اللتان استيقظتا قبله بكثير. قالت أمّه:

- يا ولدي تعال لنتناول الفطور سويّة، ثمّ انفجر من القهر.

لم يجب باران. ذهب إلى وسط الدّار وصار يرقص ويدور حول نفسه. فنادته أمّه:

- ما بك يا باران؟ هل جننت؟

- سأذهب يا أمّي. سأذهب لقطاف السوسن.

- السوسن؟ أي سوسن؟

وضعت رَوْشَنْ إبريق الشاي بجانب المائدة وقالت:

- هو يتحدث عن حبيبته السابقة. الآنسة سوسن المدرسة في ثانويّة البنات.

* * *

أراد باران، بعد أن يئس من مشروع السفر إلى إسطنبول، أن يرى طريقًا إلى أربيل أو السليمانيّة ليسجل ألحانه. اتّصل بأصدقاء له من إقليم كردستان فقالوا له:

«ما عليك إلاّ أن تأتي إلى هنا. الأمور ستكون كما تتمناها».

لكن الذهاب إلى إقليم كردستان لم يكن سهلًا. الحدود مغلقة مع تركيا.

وعبورها تهريبًا يعني الموت كاحتمال كبير. كان طريق الرقّة هو الوحيد الذي يمكن للمرء العبور منه إلى المناطق الأخرى. لكن ذلك الطريق كان محفوفًا بالأخطار أيضًا. فقد وقع كثيرون ممن سلكوا ذلك الطريق في قبضة مسلّحي داعش واختفت آثارهم.

صار في يد داعش المئات من الأسرى المدنيين من الكرد شبابًا وشيبًا وحتّى تلاميذ المدارس. جرت محاولات كثيرة لمبادلة أسرى الكرد ببعض أسرى داعش في السجن المركزي في كوباني لكنّها فشلت كلّها.

تحولت كوباني إلى قلعة محاصرة من جميع الجهات، أصبحت جزيرة وسط بحر من الأعداء.

بالرغم من كلّ هذه الأخطار أصر باران على أن يسلك طريق الرقّة. سأله والده:

- طيب لأفهم ما الذي ستفعله في الرقّة؟

- سأذهب للقاء بعض أصحابي.

- النّاس تهرب من الموت وأنت تلقي بنفسك في أحضانه يا بني. هل فقدت رشدك؟

أجّل سفره شهرًا كاملًا إرضاء لأبيه لكنّ قلبه خطف لجام عقله ذات ليلة. كان يسهر فيها مع شباب من حارة سَيْدا. بعد بضع كؤوس من الفودكا ناله السكر ولما عاد إلى البيت اتّصل بحبيبته سوسن وأخبرها أنه سيأتي إلى الرقّة ليخطفها ويأخذها معه إلى إقليم كردستان ثمّ يرى ما الذي رسمه القدر لهما.

صباح اليوم التّالي غادر البيت قبل أن يستيقظ أبواه.

بعد ساعة اتّصل بأمّه:

- أطلب عفوك يا أمّي. كذلك أطلب عفو أبي. خرجت دون أن أخبركما. أعرف أن هذا عقوق وقلّة وجدان. لكن ماذا أفعل؟ هل سأبقى حبيس البيت والدكان؟ لكن أعدكم أنني سأعود. سأعود بسرعة.

بكت أمّه. حاولت كثيرًا أن تثنيه عن قراره ففشلت. وحين عاد أبوه في المساء لم يجد الأُنس المعهود في البيت. بدا البيت خاليًا موحشًا من دون ابنه باران فقال لزوجته مؤنّبًا إياها: «هذا كلّه بسبب تربيتك. لقد أفسدت أولادي». ردّت خانِهْ كعادتها وقالت: «لو كنت أنا الوحيدة التي ربيتهم لحق لك أن تلومني». تشاجرا قليلًا ثمّ رقَّ قلب الحاج مسلم لزوجته فاسترضاها وناما على أمل أن يعود ابنهما سريعًا.

الطريق إلى الفردوس

ذات نهار صيفي قائظ انطلقت حافلة بيضاء صغيرة من كوباني صوب الرقّة، وسارت على تلك الطرقات الوعرة وهي ترتفع وتنخفض. جلس باران صامتًا في مقعده بينما أسند آلته الموسيقيّة إلى زجاج النافذة وصار يحدّق في حقول القمح والشعير المترامية على جانبي الطريق.

كان بين برهة وأخرى يختلس النظر من فوق كتف السائق إلى السراب الذي يلمع من بعيد فوق إسفلت الطريق، ويغوص عميقًا في بحر الخيال يخاطب حبيبته:

«اشتقت إلى جنّة صدرك وعسل شفتيك وخمرة عينيك. اشتقك إلى جسدك الأسمر اللّيّن وتلك الأنفاس الشبيهة بعبق الياسمين والبنفسج. اشتقت إلى قبلاتك الشبيهة بشرارات من نار ربانيّة. اشتقك إلى ضحكتك الشبيهة برفرفة جناحي الفراشة ونغمات الكمنجة. إلى صوتك الرخيم اشتاقت أذني. إلى طوفان الحب اشتاق هذا الزورق الصغير في صدري، الزورق الذي يريد أن يرمي بنفسه في لجة اللقاء. آه يا حبيبتي. لم يعد لقاؤك سرابًا أحسبه ماءً. ها أنا قادم إلى نبعك الرقراق».

استيقظ من خيالاته ومدّ يده إلى شريط في جيبه وقدمه للسائق متوسّلًا:

- من فضلك ضع لنا هذا الشّريط. لقد خرقت آذاننا بالأغاني العربيّة يا ابن العمّ.

نفث السائق دخان سيجارته عبر النافذة إلى الخارج وقال ضاحكًا:

- اعذرني يا أستاذ. هكذا تعوّدنا. غالبيّة ركابنا شوايا.

ثم وضع الشريط في مسجلة الحافلة:

لا أراكِ.

أنا لا أراكِ محطّم القلب أنا وكثير الأنين تردّد صدى أغنية بَيْتوجان حزينًا مُرًّا فيما استمرّت عجلات الحافلة البيضاء الصغيرة تنهب الطريق الوعرة غير مبالية بالأغنية ولا بمن يسمعها.

كـان بـاران سـعيدًا لأنّه يقتـرب مـن حبيبتـه. سـيأخذ سـوسن معـه إلـى إقلـيم كردسـتان ليبـدأ هنـاك حيـاة جـديدة. تحـدّث عـدّة مـرّات مـع أخيـه لَوَنْدْ مخبـرًا إيـاه أنّه فـي الطريق إلى كردستان. في ذلك اليوم أيضًا اتّصل بأخيه الذي حذره من خطورة الطريق:

- يا باران، يقولون إن الطرق خطرة. لقد اعتقلوا شبابًا كثيرين.

- تعرفني يا لَوَنْدْ. إذا أزمعت على أمر فسأنجزه مهما كلّفني ذلك.

- طيّب. أنت أعلم.

- طبعًا. ومن يعلم غيري؟ لقد أخذت معي زجاجة فودكا. يقولون إن داعش تحرم المشروب، ها ها ها.

- هل تسخر منّي؟ يا مجنون ارم ما جلبته من النافذة.

- هاها! كيف أرمي الفودكا التي هي روحي من النافذة؟ هل جننت مثلك لأرمي بروحي في المهالك؟

- مؤكّد أنك جلبت معك الطنبور أيضًا؟

- آخ منك آخ. أصبحت مقاتلًا من البيشمركة ولم تتعلم أسماء الأشياء! الآلة التي أعزف عليها باغلمة. باغلمة يا بغل.

- طيّب طيّب. باغلمة يا أخي. كان الله معك.

- مع السّلامة.

اعتبر باران الخروج من كوباني بمثابة الخلاص من سجن حصين. وقد تحوّلت كوباني فعلًا إلى سجن لقاطنيها. فهي محاصرة من الجنوب والشرق والغرب من قبل داعش، وليس في الشمال سوى حدود مليئة بالحرس والألغام تنذر بقتل كلّ من يقترب محاولًا اجتيازها. أمّا في الداخل فقد كان النّاس متبرّمين لا يطيقون ذلك الحصار. لا طعام، لا ماء ولا رائحة حرّيّة.

- أوااااااه. لقد خرجتُ من قعر البئر.

قال باران بفرح وأخرج يده من النافذة لتلفحها الريح القويّة.

استمرّت أغاني بَيْتوجان تصدح في الحافلة الصغيرة أغنية وراء أغنية، حزينةً، مليئة بلواعج الحبّ ومؤلمة حتّى ظهر حاجز تفتيش فجأة.

لم يكن الركاب بحاجة لمن يقول لهم لمن يتبع ذاك الحاجز، فالراية السوداء المكتوب عليها بخطّ قديم عبارة لا إله إلاّ الله كانت كافية لتقول لهم إن الحاجز تابع لداعش.

- أكلنا خَرَا.

سُمع صوتٌ من نهاية الحافلة التي صارت تسير الآن ببطء.

ردّ أحد الركاب:

- لا تخافوا. هؤلاء لا يؤذون أحدًا. لقد مررت عشرات المرّات من هذا الحاجز.

أشار مسلّحٌ كثُّ اللحية، محفوف الشاربين، قصير الثوب، إلى الحافلة كي تقف فوقفت وركنت بجانب الطريق.

سار المسلّح على مهله حتّى وقف بجانب الحافلة وصار يتمعن في وجوه

الركاب:

- من أين أنتم؟

- من كوباني. نحن من كوباني.

- إنّها عين الإسلام وليست كوباني.

- اعذرنا. هكذا تعوّدنا على لفظ الاسم.

رد السائق متوجّلًا.

- انزلوا جميعًا. سنفتش الحافلة.

خفق قلب باران. نبض بشدة مثل عصفور ينتفض من البلل. نزل قبل جميع الركاب.

- ما اسمك؟

سأله المسلّح كث اللحية.

- باران. اسمي باران حَمْزِراقْ.

- كافر.

- لست كافرًا.

- بلى. اسمك من أسماء الكفّار.

ردّ باران بعصبيّة يلفّها الخوف:

- كلاّ.

ردّ المسلّح واضعًا إحدى يديه على الحزام النّاسف الذي يحيط بخصره، ناخزًا باليد الأخرى خاصرة باران برأس بندقيته:

- سنكشف الآن إن كنت كافرًا أم لا.

ثم صعد إلى الحافلة التي نزل ركابها، وهم امرأة عجوز وثلاثة رجال مسنّين بالإضافة إلى باران والسائق، ووقفوا في صفّ بجانب الطريق صامتين ينظر بعضهم إلى بعض في خوف وقلق تظللهم حراب بنادق يتنكّبها بضعة رجال مسلّحين قصيري الثياب مسترسلي الشعر.

فجأة صرخ المسلّح الذي يفتش الحافلة:

- لمن هذا الطنبور وهذه الحقيبة؟

ردّ باران بعفويّة:

- هذا ليس طنبورًا. إنها باغلمة.

- وترفع صوتك أيضًا أيّها الفاسق!

قال المسلّح وهو يُنْزِل الباغلمة والحقيبة من الحافلة ويضعهما قريبًا من الحاجز ثمّ سأل:

- ماذا في حقيبتك؟

مضت لحظة كأنّها دهر صمت فيها باران ثمّ أجاب:

- إنها أشيائي، ثيابي و...

- ثيابك وماذا؟

بحث المسلّح في الحقيبة وأخرج منها زجاجة:

- وما هذه؟ ما هذه الزجاجة؟

- زجاجة؟ أيّ زجاجة؟

- همممم. فودكا. أنت شارب خمر أيضًا. طنبور وخمر ولا أدري ماذا أيضًا.

همَّ باران أن يصحّح اسم آلته الموسيقيّة مرّة أخرى، لكنّه أدرك أنّه في قبضة مسلّحي داعش فسكت. عرف أنه وقع في فخ محكم لا يمكنه الفكاك منه إلاّ بفضل معجزة.

تذكّر ما قاله لَوَنْدْ قبل قليل. أدرك أنه ارتكب الحماقة الكبرى في حياته باصطحابه آلته الموسيقيّة وزجاجة الفودكا.

أشار المسلّح للسائق وبقيّة الركاب بالصعود إلى الحافلة وإكمال سيرهم وأبقى باران مع حقيبته بجانبه.

اصطكّت ركبتاه. غصَّ بريقه ونشف حلقه. أدرك متأخّرًا أنّ تلك الجغرافيا البركانيّة مليئة شبرًا بعد شبر بالفخاخ. عشَّش الخوف في روحه وأنشب الندم مخالبه في كيانه. لم يشعر بنفسه أبدًا وحيدًا عاريًا يتيمًا كما شعر بها تلك اللّحظة. هو الآن نخلة وحيدة في بحر من رمال الصحراء.

مضت الحافلة في اتّجاه الرقّة. تبعها باران بنظراته حتّى اختفت. أراد أن يتكلّم ولو لدقيقة واحدة مع حبيبته سوسن لكي يقول لها إنّه في قبضة داعش وسيتأخّر عليها. تذكّر أباه أيضًا. أراد أن يخبره لعلّه يسعى في إطلاق سراحه بفدية.

أبقوه حوالي ساعة من الزمن في حرّ الشمس حتّى كاد دماغه يغلي. اضطر أن يضع دفتر العلامات الموسيقيّة فوق رأسه ويستظلّ به، لكن دون جدوى. اشتهى أن يدخّن فسأل المسلّح بلهجة مليئة بالترجي:

- هل تأذن لي بالتدخين؟

- التدخين؟ وتسأل يا ابن الأفاعي؟

ردّ المسلّح ومدّ يده بحركة خاطفة إلى جيب قميص باران، أخرج علبة الدخان وعصرها بين يده ثمّ ألقاها بعيدًا على الأرض.

- وتدخن الخراء أيضًا؟ امش أيها الكافر. هيّا.

قيَّد المسلّح يديه وراء ظهره ودفعه إلى سيّارة جيب واقفة بجانب الطريق.

كان مسلّح آخر كث اللحية قصير الثوب يجلس في مؤخّرة الجيب. التفت السائق، الذي قيَّد للتو يدي باران خلف ظهره:

- هذا هو القاضي. واسمه أبو أنس الأنصاري. سننفذ كلّ حكم يصدره عليك وستقبله. أنت الآن في أراضي الخلافة المنصورة بإذن الله وفيها تُطبق القوانين المستمدّة من القرآن الكريم.

تزاحمت أفكار كثيرة في رأس باران وعرَّشت على روحه مثل اللبلاب. ترى ماذا سيفعلون بي؟ هل صحيح أنّهم يذبحون النّاس كالخراف؟ كثيرون قالوا إنّه لا صحة لأفلام الفيديو التي ينشرونها بل هي للترهيب فقط. ليست تلك الأفلام سوى حرب نفسيّة وشكل من أشكال الدّعاية للتّرويع. يا ربّ يكون هذا الكلام صحيحًا.

تدفّقت الأسئلة وتناهبته الهواجس مثل نحل خرج من قفيره هائجًا.

فقد تركيزه من الخوف. كان محاصرًا ببنادق ولحىً كثّة وأثواب قصيرة وكلمات عربيّة جزلة. تراخت ركبتاه وشعر بأنه واقع في بحيرة من القطران. فجأة رنَّ هاتفه.

كانت نغمة هاتفه التي خصّصها لمكالمات سوسن، لحن أغنية للمطرب خوشناف يغنيها أحمد كايا:

كانت الأنهار تجري والقوافل تمضي حين أيقظتني ذكريات بعيدة.

- من هذا؟

سأل أبو أنس القاضي الذي كان جالسًا بجانبه في مؤخّرة الجيب.

- هاتفي.

احتدَّ القاضي وقال:

- لا أسألك ما هذا. أسألك من هذا. ألا تعرف العربيّة!

ومدَّ يده إلى جيب باران ليخرج الهاتف الذي ظلَّ يَرِنُّ بإلحاح.

- إنها سوسن.

- ومن هي سوسن؟

- إنها خطيبتي. أستحلفك بالله أن تسمح لي بالردّ عليها.

- اسكت أيها الفاسق الحرام. طنبور وفودكا. والله أشكّ أنك من الزناة أيضًا.

- والله العظيم ليس الأمر كذلك. بالله عليك امنحني فرصة التحدث معها ولو لبضع ثوانٍ. إنها في انتظاري.

لم يصغِ الداعشي لتوسلاته. علا صوت الأناشيد الجهاديّة من آلة تسجيل الجيب. بدا السائق سعيدًا يهز رأسه مع إيقاعها فيما كانت الريح التي تلفح السيّارة بسبب سيرها السريع تبعثر لحيته في كلّ اتجاه.

جلجلت جلجلت عاليًا في الأفق صيحات الأباة وانبرت وانبرت تُسمع الباغين أنغام الممات.

مقام الدم

سارت سيّارة الجيب على طريق رودكو الدولي الذي يربط حلب بمدن المحافظات الشرقيّة واقتربت من بلدة عين عيسى. عرف من حديث السائق والقاضي أنّ وجهتهم هي تلك البلدة. لم يرد باران أن تصل السيّارة إلى أيّ مكان. تمنى لو تسير به إلى ما لا نهاية. تسابقت الوساوس في رأسه وعرف أنّه الآن يتقلّب بين براثن الموت.

فجأة سأله القاضي مكفهرّ الوجه:

- أتعرف كم عدد ركعات صلاة الظهر؟

زادت خفقات قلب باران وتسارعت.

لم يكن في حياته قد أدّى أيّ فريضة. سماه والدُه «قبله نَنَاسْ» أي الجاهلَ بالقِبلة وعَيَّره بهذا اللّقب مرات عديدة. لم يزر في حياته مسجد سَيْدا القريب من بيته إلاّ مرات نادرة. وحتّى في المدرسة لم يهتمّ بدروس التربية الإسلاميّة. وكثيرًا ما طرده المدرّس من الصّفّ بتهمة عدم احترام الآيات والأحاديث. «أنا كافرٌ بالفطرة». كان يقول لزملائه ضاحكًا.

جذبه الندم مرّة أخرى إلى أدغاله الشائكة.

- اللّعنة. لقد كنت جار المسجد ووالدي حاج. كيف سأجيب هؤلاء؟ تبًّا لي.

قرَّ رأيه أخيرًا على أن يقول رقمًا لا على التعيين لعلّه يصيب فقال:

- أربع ركعات.

- أحسنت. وصلاة المغرب؟

- ستّ ركعات.

- ولِمَ لا؟ ما دمت تسكر فبإمكانك أن تقول إنّها ألف ركعة أيضًا. أنت تارك صلاة أيضًا! الله كريم. قريبًا سنصل.

أحكم عنكبوت الخوف خيوط شبكته على روحه، انهارت قواه أكثر وانتابته مشاعر غريبة.

مرّت فترة صمت. تمعن القاضي في صور هاتف باران وقرأ رسائل الواتس آب والرسائل القصيرة. وحين شاهد صورة فتاة مسلّحة ترفع أصبعي النصر وتبتسم ابتسامة عذبة، رفع شاشة الهاتف إلى وجه باران وسأله:

- من هذه؟

ازدرد باران ريقه بصعوبة وقال بنبرة هي خليط من الغضب والخوف:

- هذه أختي.

- سيجعلها الله سبيّة من سبايا جنود الدولة الإسلاميّة.

انفجر البركان في قلب باران. لم يعد بإمكانه ضبط أعصابه أكثر. جمع كلّ ما في فمه من لعاب وبصق على وجه القاضي.

في هذه اللحظة سُمع صوت أحمد كايا من هاتف باران. رمى القاضي المبهوت، والبصاق يملأ وجهه، الهاتف من نافذة الجيب وسدد بكلّ قوته لكمة إلى وجه باران.

رعف أنفه من قوّة اللّكمة. حاول جاهدًا أن يفكّ القيد البلاستيكي الذي كاد يقطع معصميه فلم يفلح. جمع هذه المرّة ما اجتمع في فمه من بصاق خالطه الدم ورماه على وجه القاضي وهو يصرخ:

- يلعن ربّك، يلعن دينك وإيمانك.

انهال القاضي بلكمات أقوى من سابقتها على وجه باران، ثمّ أخرج قطعة قماش حشا بها فمه الذي بدأ ينزف وقال له:

- ستنال جزاءك الآن أيّها الكافر. اليوم ستهبط روحك النجسة إلى قعر جهنّم لتحرق هناك مع الشياطين.

تيبّست الدماء التي سالت من أنفه وفمه على قميصه وبنطاله نتيجة لفح الهواء القوي من النافذة المفتوحة بجانب السائق. أضيف رعب بلا حدود إلى الندم الذي انتابه قبل قليل. إنّه تارك صلاة، معه زجاجة فودكا وفي هاتفه صورة أخته المقاتلة ويحمل آلة موسيقيّة وشتم ربّ الداعشي ودينه من غيظه. جرمه كبيرٌ إذن.

لم يعرف بماذا يجيب. لم يعرف بماذا سيعاقبونه. أسرعت سيّارة الجيب مخلّفة وراءها سحابة من الغبار يشاهد من خلالها مشاهد لأهله ومدينته: بلدة محاصرة وعائلة تتشتت وقدر مجهول. أخفى الغبارُ الكثيف كلّ تلك المشاهد، أخفى القرى التي تمرّ بها السيّارة المسرعة، لكنّه لم يستطع إخفاء خوف باران الذي صار ينطق في عينيه بألف لسان ولسان.

عند مطعم على الطريق الدولي انعطفت سيّارة الجيب صوب بلدة ظهر منها أوّل ما ظهر مئذنة عالية. لم تمض دقيقة حتّى ركنت السيّارة عند مبنى البريد في بلدة عين عيسى. أخرج أبو أنس القاضي هاتفه واتّصل بأحد الأرقام:

- فليعلن أحد الإخوة عبر مكبّرات الصّوت في المسجد أنّني والأخ أبا طارق التونسي سنحضر أحد الملاحدة لتنفيذ حكم الشرع فيه. ليحضر المسلمون كلّهم حتّى يشهدوا تنفيذ الحكم.

ثم قال للسّائق أبي طارق التونسي:

- سُق يا أخي أبا طارق، إلى أن نصل المسجد سيكون النّاس قد اجتمعوا هناك.

هدر محرك سيّارة الجيب من جديد وانطلقت بسرعة. جفَّ حلقُ باران. اشتدّ عليه العطش. أصبح أشدّ عطشًا من تلك الفيافي التي مرَّ بها. لم يعد يفكّر في شيء سوى نوعيّة عقوبته القادمة.

توقّفت سيّارة الجيب عند مسجد خالد نوري. رأى باران من خلال زجاج النافذة عشرات المواطنين مجتمعين عند ساحة شمال غربي المسجد. تبلّل قميصه من جهة الصدر والإبطين من العرق. رفع السائق صوت آلة تسجيل السيّارة التي كانت تهدر بنشيد «جلجلت»، ثمّ نزل من السيّارة. أمسك القاضي كتف باران بعنف ودفعه إلى الأسفل:

- انزل أيّها الملحد.

لم يشعر باران بأنّ قدميه لامستا الأرض. كانت قدماه قد تخدّرتا. أمّا مكبّرات الصّوت فقد استمرّت تدعو النّاس للاجتماع في الساحة لحضور تنفيذ العقوبة. جاء النّاس من كلّ جهة حتّى غصّت الساحة بهم. خرج بضعة مسلّحين من المسجد وجاؤوا أيضًا إلى الساحة. سلّموا على القاضي والسائق، ثمّ أمروا النّاس بترك مكان لتنفيذ العقوبة.

لمح باران بضعة أطفال حفاة لوحت الشمس وجوههم. حاول أن يبتسم لهم فلم يستطع. كان بعض الأطفال يحدّقون فيه ويشيرون بأيديهم إلى رقابهم علامة الذبح.

أمسك القاضي بكتفه ودفعه إلى الأمام ثمّ أوقفه. كادت شمس آب المتعامدة فوق رأسه تطبخ مخّه. تصبب منه العرق وتساقطت حباته على الأرض كالمطر.

جاء السائق بحقيبته وآلته الموسيقيّة ووضعهما بجانبه، ثمّ عاد إلى السيّارة التي يعلو منها صوت النشيد الحماسي. أخرج من صندوق السيّارة ساطورًا لمع في وهج الشمس ثمّ قفل راجعًا صوب الحشد.

لم تعد ركبتا باران قادرتين على حمل جسده. عضّه الندم من جديد: «في الطريق إلى السوسن تعثّرت أقدامي العمياء بفخاخ قاتلة».

- بسم الله الرحمن الرحيم.

قرأ القاضي بصوت مرتفع:

«اليوم منَّ الله تعالى على جنود الدولة الإسلاميّة المنصورة فجعل هذا الملحد تارك الصّلاة شارب الخمر أسيرًا في قبضتنا. ويعرف الله عزّ وجلّ وحده ما هي نيّة هذا الملحد من دخول أراضي الخلافة. ليس غريبًا أن يكون جاسوسًا للأكراد

الملاحدة. لقد رأينا معه آلة الفسق هذه أيضًا».

وحمل الباغلمة فضرب بها رأس باران، ثمّ هشمها على الأرض ورماها بركلات متتابعة في كلّ اتجاه. ازداد القاضي بذلك سعارًا، فأخرج زجاجة الفودكا بعنف من الحقيبة، ثمّ أراها النّاسَ قائلًا: «انظروا أيها المسلمون ماذ أحضر هذا الملحد معه؟».

بعد ذلك فتحها وسكب ما فيها على الأرض ثمّ ضرب بها رأس باران ورماها بعيدًا.

كان النّاس صامتين. مدَّ بعض قصار القامة أعناقهم ليروا المشهد فيما كان بعض الأطفال خلف الحشد يقفزون في الهواء في مكانهم حتّى يتمكّنوا من رؤية تنفيذ العقوبة بحقّ ذاك الأسير.

- إنه شارب خمر، تارك صلاة وعدوّ الله. نطق كلمة الكفر وسب الذات الإلهيّة. وبلا شكّ فإنّ الذبح عقوبته. أليس كذلك أيّها الإخوة؟

خرجت أصوات من بين الحشد:

- اللّعنة عليه. اقطعوا رأس هذا الكافر وليقبض عزرائيل روحه النجسة. ليذهب إلى الجحيم.

خارت قوى باران. لكنّه بقي صامتًا يحدّق في أولئك الرهط الّذين يطالبون بذبحه. كان يبحث عن وجوه معروفة. بدت كلّها كذلك. كلّها وجوه بشر جعلهم الخوف يتوحّشون وحوّلهم العنف إلى كائنات شرسة أعماها الحقد. لم يشعر بأيّ نيّة في المقاومة. لم يفهم لامبالاته تلك. لم يعرف لماذا هو هادئ إلى هذا الحدّ؟ وكأنّه ليس ذلك الشخص الذي ملأ وجه القاضي ولحيته بصاقًا قبل قليل في سيّارة الجيب.

ترى هل جميع الذين يدنو موتهم هكذا أم هو على يقين من أنّ ما يشهده الآن ليس سوى مشهد مسرحي؟ كثير من النّاس يدعون أن الأفلام التي توزّعها داعش ليست سوى تمثيل بإخراج هوليوودي.

وربّما استسلم لمصيره يأسًا. فالغزالة حين ترى نمرًا أو أسدًا تهرب بأقصى ما تستطيع من سرعة. لكنّها حين تقع بين براثن عدوّها المهاجم وتشعر بألم المخالب المغروزة في كفليها وجنبيها وظهرها وتنفذ الأنيابُ الحادّة في رقبتها الناعمة تعرف أنّ مزيدًا من المقاومة يعني مزيدًا من الألم والجراح.

تستسلم الغزالة أخيرًا وتنتظر موتها بكلّ هدوء.

فتح باران عينيه اللّتين ألصق العرق أهدابهما، فرأى أبا طارق يعطي الساطور لرجل عملاق مغطّى الوجه يلبس ثوبًا أسود وسروالًا قصيرًا وصندلًا أسود. كلّ شيء في ذلك العملاق كان أسود اللون ما عدا فتحتين في غطاء الوجه تظهران عينين وحشيتين تراقبان الرقبة المستكينة. لمع

الساطور في يد العملاق وهو يقلّبه فيما تراجع أبو طارق إلى الوراء.

بقي باران هادئًا يشاهد ما يجري كأنّه في فيلم.

خطر على باله في تلك اللحظات أغنية مطربه المفضل بَيْتوجان التي يحبها:

حبيبتي تعالي سريعًا يا روحي تعالي سريعًا إنّني أحتضر إنّني جريح فتعالي بسرعة.

أسعفه خياله. أصبحت تلك الأغنية بمثابة كيَّةٍ على جرحه. آلمته وعالجته. شعر بقلبه يُشوى على النّار. كان يحترق ويذوب. تذكّر حبيبته سوسن، اللّحظات الجميلة التي قضّاها معها، صورَ كوباني، العائلة، وجهَ أمّه وأبيه، أخته المدلّلة رَوْشَنْ وجديلتها الذهبيّة، استحضر تلك الصّور مثل مسافر جالس بجانب النافذة في قطار مسرع يرى في الخارج صورًا تتوالى. غرق في لجج أفكار شتّى. حاصرته نارُ الذكريات وأحرقت حقولَ الهدوء في روحه.

توجّه القاضي أبو أنس إلى العملاق المجلبب بالسواد وقال له بعد أن أثنى على المحتشدين:

- والآن حان وقت تنفيذ حكم الله وشريعة قرآنه. بسم الله والله أكبر.

أمسك العملاق بناصية باران من الخلف وخفض رأسه حتّى صار بمستوى الأرض ولامس وجهُه الحصى المسجورة.

حبيبتي تعالي سريعًا يا روحي تعالي سريعًا إنّني أحتضر إنّني جريح فتعالي بسرعة.

تمتم باران بكلمات تلك الأغنية، فدخل التراب الحارّ إلى فمه. امتزجت الأغنية بالتراب في فم باران. تلاحقت أنفاسه. أبقى عينيه مفتوحتين. شدّ الجلّاد ناصيته هذه المرّة إلى أعلى فرأى سماء زرقاء خرساء. سماء وحيدة لانهائية.

صمتٌ ثقيلٌ ران على الكون لم يخرقه سوى تكبيرة من الجلّاد:

- الله أكبر.

هوى الساطور.

تدفّق من وريد باران المقطوع دمٌ أحمر مثل مقام حزين.

ذكريات عمود كهرباء

أعيدُ الكاسيت إلى مكانه. أبتعد رويدًا رويدًا عن المسجّلة. أخرج من بيت الخالة إيسو. الشارع المليء بالأنقاض يعجّ بالسّكون أيضًا، لكن للذكريات في رأسي ضجيج أكثر من ثغاء الخراف، إذ تعود من الرّعي مساء.

ذكريات استفزّتها الأنقاض كما يستفزّ طفلٌ مشاكسٌ الدبابيرَ حين يولج عودًا محترقًا في عشّها، ذكريات تشبه مجنونًا تاه في الفيافي والقفار أحضرها الخيالُ الجلّاد ومدَّها أمامي مصفَّدة خشية أن تهرب ثانية. ذكرياتٌ ظننت أنّها مغمورة بطبقات النّسيان المتراكمة لسنوات وسنوات مثل هذه الأنقاض المركومة أمامي تتسابق الآن لتتحرّر من ثقل السنين.

ألمح عمود كهرباء ممدّدًا على الأرض.

عمود طويل كان في رأسه سابقًا مصباح كهربائي يلقي أنواره الشاحبة على الأرض. على نور ذلك المصباح العالي قضّينا نحن أولاد حارة سَيْدا ساعات طوالًا على مدار السّنة. في الشتاء نقف تحت المصباح وننظر إلى الأعلى:

- إنّه الثلج.

- لا، هذا رذاذ المطر.

- بل هو ثلج.

- أقسم بضريح جدّي الشيخ صالح إنّه مطرٌ رذاذ.

- أقسم برأس الشيخ أحمد الخزنوي إنّه ثلج.

- أقسم بثلاثين جزءًا من القرآن إنّه مطر.

- أقسم بسبعة نسخ من القرآن إنّه ثلج.

- مطر.

- ثلج.

وقبل أن يقنع أحدنا الآخر يخرج أحد الجيران المصلين من المسجد ويمشي في اتّجاهنا، نسأله للفصل بيننا فيجيب:

- هذا رذاذ، مطر خفيف لكن قد يتحوّل إلى ثلج. الثلج خجول لذا عليكم أن تذهبوا إلى بيوتكم وتناموا. مادمتم تسهرون في الشارع فإنّه لن يهطل.

ذاك العمود الذي كان يجمعنا حوله، مرميّ الآن على الأرض لا يجتمع حوله سوى الرّكام. «إنّه ينفع لصنع أرجوحة»، أقول في سري. ما تزال الأسلاك

الكهربائيّة موصولة برأس العمود موجودة على تلك البكرات البيضاء من البورسلان. كانت تلك البكرات الشبيهة بفناجين قهوة صغيرة أهدافًا محبّبة لنا، نرميها بالحجارة محاولين تحطيمها. وحين نلمح كبارًا قادمين، نصرخ بخوف ولهفة: «إنّنا نرمي الشحارير التي تحطّ على الأسلاك»، ثمّ نطلق سيقاننا للريح ونهرب.

في أمسيات الربيع كنّا نلعب تحت الأضواء الخافتة لعبة نسمّيها هِيفْلوتْكا حَزاري فننقسم إلى فريقين، فريق يغمض عينيه وفريق بيده حجر أبيض صغير على هيئة البيضة يرميها بعيدًا ويطلب من أعضاء الفريق الآخر أن يفتحوا أعينهم، وتبدأ رحلة البحث عن الحجر البيضوي. وحين يرى أحدهم الحجر سواء من هذا الفريق أو ذاك، يصيح هيفلوتكا حزاري ويتمّ تسجيل نقطة لصالح الفريق الذي شاهد الحجر.

كنّا نلعب أيضًا بيب، وصنم، وبابُورْتان وكَرْكي مَلَّا وألعابًا أخرى لا أتذكّرها الآن حول هذا العمود المطروح على الأرض مثل جثّة بين الأنقاض.

إنّه شاهد على قذارة الحرب. شاهد على دمار الحارة. لكنّه شاهد صامت يتمدد مثل قتيل في ميدان المعركة.

ذات مرّة سقط سلك من الأسلاك الكهربائيّة الغليظة في بيت جارتنا الخالة إيسو. لم تلحظه ابنتها فداسته بقدمها الحافية. صعقتها الكهرباء ورمتها خمسة أمتار بعيدًا عن السلك دون أن تتأذّى. كان الكبار يقولون لنا إنّ الموت صعقًا يكمن في هذه الأسلاك التي ترفعها أعمدة الشوارع لكنّنا لم نكن نصدقهم:

- طيّب لماذا لا تموت الشحارير وهي تحطّ عليها؟

- الشحارير؟

يردّ علينا الكبار مندهشين ويتركوننا بلا جواب.

وحين ينكسر أو يتعطّل أحد المصابيح يأتي عامل من عمال شركة الكهرباء ويتسلّق العمود حتّى يصل إلى المصباح المراد تغييره. كان يستخدم في تسلقه حديدتين كأنّهما قرون الأيائل يربطهما بحذائه ثمّ يغرزهما في العمود بالتّناوب ويتسلّق رويدًا رويدًا وينزل بعد أن ينهي عمله وسط إعجابنا ودهشتنا من جرأته وبراعته.

- اسمعوني جيّدًا. هذه ليست مصابيح الحكومة. إنّها مصابيحكم أنتم وتضيء شارعكم هذا. إيّاكم أن تكسروها.

- لا يا خال لا. نحن لا نكسرها أبدًا. نحن نلعب كلّ يوم تحت نورها فكيف نكسرها! هل نحن مجانين.

مرّت على سوريا بعد ذلك، فترة حالكة كانت الكهرباء تنقطع

فيها لساعات طويلة وباتت أعمدة الشوارع ترفًا لا حاجة إليه. لكنّها بقيت مع ذلك رمزًا لعهد حكومات بائدة حاولت أن تسعد المواطن بأن منحته قليلًا من النور في بيته وشارعه.

أحيانًا كانت الكهرباء تنقطع في البيوت دون الشوارع، فيخرج بعض التلاميذ من بيوتهم ليذاكروا تحت أنوار الأعمدة.

ولم تكن تلك الأنوار نعمة لبعض التلاميذ النشيطين فحسب، بل كانت بعض الدّجاجات التي لا تمل من النبش والبحث عن القوت في النهار تستغلّ فرصة اشتعال مصابيح الشوارع لتبقى باحثة عن مزيد من الحبوب المدفونة تحت تراب الشارع أو المنثورة عند الأبواب وتبقى حتّى يجبرها أصحابها على التوجّه إلى أقنانها والهجوع مثلنا حتّى شروق شمس يوم آخر.

أنظر إلى العمود الممدّد أمامي على الأرض. إنّه حزين مثلي، يريد أن يكلّمني ويشكو إلي فيعجز. لا أستطيع مساعدته. لا يمكنني أن أقيمه من الأرض لينتصب ويطلّ على الخرائب الجديدة ولا يستطيع هو أن يبثّني شكواه المخنوقة في خشبه القديم.

إنّه منهار محطّم مكسور من قاعدته. كم يشبه كوباني! كوباني أيضًا لن تقوم لها قائمة. أقول لنفسي.

بقلب يعصره الألم، أبتعد عنه. لا أنظر إلى الخلف. أتقدّم بضع خطوات حزينًا حتّى أصل إلى باب بيتنا.

أقف أمام الباب الحديد المصبوغ باللونين الأبيض والأسود.

يخفق قلبي أكثر من جناحي شحرور حطّ على سلك الكهرباء، فاجأناه بحجر.

أنا الآن أمام باب لم أطرقه منذ خمسة عشر عامًا. أمام باب كان حلمي أن أعود إليه ذات يوم لأطرقه بهدوء فأسمع من فناء الدّار وقع خطوات أبي ثمّ أراه يفتح الباب ويضحك في وجهي قائلًا بنبرة عتاب:

- لماذا تأخّرت كلّ هذا الوقت يا ولدي!

المفاتيح

- داعش وصلت إلى بَغْديكْ[16].

لم يكد حَمِه يتّخذ مجلسه في غرفة المعيشة ببيت والديه حتّى قال عبارته تلك بوجه ممتقع ملقيًا بحزمة كبيرة من المفاتيح بين يديه.

أخرج والده جهاز التّحكم من تحت الوسادة وصار يقلب بين القنوات التلفزيونيّة، ودون أن يهتمّ كثيرًا بعبارة ابنه حَمِه قال:

- وين نحن ووين بغديك؟ إنّها بعيدة.

- أتعرف يا أبي أنّ الوضع مختلف هذه المرّة؟ الوضع خطير.

- لماذا يا بني؟ عندنا مقاتلون كثيرون.

- لا جدوى منهم. أقصد لا نفع للمقاتلين دون أسلحة ثقيلة.

كانت خانِهْ تلاعب حفيديها دون أن تنسى استراق السّمع إلى حديث زوجها وولدها، بينما غادرت عَيْشه الغرفة لتعدّ الشاي في المطبخ.

سأل الحاج مسلم ولده بخوف:

- طيّب والعمل؟

أقحمت خانِهْ نفسها في الحديث، وقالت بلهجة الواثق من نفسه:

- هذه الميكروبات مصرّة على الدخول إلى كوباني. صار لهم ثلاث سنوات يحاولون ولا ندري ماذا يريدون من هذه البلدة! سترون. هذه المرّة سيدخلون كوباني. أقطع يدي إن لم يدخلوها.

ضحك زوجها وقال:

- يجب على قناتي روناهي ورُوداوْ أخذ تصريحاتك وتسجيلها أيّتها المحلّلة السياسيّة. دائمًا تعدين بقطع يدك لكنّها ما تزال في محلّها.

- أنا لا أعرف شيئًا. لكن قلبي يقول لي.

- لا تخافي. نحن عندنا مقاتلون كثيرون. سيفنى الدواعش قبل أن يصلوا إلى كوباني.

- ألم يقل حَمِه الآن إنّهم بحاجة إلى أسلحة؟ وإنّه بلا أسلحة لا قيمة للمقاتلين!

- ما هذا الهراء؟ كيف لا ينفع المقاتلون؟ ومن قال إنّه لا توجد أسلحة؟

- طيّب. اعتبروني لم أقل شيئًا.

مع احتدام النقاش وصلت رَوْشَنْ أيضًا. سلّمت ثمّ جلست وهي ما تزال ترتدي لباسها العسكري المبقع. لعبت قليلًا مع سيامند وزوزان ثمّ سألت أمّها خانِهْ: «ما هو عشاؤنا اليوم؟ أكاد أموت من الجوع».

- لماذا يا بنتي؟ ألا يطعمكم الرفاق؟

- وهل نذهب لأجل الطعام؟ هدفنا هو الوطن، الثورة والحرّيّة. مع الحرّيّة لا حاجة لنا إلى الخبز. الخبز يأتي أخيرًا.

ردّ والدها بسخرية:

- لذلك تركت حرّيتك وطالبت أوّل ما جلست بالعشاء. أليس كذلك؟ اذهبي إلى عَيْشه في المطبخ إنّها تعدّ العشاء.

لم يبقَ في منزل الحاج مسلم من بين سبعة أبناء، خمسة صبيان وبنتين، سوى رَوْشَنْ. كانت خانِهْ بالرغم من آلام قدميها وركبتيها تنجز كلّ الأعمال المنزليّة ولا تأتي عَيْشه لمساعدتها إلاّ في حالات نادرة.

كانت عَيْشه تردّد دائمًا:

- تترك خديجة أمّها وتسافر لأشتغل أنا! أجلي الصحون وأغسل الثياب! هل أنا خادمة؟

فيردّ عليها زوجها حَمِه بعصبيّة بالغة:

- هذه أمّي، وعمتك وحماتك. وأنت مجبرة على خدمتها.

أما رَوْشَنْ فلم تكن تأتي إلى البيت إلاّ مساء. وحين تأتي لا تفعل شيئًا سوى صنع الشاي. وأحيانًا ترفع الأسرة في الصباح لتضعها ملفوفة في خزانات موجودة في الجدران. تنجز أمّها المريضة ما تبقى مثل إعداد وجبات الطّعام وكنس البيت وسقاية أصص الورد الكثيرة والاعتناء بالأشجار وغسل الصوف والثياب ونشرها على حبل الغسيل، وغير ذلك دون أن تشكو ممّا هي فيه. بل على العكس باتت تشكو قلة الواجبات المنزليّة بسبب غياب أولادها عن البيت وتقول متحسّرة:

- أين مضى ذلك الزمان حين كان حبل الغسيل يمتلئ ثيابًا منشورة من هنا إلى هناك؟

حين وصل الخبر بأنّ عناصر داعش بلغوا قرية بَغْديكْ شرقي كوباني جمعت خانِهْ بعض الثياب في الصُرر، ثمّ وضعت ما غلا ثمنه في حقيبة جلديّة وملأت حقائب أخرى بثيابها وثياب الحاج مسلم وابنتهما رَوْشَنْ.

قال لها الحاج مسلم حين رآها حائرة في جمع ما يجب أخذه معها:

- هل جننت يا خانِهْ؟ بغديك بعيدة. لا تخافي.

ردّت خانِهْ وهي تملأ إحدى الحقائب:

- عناصر داعش ليسوا سلاحف ليصلوا بعد سنة إلى كوباني. بالتأكيد هم يستقلّون السيّارات.

- لن نهرب يا خانِهْ. أليس عارًا على المرء أن يهرب من عدوه؟

في اليوم التّالي لاحظ الحاج مسلم حركة غير طبيعيّة في السوق. لم يكن للناس حديث سوى هجوم داعش الوشيك على المدينة:

- الموضوع جدّي يا أخي. داعش قادمة!

- بالتأكيد سيتصدّى لهم شبابنا وبناتنا.

- وماذا بإمكانهم أن يفعلوا من دون سلاح قويّ؟

- شباب وبنات؟ خسرنا عشرين قرية في نصف ساعة. أين كان الشباب والبنات؟

- يُقال إن كثيرين من وحدات حماية الشعب خلعوا زيهم العسكري ورموا بطاقاتهم وهربوا إلى تركيا.

- هذه إشاعة. هم ليسوا كالبيشمركة ليهربوا.

- داعش باتت على أبواب شيران! كيف ذاب المقاتلون؟

هكذا تحدّث النّاس في كلّ مكان. فرّ المئات من القرويّين إلى كوباني بعد أن تركوا قراهم بما فيها من قطعان وآليات زراعيّة وغيرها. رووا أحاديث فظيعة ولم يعد النّاس يميّزون بين المبالغة والخيال وبين الواقع. لكنّ أصوات المدافع صارت تقترب رويدًا رويدًا. كانت تلك حقيقة مرّة لم يستطع تكذيبها أحد.

- سقطت ثلاث قذائف هاون في مِكْتَلَة[17].

قال الحاج مسلم وهو يدخل البيت عائدًا من السوق والخوف يلوح في عينيه.

اندهشت خانِهْ وسألت:

- إي؟ والمعنى؟

- المعنى هيّا تجهّزي لنهرب.

ردّت خانِهْ بلهجة ساخرة مكرّرة عبارته ومقلّدة لهجته:

- وكيف نهرب؟ أليس عارًا على المرء أن يهرب من عدوه؟

- لا نفع للشجاعة الآن. هناك من سيقاتل. أنا وأنت عجوزان. هيا تجهزي.

- أنا أريد أن أبقى. لا أمزح.

قالت خانِهْ بلهجة جادّة صارمة.

- حتّى الأمس القريب كنت تجهّزين الصرر! هل جننت الآن؟

صباح اليوم الذي وصلت فيه داعش إلى مشارف كوباني احتدم بين الحاج مسلم وزوجته ذاك السجال القصير. لم تكن خانِهْ تريد ترك بيتها بالرغم من أنّها كانت قد جهّزت صررًا وحقائب كثيرة، لم ترد أن تصدّق القصص التي يرويها النّاس عن فظاعات داعش بالإضافة إلى كونها عاجزة عن المشي بلا عكّازات وحبّها الشديد لبيتها وورودها، هي التي لم تترك بيتها مذ سكنته إلاّ لساعات قليلة.

كان أكثر ما يهم الحاج مسلم وزوجته أمر رَوْشَنْ. كانت بعد فتاة صغيرة، آخر العنقود ومدللة العائلة.

- يجب أن تأتي هي أيضًا إن كان لا بدّ من الرحيل. لمن نتركها هنا؟

- بالتأكيد سنأخذها معنا. كيف نترك شرفنا عرضة للأسر؟

- فال الله ولا فالك يا حاج.

- هؤلاء لا يخافون الله. يجنّدون البنات الصغيرات.

- ولماذا تقول الآن ذلك؟ لم تقل شيئًا حين رأيت ابنتك تذهب وتجيء بلباسها المموّه وشارة وحدات الحماية.

- اسكتي يا دجاجة. حتّى في الأوضاع العصيبة لا تتركين النقَّ! سآخذها غصبًا عنها وعن قادتها.

- أقول لك الآن لن أذهب معك ما لم تكن رَوْشَنْ معنا.

- سنذهب معها ومن دونها.

- ولمن أترك المونة التي عملتها للشتاء؟ المربيات والجبن والمخلل والزيتون و...

- والمكدوس والبرغل والشعيريّة والخضار المجفّفة كالبامياء والباذنجان والكوسا ووو. فهمنا. سنعود. وهل تعتقدين أنّنا سنبقى أسابيع بعيدين عن بيوتنا؟ يوم أو يومان ونرجع حين تهدأ الأوضاع. المهم أغلقي الأبواب جيّدًا ولا تنسي المفاتيح.

دخل ابنهما حَمِه هو الآخر سجالًا مع امرأته التي تصرّ على الرّحيل. رأى حَمِه أنّ البقاء في كوباني أفضل من الهرب وأنّهم مدنيّون ومسلمون ولن يحصل لهم شيء وغير ذلك من الحجج التي لم تقتنع بها زوجته. وحين اتّصل بوالديه يستفسر عن الأوضاع فهم أن أمّه أيضًا لا ترغب في الرّحيل فما كان منه إلاّ أن قاد سيّارته متوجّهًا إلى حارة سَيْدا.

* * *

اقتـربت داعـش أكثـر. زحـف عناصـرها مـن جـرابلس فـي الغـرب، ومـن الجنـوب زحفـوا مـن جـهة صـرِّين وعـين عيسـى، ومـن تـل أبـيض شـرقًا زحفـوا واكتسـحوا أمامـهم القرى قرية فقريّة وبسرعة فائقة. خلال ستّ وثلاثين ساعة تمت السيطرة على جميع قرى كوباني البالغ عددها حوالي أربعمائة قرية.

فرّ الكثيرون من المدينة حتّى قبل أن تصل طلائع داعش إلى الحارة الشرقيّة. عاد عدد منهم فيما بعد غير واعين بما يفعلون! تجمع الآلاف عند الحدود عطاشى جائعين مرهقين محرومين من النوم. وضع كثيرون أموالهم في صرر صغيرة وأمسكوا بها بإحكام خشية الضياع. لم يقدروا على النوم مخافة أن تُسرق تلك النقود التي لم يجدوا لها مخبأً سوى جيوبهم.

انقلبت حارة سَيْدا كغيرها من حواري كوباني وأحيائها رأسًا على عقب. لم يصدق النّاسُ الخبر. قبل أيّام تدفقت أمواج النّازحين من القرى على المدينة واستقر قسم عند أقربائهم بينما غصّت المدارس بقسم آخر. فرح أصحاب العقارات ومنّوا النفس بازدهار تجارتهم لكنّهم بدؤوا الآن أيضًا يعدون العدّة للرّحيل.

خشخشت المفاتيح في أيدي جميع النّاس. أغلقوا الأبواب ثمّ ألقوا النظرات الأخيرة على حديدها الصامت الحزين. كثيرون بقوا مثل السكارى عند أبوابهم يحدّقون فيها كأنّهم يرونها لأوّل مرّة.

في ذلك اليوم العصيب ودّعت آلافُ المفاتيح أبوابها. أغلقت العجائزُ الأبوابَ بأيد ترتجف ثمّ ربطن مفاتيحها بخيوط إلى ستراتهن وفساتينهن أو ارتدينها كقلادات أو أودعنها جيوبهن أو صدورهن أو محافظهن. في ذلك اليوم ترك الرجال أمر غلق الأبواب والحفاظ على المفاتيح للنساء اعترافًا منهم بأنّ البيوت لهن وأنّهن الموكلات بتدبير شؤون المنازل.

ما إن حلَّ أصيل ذلك اليوم حتّى كانت ثلاثة أرباع الأبواب في المدينة قد أغلقت وغادر حَمَلة مفاتيحها صوب الحدود.

شابّ في السيّارة

وصـلت رَوْشَنْ، التـي بـاتت ليلتـها خـارج البـيت، بسـيّارة بيـك آب بيضـاء عليـها رشـاش دوشـكا، ترتـدي لباسـها العسـكري المموّه وتتنـكّب بنـدقيّة كلاشـينكوف فيما تتأرجح جديلتها الذهبيّة يمنة ويسرة خلف ظهرها.

- لا تزعلي يا أمّي. ستعودون سريعًا إن شاء الله.

- ومن قال لك إنّني سأذهب؟ أنا سأبقى في بيت حمِهْ. هو أيضًا سيبقى. وأنت ستذهبين مع والدك.

- الرّفاق يقولون إنّ حربًا عظيمة ستقع! لذلك علينا أن نبقى لندافع عن المدينة.

- فليقع ما سيقع. بستّين جهنّم. ماذا سنخسر بعد؟ لقد تفرّق شملنا بسبب هذه الحرب. أين لَوَنْدْ؟ لا أخبار عنه. أين باران؟ ذهب إلى الرقّة وانقطعت أخباره. أين متين؟ أين خديجة؟ هي في إسطنبول تعدّ العدّة للهجرة إلى أوروبا. أنا عجوز مريضة ولا طاقة لي بالهجرة عبر الحدود. وأنت صغيرة على الحروب. يجب أن تذهبي مع والدك.

ابتسمت رَوْشَنْ في وجه أمّها وقالت بنبرة فرح وكأنّها لم تسمع شكواها:

- اتركي موضوع ذهابي الآن. ثمّة شاب في السيّارة يريد أن يراك. من الضروري أن يراك ويرى أبي.

نبض قلب خانِهْ نبضة قويّة. اشتعل مثل قشّ أصابته شرارة نار. كان زوجها الحاج مسلم يفتّش الغرف غرفة غرفة، ثمّ يخرج ويغلقها خلفه. لم تسأل خانِهْ عن هويّة الشاب الذي ينتظرها، لكنّ نداء خفيًّا جذبها صوب السيّارة، فنهضت بتثاقل واتّكأت على عكّازها، ومشت ببطء إلى الخارج حتّى وصلت إلى السيّارة. وحين حدّقت في داخلها، صرخت بكلّ ألم:

- متيييين.

كان ذاك الشاب ابنها المقاتل متين. لم تصدّق عينيها إلاّ حين نزل متين من السيّارة وجاء يعانقها. تحوّلت خانِهْ إلى غيمة أمطرته بالقبلات، صارت تشمّه، تضمّه، تقبّله. ثمّ التفتت إلى ابنتها رَوْشَنْ التي كانت تكفكف دموعها واحتضنتها أيضًا لتعود مرّة أخرى إلى ابنها متين وتمطره بقبلات أكثر.

خرج الحاج مسلم على وقع ما سمعه من جلبة أمام باب الدّار. رأى زوجته تحتضن شابًا وتقبّله. أوقف درّاجته الناريّة بجانب الباب وسأل رَوْشَنْ:

- من هذا الشاب يا بنتي؟

وقبل أن تجيب رَوْشَنْ عرف الحاج مسلم ابنه متين:

- متييييين.

صرخ الحاج مسلم أيضًا وذهب يحضن ابنه ويقبّله.

كان مشهدًا غريبًا لم يعجب المقاتل متين. «البكاء ضعفٌ لا يليق بالمقاتلين. والارتباط بالأب والأمّ والعائلة ابتعاد عن خطّ الثورة». رنَّت هذه العبارة التي سمعها مئات المرّات أثناء التدريب وتلقّي دروس فلسفة الحزب مثل ناقوس في أذنيه.

بعد تلك الموجة من «الضعف والخور» جلس الثلاثة في ظلّ الجدار وبقي الوالدان يبكيان. قال متين بعد أن زالت عن وجهه ملامح الحزن:

- يا أبي، يا أمّي! ليس الآن وقت البكاء. اليوم يوم الشرف والنّخوة.

- اليوم يوم النزوح والتشرّد أيضًا يا ولدي.

ردّ والده متنهّدًا، مكفكفًا دمعه.

- تعال يا أبي أعرّفك على أحد رفاقي الأبطال.

قال متين وهو يشير إلى السائق. شاب في العشرينيات يمسك المقود وهو يستمع إلى أغنية حماسيّة.

- انزل يا رفيق ياري.

خفض السائق صوت الأغنية، ونزل من البيك آب، واتّجه إليهم.

- هذا هو الرفيق ياري يا أبي. إنّه من جِوانْرُود. كردستان الشرقيّة.

- أهلًا يا بني. أهلًا وسهلًا.

ردّ الحاج مسلم وهو يصافح الشاب الجوانرودي.

* * *

في تلك الأثناء كان أهل الحارة ينزحون في اتّجاه بوّابة مرشد بينار الحدوديّة على الدرّاجات الناريّة والسيّارات ومشيًا. انضمّ إليهم سكان مِكْتَلَة وكانيا عَرَبانْ وحارة صوفيان المتّكئة على سفح مِشْتَنُور متّجهين صوب الغرب. لم يعرف أحد باللّقاء العجيب الذي حصل قبل قليل عند باب دار الحاج مسلم المهاجر.

- يا إلهي إنّه الحشر.

أشار عجوز بعكّازه إلى السماء وهزّه بعصبيّة عدّة مرّات متتالية ملقيًا عليها نظرات حادّة كأنّه يريد كسر صمت تلك القبّة الزرقاء، ثمّ مشى صامتًا خلف قافلة النّازحين.

* * *

انتبه جميع الواقفين أمام بيت الحاج مسلم لصوت محرّك سيّارة حَمِه حين وصل إلى الحارة.

نزل سريعًا ودون أن يسلّم قال:

- سآخذ أمّي إلى بيتي. أنا أيضًا لن أرحل يا أبي. نحن سنبقى.

ردّ أبوه بفرح طفولي:

- كأنّك لم تعرف أخاك؟ هذا متين.

- متين!

اقترب الأخوان وتعانقا.

كانت آخر صورة لمتين في ذهن شقيقه هي صورة ذلك الفتى في الخامسة عشر جالسًا في الحانوت. تمعّن في وجهه وقال بمحبّة:

- مازلت كما كنت. لم تتغيّر.

عانقه مرّة أخرى. تحادثا برهة ثمّ قال حمِهْ:

- أتيتنا في يوم عصيب. ها أنت ترانا مضطربين. على كلّ حال سأبقى في كوباني ونلتقي كثيرًا.

رد أخوه المقاتل بثقة:

- هذا ليس يومًا عصيبًا. لم يحصل شيء. كلّ ما هنالك أن المدنيين سيبتعدون لئلاّ يتعرضوا للأذى. ستعودون قريبًا أنا واثق. أسبوع على الأكثر.

لم يرد حَمِه على أخيه. توجّه بالكلام إلى والده الصامت السعيد وقال:

- هيا يا أبي لم يبق أمامنا وقت كثير. سآخذك مع الأولاد إلى الحدود. وأعود.

- وأنت؟

- لقد قلت سابقًا يا أبي. لن أذهب. سآخذ أمّي إلى البيت. الوضع في حارتنا آمن. نحن في الغرب وقريبون من البوّابة. حتّى لو دخلت داعش المدينة فبإمكاننا عبور البوّابة أو اجتياز الحدود في دقائق.

سألت رَوْشَنْ:

- هل ستقاتل؟

- لا يا رَوْشَنْ. لست أهلًا لذلك. ثمّ لا يجوز أن يكون هناك أربعة مقاتلين من بيت واحد في المعركة في نفس الوقت. هل كوباني ملكنا وحدنا؟ أصلًا نحن مهاجرون.

وأتبع كلامه بقهقهة.

ضحك متين أيضًا ثمّ قال بجديّة:

- لا يوجد اليوم مهاجرون وسكّان أصليّون يا رفيق. كلّ قادر على حمل السّلاح والدفاع هو ابن هذه المدينة. ولو كان الأمر بيدي لمنعت الشباب من ترك المدينة.

أعتقد أن الحزب أخطأ هنا. كان يجب على كلّ الشباب حمل السلاح تمامًا كما يعلن المسلمون الجهاد. كان على الحزب إغلاق الحدود في وجه الشباب.

ردّت رَوْشَنْ:

- لم يهرب كلّ الشباب من المعركة يا رفيق جودي. لا يوجد سلاح كافٍ. هنا المشكلة.

قطع صوت انفجار قذيفة هاون حديث الإخوة فصاح حمِهْ:

- لقد سقطت عند مسجد الشريعة. اُنظروا إلى الدخان.

لم يعد ثمّة مجال للانتظار. أمسك حَمِه بيد أمّه وأخذها إلى سيّارته، ثمّ رمى صررها وحقائبها في صندوق السيّارة وقال لأبيه:

- اركب يا أبي سريعًا. سآخذك إلى البوابة قبل أن يغلقها الأتراك.

- والدراجة الناريّة؟

- أي دراجة يا أبي؟

- درّاجتي الياماها.

- لن يصيبها شيء. خذها إلى داخل المنزل. لننقذ أرواحنا هذا أهم.

- طيب.

قالها الحاج غير راضٍ تمامًا وهو يُدخِل دراجته إلى المنزل.

سُمِع دويٌّ قذيفة أخرى.

ودّع المقاتلان رَوْشَنْ ومتين والديهما وأرادا أن يذهبا بسرعة إلى السائق الجوانرودي. لم تشأ خانِهْ ترك متين. أمسكت برأسه من نافذة السيّارة وصارت تقبّله وتبكي.

- دعي الولد. دعيه فأنت ستبقين في المدينة وترينه كلّ يوم.

قال الحاج بأسى كبير. كان قلبه مع ابنته رَوْشَنْ الصّغيرة. حاول مع رفاق الحزب أن يتركوها لعائلتها فلم يلق منهم إلاّ الصدَّ. قال لهم مرّات عديدة إنّها صغيرة على حمل السلاح وإنّها آخر العنقود ويجب أن تخدم أمّها المريضة. ردّ عليه

رفيق ذو شارب كثّ وصوت خشن بكلام سمعه الحاج مرارًا:

- يا حجّي حين تزوّجون البنات في عمر الرابعة عشرة فهن لسن صغيرات، فقط لحمل السّلاح والقتال بشرف تشعرون بأعمارهن وتحسبونها جيّدًا. ثمّ هل هي الوحيدة التي لها أم مريضة؟ الأم الحقيقيّة هي الوطن يا حجي.

مرّات عديدة ناقش الحاج مسلم ابنته أيضًا في هذا الموضوع، حاول جاهدًا أن يثنيها عن عزمها على القتال فلم يفلح في التأثير فيها، وكثيرًا ما دارت بينهما نقاشات حامية:

- يا بنتي مازلت صغيرة. كلّنا متعلّقون بالوطن لكن للقتال أربابه.

- كلّنا أرباب القتال يا أبي. الوطن في خطر وكلّنا مدعوّون للدفاع عنه. حين يقترب الذئب من القطيع لا يكون الرّاعي وحده هو المسؤول بل كلّ أبناء القرية.

- آه فقط لو أعرف من أين تأتين بهذه الكلمات؟ أين تعلّمت هذه الفلسفة؟

كانت رَوْشَنْ تردّد ما تتعلّمه من خلال الاجتماعات والتدريبات الحزبيّة وتكرّره في البيت. وكان والدها فخورًا بها، لكنّه كان كثير الخوف عليها أيضًا. وفي يوم النزوح الكبير ألمح مرّات كثيرة إلى هذا الموضوع دون جدوى حتّى قال لها ولأخيها المقاتل متين بين الجدّ والمزح:

- طيّب تعالوا أتقاسمكم مع الحزب. نصف لي ونصف للحزب. اتركوا بنتي لي وليكن متين من نصيب الحزب.

ضحك متين وأجاب:

- أنا ملك الحزب سلفًا يا أبي. أتريد أن تمنَّ على الحزب وتعيد إليه ما يملكه أصلًا؟

شعر الحاج مسلم بحريق في روحه. شعر بأنّ صخور البازلت في هضبة مِشْتَنُور وجبل حَلِنْجْ تتساقط على قلبه. فقال بنبرة حزينة وصوت خفيض:

- أعرف أنّكم في النهاية ستسبّبون لي الجلطة. أعرف ذلك تمامًا. هذا القلب لا يتحمّل كلّ هذه الأوجاع.

* * *

ما إن أدار حَمِه مفتاح تشغيل محرّك السيّارة حتّى صاحت أمّه:

- آخخخخ.

- خير يا أمّي؟

سأل حمِهْ.

- نسيت شيئًا.

قالت وهي تنظر برجاء وحزن إلى باب بيتها.

رد زوجها متبرمًا:

- أنت لا تتركين طبيعتك هذه. ستظلّين دائمة النسيان.

لم تأبه لكلامه. نزلت من السيّارة متكئة على عكّازها ومشت بهدوء حتّى دخلت الدّار. سقت على عجل أصص الورد المصفوفة في كلّ مكان، ثمّ سكبت إبريق ماء على شجيرة الليمون وحين انتهت من السقاية دخلت غرفة نومها غير آبهة لما تسمعه من دوي القذائف بعيدًا. اتّجهت إلى صندوق عتيق. فتحته. أخرجت منه صرّة صغيرة ووضعتها تحت إبطها. ثمّ أغلقت الصندوق كما كان وعادت.

استغربت رَوْشَنْ ومتين مثلما استغرب حَمِه من تصرّف خانِهْ. نظروا إلى الصرّة التي تتأبّطها. وحده الحاج مسلم عرف الصرّة فتذكر أيّامه الخوالي. تقافزت الذكريات مثل قطيع غزلان في بريّة خياله: تذكّر حفلة عرسه، اللّحظات الحميمة، شباب خانِهْ. اشتهى أن يعانق زوجته أمام أولاده الثلاثة. لكنّه لم يفعل. خاطب زوجته بحنان بالغ مخفيًا مشاعره الفياضة:

- فلنذهب يا أمّ محمد. تأخّر الوقت.

- فلنذهب يا حاج.

ردّت خانِهْ بأسى طافح فيما استمرت أصوات القذائف تُسمع من بعيد.

لم يفهم الأولاد الثلاثة ما الذي أحضرته أمّهم ولماذا صار والداهما رقيقين ولطيفين فجأة! نادرًا ما كان الحاج مسلم ينادي أمّهم بـ «أم محمد». لكن لم يكن ثمّة مجال للأسئلة والقذائف تنفجر هنا وهناك. أراد كل واحد منهم أن يصل بسرعة إلى مبتغاه.

انطلقت سيّارة حَمِه باتّجاه الغرب، امتزج الغبار الذي أثارته عجلاتها بالغبار الذي أثارته عجلات السيّارة التي استقلّها متين ورَوْشَنْ. نظرت خانِهْ من مرآة السيّارة إلى السيّارة التي استقلّها ولداها، ثمّ أخرجت رأسها من النافذة والتفتت إلى الخلف لتراهما عيانًا.

توجّهت سيّارة حَمِه إلى غرب المدينة وهي تقلُّ زوجين عجوزين، بينما توجّهت السيّارة الأخرى التي يقودها المقاتل الجوانرودي بولديهما صوب الشرق حيث أخطر الجبهات.

غاب منزلهما وراء الغبار.

غابت الحارة.

حَضَرَ الغيابُ.

* * *

تمـعّن الحـاج مسـلم فـي الشـوارع التـي يمـرّ منـها. كلّهـا خاليـة والأبـواب مقفلـة. لا أحـد فـي السـوق. وحـدهم المسـلّحون يـروحون ويجـيئون. تـمزّق قلبـه. شـعر بسـفود محمّى ينفذ من كبده.

فجأة أصابته ما يشبه نوبة جنون. أمسك بمقبض باب السيّارة من الداخل وصرخ:

- والله سأفتح الباب وأقفز من السيّارة.

- لماذا يا أبي؟ خير؟

- أين النّاس؟ لقد فرغت كوباني. يجب أن تأتي خانِهْ معي. يجب أن تأتي.

لم يعرف حَمِه ماذا يفعل! كاد المقود يفلت من بين يديه. حلف لوالده أنّه سيوصله مع أمّه إلى البوابة.

- والأولاد أيضًا.

- وماذا تريد منهم يا أبي؟

- يا بني يبدو أنّ النّاس كلّهم نزحوا. تذكر سنجار وما جرى فيها. بالرغم من وجود آلاف البيشمركة فقد سقطت. إنّ داعش غضب من الله.

- سنجار شيء وكوباني شيء آخر يا أبي.

- يا ابني يا حمه. ذهبت إلى تونس ولم تطعني. ذهبت إلى حلب ولم تطعني وعدت نادمًا من هناك. دع هذا الحمق. خلاص. قلت لك ليأت الأولاد أيضًا. نفذ ولا تعترض بكلمة.

- يا أبي...

- اسكت يا ولد. العمى!

لم يعهد حَمِه والده متشنّجًا إلى تلك الدرجة. كان ما رآه من والده أقرب إلى الجنون من العصبيّة. شاهد الرذاذ المتطاير من فم والده وهو يصرخ. شاهد عينيه الحمراوين الجاحظتين. تسرّب الخوف إلى قلبه وقال في سره:

- ومن يدري! سأطيعه هذه المرّة فربما كان ما يقوله صحيحًا. ربما انكشفت له بعض الأمور. أليس هو مريد الشيخ صالح؟

ثم قال لأبيه بصوت هادئ مليء بنبرة الاعتذار:

- تمام يا أبي. سنذهب كلّنا. ما الذي سأفعله هنا وحيدًا؟

عودة السنونو

- كم توسّعت كوباني يا رفيقة بهار!

- صحيح يا رفيق جودي. لقد توسّعت كثيرًا.

ردّت الرفيقة بهار، أي رَوْشَنْ، على أخيها دون أن تقطع نظراتها عن سيّارة أخيها حمِه. رأت في الغبار الذي أثارته عجلاتها قدر أمّها المريضة وأبيها العجوز. رأت من خلاله آلام كوباني وتشرّد سكانها. حزنت حين تذكّرت أن عيد ميلادها غدًا أي في التاسع من أيلول.

كانت تحتفل بعيد ميلادها مع زميلاتها في المدرسة وتستقبل هداياهنّ، كانت تغنّي معهن وترقص على أنغام الموسيقى والأغاني غافلة عن هموم الدنيا. والآن؟ ها هي آلامُ شعبٍ تشهد ميلادها العسير. حرب قاسية على وشك الولادة. تمنّت أن يكون لديها فسحة من الوقت للاحتفال غدًا بعيد ميلادها مع رفيقات السلاح.

تحوّل قلبها الصغير إلى بركان. اشتعلت فيه نيران حقد ألقي عليه حطبٌ كثير. كيف ترك الشباب كوباني؟ آلاف من الشباب الذين كان بإمكانهم القتال تركوا المدينة بسرعة. لماذا؟ أكلّهم خونة؟ بالتأكيد لا. لماذا لم تستعر نيران مقاومة شعبيّة؟ لماذا سقطت كلّ تلك القرى بتلك السّهولة والسّرعة؟ أربعمائة قرية! أربعمائة قرية تسقط في يومين بيد قوى الظلام وتتمّ محاصرتنا في المدينة؟ لا شكّ أنّ هناك خطأ مّا! لا شكّ.

سألت رَوْشَنْ نفسها وبحثت في الغبار الذي أثارته عجلات سيّارة أخيها عن أجوبة شافية فلم تجد إلاّ الصّمت.

واصلت السيّارة التي تستقلّها مع أخيها المقاتل سيرها إلى حي مِكْتَلَة في الجنوب الشرقي. صدحت آلة التسجيل بأغنية آزادي بأعلى طاقة:

قوافل الحرّيّة تمشي الفتيان والفتيات يتدفقون كالسيول كالمطر والعواصف أحكمت رَوْشَنْ قبضتها الصغيرة على سلاحها صامتة ونظرت إلى الشوارع الخالية في كلّ مكان.

أما أخوها متين فقد غرق في تأمّلات كثيرة. بدت له الشوارع غريبة الملامح. لقد كبرت كوباني خلال تسع سنوات قضّاها بعيدًا عنها. ارتفعت فيها مبانٍ بطوابق عديدة. تغيّرت هضبة مِشْتَنُور إذ زحفت من سفح الهضبة حتّى قمّتها مئات البيوت العشوائيّة. ومع ذلك بقيت الهضبة كما كانت قبلًا، حزينة ترنو إلى كوباني المستلقيّة عند قدميها بصمت.

تذكّر متين جبال الجودي وحَفْتانين وخاكورْكْ وقَنْديل التي عاش فيها في الفترة

الأخيرة. تذكّر رفاق السّلاح الذين ودّعهم وهو يعدهم «إما أن أستشهد أو أعود إليكم مقاتلًا من جديد».

اقتربت السيّارة من الدشم والخنادق التي يتحصّن بها المقاتلون شرقي المدينة. كانت ثمّة نقطة عسكريّة حصينة جنوب كانيا عَرَبان، عند تقاطع الطريق الواصل إلى قرية مِزِرْداود شرقًا مع الطريق الواصل إلى قرية حَلِنْجْ جنوبًا.

توقّفت السيّارة أخيرًا هناك. نزلت رَوْشَنْ والتحقت بالقوّة المدافعة عن المدينة في تلك النقطة وجلّها من المقاتلات. ودّع متين أخته ثمّ صعد إلى السيّارة لتنطلق به إلى هضبة مِشْتَنُور حيث الخندق الذي يتحصّن به هو ورفاقه.

مضت السيّارة تشقّ الصّمت بجانب قصر بوزان بيك المبني بالحجر الأصفر. ذلك القصر الجميل ذي الطابقين الذي بدا كئيبًا صامتًا كأنّه لم يشهد حياة صاخبة.

اهتزّت أشجار السّرو والصنوبر بفعل ريح رخيّة هبت في تلك اللحظة. لاحت تلك الأشجار وكأنّها تهتز ألمًا وحسرة. مرت دراجة ناريّة عليها ثلاثة أشخاص تاركة خلفها سحابة غبار، ثمّ سيّارة يجلس خلفها مدنيّون نازحون بوجوه مكفهرّة يحتضنون أكياسًا بيضاء حشوا فيها ما استطاعوا من أمتعة وثياب وبطانيّات.

انتابته مشاعر عارمة مختلفة، الحزن والفرح، الفخر والندم، البؤس والعزة، الغضب والحقد والحبّ والسّعادة. تذكّر مرّة أخرى سنواته التي قضّاها في الجبال.

في البداية نسي كوباني وانشغل بالتدريب العسكري والتعرف إلى الرفاق الجدد والجغرافيّة الفردوسيّة لكردستان. شعر بنفسه صقرًا في الأعالي يفرد جناحيّة ويملأ رئتيه بأنسام الحرّيّة.

لكن كوباني برزت رويدًا رويدًا مثل زهرة من تحت الثلج. صار يرى في الحلم حارته، بيته، مدرسته وملاعب طفولته. بعد ذلك صار يتذكّرها في يقظته أيضًا. أصبحت كوباني فراشة تحوم حول سراج ذاكرته المتّقدة. لم يشأ، لكونه مقاتلًا، أن يهتمّ بأمر تلك المشاعر كثيرًا: «قوّة المقاتل في طمس مشاعر الضعف»، «الحنين إلى البيت والعائلة ضعفٌ»، «الشرف، الكرامة، والعزة هي هنا في هذه الجبال. أمّا في المدينة فإن الإنسان يفقد خصوصيّته القتاليّة». هذا ما ردّده كثيرًا الكادر الحزبي الذي كان يدرّب متين ومجموعته.

لكنّه لم يستطع نسيان مدينته. لم يستطع أن يصبح مقاتلًا حقًا كما يريده الحزب. قال ذات يوم لرفيقه ياري المقاتل من كردستان الإيرانيّة:

- كوباني ليست تلك المدينة الرائعة يا رفيق ياري. فلا بحر فيها ولا نهر ولا غابات كثيفة. فيها هضبة يتيمة وغابة صغيرة ونبعان جف ماؤهما منذ زمن. مع ذلك أنا أشتاق إليها يا رفيق. أشتاق إليها كما لو أنّها أجمل بقاع الأرض.

حدّثه رفيقه المنحدر من قرية صغيرة تبعد خمسة كيلومترات عن جوانرود بدوره عن ربيع قريته ياري والتي اتّخذ اسمها اسمًا حركيًّا لنفسه مثل أغلب المقاتلين، حدّثه عن كولْباغي ورَوَانْسَر وجوانرود. حدثه عن جبال مكلّلة بالثلج ووديان مغطّاة بالغابات ثمّ قال:

- الجنّة هناك.

بعد أن أوصل ياري رَوْشَنْ إلى مجموعتها، سار بالسيّارة عبر الطريق المتعرّج الوعر إلى قمّة الهضبة حيث يتحصّنون. هناك صعد على الفور صخرة بازلتيّة كبيرة وحدّق شمالًا في السهل المنبسط أمامه. صرخ فجأة:

- هذه جوانرود يا رفيق جودي.

صار يشرح لمتين والمقاتلين الآخرين ألا فرق بين كوباني وجوانرود إلاّ بالجبال الشاهقة التي تحيط بمدينته من ثلاث جهات. ثمّ صرخ وهو يفتح ذراعيه مثل طائر يوشك على الطيران:

- أنا هنا أشعر بالحرّيّة أكثر من أيّ مكان آخر. أنا حرّ. حرّ.

صعد متين إلى جانبه ووقف يشير بيده إلى معالم كوباني ويضع اليد الأخرى على كتف رفيقه:

«تلك التلة شرقي المدينة يسمّونها گرێ كاني «تلة النبع»، سابقًا كان هناك ينبوع ماء دفّاق يجري ويتحول إلى نهر صغير جميل. إلى الشمال من النبع حي مِكْتَلَة، فيما مضى كان قرية منفصلة عن كوباني ومقرًا لأمير البَرازان بوزان بيك. مررنا بقصره وضريحه قبل قليل. الحي الواقع غربي التلة يُسمّى كانيا عَرَبان. لا يوجد فيها عرب لكن في زمن مضى كانت القبائل العربيّة تأتي لسقاية المواشي ورعيها عند هذا النبع، وكانت تلك القبائل تنصب خيامها هناك فعرف النبع بهم. إلى الغرب من كانيا عَرَبانْ تقع حارة سَيْدا. حارتي يعني. وعائلة سَيْدا عائلة وفدت من عامودا قبل سبعين عامًا لنشر التصوّف. إلى الجنوب من حارتنا تقع حارة الشريعة. وهذه الأحياء أسفل مِشْتَنُور تُسمّى حارة صوفيان. إلى الغرب من حارة سَيْدا يقع المخفر. أترى ذينك البرجين الشاهقين! هما برجا المخفر الذي بناه الفرنسيّون. إلى الشمال من المخفر تقع حارة كورتى. غربًا حارة الجمارك والسوق يقع جنوبها. أقصد السوق المركزيّة. هناك حوانيت أبي. وقد هربت من هناك والتحقت بصفوف الگريلا. رويت لك القصّة قبلًا. ذاك البناء على تلك التلة غرب كوباني هو ثانويّة البنين. إلى الشمال الغربي منها حارة كانيا مُرْشدى حيث تقع البوابة الحدوديّة. وما تراه هناك مثل أسطوانات فضيّة عملاقة منتصبة ويرفرف عليها العلم التركي ليست سوى صوامع الحبوب. وهناك، على الطريق المؤديّة إلى حلب حارة بوطان».

حين انتهى متين من شرحه أنزل يده عن كتف رفيقه ورأى أنّ عددًا من المقاتلين تحلّقوا حولهما يستمعون لشرحه. فرح كثيرًا. جاء جميع أعضاء مجموعته من جبال حفتانين قبل أيّام: الرفيق سيروان من بلدة سيد صادق بإقليم كردستان، الرفيق دَشْتي برازي من سُروج، الرفيق ميرخان من أورمية كردستان الشرقيّة ومقاتل كان يمزح قائلًا أنا من كردستان أوروبا فسمّي الرفيق يورو.

مالت شمس ذلك اليوم من أيلول إلى الغروب. بقي المقاتلون جالسين على تلك الصخرة السوداء يتحدّثون. كان متين أسعدهم. قال لرفاقه:

- لقد عدت إلى عشّي. لا يمكنكم أن تتصوّروا كم أنا سعيد. وما يجعل سعادتي مضاعفة هو عودتي مع بندقيتي إلى عشّي. أنا طائر سنونو عدت إلى عش طمعت فيه الثعابين. إنّني فخور إذ سأسجّل معكم صفحة مشرقة من صفحات النضال في تاريخ هذه البلدة.

سُمع صوت انفجار قوي بالقرب من المجموعة.

- انزلوا عن الصخرة أيّها الرفاق. إنّهم يقصفوننا بالهاونات.

صرخ أحد المقاتلين فنزل البقيّة واحتموا بمدفع الدوشكا المنصوب فوق دشمتهم.

الأبواب إذ تبكي

أقف أمام الباب. أشتهي أن أطرقه. قلبي يخفق. قلبي عصفور مرعوب.

الحديد يئنّ. حديد باب بيتنا يبكي. أسمع بكاءه الحزين. أعرف محنة الحديد. أشعر بأوجاع هذا الباب الذي دخلت عبره وخرجت منه آلاف المرّات. إنّه يشكو. خمسة عشر عامًا لم ألمس خلالها حديده. لم أقف أمامه. لم أنظر من شقّ فيه إلى الشارع. خمسة عشر عامًا لم يسألني فيها أحد من خلف الباب: من هناك؟

الآن أقف أمامه مع تلك المشاعر. ألمسه بحنان ولهفة مثل حاج وصل إلى الحجر الأسود. أواسيه. أرمقه بعينين دامعتين. أخاطبه بصوت لا يسمعه سواي:

«اعذرني أيّها الباب الحديد اعذرني أيّها الوفيّ الذي لم يغادر مكانه سمعت مئات الانفجارات ولم تهرب حرست البيت بشجاعة المقاتلين حرست الذكريات وصرت شاهدًا على الدّمار العظيم اعذرني اعذرني على الغياب هأنذا اليوم يغمرني الندم مثل تائب على باب معبد تستبدّ بي رغبة في أن أضع رأسي أمام قدميك اعذرني أيّها الحديد اعذرني على عدم وفائي أيّها الحديد الوفيّ».

أشعر ببرودة دمعتين تنحدران على وجهي. أمسحهما بظاهر أصبعي الإبهام وأضع أذني على الباب.

أسمع صدى الذكريات. تفوح منه رائحة الماضي. إنّه ليس بابًا وحسب. إنّه تاريخ.

حين كنت أعود في أيّام الشتاء من المدرسة جائعًا وأطرق الباب فلا يفتحه أحد. أطرقه من جديد. لا أحد يفتحه. أبدأ بركله بقدمي. طق طق طق. كم مرّة تقشّر دهان الباب حيث كنت أركله!

- إي إي إي. أنا قادمة.

يتناهى إليّ صوت أمّي الحنون من جهة المنزل. وما إن تفتح إحدى فلقتيه حتّى تقول:

- كدت تخلع الباب يا بنيّ.

جئنا بجرس كهربائي نغمته بيانو. لكن لا نحن أصحاب البيت ولا الضيوف ضغطوا على زرّه. ظلّوا يطرقون الباب إمّا بمفتاح أو بعملة معدنيّة، أو بحجر صغير أو باليد.

كان الجرس غريبًا عن ثقافة طرق الأبواب لدينا.

في حارتنا لم يكن أحدٌ يقفل بابه. كانت الأقفال مربوطة بخيط أو سلك يخرج عبر ثقب في الباب إلى الخارج. لم نكن بحاجة إلى الطرق على الأبواب، نسحب

الخيط فينفتح الباب وندخل. في اللّيل كانت الخيوط تُسحب إلى الدّاخل ليتمّ إخراجها مرّة أخرى مع صباح اليوم التّالي.

حين كنا صغارًا، مارسنا شقاوات كثيرة، منها أنّنا اتّخذنا الأبواب أهدافًا سهلة لنا. نحمل في جيوبنا بضعة أحجار صغيرة ونقف في عتمة اللّيل بعيدًا ثمّ نبدأ برجم الباب الضحيّة. تصدر الحجارة إذ تضرب الباب طرقًا يتخيّله أصحاب الدّار ضيفًا أو زائرًا فيفتحون الباب ولا يرون سوى اللّيل وسكونه.

وكم كنّا نفرح حين نجد من يفتح الباب ولا يرى أحدًا يتمتم بوجل:

- هل هم الجنّ؟ لقد سمعت الطرق بأذني.

تهبّ نسمة رقيقة نديّة. لا أعرف أهي نسمة ساعة السحر أم الغروب؟ السّاعة ما تزال تشير إلى الخامسة وأربع عشرة دقيقة. الزمن جبل عملاق لا يتزحزح عن مكانه. تلك النسمة النديّة أيضًا تطرق الباب الحزين أمامي. يئن الحديد الصامت. أنظر إلى بقيّة الأبواب. كلّها تئنّ. كلّ الأبواب تبكي.

وأنا أمام باب بيتنا المدمّر أتردّد. أأدخل أم لا؟ الباب ليس مغلقًا. أعرف أنّ دفعة خفيفة ستفتحه على مصراعيه.

هو ليس بابًا وحسب، إنّه شاهدٌ على تاريخ حافل، أمامه مرَّت حكايات كثيرة، أُغلِق مصراعاه على أسرار كبيرة، سمع أحاديث حبّ وشجارات عائليّة، سمع همس الجارة للجار ونداء الباعة الجوّالين، سمع الأذان وطرب له، انتشى إذ كان يسمع أغاني فيروز في الصباح ومحمد شيخو في المساء وأم كلثوم آخر اللّيل، سمع صوت اليمام المعشّش بين أغصان شجرة الصنوبر، سمع هديل الحمامات ورفرفة أجنحتها وهي تهبط من سطح الغرفة العالية لتذهب إلى أعشاشها في الكوخ الذي بنيته لها في الجنوب الغربي من البيت، سمع زقزقة العصافير وصوت الريح تعبر بين أغصان الأشجار، حفيف الأوراق، خشخشة مكنسة القشّ في يد أمّي أو إحدى أخواتي، رنين الهاون النحاسي إذ تدقّ إحدى أخواتي البهارات، أو صوت إذاعة البي بي سي وهي تبثّ الأخبار في كلّ ساعة.

سمع هذا الباب الصامت نشيج أمّي وضجيج أحفادها وصراخ أبي ونقاشات إخوتي في الأدب والدين والسياسة، أصغى إلى جلبة ماكينة الخياطة إذ تخيط أختي ثياب عرسها، استرقَ السمع إلى صرير قلمي وطقطقة الآلة الكاتبة العتيقة في جنح اللّيل أدوّن أوّل كتاب من كتبي، دخلت من هذا الباب صناديقُ عرس وخرجت منه نعوش موتى غادروا الدّار إلى الأبد.

وأنا غادرته ذات صيف قبل خمسة عشر عامًا إلى الأبد.

إنّه ليس بابًا وحسب، إنّه ليس حديدًا أخرس، إنّه مستودع قصص لم يروها أحد، وآه لو كان لهذا الحديد لسان.

* * *

كان كثير من النّاس يطرقون الباب في عزّ الظهيرة من أيّام الصيف حين كان أبي ينام كعادته في القيلولة، بينما كنت في غرفة الضيوف القريبة من الباب أكتب أو أقرأ. كنت أفتح الباب:

- السّلام عليكم. سَيْدا في البيت؟

- نعم لكنّه نائم.

- هل يمكن أن توقظه؟

أوقظ أبي من قيلولته المقدّسة، فيسألني وهو مايزال مضطجعًا:

- من بالباب؟

أردّ:

- لا أدري.

- يا حمار كم مرّة قلت لك اسأل هويّة من يطرق الباب؟

يقول وينهض غاضبًا، ثمّ يتوجّه إلى الغرفة التي كنت فيها قبل قليل:

- أدخل الضيف. هيّا.

كثيرًا ما كانت الأسئلة الفقهيّة التي يطرحها زوار الظهيرة تتمحور حول الحلال والحرام:

- سَيْدا لقد وقعت هرّة في بئر المنزل. كم دلوًا يجب أن نسحب منها حتّى تتطهّر؟

- سَيْدا هل تقع زكاة على الخضار والفواكه؟ عندنا حقل بطيخ هذه السنة.

- سَيْدا عندنا دجاجة تصيح مثل ديك ماذا نفعل بها؟

- سَيْدا لنا ولد، جعله الله كلبك، لا ينام في اللّيل. نرجو أن تعمل له تعويذة.

كان أبي يحتدّ في كثير من المرّات ويقول: «يا ولد. إن أيقظتني مرّة أخرى من قيلولتي سأقتلع عينيك. ابعث كلّ الزوار إلى المسجد. أيخرج عاقل من بيته في هذا القيظ؟ حتّى الأفاعي تبقى في جحورها. تبًا لهم ولأسئلتهم. وقعت هرّة في بئر؟ أهذا وقت مناسب لهذه الأسئلة؟».

فيما مضى كانت غالبيّة الأبواب خشبًا، أمّا أبواب الأعيان والموسرين فكانت خشبًا مغلفًا بطبقة من المعدن مثبتة إلى الخشب بمئات المسامير فتبدو مثل سماء مزركشة بالنجوم. وكانت

السقاطات إمّا على هيئة يد تحمل كرة أو على هيئة رأس غزال أو سوار من النحاس.

وحين جاء الحديد إلى الميدان واكتسح سوق صناعة الأبواب انتصر على الخشب بسهولة فبدأ الحدّادون تصميم مئات الأبواب وانحسر الخشب حتّى انقرض.

صمم أبي نقوش باب بيتنا بنفسه. قال للحدّاد: «ضع على كلّ فلقةٍ زهرتي نسرين رباعيّة البتلات فوق بعضهما، ثمّ انقش بين الزهرتين في كلّ جهةٍ فلقةَ قمر بثلاثة أشعة وفي الأسفل من كلّ جانب انقش مثالَ هضبتين».

- تمام سَيْدا. على عيني.

قال الحدّاد لأبي.

بعد أيّام وصلت عربة بثلاث عجلات إلى باب بيتنا وعليها بابٌ حديد.

كان الحديد عاريًا تبدو عليه آثار اللّحام، كان حديدًا داكن اللّون، حديدًا حديث الولادة خارجًا من رحم الكور.

- ما هذا الباب؟

سألت أمّي بامتعاض. ضحك والدي. وحين يضحك والدي، وهذا ما يحدث نادرًا، نعرف أنّ سلامًا يعمّ العائلة. ضحك والدي إذن، نظر بحنان إلى أمّي وقال لها:

- يا عزيزة هذا بابٌ حديدٌ. لن يبقى هكذا. سنطليه بالزريقون أوّلًا ثمّ نطليه بالأبيض والأسود.

- وما هو الزريقون يا رجل؟

سألت أمّي ضاحكة. خلّل والدي لحيته بأصابعه وقال:

- الزريقون دهانٌ أساسٌ تُطلى به الأبواب حتّى لا تصدأ.

بعد يومين جفَّ ذلك الأكسيد الأحمر المسمى زريقونًا، حسب ما عرفت عنه فيما بعد خلال دراستي في كليّة العلوم بجامعة حلب، وحان وقت طلاء الباب. سال الطّلاء في بعض الأماكن مثل الدموع. صرت أضغط بإبهامي على تلك «الدموع»، أفصلها عن الطلاء وأجعلها في يدي كالخرز.

تلك كانت دموع الأبواب.

كانت الأبواب تبكي.

الآن أيضًا أنا أمام بابٍ يبكي.

لكنّه يبكي دون دموع.

الآن أنا أمامه. طلاؤه تقشّر في الأسفل فظهر الزريقون الأحمر. أعرف أنّه تيتّم

بعد رحيل أصحابه.

«اعذرني أيّها الحديد».

أتوسّل إليه مرّة أخرى.

قوّة غامضة تدفعني إلى الدّاخل. أدفع الباب. أدفع الفلقة اليمنى، الفلقة الشماليّة.

ينفتح الباب على الخراب.

سِفْر الحدود

توقّفت سيّارة حَمِه عند البوّابة الحدوديّة، فقال الحاج مسلم بدهشة عظيمة:

- يا لطيييف. النّاس كلّهم هنا يا خانِهْ!

السّاحات تغصّ بالنّازحين. نساء كثيرات يحملن على أكتافهن حقائب بيضاء كبيرة ينتظرن اللاّشيء. مئات من الدّراجات الناريّة والعربات ذات الثلاث عجلات وسيّارات البيك آب، وغير ذلك من وسائل النقل واقفة هناك. رجال كثيرون يضعون هواتفهم النقّالة على آذانهم، يتّصلون بأقاربهم في سروج وغيرها على الطرف الآخر من الحدود. كانوا حزينين، مذهولين واقفين أمام بوّابة أغلقتها سلطات الحدود التركيّة في وجههم.

لم يسمح الجنود الأتراك لأحد بعبور البوّابة إلاّ في بعض الحالات الطارئة كالجرحى الذين جيء بهم من القرى البعيدة أمّا البقيّة فقد أجبروا على البحث عن منافذ أخرى يعبرون منها إلى شمال السكّة الحديد. لم يتحرّك ذلك الحشد العظيم سريعًا، بل ظلّ يأمل فتح البوابة حتّى إن عديدين ادّعوا أنّ الحكومة التركيّة ستأتي بحافلات كبيرة لتقلّهم إلى أراضيها. سرد النّاس أمانيهم كما لو أنّها حقائق ستقع قريبًا.

خلعت خانِهْ حذاءها البلاستيكيّ وألقت عكّازها بجانبها، ثمّ جلست في ظلّ شجرة يتيمة هناك، مدَّت قدميها وصارت تئن وتشكو: «أستغفرك ربّي سأقول فلا تؤاخذني. لم فعلت بنا ما فعلت؟ خرَّبت أعشاشنا وفرّقتنا. أي ذنب اقترفناه؟ ألا تشفق علينا، ألا ترأف بنا؟ نحن عبادك يا ربّ. أتغلق الأبواب في وجوهنا؟ ماذا فعلنا لك؟ فرّقتنا في هذه القفار وأبعدتنا عن بيوتنا. ألا فلتشتّت شمل الذين شتّتوا شملنا».

لم يسمع الحاج مسلم مراثي زوجته. كان يتجوّل بين النّاس باحثًا عن أصدقائه ومعارفه. التقى كثيرين منهم ودارت أحاديث متشعبّة فيما بينهم:

- ما الذي جرى؟ لم نحسب حساب هذا قطّ.

- إنّها الحرب وعلينا توقّع كلّ شيء.

- صدقني لم أغلق حانوتي وهربت.

- لاا!

- هل ستحتلّ داعش كوباني؟

- مستحيل.

- لماذا لا تدعمنا قوات البيشمركة؟

- هم بعيدون عنّا يا أخي. ثمّ إنّ الأتراك لا يسمحون بعبورهم إلينا.

- هل سنعود قريبًا؟

- أسبوع كأقصى احتمال. ما هي داعش! سيتمّ طردهم بهمّة شبابنا.

- لكن لا توجد أسلحة ثقيلة لدى شبابنا.

- أيّ حظ تعيس لنا نحن أهل كوباني! محاصرون نحن. داعش تهاجم من ثلاث جهات وفي الشمال يترصّدنا هؤلاء الأتراك.

- طيب أين الگريلا، أين البيشمركة؟ أين ذهب مقاتلونا؟

- الأكراد مثل خبز الذّرة لا يتماسكون. والله العظيم لولا ذلك لكان البيشمركة الآن بالآلاف داخل كوباني.

في تلك الأثناء بحث حَمِه عن أبيه بين الجموع حتّى لقيه فقال له:

- يا أبي نحن ننتظر منذ ثلاث ساعات. تعال نذهب إلى جهة قرية تل شعير. النّاس كلّهم يعبرون الحدود من هناك.

- فلنصبر قليلًا يا بني.

- المشكلة أنّ الأولاد جاعوا وعطشوا يا أبي.

قالت خانِهْ وهي تصغي إلى حديث ولدها وزوجها القادمين من بين الجموع:

- فلتذهب يا حَمِه إلى السّوق ولتأتنا بطعام نأكله. أكاد أموت من الجوع أنا أيضًا.

ضحك الحاج مسلم ونظر إلى زوجته الجالسة في ظلّ الشجرة بحنان. مشى إليها وجلس بجانبها وهو يقول:

- وهل بقيت سوق يا خانِهْ؟ لقد فرغت المدينة تمامًا. لم يبق فيها أحد.

- طيّب فلنذهب مثل غيرنا إلى تلّ شعير؟ ماذا سنفعل أمام هذه البوّابة المغلقة؟

كانت عيشه زوجة حَمِه واقفة هناك مصفرّة الوجه تمسك بيديْ ولديها سيامند وزوزان، وفجأة تركتهما وابتعدت بضع خطوات لتتقيّأ. ركض زوجها إليها وأخذ ولديها وصار ينتظر زوجته حتّى توقفت عن التقيّؤ.

صاح الحاج مسلم على كنته:

- تعالي يا ابنتي واستريحي في الظلّ. أنت واقفة طوال الوقت في الشمس!

مدّت خانِهْ يدها إلى عصاها ومالت على أذن زوجها هامسة:

- عيشه حامل في شهرها الثالث يا حاج. إنّها ليست مريضة. اطمئن.

مالت الشمس إلى الغروب ويئس النّاس من فتح البوابة. أراد بعضهم العودة إلى

البلدة، لكنّهم جوبهوا بآخرين يقولون لهم: العاقل لا يرمي نفسه في النار بعد أن ينجو منها.

لم تسمح السلطات التركيّة بدخول أحد سوى بعض المرضى والعُجَّز والجرحى. وحتّى في نقاط التجمّع الأخرى بعيدًا عن البوابة اجتمعت حشود الفارّين من الحرب دون أن تسمح لهم تلك السّلطات بالعبور. ثمّ لما جاء مراسلو وكالات الأنباء العالميّة وأصبح موضوع العالقين على الحدود حديث السّاعة في الإعلام العالمي، وانفجرت الألغام ببعض من أصروا على العبور تهريبًا، سمحت تركيا بعبور النّاس.

* * *

أمسك حَمِه بيدي ولديه وانتظر زوجته حتّى تتعافى قليلًا. تحسنّت عَيْشه بعد أن ثقبت ليمونة أحضرتها معها من البيت وعصرتها في فمها لدفع الغثيان. أما خانِهْ فقد بقيت تراقب الجموع الحائرة مادّة رجليها المنهكتين أمامها مستمرّة في مراثيها: «قلبي يتوجّع، يئن، كثير الآلام قلبي في هذا اليوم. أين ابنتي خديجة؟ أين لَوَنْدْ؟ أين باران؟ أي زمن نعَيْشه؟ أيّ حالة نمرّ بها؟ لقد كثرت أوجاعي في هذه الدنيا القاسية الفانية».

لم يكن أحد يسمع شكواها. كانت ترثي نفسها وتصغي لنفسها وتئنّ، تمسح دموعها وتتأمّل ما يجري في حيرة لانهائيّة. ضاع صوتها بين أصوات الحشود النازحة التي خالطها صياحُ الجنود الأتراك.

في هذه الأثناء رنَّ هاتف حَمِه. لم يشأ أن يجيب لكن قوّة غامضة دفعت يده إلى جيبه فأخرج الهاتف وأصغى إلى الصّوت:

- ألو. مين؟

- حَمِه هذه أنا. أنا خديجة. أحبّ أن أتكلّم مع أبي وأمّي.

- وهل هذا وقت مكالمتك يا أختي؟ لقد انقلبت الدنيا هنا. أهل كوباني خرجوا عن بكرة أبيهم من المدينة. حاولي الاتّصال مرّة أخرى.

- سمعت يا حَمِه سمعت. سمعت كلّ شي. لذلك أتّصل بكم. طيب لا بأس. سنغادر إسطنبول بعد قليل. إنّني أخاف يا أخي. أخاف كثيرًا. على كلّ حال سلم لي على أبي وأمّي. أفديكم بروحي. ادعوا لنا. إبرام بجانبي هو أيضًا يسلّم عليكم. حين نصل إلى البر اليوناني سنتّصل بكم.

يئس الحاج مسلم من عبور بوابة مرشد بينار، فقال بنبرة كلّها انكسار دون أن يهتمّ لأمر المكالمة:

- فلنذهب يا بني. أمرنا لله.

أعاد حَمِه الهاتف إلى جيبه ثمّ نادى زوجته بصوت جاف:

- عَيْشه اذهبي وضعي الأولاد في مؤخّرة السيّارة واركبي معهم. سنغادر إلى تل شعير.

جلست عَيْشه مع ولديها في الخلف بين الحقائب والأكياس بينما صعد الحاج مسلم وزوجته إلى مقدمة السيّارة التي انطلقت بهم غربًا.

قريبًا من قرية تل شعير اجتمع الآلاف من النّازحين. تكرّرت الصورة التي شهدتها البوابة الحدوديّة طيلة النهار: الأكياس البيضاء المحشوة بالثياب والبطانيات، الحقائب التي يجلس عليها النّاس أو يمسكونها في أحضانهم أو على أكتافهم، الأطفال على أكتاف ذويهم أو في أحضان أمّهاتهم، يبكون، يصرخون، نساء يرفعن أصواتهن بالعويل باحثات عن أولادهن الصغار. عبارة واحدة كان يردّدها كلّ من يلتقي بآخر: انخرب بيتنا، تشتت شملنا.

في كوباني كان الدعاء الأكثر قسوة أن يقول أحدهم للآخر: فليتشتت شملك[18].

لم يقدر أصحاب السيّارات والدراجات الناريّة أن يعبروا بها فتركها الكثيرون وراءهم على الحدود وهم يمنون النفس بعودة سريعة. وجعل بعضهم من سيّاراتهم سكنًا مؤقتًا يستظلون بها وينامون فيها ممنين النفس بعبور وشيك إلى الجهة الأخرى من الحدود أو عودة إلى كوباني بعد انقشاع غيمة داعش.

احتدّ الحاج مسلم بعد أن رأى أن السيّارة أصبحت عبئًا وأنّه لا بدّ من تركها في حالة العبور إلى الجهة الأخرى فقال لابنه: «كيف يترك المرء سيّارته في العراء ويمشي؟»، رد حَمِه أيضًا بعصبيّة: «وماذا أفعل يعني؟ أحملها على ظهري وأعبر بها الحدود مثلًا؟». رد أبوه: «خذ السيّارة واركنها عند باب البيت ثمّ عد».

ارتفع صوت خانِهْ التي كانت مع مجموعة من النّسوة يندبن حظهن: «أكاد أموت جوعًا يا حاج. لا أستطيع أن أمشي ولا تستطيعون حملي على ظهوركم. الأفضل لي أن أعود. ربما سمحوا غدًا للسيّارات أيضًا بالعبور. والله أكاد أموت جوعًا وعطشًا».

بقي الأب والابن يتشاوران لحظات، ثمّ رأوا أنّه من الأفضل أن يعود حَمِه بأمّه إلى المدينة، ثمّ يعود غدًا صباحًا فلعلّ الحدود تُفتح أمام السيّارات أيضًا.

* * *

حين بدأ النزوح عرفت عَيْشه بغريزة الأمومة أنّ الخراب قادم إلى كوباني، فأرادت أن تنجو بأولادها. أحسّت بأنّ القادم طوفان أسود، كارثة لا سابقة لها، نار عمياء ولا بدّ من الابتعاد عن طريقها بأسرع وقت.

لم تنتظر عودة زوجها من بيت أبيه. خرجت مع جاراتها بعد أن حملت بعض الثياب في صرة كبيرة ومشت في اتّجاه الحدود. في الطريق إلى البوّابة وقفت امرأة من نساء الحزب تشتم النّاس الهاربين بأرواحهم وتسبّهم وتعيرهم بالجبن والتخاذل. حين وصلت عَيْشه قريبًا منها تلقت على وجهها بصقة من تلك المرأة التي كان الزبد يتطاير من فمها وعيناها تقدحان بشرر الجنون:

- تفو عليكم يا متخاذلين. تذهبون إلى تركيا ليحتضنكم الأتراك! يا عديمي النّاموس.

- بل أنت عديمة النّاموس والعقل أيضًا. النّاس تفرّ بأرواحها وأرواح أبنائها.

ردّت عَيْشه وهي تمسح بكم ثوبها ما على وجهها من بصاق.

تقدّمت المرأة كالثور الهائج ودفعت عَيْشه دفعة قويّة. سقطت زوزان التي كانت ممسكة بثوب أمّها على الأرض وصارت تبكي. أنهضتها عَيْشه ومضت وهي تحثّها وأخاها على الإسراع في المشي.

كان أبوها وأمّها وإخوتها كلّهم سبقوها وعبروا الحدود. لم يعد أحد يسأل عن أحد. أصبح الكلّ يقول في سره نفسي نفسي كما في يوم الحشر.

على الحدود سردت عَيْشه لزوجها ما جرى لها مع تلك المرأة فرد ضاحكًا:

- صدّقيني هذه ستسبقك إلى سروج.

ثم أخذ ولديه في حضنه، قبّلهما وقال لهما:

- كونا عاقلين. إيّاكما أن تزعجا جدّكما في الطريق. سآتي غدًا.

نظر سيامند بحزن إلى والده. عرف حَمِه من نظرات عينيه أن لديه سؤالًا لكنّه كالعادة يخجل أو يتهيّب من طرحه فانحنى عليه وقال له بمحبّة:

- خيرًا يا ولدي؟ هل تريد شيئًا؟

لمعت عينا سيامند من الفرح وقال:

- أريد كُرَتي الملوّنة يا بابا. وأيضًا دمية زوزان.

- طيّب يا بني سأحضرهما معي غدًا.

ردّ حَمِه وهو يداعب شعر ولده ثمّ غرق في بحر حزن عميق لم يخرجه من بين لججه سوى صوت أبيه ينادي:

- هيّا اذهب يا بني. لا تنس أن تعود مع أمّك غدًا في الصّباح الباكر.

قال الحاج مسلم ذلك ثمّ غادر مع كنّته وحفيديه وعبروا الحدود.

أتبع حَمِه زوجته بنظرات محبّة، شعر للمرّة الأولى بأنّه يحبّها ويشفق عليها، أراد أن يواسيها، هو الذي بخل عليها طوال سنين زواجهما بكلمتين حلويين،

لكنّها غابت مع ولديها بين أمواج ذلك الطوفان البشري.

لحظةَ اجتازت عَيْشه الحدودَ حانت منها التفاتة عجلى فرأت زوجها بين الحشد الهارب، ولوّحت له بيدها. كان حَمِه مشغولًا بأمّه فلم يرها. أخذ بيد أمّه المنهكة وساعدها على النهوض والمشي حتّى بلغ بها السيّارة. ثمّ ساعدها حتّى صعدت إلى جانبه وسار بها إلى بيته القريب من جامع الحاج رشاد إلى الشمال الغربي من حارة سَيْدا.

وجد حارته أكثر صمتًا من مقبرة.

مثل جدار ينقضُّ

أدفع باب البيت فلا أرى سوى الخراب.

لا تكاد تمرّ ثانية حتّى تسودّ الدنيا أمام ناظري وكأنّ أحدًا ألقى حجابًا كثيفًا على عيني. أشعر بأنّني أخوض لجّة بحيرة من القطران. يأخذني خيالي رويدًا رويدًا إلى الأيّام الأولى من النزوح الكبير. تنبسط أمامي تلك الصّور المؤلمة القاسية الواخزة للروح، صور النّازحين والهاربين، صور عائلتي تفترش العراء أمام كومة من الحقائب والأكياس، أتذكّر المكالمات التي أجريتها مع الأصدقاء والأهل والمعارف والشكاوى التي سمعتها منهم.

وكما لو أنّني دخلت عبر ذلك الباب الأبلق إلى كهف الذكريات، هكذا تنبسط أمامي الصّور والأحداث بتفاصيلها الصغيرة.

- ألا تستطيعون فعل شيء لأجلنا في أوروبا؟

سمعت عبر الهاتف صوت صديق تخنقه العبرات يقول لي تلك الجملة، بدا جليًّا أن صوته قادم من حلق جاف، وحنجرة غاضبة. أجبته بنبرة خالية من أيّ أمل:

- وماذا سأفعل أنا المسكين! أنا لا أمثل حزبًا ولا منظّمة ولا أيّ قوة سياسيّة ولا حتّى جمعيّة.

- لكنّك كاتب وكلامك مسموع. جدوا لنا حلًاّ يا أخي. النّاس في خطر.

لم أعد أهنأ بنومي. صرت لا أنام إلاّ بشقّ الأنفس وإذا نمت تناهبتني الكوابيس. بمن سأتّصل؟ وإلى أيّ منظّمة أتّجه؟ أي باب يجب أن أطرق؟ ثمّ ما الذي ستفعله المنظّمات؟ ها قد مضت ثلاث سنوات على الحرب المدمّرة في سوريا فماذا فعل العالم لإنهائها؟ الملايين نزحوا، تشرّدوا، قتلوا، جرحوا، اعتقلوا، ماتوا تحت التعذيب في الأقبية وقتلًا بالرّصاص في وضح النهار في الشوارع. الأمم المتحدة ومجلس الأمن عجزوا عن إيجاد حلّ فهل سأجده أنا؟

ومع أنّ نسبة أملي في إمكانيّة الحصول على جهة تساعد النّازحين في محنتهم كانت صفرًا في المائة إلاّ أنني حاولت.

أجريتُ اتّصالات كثيرة مع هذا وذاك حتّى أوصلني رئيس حزب سياسي إلى موظّفة تعمل في وزارة الخارجيّة الألمانيّة هي السيدة ك. ل.

أجريت اتّصالات كثيفة مع السيدة ك. ل، أرسلت إليها رسائل نصيّة هاتفيّة قصيرة، رسائل فيسبوك، اتّصالات تلفونيّة، نقلت إليها ما يجري على أرض الواقع، نقلت إليها محنة النّازحين وما يحتاجونه. كم عددهم، كم عدد العالقين

على الحدود، ما هي احتياجاتهم الأساسيّة:

- سيدة ك. ل!

إنّ أهمّ ما يحتاجه النّاس الآن هي البطانيّات والأغطية وحليب الأطفال. على الصليب الأحمر ومنظّمات الإغاثة الأخرى أن تراعي هذه النقطة جيّدًا.

قلت لها مساء في مكالمة تلفونيّة، بعد أن أرسلت إليها صور النّزوح الكبير، صور النّازحين العالقين على الحدود والهائمين على وجوههم في شوارع سروج والنائمين في ساحاتها وعلى أرصفتها وفي حدائقها ومساجدها وباحات مدارسها.

أرسلت إليها بعد ذلك رسائل مستعجلة:

السيدة ك. ل. تحيّة أرسل إليكم رابطًا يصوّر هجوم قوات داعش على قرى كوباني أعتذر عن بشاعة الصور.

ج. د 2014 .9 .20

السيّدة ك. ل المحترمة:

يفيد الناشطون والنازحون أنّ نقطة العبور في شرقي كوباني (عين العرب) ما تزال فيها ألغام بشريّة انفجرت على بعض النّازحين ممن عبروا الحدود وأدّت إلى قطع أيدي وأرجل بعضهم، وبعض الجرحى في مستشفى أورفة. نرجو التعامل مع هذا الوضع وإخبار الحكومة التركيّة بتنظيم حركة النزوح، فالأهالي لا يعرفون خرائط الألغام، ولكم الشكر الجزيل.

ج. د 2014 .9 .21

تحيّة طيّبة:

الوضع الإنساني كارثي جداً، والجديد أنّ هناك أكثر من ألف شخص داخل المدينة عالقون على الحدود التركيّة مقابل حيّ (كانيا عَرَبانْ) في الشرق، يريدون العبور إلى تركيا. ومن المتوقّع أن تقتحم قوّات التنظيم المتطرّف داعش كوباني خلال اليومين القادمين، وترتكب مجازر بحقّ من تبقى من المدنيين. نرجو فعل أيّ شيء مع الحكومة التركيّة للسماح للمدنيّين بالخروج الآمن. فالمعلومات تشير إلى أن تركيا أغلقت حدودها نهائياً في وجه من يريد الخروج. نشكر اهتمامكم.

ج. د 2014 .10 .2

في المقابل كان أقربائي وأهلي يُجْهِزون عليّ بالصور التي يبعثونها. أرسلوا إليّ عبر الفيسبوك صور مفاتيح بيوتهم التي تركوها، صور أبوابهم التي لن يطرقها بعدهم أحد كما كتبوا، صور الأطفال وهم يبكون. صورهم وهم جالسون على حقائبهم وصررهم المعقودة على عجل.

وكنت أنا الطائر الذي يسعى إلى صيّاده. أبحث هنا وهناك في زوايا الإنترنيت عن صورة قاسية أو مشهد مؤلم. كنت أريد أن أعذّب نفسي. لماذا؟ أنا أيضًا لا أعرف.

ربما كان ذلك نوعًا من المازوخيّة. وربما كان نوعًا من التّضامن مع أولئك الذين يتألّمون هناك. إنّهم هناك هائمون، احترقت أعشاشهم، تركوا ديارهم وما عليَّ إلاّ أن أتألّم لأجلهم وأشاطرهم العذاب على الأقلّ. ما عليّ إلاّ أن أتتبّع خطاهم وأعلم أين وصلوا في رحلة نزوحهم. لكن لم يكونوا شخصًا ولا شخصين ولا حتّى عشرة أشخاص. كلّ العائلة نزحت: الأعمام وزوجاتهم وأبناؤهم وبناتهم والعمّات وأبناؤهنّ وبناتهنّ والإخوة وأبناؤهم وبناتهم والأخوات وأبناؤهنّ وبناتهنّ والجيران الأقربون أيضًا. قرّرت بيني وبين نفسي أن أذهب إليهم:

- سأسافر إلى سروج.

لكن ذهب كلّ واحد من أهلي في اتجاه. بعضهم وصل إلى ماردين وقزل تبه، بعضهم استقرّ في نصيبين وباطمان وبعضهم في ميرسين وعنتاب، وبعضهم وصل حتّى أربيل وإسطنبول فكيف سألتحق بهم وأين سأراهم؟

بقيت ولم أذهب.

بقيت واجتررت همومي في خلواتي. وهمومي لم تكن لتنتهي في تلك الأيّام لا بالاجترار ولا بغيره. كانت نيرانًا شبّت في كياني، جرحًا غائرًا أحاط بروحي مثل نبتة الحامول.

- على هذا البعد أحترق بتلك النيران، فما حال من يعيش وسط لهيبها؟

أسأل نفسي وأشعر بأنّ دخان حرائق الرّوح يتصاعد من رأسي.

رويدًا رويدًا تتّضح الصور أمام عيني.

أرى كلّ الأشياء التي أمامي الآن. أرى الخراب. أرى الأطلال والدمار والحجارة المتناثرة. أرى الجدران المتهالكة المتهدّمة. أرى نفسي أيضًا مثل جدار متهدّم من جدران بيتنا.

على بعد 500 كم

- أين أنتم يا أخي؟ منذ يومين وأنا أحاول الاتّصال بكم فلا تجيبون.

جاء صوت لَوَنْدْ البيشمركة من الجهة الأخرى مرعوبًا.

- تبهدلنا يا لَوَنْدْ. انقلبت الدنيا على رأسنا هنا.

- سمعت سمعت. لذلك أردت أن أطمئنّ عليكم. أين أنتم الآن؟

- أنا وأمّي في كوباني في بيتنا. أمّي مريضة ولم تستطع أن تعبر الحدود مشيًا، فجئنا إلى كوباني على أمل المحاولة بعد ذلك، لكنّنا لم نعد نستطيع العبور مرّة أخرى. أمّا أبي وعَيْشه والأولاد فقد عبروا الحدود بسلام وذهبوا إلى سروج.

- ورَوْشَنْ؟

- ألا تعرف؟ بقيت في صفوف المقاتلين.

- هممم. عنيدة.

- أتعرف أنّ متين أيضًا هنا؟

- لا؟ قل والله.

- والله العظيم. لقد عاد إلى كوباني مع مجموعة من الگريلا.

- ليتني كنت هناك أيضًا. طيّب يا أخي. أردت فقط أن أطمئنّ على أحوالكم. سلّم على أمّي. سلّم على رَوْشَنْ ومتين إن رأيتهما. إن شاء الله خير.

- لا خير ولا بطّيخ! مع السّلامة على كلّ حال. انتبه لنفسك.

عرف لَوَنْدْ من الأخبار أن كوباني تتعرّض لهجمة شرسة، فندم على تركها والتحاقه بقوّات البيشمركة في إقليم كردستان. قال لنفسه:

- حتّى لو لم يسمح الآبوجيّة بذلك لحملت بندقيّة وقاتلت داعش. ليست كوباني ملكًا للآبوجيّة.

ضاق ذرعًا بكونه بعيدًا عن مدينته التي أحبّها، صار قلقًا كنجم داهمه نور الفجر. حاول رفاقه أن يواسوه فأجابهم:

- هذه كوباني يا ناس. كان المفروض أن أذود عنها اليوم بسلاحي فوق هضبة مِشْتَنُور.

صار كلّما اتّصل بأخيه حمه، واساه الأخير قائلًا:

- لا تزعل يا أخي. عندنا أبطال سيحرقون داعش والذي أرسل داعش إلى ديارنا. وهل كوباني مزحة؟

لكنّ الحقيقة أنّ المهاجمين احتلّوا المدينة شارعًا بعد شارع. لقد قدّموا من الشرق عبر قرية مِزِرْداود ومِكْتَلة، ومن الجنوب عبر هضبة مِشْتَنُور وطريق حلب حتّى ضاق الخناق على المدافعين عن المدينة وحوصروا في بقعة صغيرة في جهة الغرب.

- ألووووو.

حاول لَوَنْدْ أن يتّصل بأخيه في كوباني من جديد فلم يفلح.

- لا شكّ أنّه هرب أيضًا.

فكّر لَوَنْدْ. ثمّ غضب وخاطب رفاقه:

- ما نفعنا نحن البيشمركة هنا؟ لماذا تلقّينا التدريبات؟ ألا يوجد أحد يخبر القائد بضرورة إرسالنا إلى كوباني؟

ضرب بندقيته بقبضة يده وخاطبها هي أيضًا:

- عصا الرعيان أفضل منك. لا نفع فيك. رَوْشَنْ تقاتل وأنا هنا أحملك بلا سبب.

اتّصل بأبيه فإذا به يكاد يختنق من الغيظ. لم يعد الحاج مسلم المعروف بتقواه وورعه. تحول إلى إنسان يشتم بأقذع الألفاظ. شك لَوَنْدْ في أمره وهذا التّغيّر الذي طرأ عليه:

- هل جنّ أبي؟

ذات مرّة بدأ أبوه يشكو بلا توقّف: «هل يُطاق هذا يا ولدي؟ لم يبق حولي سوى أولاد أخيك حَمِه. علق أخوك مع أمّك في داخل كوباني. باران، لا أعرف أهو في الرقّة أم في مكان آخر. هذا الصّعلوك لم يكلّف نفسه حتّى عناء اتّصال يخبرنا به أين يقيم. رَوْشَنْ أصبحت مقاتلة. قامتها أقصر من قامة نبتة برّيّة لكنّها تحمل بندقيّة أطول من أبيها. أليس هذا آخر الزمان؟ يأخذون بناتنا للحرب ولا نستطيع فعل شيء. أما متين فقد عاد فجأة بعد سنوات الغياب الطويلة، ولكنّنا لم نلتقِ به سوى عشر دقائق فقط. لم يظهر على هذا السافل أدنى درجات الشوق إلينا. أهذه ذرّيّة يا لَوَنْدْ؟ وأنت؟ أنت هربت إلى العراق لتحثو الروث على رأسك. أيرك في حظّي. لقد..».

«يا أبي..» حاول لَوَنْدْ أن يقاطعه حين رآه يشتم على غير عادته لكنّ الحاج مسلم لم يعطه فرصة وواصل: «اسكت أنت الآخر. لقد جعلتم أحشائي تتعفّن. دعني أكمل كلامي. لقد تشرّدنا ونحن في حالة يرثى لها. النّاس في سروج فعلوا ما يستطيعون لأجلنا. لكن ما الذي سيفعلونه بعد؟ الذين نزحوا إلى المدينة ليسوا ألفًا أو ألفين وحسب. كلّ أهل كوباني صاروا الآن هنا. تمامًا مثلما يفرغ المرء كيس حنطة على الأرض. النّاس ينامون في الأزقّة، في الحدائق، في المساجد، في العراء، وبين الحقول والبساتين. ظننّا أنّ الأمر

سيستغرق يومًا أو يومين وقلنا لا بأس سنتحمل. الآن نحن هنا منذ ثلاثة أسابيع ولم يظهر في الأفق أي حلٍّ خراء. والله لو كان في رأسي عقل لما خرجت. لو حملت بندقيّة وقاتلت فاستشهدت لكان أفضل لي من هذا البؤس والذلّة. الموت أفضل والله. لقد بقي كلّ ما نملكه هناك في كوباني. حتّى البضاعة في المحلاّت! لقد خرجنا على عجل ولا أدري ماذا فعلنا بالمفاتيح. ستنهب داعش محلاّتنا بلا شك ولن تبقي لنا شيئًا».

- أليست المفاتيح مع أمّي؟

- لا مفاتيح ولا خراء. كلّها هنا عند عيشه.

- طيب يا أبي. طوّل بالك. كلّنا مقهورون. ماذا نفعل؟ ألا يقولون إنّ النهب العام في القبيلة مثل العرس؟[19] - النهب العام مثل فرج الأتان.

وتعرف تضرب الأمثال أيضًا! هيا دعني الآن. لا طاقة لي بسماع الترّهات. مع السلامة يا بيشمركة أفندي.

لم يعهد لَوَنْدْ أباه على تلك العصبيّة والنزق والغضب. صحيح أنّه كان في الأصل عصبيًّا، لكن ليس إلى درجة أن يشتم بألفاظ فاحشة. بدا أنّه مضطرب جدًّا حتّى إنه أقفل الخطّ في وجه ابنه تاركًا إيّاه حائرًا.

- على أساس أنّه من مريدي الشيخ صالح، وهو حاج وجار لمسجد سَيْدا. لم يتفوّه في حياته كلّها بكلمة نابية. ترى ما الذي جرى له؟

قال لَوَنْدْ المتمترس خلف رابية في إحدى جبهات القتال قريبًا من سنجار لأحد رفاقه. ردّ عليه رفيقه القادم من بلدة عامودا:

- جميع الختايرية هكذا. يصيبهم الخرف عند التقدّم في السّنّ.

- لا لا. أنا أعرف أبي جيّدًا. لا يصيبه الخرف بسهولة.

- ربما جُنَّ شوقًا إلى أمّك يا لَوَنْدْ!

- لا أعرف.

ازداد وضع أبيه سوءًا يومًا بعد يوم. صار ما إن يتّصل لَوَنْدْ حتّى يبادره بالقول: «أن-يك هذا الوضع». لم يعد لَوَنْدْ يتّصل به ويطمئن عليه. صار يقرأ من شاشة هاتفه النقّال عن مدينته التي صارت الخبر الأوّل في جميع وكالات الأنباء. يتألّم حين يسمع أحاديث تتعلّق بعدم مشاركة البيشمركة في القتال:

- لماذا لا يذهبون؟ أليست فيهم ذرّة شرف؟

- لا يفسحون المجال لهم.

- الأتراك لا يسمحون.

- اليوم يومهم. إن لم يذهبوا اليوم لمؤازرة المقاومين في كوباني فمتى سيذهبون!

أخيرًا تمّ اتخاذ القرار الذي انتظره الجميع: مائة وخمسون عنصرًا من البيشمركة سيتوجّهون إلى كوباني عبر تركيا للمشاركة في القتال.

- أريد أن أشارك أنا أيضًا.

قال لَوَنْدْ لقائد قطعته بنبرة مليئة بالتوسّل والرجاء، ثمّ أضاف:

- أنا من كوباني. أعرفها كما أعرف راحة يدي. سأنفع في القتال أكثر من أيّ عنصر آخر.

ردّ عليه قائده:

- القرار ليس في يدي يا لَوَنْدْ. رئيس الإقليم هو الذي قرّر بالاتفاق مع وحدات حماية الشعب إرسال مائة وخمسين عنصرًا كقوّة إسناد مدفعيّة. المشاة لا يمكنهم الذهاب إلى هناك. أي أنّك لن تذهب يا لَوَنْدْ. لن تذهب.

غضب لَوَنْدْ. جنّ حين لم يأذنوا له بالذهاب للدفاع عن مدينته. كانت الحياة قد علّمته أنّ على المرء إما أن يصبح جمرة متّقدة أو أن يكون قطعة فحم تعد بالاشتعال، أمّا الرماد فهو الموت بعينه.

* * *

وصلت قوات البيشمركة إلى كوباني بعد رحلة ماراتونيّة عبر المدن الكرديّة في تركيا.

وضعت تلك القوات نقطة طبيّة غربي المدينة وثبّتت المدافع الثقيلة، بينما صارت طائرات التحالف تقصف عناصر داعش التي دخلت كوباني وتحصّنت في أحيائها.

في الجهة الأخرى، وعلى بعد 500 كم من كوباني شرقًا تمّ اتّخاذ قرار تحرير سنجار وقراها. أصرّت قوات البيشمركة بعد تحطّم معنوياتها عقب احتلال سنجار وتشريد سكّانها واسترقاق آلاف النساء من قبل داعش، على إعادة اعتبارها وردّ كرامتها المهدورة.

كان بين قِوات البيشمركة تلك قوة خاصّة تسمّى بيشمركة روجافا أو لَشْكَري روج (جنود الشمس) وجُلُّ منتسبيها من أكراد سوريا الذين أبلوا بلاء حسنًا في معارك زُمَّار وخارَزْ وسد الموصل وغيرها من الجبهات.

توجّهت مجموعة لَوَنْدْ من بيشمركة روجافا إلى جبهة قريبة من سنجار، فطاب نفسًا بأنّه سيشارك في تحريرها بعد أن خذله الحظ في التوجّه إلى مسقط رأسه.

سارت سيّارتهم في طريق وعرة. جلس عنصران من البيشمركة من الكرد السوريّين في مؤخّرة السيّارة تلفح صدريهما الريحُ المواجهة الناتجة عن سرعة السيّارة، يستمعان إلى أغنية حماسيّة عن البيشمركة وكردستان. أخرج السائق الذي من عامودا يده من النافذة، لوّح بها لرفيقيه وقال:

- لماذا أنتما صامتان هكذا؟ لقد وضعت هذه الأغنية خصيصًا لأجلكما. هيا أسمعاني صوتيكما يا. صامتان كأنّكما في عزاء ميّت.

دب الحماس فيهم فغنوا مع المطرب جوان حاجو أغنيته المشهورة عن البيشمركة.

وصل لَوَنْدْ مع مجموعته مساء إلى جبهة القتال. كان عناصر البيشمركة قد حفروا الخنادق وأعلوا المتاريس وبدوا نشيطين مثل النمل. بعضهم انشغل بتوجيه المدافع بينما انكبّ بعضهم على تفريغ صناديق القذائف والحشوات ووضعها بجانب المدافع. أمّا القادة الميدانيّون فقد بدوا مشغولين برصد تمركزات العدوّ وهم يسندون مناظيرهم إلى الأكياس الرمليّة المرتفعة مثل جدران أمام الخنادق.

بدا جبل سنجار من بعيد مثل جدار شاهق. خاطبه لَوَنْدْ:

- يا سنجار المقدّس هل من خبر عن مِشْتَنُور؟

كانت صور مسلّحي داعش، وهم شبه حفاة وبأثواب رثة وشعور شُعْثٍ على قمة هضبة مِشْتَنُور، قد انتشرت على صفحات الفيسبوك. وقف أحد أولئك المسلّحين يشير بأصبعه إلى المدينة المنبسطة أمامه من جهة الشمال وبدا أنّه يهدّد المدينة وسكّانها. طحنت هذه الصور قلب لَوَنْدْ. لم يفهم قساوة تلك الصور سوى أهل المدينة. وحدهم أدركوا ما معنى أن يحتلّ الداعشيّون تلك الهضبة.

- إذا سقطت مِشْتَنُور سينتهي كلّ شيء.

تهامس أهل كوباني بالحقيقة المؤلمة، كتب بعضهم لبعض بحزن وقلق عميقين.

تلك اللّيلة حلم لَوَنْدْ بالهضبة. حلم بمشاهد إحياء النّيروز وبالنزهات الربيعيّة التي يقوم الشباب بها بين الصخور وهم يشرفون على الدنيا من جهاتها الأربع، يأكلون الكبة النيئة ويشوون اللّحم ويغنّون ويشربون. حلم لَوَنْدْ بالوادي المشهور فَيْدا حَمَّامان وكهوفه، بالنبع المسمّى خَيْرات والمحفور في الصخر قريبًا من قمة الهضبة لكنّه جفّ منذ زمن بعيد ولم يبق منه سوى آثاره. حلم بالضريح المجهول فوق الهضبة وشجيرتي التّوت العاقرين بجانبه. حلم أيضًا بطفولته حين كان يصعد الهضبة في أيّام الثلج ويتزحلق على أكياس النايلون ويصنع مع رفاقه كرات ثلج عملاقة يدحرجونها إلى الأسفل فتكبر وتكبر وتكبر إلى أن تصطدم بصخرة ما

وتتبدّد. رأى في أحلامه تفاصيل كثيرة كان قد نسيها عن تلك الهضبة الصامتة، المخيفة والحنون.

* * *

- استعدّوا. بعد ساعة سنبدأ الهجوم. تتمركز قوّة داعشيّة عند تلك التلة وتقف عائقًا بيننا وبين تحرير القرى التي تقع وراءها. إن لم نقض على هذه القوة فلن نتمكّن من تحرير القرى.

قال العقيد قائد قوة البيشمركة وهو يشير بيده إلى تلّة تبعد بضعة كيلومترات.

خفق قلب لَوَنْدْ. تسارعت نبضاته. «هأنذا مع أعدائي وجهًا لوجه. لقد دقّت ساعة الانتقام. سأنتقم لسنجار وكوباني. سأنتقم لمئات القرى التي احتلّتها داعش خلال يومين في ريف كوباني. سأنتقم للإيزيديّين. إمّا أن أنتصر أو أروي بدمي التراب المقدّس». انتابت لَوَنْدْ هذه الهواجس فهاجت نفسه وكَزَّ على أسنانه من الحنق، ثمّ وضع أصبعه على الزناد.

لم يضع قائد قوّة البيشمركة المنظار من يده. كان يهمس بين لحظة وأخرى إلى الضابط الذي يشاركه المراقبة، يصدر أمرًا إلى هذا وآخر إلى ذاك، يذهب إلى جنود المدفعيّة يكلّمهم عن دقّة التصويب ويعود إلى مكانه. أخيرًا خاطب جنوده:

- استعدوا. سنبدأ الآن التمهيد المدفعي. سيستغرق الأمر حوالي ربع ساعة، ثمّ تبدأ السيّارات حاملة الدوشكا والبيشمركة من رماة البي كي سي والآر بي جي بالتقدّم إلى التلّة. يجب أن تطهروا التلّة خلال نصف ساعة. هيا أيها الأسود.

لم تكد تمضي ربع ساعة حتّى اشتعلت التلة وغابت وراء دخان كثيف. صعد لَوَنْدْ مع رفاقه إلى مؤخّرة السيّارة حيث رشاش الدوشكا.

- سننيك أمّهاتكم.

صاح السائق من عامودا، أشار بأصبعه الوسطى إلى التلة المحترقة وأدار مفتاح التشغيل رافعًا صوت المسجّلة إلى أعلى درجة.

خفقت قلوب أولئك الفتيان المنطلقين إلى المعركة خوفًا وبهجة وغضبًا. سارت في المقدمة أربع سيّارات من نوع هامر فثارت وراءها زوبعة من الدخان لفَّتْ البيشمركة المنطلقين بسيّاراتهم في الخلف. اقتربوا بحذر من التلّة حتّى رأوا الرايات السود ترفرف. وجه لَوَنْدْ ورفاقه سبطانات الدوشكا والبنادق الأخرى مستهدفين التلّة وما حولها. ظهر أنه ما تزال وراء التلّة عناصر من داعش تقاوم بشراسة.

فجأة سقط لَوَنْدْ.

تمدّد على أرضيّة صندوق البيك آب جسدًا بلا حراك. سقطت بندقيته على صدره وانفتحت عيناه على سماء زرقاء واسعة لا غيوم فيها.

اختلطت ألحان أغنية حماسيّة عن البيشمركة بأزيز الرّصاص بأنين لَوَنْدْ. ضرب رفيق لَوَنْدْ الذي كان معه لحظة سقوطه بقبضة يده على سقف كابينة القيادة ينبّه السائق. أخيرًا خفض السائق صوت الأغنية وقال حانقًا:

- ماذا تريد يا؟ صرعتني.

- لَوَنْدْ لَوَنْدْ.

- إي! ما به؟

- أصابته رصاصة.

فرمل السائق فورًا وسأل بذهول:

- ماذا قلت؟

- قلت إن لَوَنْدْ أصيب بطلقة. إنه جريح وجرحه غائر. ماذا نفعل؟

أصيب لَوَنْدْ في صدره. نزف جرحه بغزارة. بقيت حدقتا عينيه متّسعتين واستمر يحدّق في السماء الصافية ويئنّ من الألم.

صعد السائق بسرعة إلى صندوق السيّارة، فتح علبة الإسعافات الأوّليّة وأخرج الشاش الطبيّ ولفّ به الجرح وهو يقول:

- قبل كلّ شيء يجب أن نحاول إيقاف النّزف. اتّصل بالنقطة الطبيّة. سنأخذه إليها حالًا. يجب أن نعود.

- والتلّة؟

- أنيك التلّة.

ردّ السائق غاضبًا وذهب ليجلس خلف المقود من جديد.

في تلك الأثناء سُمع دويّ عدّة انفجارات قويّة عند التلّة، وانقطعت صرخات الداعشيّين. هللّ البيشمركة الّذين وصلوا إلى التلة ورفعوا علمهم فوقها.

عادت السيّارة التي تحمل لَوَنْدْ الجريح أدراجها متّجهة إلى النقطة الطبيّة في مقر القيادة. كان رفيقه بجانبه ينصحه بعدم إجهاد نفسه بالكلام: «لا تتكلّم. لا تتحرّك. جرحك غائر لكنّك ستشفى». بلع لَوَنْدْ ريقه عدّة مرّات بصعوبة بالغة ثمّ قال بصوت واهن:

- التلّة؟ هل حرّرناها؟

- نعم. وقتل جميع العفاريت المتحصّنة بها. رايتنا تخفق هناك.

- مبروك. انظر. إذا متُّ..... فلا...تخبروا.. أهلي. لا أريد أن تبلغوهم بذلك الآن. انتظرت أمّي أخي المقاتل.. لسنوات عديدة....عاشت على.. أمل أن تلقاه.. ثانية..

لذلك كانت تصبر وتتحمّل... أما أخي.. الذي.. الذي.. قتل خلال خدمته في الجيش السّوري.. فقد ترك حسرة هائلة وجرحًا كبيرًا في قلب.. أمّي... أرجو أن لا يموت الأمل بلقائي عند.. أمّي.

- قلت لك يا لَوَنْدْ لا تجهد نفسك. أنت جريح.

- أعلم ذلك. أنا جريح.. إنّني أموت..لكن أرجوك.. عدني أن...تعمل بوصيّتي..

- أعدك بذلك.

نبتت على شفتي لَوَنْدْ الجافتين ابتسامة كزهرة نرجس في ربيع سنجار. ثمّ مال رأسه.

اتسعت حدقتاه أكثر. بقي يرنو إلى السّماء الصافية.

الثلاثاء 30. 9. 2014

ميرانو لـن تصـدق أبـدًا كـم تغـيّرتُ! صـرت فتـاة أخـرى تمـامًا. أشـعر بـأنّني كبـرت عشـر سـنوات أخـرى. أنـا أسـأل نفسـي تـرى هـل كـلّ مـن يمـارس القتـال يزداد وعيـه أم أنـا الوحيدة؟ لا أقصد كيل المديح لنفسي يا ميران لكنّها حقيقة أقاسمك إيّاها.

إنّني فخورة جدًا بحملي للبندقيّة والدّفاع عن مدينتي. عن موطن حبّنا أنا وأنت. وقبل كلّ شيء أدافع عن بيت أبي وأمّي وبيوت أهل البلد كلّهم.

أسـمع أنّهـم يجـنّدون الفتيـات قسـرًا ويسـوقونهنّ إلـى جبـهات القتـال. لا أقبـل هـذا الإجـراء أبـدًا. لقـد سـمعت مـرارًا مـن أختـي خـديجة، التـي كـانت تَدْرُس اللّغـة الإنكلـيزيّة وآدابـها فـي كلـيّة الآداب بجامعـة حلـب، المثـل الإنكلـيزي الـذي يقـول: يمكنـك أن تجبـر فـرسًا علـى الـذهاب إلـى النـهر، لكـنّك لا تسـتطيع إجبـار الفـرس علـى الشرب. طبعًا هي كانت تقصد بذلك أخي باران الذي كان والدي يتشاجر معه دائمًا ويريد إجباره على الذهاب إلى المسجد. ذات مرّة قال باران ساخرًا: طيب لنفرض أنّ أبي أجبرني على دخول المسجد والاصطفاف مع المصلين، فهل يستطيع إجباري على قراءة الفاتحة؟

لا يمكن إجبار النّاس على القتال في سبيل الحرّيّة. يجب أن يقتنع المرء بما يفعله وإلاّ فلن يستطيع الاستمرار حتّى النهاية.

نعم يا ميران. إذا لم يكن الإنسان حرًّا فلن يستطيع النضال في سبيل الحرّيّة.

بعض رفاقي من كوباني يشتمون الشباب الذين تركوا المدينة ونزحوا إلى تركيا. لا يعجبني هذا الأمر أيضًا. في الحقيقة عاد كثير من الشباب وحملوا السلاح. لكن لا يجوز مطلقًا تخوين النّاس عشوائيًا.

لا أقـول هـذا لأنـك أيـضًا تـركت البلـد يـا مـيران وأريـد أن أبـرّر لـك مـا فعلـت. لا يـا مـيران لا. كنـت سـأفتخر بـك لـو بقـيت هنـا، ولكـان ذلـك شـرفٌ لـك. ومـع أنّك لـم تقبـل بقراري فقد تقبّلتُ قرارك في الخروج من المدينة وعدم الانخراط في صفوف قواتنا.

أتذكّر يوم السبت ذاك حين نزح النّاس بالآلاف عن بيوتهم. قطعت زوجة أحد المسؤولين الطريقَ على النّاس وصارت تشتمهم وتقذع في الشتائم. بصقت في وجوه النّازحين ولم تميز بين رجل وامرأة وطفل. كم تألّمت وكم آذت تلك المرأة روحي. شعرت حينها وكأنّها تبصق في وجه أبي وأمّي. للأسف لم يوقفها

أحد من المسؤولين وكأنّ ذلك تم برضاهم! لكنّني غفرت لها بشفاعة ذلك اليوم العصيب الذي أفقد النّاس رشدهم. وهل بقي أحد في ذلك اليوم بوعيه يا ميران؟

أعتقـد أن قـرار الـنّاس فـي الخـروج قـرار صـائب وقـد سـررت جـدًّا لأنّهـم أنقـذوا أرواحـهم مـن قبضـة المـوت المحـتّم. لا أفـهم فـي السـياسة جـيّدًا، لكـن الجـهة الـتـي أوحـت للناس بالخروج جهة ذكيّة بلا شـك. أنا متأكدة الآن أن النساء والفتيات نجون من قبضة داعش. لن تتكرّر مأساة سنجار هنا في كوباني. أمّا نحن الباقون على ترابها فسنقاوم حتّى النهاية.

لا أعرف يا ميران لماذا أكتب لك أشياء تعرفها أنت أيضًا! على كلّ حال سأكتب لك خواطري في دفتري الصغير كلّما سنحت لي الفرصة. حين تنتهي الحرب ونكسر ظهر داعش سأعطيك الدفتر حتّى تعرف كيف قاومت رَوْشَـنْ وقاتلت في سبيل مدينتها وحتّى تعرف أنني سأناضل في سبيل حبّنا بنفس الشراسة التي أقاتل بها داعش.

هناك مقاتلون من كلّ الأنحاء يرفعون معنوياتنا بوجودهم معنا. قبل أن يأتي المقاتلون من الجبال كنّا نخشى كثيرًا أن تسقط كوباني خلال يوم واحد. الآن صرنا كمن يسند ظهره إلى جبل، إلى جدار من الفولاذ.

مجموعتي المقاتلة تتألّف من الرفيقة نازك قوسَري من ماردين، أنا ألقّبها بلقب كوجَرِهْ، ومن رانية الرفيق رابَـرين، من أورمية الرفيقة زَلال دمدم ومن هَكاري قائد مجموعتنا الرفيق آلان شِرْناخ. كذلك هناك رفاق مقاتلون من عفرين وديريك والقامشلي ومن كوباني أنا ورفيقان آخران.

لقد أنساني هؤلاء الرّفاق عائلتي النازحة خاصة الرفيقة زَلال التي تغنّي بصوت عذب جدًّا وصوتها أكثر نقاء من اسمها.

موقعنا القتالي يقع في تقاطع الطريق المؤدّي إلى شيران وحَلِنْجْ مع الطريق القادم من قرية مِزِرْداود إلى كوباني بين كانيا عَرَبانْ ومِكْتَلَة. نحن نحمي جنوب المدينة وشرقها.

نسمع أصوات القذائف وإطلاق الرّصاص من حوالي قرية شيران. الداعشيّون يهاجمون مثل كلاب مسعورة. لديهم أسلحة ثقيلة. نكاد نسمع أصوات تكبيراتهم أيضًا.

قال الرفيق رابَـرين ذات مرّة ضاحكًا:

- تكبيرات هؤلاء ليست دليل شجاعة أيّها الرفاق. إنّها ترمز إلى الخوف. أنا ابن الملالي وأميز أصوات الله أكبر المختلفة. أنا خبير تكبيرات.

ردّدت عليه وأنا أضحك:

- يا رفيق رابَرين. إنّ والدي أيضًا حاج وهو يؤذن أحيانًا في مسجد قريب من بيتنا. لكنّني لا أعرف سوى تكبيرات لطيفة تدعو المؤمنين إلى الصّلاة. لم أكن أعرف أن صيحة الله أكبر دعوة للقتل أيضًا!

الآن، في هذه الدقيقة حيث أكتب لك أسمع أصوات قذائف الآر بي جي والهاونات. إنّها قريبة جدًّا. انفجرت عدّة قذائف حولنا. ثلاث منها سقطت بالقرب من قصر بوزان بيك.

سأتوقّف عن الكتابة يا ميران. ليس خوفًا من القذائف. بل لأن الرفيقة كوجَرِه تلح عليَّ أن نعقد حلقة رقص. لقد جنت بالتأكيد. أحربٌ ورقص؟

الأربعاء 1. 10. 2014

الآن في هذا الصباح يهطل مطر خفيف يذكّرني بغزلك الهامس يا ميران. كم مرّة لاحقتني أثناء عودتي من المدرسة لمسافة مائة أو مائتي متر وأمطرت سمعي بأعذب الكلمات وأرقها. هذا المطر الذي جعل رائحة التراب تفوح كالعطر يشبه كلماتك تلك كثيرًا. إنّها السماء تتغزّل بالأرض. أنت تعلم أنّ المطر يذكّرني بصديقك العازف أخي باران أيضًا[20].

ربما لا تصدّق كم هي طيّبة رائحة التراب عقب المطر يا ميران! إنّها أطيب مما كانت عليه في أيّ وقت مضى. هذه الرائحة هي عرفان من التراب بجميل المطر. هي نشوة التراب بالخمرة السماويّة. أنا أيضًا كنت أنتشي بكلماتك بعد أن تغادرني. كنت أبقى لساعات أفكّر فيها. وكانت تبقى معي كلماتك تلك، تسهر معي وتنسرب حتّى إلى أحلامي.

الآن فهمت لماذا كانت أمّي تردّد دائمًا: يترك المرء دينه ولا يترك وطنه.

آه. إنّني أشمّ رائحة حضن أمّي من هذا التراب النديّ. ها أنا أسمع هدهداتها مع كلّ زَخَّةٍ من هذا المطر.

أكاد أنام.

* * *

الوضع في شيران لا يطمئن. اليوم أتوا برفيق جريح من هناك. مرّت السيّارة التي تنقله من موقعنا في اتّجاه المستشفى. قال الرّفاق إنّ شيران تقاوم لكنّها لن تصمد أكثر من يوم.

النار تقترب منا. ها هي تلفحنا. صرنا نشعر بوهجها. الأمل يتضاءل رويدًا رويدًا. كانوا يقولون إنّ البيشمركة سيأتون للمساندة. أين هم؟ لقد بقينا وحيدين. أدار العالم ظهره لنا. لكنّنا لن نستسلم. لن ترى داعش الرايات البيض في أيدينا حتّى لو قتلنا جميعًا. راياتنا البيض هي أكفاننا الملقاة على أكتافنا، إنّنا لن نحمل على راحاتنا سوى أرواحنا.

إمّا المقاومة أو الموت.

السّاعة الحادية عشرة ليلًا تذكّرتُ أمّي الآن. لقد اشتقت إليها. اشتقت أيضًا إلى أختي خديجة وابنها دارا الشقيّ. اشتقت إلى ولدَيْ أخي حمِهْ: سيامند وزوزان. لا أدري ما الذي ذكرني بهم في هذا اللّيل!

السكون يعمُّ المكان. خفَّت حدّة أصوات الانفجارات القادمة من جهة شيران.

لا تنزعج يا ميران. لقد اشتقت إليك أيضًا. اشتقت إليك كثيرًا كثيرًا. بعدد الرّصاصات التي أطلقت وستطلق في الحرب أحبّك وأكثر.

الثانية عشرة / منتصف اللّيل سمعنا دويّ انفجار هائل من جهة شيران. يقول الرفاق إنّ أحد عناصر داعش فجّر نفسه على الطريق القادمة من قرية تل حاجب إلى شيران وإنّ التفجير وقع عند حاجز لرفاقنا.

غدًا سأذهب إلى مركز المدينة. سأزور أمّي وأجلب بعض الطعام. جديلتي صارت رخوة سأطلب من أمّي أن تجدلها لي مرّة أخرى. لقد جنت رفيقاتي على موديل جديلتي. منذ الطفولة تجدله أمّي على هيئة سنبلة. أمّي مبدعة. أنامهلها مثل أنامل الإله تحوّل شعري إلى سنابل قمح.

مطر خفيف يهطل الآن كما هطل في الصباح.

هي الغيوم تفشي بأسرار السماء إلى تراب كوباني.

يا للغيوم الواشية.

الخميس 2. 10. 2014

السابعة مساءً عدت لتوّي من المدينة. المشافي تعجّ بالجرحى والمدينة خالية من المدنيّين. لا يعيش فيها سوى المقاتلين. إنّها إسبارطة المعاصرة يا ميران.

ذهبت إلى بيت أخي حَمِه القريب من جامع الحاج رشاد وزرت أمّي. كانت حزينة، حزينة جدًّا. قالت ألّا أحد من أبنائها طمأنها على حاله، لا خديجة ولا باران ولا لَوَنْدْ. حدثتني عن لَوَنْدْ كثيرًا وقالت إنّها تراه في كوابيسها وأحلامها المزعجة. شكت أمّي من أنّها لم تعد تستطيع الخروج من كوباني. حاول أخي أن يواسيها بشتّى الوسائل. حاول التخفيف من خوفها بقوله: ألا تصدّقين الرفاق يا أمّي؟ جارنا المسؤول يقول لا خوف على كوباني ومن يسكنها. ها هم ثلاثة من المقاتلين فوق السطح. لكن أمّي أجابته بجزع: إنّني أشمّ رائحة الموت يا بني. إنك غرٌّ لا تعرف ما هو الموت. إنّ بحر الصّمت الذي غرقت فيه كوباني ليس علامة خير على الإطلاق.

جلستُ في حضنها فصارت تجدل شعري وتتحدّث من دون توقف. قالت لي عدّة مرات: لقد سافرت خديجة إلى أوروبا وتركتني. على الأقلّ اِبقي أنت معي. لا ترمي بنفسك في نيران القتال. هذه الحرب أكبر منّا ومنك يا ابنتي. مازلت صغيرة. فكّري في أمّك على الأقلّ.

لم أعرف كيف أجيبها! حزنت لأجلها كثيرًا، لكن صفة «صغيرة» التي أطلقتها عليّ أزعجتني. لماذا لا يشعر الوالدان بأن أبناءهم يكبرون أيضًا؟ حين انتهت أمّي من صنع جديلتي، قبّلت يدها وفركت قدميها قليلًا ثمّ قلت لها: أودّعك يا أمّي. ننتظر دعواتك لنا. رأيت الدّموع تترقرق في عينيها. لمعتْ دموعُها الشفيفة في ضوء الشمس الذي تسرب إلى الغرفة من النوافذ الجنوبيّة.

آخ يا ميران. اللعنة على الحرب. لقد أجبرتنا على أن نحرق أكباد أمّهاتنا.

خرجت حزينة من عند أمّي الحزينة. سمعت أدعيتها التي أطلقتها خلفي حتّى وصلت إلى الطابق الأرضي عبر الدرجات وتوجّهت إلى المركز الإعلامي في غرب المدينة.

هناك رأيت صحفيين ومراسلي وكالات الأنباء من كلّ أنحاء العالم. حين رآني أحد الصحفيين أحمل بندقيّة على كتفي قال لي بالإنكليزيّة: هل يمكنني أن أجري معك لقاء صحفيًا قصيرًا؟ خجلت. كان أخي المقاتل متين أيضًا هناك. شجّعني وقال: يا رفيقة بُهار أنت تتكلّمين الإنكليزيّة فلا تخجلي. أوصلي صوتنا إلى العالم كلّه.

كان صحفيًا بلجيكيًا. جلست على الأرض، وضعت البندقيّة في حضني وقلت له تفضل. التقط لي بضعة صور، ثمّ جرى بيننا الحوار التّالي:

- ماذا تتوقّعين؟ هل ستسقط كوباني أم لا؟

- المهم أننا سنقاوم.

- هل تكفيكم قوّتكم لمنع داعش من احتلال المدينة؟

- القوّة ليست قوة السلاح. هناك قوّة خفيّة لا يراها الكثيرون ألا وهي إرادة الإنسان. سنقاتل بالإرادة. الإرادة طابورنا الخامس.

- لماذا انضممت إلى صفوف المقاتلين؟ ألا ترين أنّك مازلت صغيرة السن؟

- نريد أن ندافع عن مدينتنا. هذا يرتبط بإرادة الإنسان أكثر ممّا يرتبط بعمره.

لا أدري يا ميران. طرح علي أسئلة أخرى. تلك كانت المرّة الأولى الّتي ألتقي فيها بصحفي وأجري لقاء صحفيًا. ارتبكت قليلًا لكن الرفاق أثنوا علي كثيرًا بعد نهاية اللّقاء. سررت بذلك.

قلبي على أمّي. ليتها كانت خارج كوباني. بقاؤها كان غلطة.

أيّ بلاء هذا الذي أرسلوه إلى مدينتنا الوادعة يا ميراني؟

الجمعة 3. 10. 2014

هطلت هذا الصباح أمطار خفيفة مرّة أخرى، لكن سرعان ما تبدّدت الغيوم وطلعت الشمس. كان يومًا خريفيًا يشبه يوم تعارفنا فيه أنا وأنت. هل تتذكّر ميرانو؟

هل تتذكّر يوم اشتعلت فيه شرارة حبّنا؟ جرى ذلك قبل عامين. نظم شباب كوباني في السادس عشر من تشرين الثاني مظاهرة كعادتهم كلّ يوم جمعة. رأيتك في مقدمة المظاهرة مع أربعة آخرين ترفعون أحرف اسم ولات حسي. كان حرف A من نصيبك[21]. كنت ترتدي تيشيرتًا أبيض عليه كلمة AZADÎ باللّون الأحمر[22].

كان ولات قد استشهد حديثًا وأثار استشهاده غضب أهالي كوباني وحزنهم. شاركتُ أنا أيضًا في تلك المظاهرة. كنّا مجموعة من البنات والأطفال نمشي في منتصف المظاهرة على طرفها القريب من الجهة اليسرى في الشارع نهتف ونصفق وكنت أحمل راية كرديّة. لا أدري كيف عرفت أنني هناك وجئت حتّى وقفت بجانبي. يومها سألتك نفس السؤال: كيف عرفت أنّني هنا؟ قلت لي: شممت رائحتك. قلت لك: كذاب. لا أضع العطور. قلت لي وأنت تحدق في شعري: لجديلتك الذهبيّة رائحة النّجوم. ضحكت وقلت لك: الكذّاب كذّاب. وهل للنجوم رائحة يا ميرانو!

صرت تمشي بجانبي وتتكلّم معي. سابقًا كنت تلاحقني حين أنصرف من مدرسة ثانويّة البنات وتمشي بمحاذاتي تغازلني بجرأة. كنت أبقى صامتة ولا أعرف كيف أتصرّف من شدّة الخجل. صدّقني يا ميران كانت ركبتاي تصطكّان وكلّ جسمي يرتجف. كنت من جهة أخاف أن يرانا أحد إخوتي ومن جهة أخرى سعيدة بكلماتك العذبة. حين كنت أصل إلى البيت كنت أستعيد ما سمعته منك من عسل الكلام وأستعيد نشوتي به.

خرج الكثيرون في يوم المظاهرة الرائع ذاك وهم يرتدون مثلك تيشيرتات الحرّيّة. شمس دافئة، مثل تلك الشمس المرسومة على رايتي، بسطت نورها علينا. السماء كانت صافية. هبت علينا نسمات رقيقة منعشة تشبه الحبّ. كنتَ لطيفًا جدًا ذلك اليوم. ألطف حتّى من تلك النسمات. نظرتَ إليّ وابتسمتَ. ابتسمت بدوري ورفعت الراية إلى أعلى. قلت لي: ليتني كنت هذه الراية. لم أردّ. لم تتوقّف وقلت: أحبّك يا رَوْشَنْ. لقد أشعلتِ نيران ثورة في قلبي. شمس رايتك أحرقت قلبي.

ارتبكتُ من خجلي ثمّ غمرتني موجة من السعادة لا توصف. خفق قلبي بشدّة واقتربت منك لاإراديًّا. أصبحت الدنيا كلّها ملكي من فرط السعادة. وددت لو

أرتمي في حضنك. وددت لو تعانقني وتحملني بين ذراعيك.

فجأة لمحتُ أخي لَوَنْدْ. خفتُ. قلت لك بصوت خفيض: لَوَنْدْ لَوَنْدْ. لم تبالِ بتحذيري، بل أمسكت يدي وعصرتها بلطف ثمّ ابتعدت. كاد قلبي يتبعك. شعرت كأنّني أولد من جديد. لم يرَنا لَوَنْدْ. مشى بجانبي ولم ينتبه لوجودي.

أمّا باقي قصّتنا يا ميران فتعرفها أكثر منّي. خاصّة قصّة أوّل وآخر وأعذب قبلة في الدنيا. هذه تعرفها أكثر منّي أيّها الحبيب البعيد.

لقد قضّينا أيّامًا حلوة. ذلك الحبّ، الثورة ضدّ النّظام، مظاهراتنا، حراك الشباب والتغييرات العظيمة التي عصفت بالبلد جعلتنا نكبر بسرعة. نحن أكبر من أعمارنا يا ميران. نحن جيلٌ نكبر كلّ عام خمسة أعوام. نحن جيل التغيير العظيم يا ميران. ولا أعرف كيف انقلب الوضع وتبدّلت الأمور! كيف حاصرتنا داعش؟

كيف تحوّل الجيش الحر الذي كنا نعول عليه كثيرًا إلى مجموعات بلحى طويلة وأثواب قصيرة تتعرّض لشبابنا تعتقلهم وتقتلهم؟ قصّة صديقك مُدرّس اللغة الإنكليزيّة محمد محمد الذي أنزلوه من حافلة نقل وقطعوا رأسَه معروفة.

وحين اختلطت الأمور وجدت نفسي فجأة في صفوف المقاتلين. في الحقيقة كان ذلك بفضل الرفيقة زيلان. إذ لولاها لما انخرطت في القتال أصلًا. كانت تزورنا في البيت وتحدّثني عن الثورة والقتال والمقاومة والگريلا والفلسفة ولا أعرف ماذا أيضًا. هي التي زرعت فيَّ روح المقاومة. فجأة رأيت أنّني، وبدل الراية التي أرفعها في المظاهرات، أحمل بندقيّة ولاحظت بأنّني صرت مستعدّة لقتل من يريد انتهاك حرمة بلدي.

كيف انتقلنا إلى هذه المرحلة؟ كيف تبدّلت شخصيّتي؟ هذا ما أبحث له عن جواب يا ميران.

القتال محتدم وهو يقترب منّا. داعش تتقدّم. نكاد نشمّ رائحة لحاهم العفنة. لماذا لا تقطع أمريكا الطريق عليهم؟ تقول الرفيقة زلال إن بضع طائرات آباتشي كفيلة بمنع داعش من دخول المدينة.

يضحك قائد مجموعتنا الرفيق آلان شرناخ، يقول: لماذا تأملون خيرًا من الطائرات الأمريكيّة؟ منذ متى كانت الإمبرياليّة حليفتنا يا رفاق؟ نحن نكفي لمجابهة العدوّ.

السبت 4. 10. 2014

كان اليوم مشمسًا حتّى الظهر. سررنا بالطقس الرائع وغنت الرفيقة زلال لنا الأغاني الحماسيّة لترفع معنويّاتنا. لكن مع انتصاف النهار انقلب كلّ شيء. تغير الطقس وتبدّلت سعادتنا إلى حزن حين مرّت السيّارات أمامنا حاملة الشهداء والجرحى قادمة من شيران. أخبرنا الرّفاق الذين يرافقون الشهداء والجرحى أنّ البلدة على وشك السقوط وأنّ السلاح الموجود لدى المدافعين عنها لا يكفي ليوم واحد. طلب منا الرفيق آلان شِرْناخْ أن نقسم على المقاومة حتّى النفس الأخير.

أقسمنا على ذلك وعلى ألا نسمح لعناصر داعش بالدخول إلى المدينة إلاّ على جثثنا. أقسمنا أنّنا لن نترك متاريسنا ودشمنا ما دامت الدّماء تسري في عروقنا.

يبدو أنّ الوضع العسكري يسوء. نحن قلقون على رفاقنا الذين يقاومون في شيران. للأسف لا نستطيع الذهاب لنجدتهم. قطعت داعش الطرق وحاصرت تلك البلدة وهي تقصف الطريق الواصلة إليها بالهاونات. الرفاق الذين أتوا بجثامين الشهداء وبالرفاق الجرحى تحدّوا الموت وجازفوا بحيواتهم لأجل ذلك.

ها قد شممت رائحة الموت وبدأت أخاف. الموت يبعد عنّا ستّة كيلومترات فقط. اتّصلت برقم أخي حَمِه فأجابت أمّي. فهمت من نبرة صوتي أنني أخاف فقالت:

- تعالي يا ابنتي. تعالي وقاتلي في هذه الحارة على الأقل. ألا يمكن القتال إلاّ في تلك الجبهة؟ إنّني أرى أحلامًا مزعجة. فلتكوني قريبة منّي في هذه الحرب يا ابنتي.

نقلت إلى الرّفيق آلان رغبة أمّي. سألته ما إذا كان من الممكن أن أنتقل لنقطة داخل المدينة فغضب، وقال: إن لبّينا رغبة كلّ المقاتلين فلن يبقى أحد في الجبهات الساخنة الدامية. ما هذا يا رفيقة بهار؟ يا حيف! انظري إلى هؤلاء الرفيقات والرّفاق الذين معك. إنّهم بعيدون آلاف الكيلومترات عن أمّهاتهم. هل تخافين؟

- لا. لا أخاف وسأثبت لك ذلك.

أجبته بغضب.

هذا المساء أردت الاتّصال بأمّي مرّة أخرى. رفع أخي الهاتف. واساني وطمأنني كثيرًا وقال:

- الرفاق المسؤولون يقولون ألاّ خطر على كوباني. ستأتي الطائرات الأمريكيّة وتضرب داعش وتشتّتها. مهما كلّف الأمر فإنّ كوباني يجب ألاّ تسقط في يد هؤلاء المتوحّشين.

في الحقيقة لا أثق في هذه الطائرات الكسولة. منذ عدّة أيّام وهي تحوم في السماء، تهدر وتترك وراءها أحيانًا دخانًا أبيض دون أن تطلق صاروخًا واحدًا. تقول الرفيقة زَلال مازحة:

- طائرات أوباما مثل كلاب القرى: تعوي وراء كلّ سيّارة تدخل القرية لكنّها لا تفعل شيئًا سوى العواء.

أسمع الآن صوت القذائف.

شيران تقاوم.

الأحد 5. 10. 2014

آرين استشهدت. أنا حزينة هذا الصباح سمعنا دويّ انفجار هائل على هضبة مِشْتَنُور. في البداية لم نعرف ما الذي جرى هناك. كنّا نعرف أنّ هناك مجموعة من الرفاق تحمي الهضبة وأنّها مجموعة شجاعة ستقاتل بضراوة حتّى الموت. تبيّن أنّ مسلّحي العدوّ حاولوا الوصول إلى قمّة الهضبة.

آخ. لا أعرف كيف أكتب. قبل قليل جاءنا النبأ الأليم بخصوص عمليّة انتحاريّة نفذّتها إحدى رفيقاتنا. إنّها الرفيقة آرينْ ميرْكان التي فجرت نفسها في قطيع من عناصر داعش. لم أصدق الخبر طبعًا. إذ كيف ستُقدم رفيقة هادئة، طيّبة، رقيقة ودائمة الابتسام على هذا العمل الذي يتطلّب جرأة كبيرة! إلى الآن لا أصدّق الخبر.

لقد كانت آرين ملاكًا.

أنا حزينة عليها. حزينة جدًّا.

حين جاءت مع مجموعتها والتقيت بها في أحد المنازل القريبة من المستشفى أحببتها فورًا. كانت تتحدّث بتواضع وحياء عن قتالها ضدّ مجموعات مسلّحي داعش.

وحين تسمع أحدًا يثني عليها ويمدح شجاعتها، تطأطئ رأسها ويحمرّ وجهها خجلًا. كانت آرين إحدى المقاتلات في صفوف الگريلا في الجبال، وتكبرني بستّة أعوام، لكنّها كانت تملك قلب طفلة.

استشهدت آرين.

أحلف بدمائها أنّني سأسير على طريقها إلى أن أنتصر أو أستشهد مثلها.

* * *

من شدّة حزني على آرين اتّصلت بعد الظهر بأخي حمِهْ. لم يكن قد سمع باستشهادها بعد. كرّر نفس كلام البارحة، وقال: الرفاق يقولون ألا خوف على كوباني أبدًا. وحين قلت له ها هي داعش اقتربت من مِشْتَنُور وربما احتلّتها؟ قال: هذا لا يهمّ. الرفاق عندهم خطة عسكريّة لاستدراج عناصر داعش إلى داخل المدينة.

لكنّنا نشعر بخطر كبير. كوباني في خطر يا ميران. جميع القرى سقطت ما عدا شيران وحَلِنْجْ. وحين تسقطان ينتهي كلّ شيء. ستتبعها كوباني في السقوط. ها هي داعش تقصفنا بمدفعيتها المتمركزة في قرية مِزِرْداود.

- كوباني قلعة. إنّها لن تسقط.

هذا ما قرأناه على صفحات الفيسبوك. وهذا ما سنحاول قدر الإمكان أن نجعله

حقيقة. لن ندع الأتراك يهنؤون. إنّهم يزعمون كلّ لحظة أنّ كوباني على وشك السقوط.

الانفجارات قريبة جدًّا منّا. بدأت بعض القذائف تسقط بجانبنا. قبل قليل أصيبت الرفيقة نازك قوسري بشظيّة صغيرة. الحمد لله جرحها طفيف. لفَّت جرحها بنفسها. بَدَتْ أنها لا تكترث بما أصابها. بل حين واسيتها، سخرت من جرحها وقالت:

- لو كان عندي حظّ كبير لما كان جرحي صغيرًا.

* * *

الشمس تميل الآن إلى الغروب. أنا جالسة في الخندق. وصلتنا أخبار تقول إن شيران سقطت منذ البارحة. لا أصدق. لكن لا نسمع منها أصوات الاشتباكات.

الاشتباكات تتركّز الآن في قرية حَلِنْجْ. إنّها آخر قرية. نرى من هنا عبر مناظيرنا مدرعات أولئك الوحوش. كيف سقطت شيران؟ كيف وصل هؤلاء الوحوش إلى هنا؟

أين مساعدة أمريكا؟ أين العالم؟ لماذا يجعلون مدينتنا لقمة سائغة لهم؟ أحلف بدماء الشهيدة آرين أن مدينتي لن تكون سهلة المنال. سنجعلها لقمة مغمسة بالسم والزقوم. ستكون مدينتي أكبر من حلوقهم، أكبر بكثير.

هاهي الغيوم تصطبغ بلون الغروب. تبدو الشمس مثل نبع تتدفق منه الدماء وتسيل على الأفق الغربي. أما الأفق فيبدو مثل جراح شهيد.

أرأيت يا ميران؟ لست وحدك تجيدُ كتابة الشعر والكلمات الجميلة. ها هو وجودي في جبهة القتال جعلني شاعرة أيضًا.

دع عنك هذه المزحة. أنا عاجزة عن الكتابة فعلًا يا ميران. لا أعرف ماذا أكتب بعد؟

سأقصّ عليك ما حلمت به اللّيلة الفائتة. رأيتك معي في المنام. كنّا بجانب شجرة. كانت شجرة مثمرة، لكن لست أدري ما نوعها. كنّا نستظلّ بظلّها ويدي في يدك، وفجأة اختفت الشجرة الغريبة. بعدها اختفيت أنت أيضًا. ثمّ رأيت أنّني في صحراء خالية مقفرة وحيدة تحت شمس لاهبة. كان حلمًا ذا نهاية غير سعيدة يا ميران. أنا لا أعير الأحلام اهتمامًا كبيرًا، لكنّ خوفي ازداد بعد ذلك الحلم. أنا لا أخاف من الموت. أخاف فقط من فقدانك.

لن أكتب أكثر ممّا كتبت. سأخفي دفتري. لقد حان وقت الجدّ. ببندقيتي سأكتب ملحمة هذه القلعة.

أحبك يا ميران. لكنّني أحب كوباني أكثر.

إما أن نلتقي في هذه الحياة مرّة أخرى، أو تأتي أنت إلى مقبرة الشهداء وتزور قبري:

فتى حيّ وفتاة شهيدة تربطهما علاقة حبّ خالد.

عدني بذلك يا حبيبي ميران.

إلى اللّقاء.

رَوْشَنْ حَمْزِراڤْ

مساء الاثنين 6. 10. 2014

حمامة مبقّعة بالأحمر

ساء الوضع كثيرًا بالنّسبة إلى رَوْشَنْ ورفاقها. سقطت شيران وحَلِنْجْ آخر قريتين تقاومان وبات مسلّحو داعش على مقربة سبعمائة متر فقط من مكان تحصّنهم.

صار أفراد المجموعة المدافعة، حين يرفعون رؤوسهم، يرون المسلّحين على سطح مسجد مِكْتَلَة.

أطلقت المقاتلة زَلال من خلال كوّة بين أكياس الرمل النار من بندقيّتها على مسلّحي داعش المتمركزين على سطح المسجد بحماس كبير حتّى أفرغت ثلاثة أمشاط من الرّصاص. ثمّ انقطع صوتها فجأة فالتفتت رَوْشَنْ إليها، وإذا بها متمدّدة على الأرض والدم ينزف من جبينها. أصابت رصاصة قنّاص جبهتها فجعلتها جثة هامدة على الفور. صرخت رَوْشَنْ فغضب قائد المجموعة آلان وقال: «لا وقت لنضيّعه في الصراخ. علينا أن نُشْغِلَ قدر الإمكان هؤلاء الوحوش. لقد اتّصلت بالرفاق وطلبت منهم الدّعم والإسناد، وربّما نترك موقعنا وننسحب إلى موقع آخر أكثر أمنًا».

سدّد آلان قاذفَ الآربي جي على المسجد وأراد أن يرمي لكنّه سمع راپَرينْ يصرخ مشيرًا إلى جهة تلّة كانيا عَرَبانْ: انظروا يا رفاق. انظروا هناك.

التفتت رَوْشَنْ قبل الجميع فرأت رايات داعش السوداء. وصل عناصر داعش إلى التلّة إذن. عرفت أنّها ومجموعتها محاصرون الآن بين فكّي كماشة وأنّه لا بديل من المقاومة.

لم تكن التلّة تبعد عن تلك المجموعة المقاومة سوى أقلّ من نصف كيلومتر. ولو نظر داعشي أسفل التلّ جنوبًا لرأى أفراد المجموعة بالعين المجرّدة.

بقيت جثّة زلال متمدّدة على الأرض. نظرت إليها رَوْشَنْ حزينة خائفة مقهورة. ثمّ نظرت إلى التلّة وتذكّرت أيّام الربيع حين كانت تذهب مع عائلتها إلى البساتين المحيطة. تحوّلت ذكرياتها تلك إلى كرة نار تدحرجت في حقول الخيال.

انهمرت زخّات الرّصاص عليهم من كلّ جهة. «لقد انكشف ظهر مجموعتنا للعدوّ يا رفاق» قال آلان ثمّ أردف: «لا تسرفوا في إطلاق الرّصاص. ارموا الطلقات فرادى ولا تصرخوا. انسحبوا الآن وليتحصّن كلّ رفيق بجانب جدار. هيّا بسرعة».

خرج المقاتلون واحدًا تلو الآخر وتحصّنوا بالبيوت المجاورة.

نظرت المقاتلتان رَوْشَنْ ونازك إلى رفيقتهما زَلال المسجاة على الأرض نظرات مليئة بالاعتذار وقبل أن تغادرا الدشمة تضرّعت رَوْشَنْ:

- يا رفيق آلان هل نترك الرفيقة زَلال؟

- نعم نعم. نحن الأحياء أهمّ الآن. سنعود قريبًا لنأخذها.

بسرعة انحنت رَوْشَنْ على رفيقتها، قبّلت جبينها، حملت بندقيّتها ثمّ خرجت تحت زخّ الرّصاص لتلحق برفاقها الآخرين.

* * *

ما إن انسحب المقاتلون من موقعهم حتّى سمعوا صوت انفجار كبير. فجّرت داعش سيّارة مفخخة وقتلت أفراد الحاجز القريب من قرية مِزِرْداود جميعًا.

انهارت الجبهة الشرقيّة في كوباني.

اقترح آلان مرات عديدة على القيادة المركزيّة في كوباني أن ينسحب بمجموعته، لكنّها أخبرته أنّ الانسحاب يعني فتح الطريق لداعش بالتوغّل في عمق كوباني.

اقترحت القيادة عليه أن يقوم مع مجموعته بإشغال المهاجمين أطول مدّة ممكنة والمقاومة بشراسة.

- لقد فجّروا حاجز مِزِرْداود أيضًا يا رفيق. استشهد جميع الرفاق هناك.

- الشهداء خالدون. عليكم أن تقاوموا. كلّنا في خطر. سقوط المدينة يعني هزيمة كبرى وعارًا يجلّل شعبنا بأكمله. اليوم يوم الشرف والنخوة يا رفيق آلان.

وأغلق القائد جهاز اللاّسلكي.

أدرك آلان أنّ عليه أن يقاوم حتّى النفس الأخير لعرقلة مجموعتي داعش من التقدّم.

- رفيق راپَرينْ!

صرخ آلان حين شاهد المقاتل راپَرينْ يهوي على الأرض.

- لا تقلق رفيق آلان. لا شيء يستحقّ. جرح بسيط.

- أي جرح بسيط يا رفيق؟ هذه طلقة دوشكا.

ردّ قائد المجموعة وهو يتمعّن في الجرح المفتوح على خاصرة رفيقه، ثمّ أمر مقاتلين آخرين بنقله إلى المشفى الميداني غربي المدينة. حمله المقاتلان إلى دراجة ناريّة وانطلقا به صوب الغرب.

كان المقاتلون قد أعدّوا خطّة لإسعاف الجرحى بأن وضعوا في رأس كلّ شارع تقريبًا دراجة ناريّة مع مفتاحها. بذلك يصل الجرحى خلال دقائق قصيرة إلى المستشفى دون حاجة إلى سيّارات إسعاف قد تكون هدفًا سهلًا للقذائف.

لم يبق من تلك المجموعة سوى ستة مقاتلين، فبدأ الخوف يتسرّب إلى قلب المقاتلة الصغيرة رَوْشَنْ. أرادت أن تتّصل بأمّها. انتابتها أحاسيس مختلفة. الرّصاص مثل المطر. الدخان يعلو كثيرًا من الأماكن والمدافع تهدر.

فتــــح الجحـــيم أبوابـــه علـــى المجموعـــة مـــن جـــهتين: مـــن جـــهة التلـــة حـــيث يرميـــهم بضـــعة مـــن مســـلّحي داعـــش بالدوشـــكا، ومـــن جـــهة المســـجد حـــيث صـــعدت الســـطحَ مجموعةٌ داعشيّة وصارت تمطرهم بالرّصاص.

- هذه المدينة شهدت أنفاسي الأولى. وستشهد أنفاسي الأخيرة أيضًا.

قالت رَوْشَنْ متحمسة ثمّ ذهبت إلى إحدى الزوايا تراقب تحركات عناصر داعش.

رأت أنّهم تقدموا كثيرًا. كانت طائرة أمريكيّة عمياء تحوم وتهدر في السماء. أغمضت رَوْشَنْ إحدى عينيها وسددت إلى داعشي يتقدّم مجموعة من العناصر. وقبل أن تضغط على الزناد انطلقت رصاصة قنّاص إلى صدرها الذي لم تلامسه أنامل حبيب. اتّجهت تلك الرّصاصة إلى صدرها الذي يعشّش فيه قلب مليء بالحبّ.

- آخخخخ يا أمّي. لقد قُتلت.

صرخت رَوْشَنْ من شدّة الألم. سقطت على الأرض خائرة القوى. سقطت بندقيّتها من يدها وسال الدّم غزيرًا. نظرت إلى دمها الذي يتدفّق مثل نبع، فأدركت أنّها الدقائق الأخيرة من عمرها القصير. لقد حان الوقت لتودّع الحياة.

ظهرها إلى الأرض ووجهها إلى السّماء.

* * *

عـــاليًا طـــار ســـرب مـــن الحمـــام. الســـماء صـــافية زرقـــاء تـــداعبها غـــيوم بيضـــاء متفرّقـــة قليلـــة. حـــام ســـرب الحمـــام وحـــام دون أن يحـــطّ علـــى أيّ مكـــان. بـــدأت رَوْشَنْ تعـــدّ الحمامات. واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، عشر، ستّ عشرة حمامة. ستّ عشرة حمامة خائفة، هاربة من أعشاشها خوفًا من أصوات الحرب، ستّ عشرة حمامة هائمة لم تعد تعرف أين تقع أعشاشها! ستّ عشرة حمامة مثل ستة عشر بيتًا في قصيدة غير منتهية من ديوان شاعر ثمل وحزين.

«إنها سنوات عمري». حركت رَوْشَنْ شفتيها بتلك العبارة وقلبها ينزف دمًا قانيًا غزيرًا. لمست بأصبعها دمها المتدفّق على الأرض. لمحت ظلّ حمامة يعبر بقعة الدّم المستطيلة. حانت منها نظرة إلى جديلتها الذهبيّة ممددة بجانبها غاطسة في الدّم، فرأت الشريط الأسود الذي ربطت به أمّها جديلتها قبل يومين. غمرتها موجة حزن. «اعذريني يا أمّي». تمتمت وهي تحدّق في الجديلة الدامية. طارت

حمامة خيالها في سماء الذاكرة. انتقلت من هنا إلى هناك. رأت نفسها طفلة في الخامسة تركض في فناء الدّار محاطة بأصص الورد وجديلتها الذهبيّة تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال مثل رقّاص السّاعة على حائط غرفة المعيشة. سمعت صوت ميران:

«ليتني رأيت شعرك منسدلًا ولو مرّة واحدة. حرامٌ أن يظل هذا الذهب حبيس الجديلة». تراءت لها أمّها، أبوها إخوتها وأختها خديجة وزميلاتها في المدرسة. كان الجميع يداعبون جديلتها. رأت أنها تشارك في مظاهرة ذات نهار مشمس. تمشي بجانب ميران وأخيها لَوَنْدْ، تصفق وتطلق الهتافات فيما جديلتها تهتزّ مثل غصن من النور على ظهرها. تعدّدت الصّور والأخيلة وازدادت. ابتعد سرب الحمام الهائم في السماء. طارت كلّ حمامة في اتّجاه.

بقيت السماء الزرقاء المزيّنة ببعض الغيوم وحدها. فجأة فُتحت طاقة في منتصفها على شكل حلقة من نور. بدت الغيوم البيضاء حول حلقة النور مثل قطن مندوف فوق بساط أزرق.

لم تعد رَوْشَنْ تسمع أصوات الانفجارات والرّصاص. مدّت يدها اليمنى إلى جهة الجرح. شعرت بحرارة الدم إذ يتدفّق بين أصابعها الصغيرة.

أحسّت أنّ قواها تنهار بسرعة. جاهدت لتفتح عينيها وتنظر إلى طاقة النور. لم تعد قادرة على تحريك عينيها أو شفتيها. أرادت أن تودّع تراب مدينتها والسماء فلم تقدر.

طارت إحدى الحمامات وحيدة صوب تلك الطاقة. كانت حمامة بيضاء مبقّعة بالأحمر. حمامة جريحة كلّما خفقت بجناحيها وصعدت إلى أعلى، تناثر الدّم منها.

ارتفعت الحمامة أعلى فأعلى حتّى نفذت من طاقة الضوء وغابت عن الأنظار.

الشّاعر في معطف العسكريّ

أدخل باحة الدّار التي ولدت فيها قبل نصف قرن. لكن لا أدري أيّ قوّة تدفعني لأعود وألقي نظرة أخرى على الحارة! أعود خطوتين إلى الوراء، وأقف عند الباب محدّقًا في مشهد الخراب العميم.

ماذا فعلت الحرب بهذه الحارة؟ عبارة بول فاليري التي كتبتُها بقطعة فحم على جدار غرفتي في بيروت تطرق باب خيالي مثل ريح عاصفة:

«الحرب مجزرة يرتكبها ناسٌ لا يعرف بعضهم بعضًا لحساب ناس آخرين يعرف بعضهم بعضًا ولا يقتل أحدهم الآخر».

كنت عسكريًّا في صفوف القوّات السوريّة في بيروت. شاهدت هناك في كلّ شارع وزاوية وساحة آثار الحرب الأهليّة. رأيت المواقع التي طالتها مخالب الحرب وأنيابها:

بنايات مهدّمة، جدران ساقطة وقبل كلّ شيء نظرات كسيرة للناس وخوفهم من لباسنا المبرقع.

كان في استقبالنا، يوم وصلنا، أنا ورفاقي إلى بيروت ذات يوم بارد، عميدٌ كريه المنظر خبيث النّظرات يبدو شبحًا بلا روح. خطب فينا خطبة أقصر من قامته، وقال:

بالتأكيد أنتم مستعدّون لكي تستشهدوا في سبيل القائد والوطن وتحاربوا عملاء إسرائيل.

كانت وجوهنا ذابلة، كنّا عطاشى وجوعى، خائفين مرهقين بعد أن قضّينا ساعات في مؤخّرة ناقلة التاترا، وكان العميد يطلب منّا أن نحارب عملاء إسرائيل.

هكذا ألقي بي في أجواء الحرب.

كانت الحرب آنذاك قد بلغت أرذل العمر في لبنان، والحروب قبيحةٌ لحظة تولد ولكنّها حين تشيخ تزداد قبحًا على قبح.

لم تكد تمضي بضعة أيّام على وجودنا في بيروت، حتّى سمعنا دويّ انفجار عظيم في يوم استقلال لبنان. حدث ذلك في يوم أحد، كنّا فوق سطح البناية التي نحتلّها في منطقة الرّمل العالي نستمع إلى الأغاني التي تبثّها إذاعة محليّة. حين نظرنا إلى جهة الدويّ شمالًا شاهدنا دخانًا كثيفًا يتصاعد. صاح أحد الجنود ممّن سبقونا في المجيء إلى بيروت:

- هالتفجير بمنطقة الصنائع.

بعد قليل من الوقت سمعنا الخبر التّالي: مقتل رئيس الجمهوريّة رينيه معوّض مع عدد من مرافقيه:

- يبدو أنّ الحرب هنا تأكل الرّؤساء أيضًا!

قلت لنفسي.

اتّخذت سرّيتنا موقعها في مكان قريب من مطار بيروت الدولي في منطقة الرمل العالي التي يسكنها على الأغلب شيعة نزحوا من جنوب لبنان. أوّل ما لفت انتباهي نظرات العيون الخائفة والانكسار الموجود فيها. كانت تلك النّظرات مليئة بالغضب أيضًا.

عيون الجميع تطفح بالخوف والغضب صغارًا وكبارًا. عيونهم قواميس ليس فيها سوى هاتين المفردتين: الخوف والغضب. والخوف والغضب شعوران يقضي أحدهما على الآخر لكنّهما في كفّتيْ ميزان عيون اللبنانيّين كانا يتأرجحان، يعلو أحدهما فيهبط الآخر دون أن يستطيع هذا إلغاء ذاك.

آلمني ذلك كثيرًا. صرت أكره نفسي حين أرى أحدًا يخشاني بسبب بدلتي وبندقيّتي وهويّتي السوريّة. تمنّيت لو أصرخ في كلّ شارع أسير فيه: أيّها اللّبنانيّون أنا شاعر ولست جنديًّا. أنا لست جنديًّا فلا تخافوني. أنا إنسان ولست سوريًّا.

نظرات الأطفال ذبحتني. كلّما رأوا جنديًّا سوريًّا، وكلّما رأوني بالطبع، أشاحوا بوجوههم يمسكون بأمّهاتهم فزعًا يريدون أن يختفوا من المشهد.

آه يا بيروت جئتك منتعلًا حذاء جنديّ لكن بقلب شاعر كثيرون قُتلوا أمام أسوار عينيك مضرّجين بالدّم وحده هذا القلب سقط أمام عينيك مضرّجًا بالعشق.

* * *

بعد أن مضى حوالي شهرين على مقتل رئيس الجمهوريّة، نشبت حرب بين مسيحيّي بيروت الشرقيّة دون أن يعرف المقاتلون الذين يشاركون فيها أنّهم يدوّنون ببنادقهم السطور الأخيرة من سفر الحرب الأهليّة في بلادهم.

ذات مساء احتدم القتال فجأة، صعدنا إلى السطح نراقب المشهد:

- ها الصاروخ لعن سنسفيل فرن الشُّباك.

- شوف شوف. عين الرُّمَّانة كلّها صارت نار. ناكو جدّ جدون.

- جهنّم الحمرا صارت بالأشرفيّة. انتاك عرضون.

- هاي قريبة. سقطت بالحَدَث. العمى في عيونون. ما راح يبطّلو حرب!

- فخّار يكسّر بعضو.

أشار الجنود بأيديهم إلى مكان سقوط القذائف في كلّ مرّة وهم يشتمون الحرب. ضحك قائد السريّة النقيب الأشقر صاحب الشوارب المفتولة وقال:

- يا حمير إنتو ما بتفهمو شي. هدول قد ما يتحاربو قد ما نبقى هون وتبقى رزقتنا.

سقطت ذات مرّة قذيفة طائشة بالقرب من مربض مدفعيّتنا، فتطايرت الشظايا في الجوار حتّى دخلت غرفنا. اضطررنا للنّزول إلى الملجأ ثمّ الخروج إلى الشّارع الذي كان فيه سمّان عجوز وابنته التي أحبّها أفراد سرّيّتنا كلّهم.

كان السّمان العجوز، القادم من قرية جنوبيّة، مثل أغلب اللبنانيّين يعرف نوع القذائف من صوتها، يسمّيها لنا بمعرفة العسكريّ الخبير:

- هيدا صاروخ غراد، هيدا هاون، هيدا كوري 12، هايدي كاتيوشا.

بل كان ذاك العجوز يعرف حين تندلع الاشتباكات نوع البنادق المستعملة لحظتها. ويميّز الطائرة الحربيّة السوريّة من الإسرائيليّة حين يدوّي هدير المعدن الطائر في سماء بيروت المستباحة.

ذات مـرّة، وأنـا أجلـب المـاء وبيـدي وعـاءان كبـيران. لـم أشـعر إلاّ والرّصـاص يـئز بجـانبي. تـركت الوعـاءين وتـراجعت سـريعًا إلـى الخلـف محتمـيًا بالجـدار. كـانت عـدّة طلقات دوشكا، كما عرَّفها لي السمان العجوز الذي راقب هروبي من الموت وهو يضحك. أصابت تلك الطلقات باب أحد المحلاّت المواجهة لنا فأحدثت فيه ثقوبًا عديدة.

- هايدي دوشكا. الكلاشن والإم سكستين وغيرون ما بيعملو هيك بُخَشْ كبار.

قالها السمان لي وهو يشير إلى الثّقوب الكبيرة بعد أن هدأت الاشتباكات وصرت قادرًا على أخذ الوعاءين من وسط الشّارع.

إنّ أفضل غنيمة تعود بها من حرب مّا هي الحياة. هكذا علّمتني الحرب في بيروت. لم أكن أفكّر في شيء سوى العودة سالمًا إلى حارتي وأهلي وأبي الذي ينتظرني على أحرّ من الجمر في كلّ مرّة ويتابع أخبار الحرب في لبنان لأجلي.

- الحرب بعيدة عنّا يا أبي.

قلتها له مرّة محاولًا طمأنته ونفي هواجسه الكثيرة. ردّ علي أبي بلهجة قلقة جدًّا:

- لكنّ الموت ليس ببعيد يا ولدي.

خفت من الشظايا والرّصاص الطائش كثيرًا. أعرف أن ضحايا الطائشات في الحروب أكثر من المستهدفين. الحرب فعل طائش في الأصل. ومن يموت فيها لا يموت إلاّ من الطيش وجنون السّلاح.

مرّة كنت مستندًا إلى جدار مربض مدفعيّتنا خلال نوبة الحرس. بندقيّتي بجانبي أطالع كتابًا عنوانه فاطمة الزهراء. لم تكن ثمّة اشتباكات في ذلك النّهار الصيفيّ الحارّ الرّطب. فجأة سمعت صوت طلقة. سمعتها قريبة جدًّا منّي. ظننت أنّها خرقت جبيني. شلّني الخوف. وضعت الكتاب بهدوء. حملت بندقيّتي ثمّ نهضت.

رأيت طلقة قنّاص قد استقرّت على الجدار بمقدار شبرين أي نصف متر تقريبًا فوق رأسي حين كنت جالسًا. هربت. هربت إلى حفرة صغيرة عملنا مثلها كملاجئ بجانب كلّ راجمة صواريخ. بقيت هناك حتّى جاء من يليني في نوبة الحرس. أخبرته بما جرى وعدت إلى غرفتي لأكتب في دفتر مذكّراتي الذي ضمّته أنقاض حارتنا تحت جناحين من غبار:

- اليوم كان الموت قريبًا جدًّا منّي، مرّ على مسافة نصف متر من رأسي.

انتبهت إلى أنّني نسيت الكتاب وجهاز الترانزستور الصغير في المربض من شدّة الخوف. عدت سريعًا، حملت مذياعي الصّغير وقفلت راجعًا إلى غرفتي.

كانت الترانزستورات في ذلك الوقت بمثابة الهواتف النقّالة حاليًّا. كلّ جندي معه مذياع صغير يستمع عبره إلى الأغاني التي تبثّها عشرات الإذاعات ويعرف من خلالها الوقت والأخبار. ترافقنا تلك الأجهزة الصّغيرة أينما ذهبنا، خلال نوبات الحراسة، في ليالي السّهرات، حين نخلد إلى النوم، وحتّى عند الذهاب إلى بيت الخلاء أيضًا.

أدمنت وقتها مثل كثيرين الاستماع إلى أغنية ماجدة الرومي ستّ الدّنيا بيروت واعترفت معها لكن ليس بغيرتي من بيروت بل بأنّني أعشقها وأغار عليها من العشّاق الكذبة والأعداء الحقيقيّين.

وكما في كلّ حرب، في كلّ زمان ومكان، أصبح الشعراء يبكون والمغنّون يصرخون لكن صوت المدافع والرّصاص، الحقد والثأر والدّم هو الوحيد الذي كان مسموعًا.

في الحروب يصبح العقل فأرًا صغيرًا يهرب من براثن قطّ شرس. يتنحّى جانبًا. يجد العقل نفسه عاجزًا، ضعيفًا، مشلول الساقين مكبّل اليدين أخرس.

قرأت ورأيت على كثير من الجدران هذه العبارة: «لتكن الحرب وليربح الأقوى».

كان ذلك قانونًا طبيعيًّا للحرب. إنّه قانون الطبيعة. الطبيعة المتوحّشة التي

ظهرت على الأرض منذ عشرات آلاف السّنين. الطبيعة البعيدة عن كلّ عاطفة إنسانيّة، البعيدة عن العقل الإنسانيّ الذي تراكمت طبقاته خلال آلاف السنين طبقة طبقة دون أن تستطيع إخفاء طبقة الوحشيّة الأولى.

أسرتني عينا بيروت، تلك المدينة الأسيرة فوقعتُ في حبّها.

وفي بيروت صرت شاهدًا على بشاعة الحرب والاحتلال.

في لبنان تصرّف الجيش السوريّ الذي كنت أنا أحد جنوده، كقوّة احتلال. بل كان قوّة احتلال فعلًا. فحين تمكنّا من دخول بيروت الشرقيّة وطرد الجنرال ميشيل عون من قصر بعبدا صباح الثالث عشر من تشرين الأوّل شاهدت كثيرًا من الفظائع. نهب الضباط القصر الرئاسي مع جنودهم. حتّى إنهم سرقوا منافض السجائر ومكتبة قصر بعبدا. عاد جنود المشاة الذين اقتحموا القصر بغنائم لا تعدّ ولا تحصى عدا الأشياء التي نهبوها من بيوت اللبنانيّين التي استباحوها. لم يكتف الضباط والجنود بذلك، بل دأب أحد ضباط سريتنا على الذهاب في الفجر يرافقه بضعة جنود ليسحبوا كابلات الكهرباء الممدّدة تحت الأرض في منطقتي الحدث واليرزة ويأتوا بها إلى ساحة الاجتماع يحرقونها حتّى يخرج النحاس صافيًا من غلافه البلاستيكي، ثمّ ينزلون إلى بيروت الغربيّة ليبيعوه مع ما نهبوه من الأبواب ونوافذ الألمنيوم.

ذات مرّة استيقظت بعد منتصف اللّيل على أصوات ضحك وهرج ومرج في غرفتي. جلست أفرك عيني وأنظر إلى رفاقي العائدين من الغزو، كما كانوا يسمّون حملات نهبهم اللّيليّة. كان أمامهم كيس كبير يبدو ممتلئًا بأشياء عديدة. أدركت فيما بعد سبب قهقهاتهم في ذلك الوقت المتأخر من اللّيل: لقد سطوا على أحد البيوت، ولمّا لم يجدوا فيه شيئًا سحبوا حبل الغسيل ولفوه كيفما اتّفق، ثمّ وضعوه في كيس كبير وهم لا يعلمون ماذا يوجد على الحبل. وحين عادوا إلى الغرفة وفتحوا الكيس وجدوا فيه كلاسين وحمالات صدر نسائيّة وثياب بنات وأطفال رضع وثيابًا أخرى لا تناسب مقاس أحد منهم.

في لبنان كان بإمكان أيّ جندي سوريّ أن يوقف سيّارة عابرة فقط ليشعل له السّائق سيجارته:

- وقِّفْ ولاه.

يمدّ الجندي بندقيّته صوب سيّارة قادمة.

تتوقّف السيّارة.

- شعّل لي سيكارتي.

يترك الرجل الخائف يده عن مقود سيّارته، يخرج ولاعته ويشعل لفافة الجندي القادم لتحرير لبنان من عملاء إسرائيل.

ينتفخ الجنديّ مثل طاووس. يشير بيده للسائق أن امش دون أن يقول له كلمة شكر. «لا تدللوهون أبدًا». هكذا كان الجنود يتواصون بالتّكبّر على المدنيين.

ذات مرّة ألح عليَّ عسكريّ من حوران أن نذهب إلى سينما الكومودور لنشاهد أحد العروض الإباحيّة. أوقف رفيقي سيّارة أقلّتنا إلى حيّ الحمرا الراقي حيث دور السّينما والمراكز التجاريّة والمعالم الجميلة والحركة الصّاخبة. في منتصف الفيلم شعرت بالغثيان مما شاهدت فقلت لرفيقي إنّني سأغادر. وغادرت بالفعل، فتبعني وهو يلعنني لأنّني قطعت عليه المتعة.

في الخارج أوقف الحوراني سيّارة عابرة مشهرًا بطاقته العسكريّة وسأل السائق:

- لوين رايح؟

- ع حارة حريك.

فتح رفيقي باب السيّارة وأومأ لي بالصّعود إليها.

جلست في الخلف أكاد أذوب من الخجل ككلّ مرّة بينما نفخ رفيقي ريشه في الأمام يدخّن ويتحدث مع السّائق الذي انطلق بسرعة متخذًا طريقًا بموازاة الساحل:

«مشان نخلص من عجقة السير جُوَّا». قال السائق الخلوق.

مثل كلّ مرّة أركب فيها سيّارة مدنيّة، أردت أن أعتذر لصاحبها من دون أن يفهمني رفيقي. نظرت من خلال النافذة إلى شوارع الحمرا والبحر الأزرق وصخرة الروشة، ثمّ استغللت فرصة سكوت رفيقي فقرأت قصيدة كتبتها عن بيروت. تعجب الرّجل، نظر إلي من المرآة الأماميّة وسأل:

- لمين هاي الكلمات؟

- إنّها لي. أنا أكتب الشعر.

انفرجت أساريره وقال بفرح:

- اسمي محمد زين جابر. أنا صحفي وشاعر وعندي ديوان شعر.

- ما عنوانه؟

- غبارٌ يتعرّى في العتمة.

- هممم. عنوان سريالي.

أخبرني أنّه يعمل في جريدة النّهار، وأنّه سينشر قصائدي فيها إن أردت. وعدته

بذلك لكنّني لم أتابع الموضوع ولم نلتق بعد ذلك اليوم مطلقًا.

* * *

أسمع صوت دواليب سيّارة. أنتبه إلى أنّني جالس مستندًا بظهري إلى جدار بيتنا محدّقًا في الخرائب المحيطة بي. أنهض فلا أرى أيّ سيّارة. الشارع خالٍ. أنا المخلوق الوحيد هناك.

- الصّمت ثقيل وقد خضت في بحر الذكرى ما يجعلني أتهيّأ سماع الأصوات.

أقول لنفسي ثمّ أنهض وأدخل البيت من جديد. أمتطي من جديد، وأنا أعبر الباب إلى الدّاخل مرّة أخرى، موج الذّاكرة، الموج الوحيد الذي يمكنه العودة إلى عمق السّنوات الغابرة.

جنديّ الله

أفرغ جندي الله زياد التونسي الذي ينادونه بأبي طارق، طلقة في رأس مقاتل جريح فهمدت أنفاسه. ركله في جرحه وهو يشتم: «ملحد نجس» ثمّ ابتعد عنه، صعد سيّارة البيك آب متّجهًا بأفراد مجموعته إلى كوباني.

كان أفراد مجموعته، أحدهم بجانبه وثلاثة في مؤخّرة السيّارة مسلّحين بالرشاشات والأحزمة النّاسفة، كلّهم من الأجانب، وكان هو يقود السيّارة التي نصبوا عليها مدفع رشّاش دوشكا. خفقت الرّاية السّوداء المنصوبة خلف السيّارة تمامًا مثل لحية السائق أبي طارق الذي اتكأ بذراعه اليسرى على نافذة السيّارة يهزّ رأسه على أنغام نشيد «جلجلت».

قبل أن يصلوا إلى كوباني أمطرتهم حامية قريبة من قرية مِكْتَلة بالرّصاص فخرقت إحدى عجلات السيّارة فتوقّفت وبدأ المسلّحون يردّون على مصدر إطلاق النّار.

نزل زياد ورفيقه وتموضعا خلف السيّارة يشاركان رفاقهما في إطلاق النار على الحامية القريبة.

استأنفت المجموعة بعد ذلك سيرها حتّى أوصلتهم السيّارة إلى مسجد مِكْتَلة، فتوقّفوا وصعدوا سطح المسجد واستأنفوا إطلاق النار على الحامية مكبّرين.

* * *

تقدّم المهاجمون تحت وابل الرّصاص. لم يبق بينهم وبين المقاتلين المحتمين بجدران البيوت أكثر من مائة متر. كانت لديهم ذخيرة كافية.

بدا أنّ المقاتلين لن يكونوا لقمة سهلة ويقاومون بضراوة.

- هؤلاء من الجنّ.

قال أحد المسلّحين لزياد فردّ عليه:

- مـن الجـنّ مـن غـير الجـنّ لا يـهمّ. لقـد دنـت نـهايتهم. سـنرفع رايـة لا إلـه إلاّ اللـه فـوق كـلّ دار بعـين الإسـلام. يسـتحقّ هـؤلاء الملاحـدة الـذين لا يعـرفون القِبلـة أن نبيدهم عن بكرة أبيهم.

عقب المسلّح بسرور:

- والله سنسبي نساءهم وفتياتهم ونتخذهنّ جواري لنا. سنذبح رجالهم و...

خرقت طلقةٌ حنجرة المسلّح، فلم يكمل حديثه وهوى على الأرض جثّة هامدة.

- الله أكبر.

صرخ زياد وباقي أفراد المجموعة حين رأوا رفيقهم يخرّ صريعًا.

- عاشت مقاومة كوباني.

تناهى إليهم هذا النّداء من خلف أحد البيوت وتبيّن لهم أن هناك من لا يزال يقاوم.

- هؤلاء بسبعة أرواح.

قال أحد المسلّحين ورمى مصدر الصّوت بقنبلة يدويّة.

- الله أكبر.

ثم تلاها بقنبلة أخرى وأخرى وأخرى. أربع قنابل رماها المسلّح مرفقًا إيّاها كلّ مرّة بالتكبير. بعد ذلك تقدّمت بقيّة عناصر المجموعة. انقطعت الأصوات من جهة المجموعة المقاومة. لم يعد أحد يظهر من زوايا البيوت. طارت بعض الحمامات وهامت على وجهها في السّماء وتعثّرت ظلالها بالدّم المراق على الأرض. تقدّم المسلّحون أكثر فسمعوا صوت أنين وحشرجة من خلف أحد الجدران.

على مهل، بظهور محنيّة وأصابع على الزناد واصلوا تقدّمهم حتّى وصلوا إلى المكان الذي يتحصّن فيه المقاتلون. حين وصلوا رأوا جثثًا ممدّدة على الأرض. أسرع زياد إلى رَوْشَنْ. تمعّن فيها بخوف وقال لرفاقه:

- احذروا جثث القتلى فلعلّها تكون مفخّخة.

ثم نظر إلى عيني رَوْشَنْ المغمضتين. حدّق في ابتسامتها العذبة المطبوعة على شفتيها، رأى جديلتها الملطّخة بالدّم. انحنى عليها وجسّ رقبتها فرأى عرقًا ينبض ببطء. صاح بفرح:

- هذه الكافرة بها رمق. سأكسب ثواب قتلها بطلقة واحدة.

- هذه لي. أنا سأقطع رأسها.

ردّ أحد المسلّحين القادمين من إحدى جمهوريّات القوقاز على زياد ثمّ دفعه بعيدًا. نزع حربته سريعًا وانحنى يفصل رأس رَوْشَنْ عن جسدها وهو يكبر. وحين انتهى رفع الرأس بيده ونادى:

- تعال يا أخي زياد. تعال التقط لي صورة مع هذه الملحدة التي تحترق روحها الآن في الجحيم.

نزف الدّم من شرايين الرقبة وتدلَّت الجديلة الذهبيّة الملطّخة بالدم مثل شلال يعكس ضوء المغيب. بقيت عينا رَوْشَنْ مغمضتين وعلى شفتيها ظلّت تلك الابتسامة الرقيقة مطبوعة كما هي.

لم يفهم زياد الذي التقط الصورة سبب موجة الحزن التي داهمته في تلك اللّحظة وهو ينظر إلى عيني رَوْشَـنْ المُسْبَلتين.

* * *

انهارت الجبهة الشرقيّة. قُتِل عناصر حاجز مِزِرْداود في تفجير سيّارة مفخّخة. أبيدت مجموعة آلان شِرْناخْ التي كانت رَوْشَـنْ من ضمنها عن بكرة أبيها. مَرَّ عناصر داعش فوق جثثهم وتوغّلوا حتّى وصلوا إلى حارة سَيْدا. لم يجدوا خلال توغّلهم سوى بيوت خاوية على عروشها وشوارع لا يوجد فيها مخلوق. في حارة سَيْدا لمحـوا مسـجدًا بمنـارة شـاهقة، ثـمّ فـي نفـس الشـارع إلـى الشـمال وجـدوا مسـجدًا آخـر بمئـذنة معـدنيّة غريبـة الشـكل. صـادف المـهاجمون فـي طريقـهم فـي قـرى شـيران وحَلِنْجْ ومِكْتَلَة وغيرها أيضًا مساجد خالية لا أحد يرفع فيها الأذان.

انهارت الجبهة في الجنوب أيضًا بعد أن تمكّن المهاجمون من احتلال هضبة مِشْتَنُور وتقدّموا شارعًا بعد شارع.

في اليوم التّالي فجّر أحد العناصر نفسه مع شاحنته المفخّخة بمقرّ الأسايش فقتل العشرات ودمّر المقر الذي كان في ما مضى مخفرًا حصينًا للشّرطة.

ضاق الخناق على المقاومين حتّى حوصروا في حارة الجمرك قريبًا من معبر مُرْشِدْبينار الحدودي. حبس العالم أنفاسه وتوجّه اهتمام الإعلام العالمي كلّه إلى تلك البقعة الصغيرة التي لم يسمع أحد بوجودها قبلًا.

تمركز زياد ومجموعته في حارة سَيْدا المقفرة. الأبواب مغلقة، الحارة صامتة، موحشة مثل مقبرة.

فجأة سمع زياد مواء قطّة يشقّ وحشة المكان مثل سكين مثلَّم:

- مياو مياو.

كانت قطّة جائعة حائرة، مرهقة تمشي بموازاة الجدران قادمة ببطء من جهة مسجد الشريعة. تُصدر مواءً أقرب إلى الأنين. كان زياد يقرأ سورة الأنفال مستندًا إلى جدران أحد بيوت الحارة حينما لمحها. توقف عن القراءة. هزّت أصوات الاشتباكات المكان من جهة الغرب بينما حامت طائرة أمريكيّة في السماء دون أن تطلق النار.

لم تلتقط أذنا زياد من بين تلك الأصوات الكثيرة سوى المواء الضعيف لتلك القطّة التّائهة التي تمشي خطوة ثمّ تتوقّف حتّى اقتربت منه. نظر إلى عينيها فرأى فيهما لمعان الخوف والجوع والرّجاء.

- بِسْ بِسْ.

ما إن ناداها زياد حتّى رأى قطة أخرى شقراء تمشي بموازاة الحائط حتّى وصلت إلى القطة الأولى فتوقّفت مثلها. كانت الشقراء قطّة عمياء أنهكها الجوع والعطش أكثر من رفيقتها، فلم تعد قادرة حتّى على المواء.

جثا زياد على ركبتيه، أخرج قطع خبز ورماها إليهما فتقدمتا إليها ببطء شديد كأنّهما تزحفان. عادت به ذاكرته إلى أيّام طفولته حين مات أبوه فجاءته أمّه بقطّة ليتسلّى بها وينسى فجيعته. لكنّ زواجها من ضابط شرطة ومحقّق في الأمن التونسي حوّل طفولته إلى جحيم وانقلبت حياته رأسًا على عقب.

حياة من شوك

اسمه زياد بن طاجي. شاب رشيق نشيط من بلدة بن قردان التونسيّة القريبة من البحر الأبيض المتوسّط. لم يعرف في شبابه سوى النساء والخمرة والسهر. مات أبوه وهو طفل في المدرسة الابتدائيّة. لم تشأ أمّه الموظّفة ذات الخمسة والعشرين عامًا، أن تعيش أرملة فتزوّجت ضابط شرطة يكبرها بعشرين عامًا.

كان ضابط الشرطة يعود أغلب الأحيان مخمورًا إلى البيت. يستيقظ زياد الطفل على صوت الشّجار بين أمّه وزوجها. يخاف فيدسُّ رأسه تحت اللحاف ويكتفي بالاستماع إلى شتائم زوج أمّه:

- أيّتها القحبة بنت القحاب. يا كلبة.

تردّ أمّه على زوجها الضابط السكران:

- مرّة أخرى عدت مخمورًا؟ تريد أن تعاملني مثل السّجناء الذين تقوم بتعذيبهم؟ ألن تترك أكل الخراء هذا؟ كم زجاجة مُرْناقْ شربتها اليوم؟[23].

- يا بنت القحاب أنيكك وأنيك سلسلة أجدادك. أنا لا أشرب الزفت المرناق. أنا أشرب البوخا[24]. يا فرج العنزة. سأحولك إلى كومة خراء وأرميك في المرحاض. أكون قوّاد ماخور إن لم أقتلك ذات يوم.

غالبًا ما تبع شجارهما وقع صفعات ولكمات وأصوات آهات غريبة. يرفع زياد اللّحاف قليلًا عن رأسه وينظر. فيرى الضابط المخمور بعد كلّ شجار يعتلي أمّه، يغتصبها ويرتفع صوته باللهاث حتّى يقضي وطره فيعوي كذئب ثمّ ينزل عن صدرها وينام.

ذات يوم، وبعد انتهاء الضّابط من اغتصاب أمّه اتّجه إليه. امتلأ قلبه رعبًا. كانت أمّه متكوّرة على نفسها مثل حيّة مقصومة الظهر. التزم زياد الصّمت وأغمض عينيه بقوة. خاف كثيرًا. فجأة رفع الضابط اللّحاف عنه. رأى زياد عضو زوج أمّه مرتخيًا مثل عرف ديك رومي يتدلّى فوق رأسه. انتفض قلبه حتّى كاد ينخلع عن صدره. فاحت رائحة الخمر الثقيلة من الضابط. أمسك بعضوه ووجَّهه إلى وجه زياد الصغير وبال عليه. طالت فترة التبوّل حتّى ظنّ زياد ألاّ نهاية لها. لم تنتبه أمّه.

بقي ابنها يتظاهر بالنّوم من رعبه. أراد أن يصرخ ملء فمه الذي أغرقته ملوحة البول، تمنى أن تكون لديه القدرة على أن ينهض ويمسك بعضو زوج أمّه ليقطعه بشفرة حادّة. لكن الخوف شلَّه.

أفرغ الضابط المخمور مثانته حتّى آخر نقطة فيها ثمّ نفض عضوه مرّتين، ثلاثًا،

فوق وجه زياد وهو يقول بقرف: «تفو. كلب ابن قحبة. كنت ناقصكْ». ثمّ اتّجه إلى غرفته.

* * *

كان زوج أمّ زياد مسؤولًا عن السّجناء السياسيّين والتّحقيق معهم وتعذيبهم. يضع أثناء حفلات التّعذيب زجاجة بوخا بجانبه يشرب منها، يدخّن ويحقّق مع المساجين مستمتعًا بتعذيبهم. يستهويه أن يطفئ سيجارته في جسد من يحقّق معه حتّى ذاع صيته في المنطقة كلّها وعرف بقسوته وشدّته فَخَافَهُ النّاس وسمّوه فيما بينهم «كلب بن علي».

لم تستطع أم زياد أن تشكوه ولا أن تطلق نفسها منه. كانت حين تشكوه إلى أهلها يطلبون منها أن تتحمّله ويقولون لها إنّ ما يحدث لها يحدث بين كلّ الأزواج والشّجار أمر طبيعيّ. لم يستطع أهلها أن يستوعبوا محنتها ولا أن يقدّروا ظرفها ولم يهتمّوا لأمرها. كانت يد الضابط طويلة وكان بإمكانه أن يقتلها وابنها بيد أحد أعوانه دون أن يرفّ له جفن. اضطرّت المرأة أن تقبض على جمر ذاك الزّواج وتصمت وصارت تذوب يومًا بعد يوم مثل شمعة.

أحيانًا كثيرة ضرب الضّابط زيادًا وأمّه معًا. وحين يعوي تحت اللّحاف مثل جرو من ألم الضرب تأتي أمّه لتضربه هي أيضًا وتصرخ فيه: «لو لم تكن ابن حرام لما كان هذا قدرنا. ليتك متّ مع أبيك». لم يفهم زياد أسباب ما يجري له ولأمّه. عرف أنّ أمّه تقاوم زوجها أحيانًا وتواجهه بالكلام، لكنّه لم يفهم ما هو ذنبه ولماذا يتعرّض كلّ مرّة للضّرب من أمّه وزوجها بلا سبب!

جاءته أمّه بقطّة صغيرة حين مات أبوه. سمّاها شَقْرا وأحبّها كثيرًا واتّخذها صديقة له يشكو لها همومه وأوجاعه. يأتي بها في اللّيل أحيانًا إلى فراشه ويحكي لها القصص، يطعمها اللّبن والخبز ويأتيها كلّ يوم جمعة بلحم السّمك. يلعب معها معظم وقته في النّهار. وحين يعود من المدرسة ينادي قطّته الصّغيرة فتركض إليه وتستقرّ في حضنه.

ذات صباح جمعة استيقظ زياد فلم يجد أثرًا لقطّته في الغرفة. ناداها عدّة مرات «شقرا. شقرا. شقراااا». لم تجب القطّة. سأل أمّه:

- أين شقرا يا ماما؟

- ذهبت إلى الجحيم.

بكى زياد فصفعته أمّه بقوّة وقالت:

- تبًّا لك وللقطة ولزوجي المجرم. هو الذي أخذها هو. سيرميها في البرّيّة. ليته أخذك معها لأتخلّص من موائك أنت أيضًا.

ثم صفعته صفعة أقوى من سابقتها.

تألّم زياد كأنّما مات أبوه ثانية. لم يعد هناك من يشكو له همّه وحزنه وأوجاعه وأحلامه وحكاياته. صار يفكّر في قطّته الشقراء ويتخيّلها لساعات. وذات يوم سمع مواء ضعيفًا. وحين بحث في فناء الدّار رأى قطّة في أحد الزوايا. لم يصدّق عينيه. ركض إلى وسط الدّار وصاح:

- شقرا. شقراااا.

- مياو.

مشت القطّة بتثاقل تجاهه وهي تموء. ولما وصلت إليه صارت تدور حول ساقه وتهزّ ذيلها. كانت جائعة خائرة القوى. حملها زياد في حضنه وهو يقبّلها ويشمّها ويمسح على ظهرها، ثمّ وضعها على الأرض ودفع إليها صحن حليب.

في تلك الأثناء خرج زوج أمّه من إحدى الغرف مرتديًا لباسه الرّسمي. لمعت النجوم على كتفيه في وهج الشمس. جنّ جنونه حين رأى مشهد زياد مع القطّة. أسرع إليهما وأمسك القطّة من ذيلها، أدارها حول رأسه مثل مقلاع عدّة دورات سريعة، ثمّ رماها بقوّة نحو الجدار. تسمّر زياد في مكانه وبال من الرّعب والقهر. دمعت عيناه وشعر بجمرة تحرق حلقه. اتّجه إليه زوج أمه وركله بكلّ قوة في خاصرته وهو يقول: «يا ابن القحبة». ثمّ خرج يصفق الباب وراءه.

حين جاءت أمّه من المطبخ ورأته مثل تمثال لا يتحرّك سألته:

- ما الذي جرى لك؟ لماذا تقف كالموتى؟

بقي ثابتًا صامتًا. أشار إلى القطّة المقتولة أسفل الجدار وبدأ يبكي.

فهمت أمّه كلّ شيء. صفعته بقوّة وهي تصرخ فيه: «متى كانت الفئران القذرة تحبّ القطط؟ اذهب واخلع ثيابك. لماذا لم تمت أنت بدل القطّة؟ أكلّما ضربك أحد تتبوّل على حالك؟ تفو».

* * *

في المدرسة أيضًا تعرض زياد للضرب في أحايين كثيرة من قبل المعلّم. لم يكن يكتب وظائفه ولا يحفظ دروسه ولا كان بإمكانه التّركيز على الدّرس أصلًا. نال عددًا من الصفعات أكثر من الأناشيد التي وجب عليه حفظها. كلّما تأخّر في الحضور إلى المدرسة صفعه المعلّم دون أن يسأله عن سبب تأخّره.

بعد خمس سنوات من حياة الشّوك المليئة بالعذاب أصيب زوج أمّه بالفالج. عاد في إحدى اللّيالي من عمله في السّجن مصرًّا على أن يقود سيّارته بنفسه وهو مخمور كالعادة. قاد السيّارة بأقصى سرعة وحينما اقترب من مركز المدينة ضرب أحد الأعمدة الإسمنتيّة فقصم ظهره ما أدّى إلى إصابته بالشّلل. «لقد عاقب الله بنفسه كلب ابن علي بعد أن عجز البشر». تناقل النّاس بشرى إصابته فيما بينهم.

رأت أمّ زياد أيضًا في إصابة زوجها بالشّلل عقابًا ربانيًّا وفرصة سانحة لتتطلّق منه. تمكّنت بعد محاولات حثيثة لدى محكمة الناحية بين قردان من انتزاع حرّيّتها وحرّيّة ابنها الذي رأت أنّه لا يصلح للمدرسة، فأرسلته لبيع البضائع الصغيرة على أرصفة السوق. صار زياد يشتري من المهرّبين الذين يأتون من ليبيا بالبضائع ويبيعها إمّا على عربة صغيرة يتنقل بها أو على بسطة على أحد الأرصفة. عمل لبضع سنوات على هذا المنوال حتّى تعرف إلى طرق التّجارة وأساليب التهريب من خلال زبائنه ومن يتعامل معهم من المهرّبين والتّجار.

في سنّ الخامسة عشرة استلم حافلة نقل صغيرة تابعة لبعض المهرّبين وأصبح يقودها إلى ليبيا عبر معبر رأس جدير ويأتي من هناك بالبضائع. تعرّف خلال أسفاره تلك إلى كثير من أفراد الشرطة واللّصوص وبنات المتعة والتجار والباعة والمحشّشين وسائقي الشاحنات وموظفي الحدود وضبّاط الجمارك.

ذاعت شهرته في المنطقة لدرجة أنّه كلّما زار ملهى أو بارًا رافقه بضعة فتيان لحمايته. حين رأت أمّ زياد أنّ ابنها لا يهتمّ إلاّ بنفسه وأنّه يهملها وينفق ما يأتيه من مال على ملذّاته ومتعه تزوّجت برجل آخر والتفتت هي أيضًا لحياتها.

لم يكن زياد يحبّ أقرباءه ولا يريد التعرّف إليهم. أتاه كثيرون منهم، حين ظهرت عليه آثار الثّروة، وذكّروه بقرابتهم له فلم يعرهم أيّ اهتمام.

تعرّف من خلال إحدى صديقاته على شاب من كوباني اسمه محمد صالح الحاج مسلم حمَزْراڨْ كانت له حفّارة آبار ارتوازيّة في تطاوين. أصبح الاثنان صديقين حميمين وصار زياد يأخذه معه إلى أماكن المتعة واللّهو حتّى ذهب فجأة إلى الجزائر وانقطعت أخباره إلى أن عاد إلى مدينته بن قردان في نهاية عام 2010. حينها كان الشاب التونسي محمد البوعزيزي قد أشعل النار في قشّ سكون العالم العربي واندلعت في سيدي بوزيد احتجاجات ضدّ زين العابدين بن علي والشاب التونسي ما يزال يرقد في المشفى بين الموت والحياة.

رويدًا رويدًا دخلت باقي المدن إلى حلقة النّار التي أشعلها الشاب في هشيم الخنوع حتّى وصلت الشرارة إلى بن قردان أيضًا فتدفّق مئات الشباب إلى شوارعها كالسّيل يهدرون.

Dégage

لم يعرف زياد كيف أصبح في وسط المعمعة! لم يعرف كيف قادته قدماه ذات مساء إلى الشارع يردّد مع المتظاهرين ما يردّدونه من هتافات. مع السنة الجديدة ذاع خبر موت البوعزيزي فاشتعلت البلاد بالمظاهرات.

Dégage - [25] ردّد المتظاهرون هذه الكلمة في طول البلاد وعرضها. ردّدت هذا النداء آلاف الحناجر التي أحرقها وشلّها النداء الأبيّ بحياة الزعيم. كتبت الكلمة على كلّ الجدران واللافتات، على رايات تونس الحمراء وحتّى على موج بحرها اللطيف. ردّدتها حنجرة زياد أيضًا. شارك الجميع في تلك الثورة من الطبقات الدنيا المسحوقة والوسطى واليساريين الذين كانوا ينظّمون الاحتجاجات العماليّة عبر النقابات قبل الثورة وحتّى الإسلاميين الذين ذاقوا مرارة سجون النظام والتعذيب الرهيب.

وجد زياد نفسه موجة في بحر الجماهير وحطبًا يوقد نيران الثورة. شعر بقوة جديدة لديه، أحسّ بوجوده المؤثّر وقيمته بعد أن عاش لسنوات مع نفسه المقهورة المنكسرة البائسة. لقد كان في الظاهر شابًا ناجحًا ذا سطوة ومال ويد طولى، لكنّه في قرارة نفسه كان شخصًا ضعيفًا جريحًا خائفًا، غطّى ضعفَه بحياة الترّف واللهو وسلطة الدينار. ظلّ زياد يعيش طفولته المنهوبة في أعماق نفسه دون أن يستطيع التّحرّر من الخوف الذي عاشه كلّ تلك السّنين.

بدأت قيود روحه تنكسر قيدًا وراء قيد كلّما شارك في مظاهرة. صار كلّما صدح بشعار في مظاهرة انفتح باب من أبواب السجن الذي حبست فيه قوّته الداخليّة.

كلّما هتف مع أحد بجانبه لا يعرفه شعر بنفسه حرًّا أكثر، ابنًا لتلك الثورة وأبًا لها. شعر أنّه ينتقم من زوج أمّه كلّما هتف «ارحل» وأنّ من يتظاهرون في الشوارع هم مؤيّدوه الذين خرجوا للاحتجاج على ظلم زوج أمّه وقسوته.

تعرّف زياد خلال مشاركته في المظاهرات إلى أحد الشّباب عرف نفسه بلقب «أبو سالم». ابتسم زياد في وجه أبي سالم الذي غطته لحية خفيفة وقال:

- وأنا زياد. زياد بن طاجي.

- أهلًا بالأخ أبي طارق.

دعاه أبو سالم بعد انتهاء المظاهرة إلى فنجان قهوة في المساء. ذهب زياد إلى الموعد. كانت الدنيا باردة والمقهى يعجّ بالروّاد والدخان والموسيقى الصّاخبة. بعد دقائق وصل أبو سالم أيضًا وقال دون أن يجلس:

- أخي أبو طارق! لا يمكننا التحدّث بهدوء في هذا المكان. ما رأيك أن نذهب إلى المسجد؟ قريبًا سيؤذّن المغرب.

لم يكن زياد راغبًا في ترك نرجيلته، لكنّه خجل أن يترك انطباعًا سيّئًا عنه لدى صديقه الذي تعرف إليه حديثًا وأخذ يكنّيه بأبي طارق، وهو ما راق لزياد كثيرًا. لفّ الخرطوم بهدوء على قوام النّرجيلة، دفع الحساب ثمّ خرج مع أبي سالم.

نادرًا جدًّا ما ذهب زياد إلى الصّلاة. لم يسأل نفسه وهو يسير صامتًا لماذا تبع هذا الصديق الجديد إلى المسجد ولم يبق في المقهى؟ غربت الشمس في بحيرة بيبان وضجّت المآذن بالتكبير واختلطت لديه المشاعر وتأرجح فكره بين سرور واستغراب.

كان زياد سعيدًا بأفول شمس النظام. صحيح أنّه على علاقة بكثير من الضباط لكنّه لم يشعر تجاههم إلاّ بالكراهيّة دائمًا. كان يرى زوج أمّه في كلّ ضابط شرطة.

ولم يتعامل معهم إلاّ في سبيل مصالحه التجاريّة.

وصل الاثنان إلى باب المسجد فتوقّف أبو سالم، وضع يده على ظهر زياد وقال: «تفضّل يا أخي. أنت على اليمين والتيامن من سنة نبيّنا عليه الصّلاة والسلام.

تفضّل باسم الله».

بعد انتهاء الصّلاة جلس أبو سالم وزياد بالقرب من المنبر يتحادثان في شؤون الثورة الوليدة المفاجئة. لم تمرّ دقائق حتّى التحق بهم رجل بثوب أبيض في جيبه على الصدر مسواك يبدو رأسه كالفرشاة وتغطّي وجهه لحية كثيفة سوداء تفوح منها رائحة مسك قويّة:

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أبا دجانة.

مدّ أبو دجانة يده إلى زياد وعصرها بحماس.

- هذا هو أخونا زياد، أبو طارق.

عرَّفه أبو سالم إلى زياد.

فورًا ومن دون مقدّمات دخل أبو دجانة في موضوع الثورة وقال: «هؤلاء العلمانيّون الملاحدة يريدون الاستيلاء على ثورة المسلمين المستضعفين. إنّهم يطمعون في نظام كنظام هذا الزّنديق بن علي الآفل قريبًا بإذن الله. يجب قطع الطريق أمامهم، وهذا واجبكم أنتم يا شباب الأمّة. بكم سيصل المظلومون إلى رغائبهم وينتهي الظلم. اليوم يوم الثأر من الظالمين».

كـان أبـو دجانـة مـن ضـمن الـذين أطلـق سـراحهم فـي بـداية الثـورة مـن سـجون بـن علـي. أراد النظـام فـي تـونس منـع الطوفـان فـأطلق فـي بـداية الاحتجـاجات كثـيرًا مـن السّجناء بينهم إسلاميّون متطرفّون أيضًا.

«اليوم يوم الجهاد. حين يتهاوى النظام سيبدأ الجهاد الأعظم ضد هذا المجتمع الكافر. إنّ هذا المجتمع الذي نأى عن الدين لن يستطيع تأسيس نظام عادل. لماذا شاع الظلم؟ لماذا كان في استطاعة كلب واحد من كلاب بن علي أن يتحكّم في مصير مدينة ويحرق أهلها بنيران جوره؟ من منّا، من منكما لم يذق علقم ظلم هؤلاء الكفّار؟ لماذا كانوا يمارسون كلّ هذا الظلم؟ لأنّهم ابتعدوا عن صراط الدين وجعلوا الكفّار أولياءهم من دون الله. لقد ابتعدوا عن نهج الله ورسوله. اليوم سيُزهق الباطل، سينتهي كلّ هذا الظلام ويبزغ نور العدل. بفضل أمثالكم سيتحقّق هذا المراد إن شاء الله».

أعيدت هذه الجمل وأمثالها مئات المرّات على مسامع زياد. لم يتركه أبو سالم وأبو دجانة. لاقت تلك الأفكار صدى طيّبًا في نفسه أيضًا. لم يهتمّ به أحد في حياته كما اهتم به هذان الأخوان. شعر بقيمة نفسه كإنسان. أيقن أنّ بإمكانه إحداث التّغيير في مجتمعه والانتقام لنفسه ولأمّه، وفوق كلّ ذلك فهو ينفذ وعد الله لعباده.

كانت تونس تغلي وتفور. الشّباب والصّبايا، والنّساء والرّجال ينزلون بالآلاف يريدون إسقاط النّظام ورحيل الحاكم.

شعر زياد لأوّل مرّة في حياته بالانتماء إلى الجماهير. شعر بامتلاكه قوّة خفيّة عظيمة لانهائيّة. منحته أحاسيسه تلك لذّة تفوق ما كانت الخمرة تمنحه قبل تركها.

أسكرته الثورةُ والثوراتُ خمرٌ.

* * *

- بن علي هرب. بن علي هرب. المجرم هرب. المجد للشّهداء. العظمة للشّهداء. والبقاء للشّعب التّونسيّ. تحيا تونس الحرّة.

نقلت وسائل الإعلام في العالم كلّه هذه الكلمات مساء الجمعة حين هرب زين العابدين بن علي من تونس. مشى محامٍ تونسي يضع نظارة طبيّة ويرتدي بيجامة رياضيّة في شارع قليل الإضاءة خالٍ من المارّة تمامًا وصار يهتف ويخاطب التّونسيّين، يبشّرهم بهروب الديكتاتور ونيلهم الحرّيّة. أسكرته الحرّيّة تلك اللّيلة فغادر داره إلى الشّارع سكرانًا وما هو بسكران.

حـين شـاهد زيـاد المتسـمّر ذلـك المسـاء فـي البـيت أمـام

الشاشة الفضيّة ما يجري، فار دمه من الفرح. كان المحامي التّونسي يهتف بحماس عارم وبدا من خفيّه الرياضييْن وبيجامته أنّه خرج للتوّ من منزله يبشّر النّاس بهروب بن علي. مزّق نداؤه أستار ليل العاصمة بينما ظلّ زياد يحدّق في المشهد بعيون جاحظة غير مصدّق ما يسمع ويرى. أشعل لفافة تبغ جديدة بلفافته المشتعلة وسحب نفسًا قويًّا من الدخان ثمّ نهض وارتدى سترته وخرج على عجل. انطلق يركض في الشوارع الخالية المعتمة متوجّهًا إلى منزل زوج أمّه دون أن يلتفت إلى شيء آخر.

مع انتصاف اللّيل، آن بدأت النجوم تغسل وجه تونس بضوئها، وصل زياد إلى باب المنزل. لم يشأ أن يدقّ الجرس. ضرب الباب بقبضته. فتحت امرأة خمسينيّة الباب وسألت:

- خير؟ من أنت وماذا تريد؟

لم يجبها زياد. دفعها عن الباب ودخل متّجهًا إلى غرفة زوج أمّه السّابق. كان متمدّدًا على الفراش يتأوّه.

- أنا زياد.

قالها بنبرة حادّة. ذهل الضّابط المشلول. لم يصدّق ما تراه عيناه. من أين خرج هذا الولد؟ أهو في كابوس؟ لقد كبر ابن زوجته السابقة، وها هو يقف على رأسه. لم يحد زياد بنظراته عن عيني الضابط المشلول وصرخ:

«أستطيع أن أنسى كلّ شيء. ضربك لي ولأمّي. الخوف الذي غرسته في قلبي. عودتك من تعذيب النّاس مخمورًا في أنصاف اللّيالي وشجارك مع أمّي. كم من النّاس عذبتهم لا أعرف. لكنّني أعرف نوع الفظائع التي ارتكبتها في السّجن. قتلت قطّتي التي كنت أتسلّى بها كي أنسى فقدان أبي. أستطيع أن أنسى فعلتك الوحشيّة تلك أيضًا يا ابن الكلب. لكن الذي لا يمكنني نسيانه أبدًا تلك اللّيلة القاسية حين تبولت على وجهي. مستحيل أن أنسى تلك اللّيلة. مازال طعم ملوحة بولك في فمي.

رائحته الوخّازة لم تغب عن أنفي طيلة هذه السنين. منذ زمن بعيد أبحث عن تحقيق العدالة، كنت أريد نصب ميزانها بيدي بيني وبينك. لكنّني لم أستطع ذلك.

كانت يدي قصيرة بالرغم ممّا ملكته من ثروة. كنتَ أنت السّلطة وأنا مجرّد فرد. كنت أنت الدّولة وأنا مجرّد مواطن مسحوق. هل سمعت الخبر السعيد؟ هرب سيدك بن علي مثل ثعلب والحمد لله. ترك كلابه الذين على شاكلتك وراءه وهرب. لقد حان دورنا الآن. حان دور الذين تحمّلوا أبشع أنواع الظلم على مدى سنوات طوال. لم أكن سوى مجرّد طفل أيّها الظالم. طفل يتيم الأب، مكسور

الجناح، مرعوب. أكنت تسترجل عليّ وعلى السجناء الذين لا طاقة لهم بمقاومتك؟ ها أنت الآن ذلك الطفل اليتيم الضعيف. لا أب ولا أم، لا ظهير ولا نصير. ذق إذن من العلقم الّذي أذقتني إيّاه كلّ تلك الأعوام».

تهدج صوت زياد وارتعش بدنه من شدة الغيظ. فتح على مهل، وهو يتحدث، الأزرار المعدنيّة في بنطاله الجينز إلى أن أخرج عضوه ودلّاه فوق رأس الضابط المبهوت وبدأ يتبوّل على وجهه. كانت المرأة التي فتحت الباب لزياد واقفة في إحدى زوايا الغرفة تتنقّل ببصرها مرعوبة مذهولة بين زياد والضّابط الذي يكاد البول يغرقه.

لم ينتظر زياد جوابًا من الضابط، ما إن انتهى من التبوّل حتّى بصق على وجهه مزرّرًا بنطاله ثمّ خرج.

كانت الشوارع خالية.

صرخ فيها بأعلى ما في حنجرته من صوت:

- زال الظلم يا توانسة. من كان له ثأر عند كلب من كلاب بن علي فليثأر بنفسه لنفسه. حكّوا جلودكم بأظافركم ولا تنتظروا عدالة مستقبليّة يمكن ألاّ تتحقق.

بن علي هرب. بن علي هرب فقوموا لتقطعوا أذناب كلابه التي لم تتّسع لها طائرته الرئاسيّة فبقيت هنا تلوّث أرض تونس.

* * *

همدت نيران الحقد المتراكمة على مدى سنوات لدى زياد في تلك اللّيلة بعد أن بال على وجه الضابط المشلول. انتقم لنفسه كانسًا ميراث تاريخ من الرّعب. شعر بنفسه خفيفًا مثل ريشة طائر تحرّر من القفص فتلاعبت بها ريح لطيفة.

ازدادت علاقته وثوقًا بالجماعة يومًا بعد يوم. اطمأنّ إلى أقوالهم عن ضرورة محاربة الظّلم. صار يشاركهم اجتماعاتهم ويصغي إليهم على مدى أشهر. اشتعلت في قلبه نيران حقد جديدة مكان تلك النّيران التي همدت. شبَّت نيران الحقد على المجتمع الكافر الخارج عن دائرة الدين، المجتمع الذي لم تستطع الثورة أن تطهره.

المجتمع الذي تركه فريسة ظلم هذا الضّابط ولم يتحرّك لنصرته. ترك زياد الشّراب، أطلق لحيته وصار يرتدي ثوبًا قصيرًا يحمل في جيبه مسواكًا على الدّوام ولا تفوته صلاة.

- لا بدّ من ثورة إسلاميّة على منهاج النبوّة. يجب إنهاء هؤلاء العلمانيّين الصّعاليك وإقامة شرع الله القويم ولو بحدّ السّيف.

سمع زيادٌ الأميرَ أبا دجانة يقول لجماعته بعد أداء صلاة الفجر في بهو المسجد.

بعد شهور رأى زياد أنّه يتنكّب بندقيّة، بندقيّة سيحقّق بها وببنادق إخوانه الآخرين العدالة المفقودة. كانت تونس تغلي. صعد حزب قريب من الإسلاميّين سدة الحكم. قُتِل بعض ضبّاط الشرطة. وفي نهاية شهر تموز هاجم زياد ومجموعته المسلّحة قوة من الجيش التونسي بالقرب من جبل الشّعانبي على الحدود مع الجزائر فقتلوا ثمانية من أفرادها.

بدأ قلب زياد يقسو يومًا بعد آخر. لم يستطع تبوّله على زوج أمّه أن يطفئ نيران الأحقاد المشتعلة في صدره.

- على الدّم أن يُراق. فهو وحده الذي سيطفئ الحرائق التي أشعلها الظالمون في أرواحنا.

ولم يكن للدّم الذي يراق في سوريا مثيل في أيّ مكان آخر من الدنيا. الظلم، القتل، التعذيب وتدمير المدن والتشرّد والاعتداء على الأعراض والتّعذيب الوحشي في سجون النّظام، أفلام قصيرة نشرتها صفحات النت عرضت ما تقشعرّ له الأبدان. هذه الفظائع أصبحت مادة استثمرها الإسلاميّون في كلّ مكان لإبراز مظلوميّة الشعب السّوريّ وجعلوها مغناطيسًا يجذب الشّباب ويسحبهم من بلدانهم كالمسامير ليتوجّهوا بعد ذلك إلى سوريا.

كان زياد أحد تلك المسامير، خلعته مظلوميّة الشعب السّوري من جبل الشعانبي في خريف 2013 ليجد نفسه بعد مدّة وجيزة في عنتاب التركيّة قريبًا من الحدود.

من هناك دخل إلى الأرض السوريّة وما هي إلاّ أيّام معدودات حتّى وجد نفسه في مدينة الرقّة.

- أهلًا بك يا أخي في أراضي الدّولة الإسلاميّة.

قال الشّخص الذي استقبله بحفاوة وهو يشير إلى صفّ من الرّايات السّود في أحد الميادين.

الأفعى

كان أوّل وآخر شخص نحره زياد عسكريًا شابّ من الجيش الحرّ. علّمه أميره أبو شامل الداغستاني في درس عملي كيفيّة نحر الضحايا أوّل ما التحق بصفوف التّنظيم:

- أمسك بذقنه وارفعه هكذا.

أمسك أبو شامل ذقن الضّحيّة بقبضته التي يغطّيها قفاز تظهر منه أصابعه الغليظة وواصل شرح آداب النحر:

- عليك أن تمدّده على بطنه أو تجعله يجثو على ركبتيه. وجهه إلى الأرض وظهره للسماء. ولتحد شفرتك وتمرّرها على رقبته لا قريبًا من الرأس ولا قريبًا من الجسد بل في المنتصف. هكذا.

ثم فصل الرأس في لحظات خاطفة.

كان القتل بالرّصاص عاديًا بالنسبة إلى زياد، لكنّه بقي يخاف من منظر النّحر. ثمّ تعود رويدًا رويدًا واقتنع أن من يُنحرون مرتدّون يحاربون الله ورسوله ويجب قتلهم. ومع ذلك فقد فشل في محاولته الأولى والأخيرة حين أراد نحر ذلك الشاب السّوري الذي خرج على نظام مغرق في الوحشيّة. ارتجفت يد زياد وارتخت ولم يستطع الإمساك بالحربة، جرح الضحيّة المقيّدة وهو يمرّر السكّين دون أن يستطيع فصل الرأس ثمّ نهض عنه بتوتّر شديد وأطلق رصاصة واحدة قضت عليه.

أعفاه الأمير من هذه المهمّة قائلًا له:

- كثير من رجال الدّولة الجدد هكذا في البداية. لكنّني واثق أنّك ستجيد النحر بل وستجد فيه متعتك.

* * *

تلا قائد مجموعة زياد بعد التوغّل في كوباني آيات وأحاديث كثيرة، وقال إنّ الأرض لله وسيرثها لعباده الصالحين وسترتفع راية لا إله إلاّ الله في كلّ مكان وهذا وعد صادق وقول حقّ.

- ستكون لدينا العشرات من الجواري والإماء. الذكور للذبح والإناث للنّكح.

مَنَّى أحد المسلّحين نفسه.

لكنّ زيادًا ورفاقه اصطدموا بواقع آخر: المدينة خالية من السكّان، البيوت مهجورة ولا شيء غير القتال الشرس الذي لم يتوقّعوه. قُتل العشرات منهم. سقطت القنابل والصواريخ عليهم من السماء، فقتلتهم ودمّرت المكان الذي يتمركزون

فيه. جاءتهم تعزيزات كثيرة من الرقّة وسلوك وتلّ أبيض والشيوخ وجرابلس وعين عيسى دون فائدة. أصبحت المدينة فخًّا للموت. استغربوا هذا الأمر. كيف احتلّوا في غضون يومين مئات القرى المتوزّعة على مساحة شاسعة ودخلوا أحياء كثيرة من المدينة، لكنّهم يعجزون عن احتلال بقعة صغيرة ربما لا تتجاوز مساحتها كيلومترًا مربّعًا! أي سرّ يكمن في هذا الأمر؟ بدأ المسلّحون يتساءلون فيما بينهم. لم يعد ثمّة مجال للهرب أو الانسحاب.

أصبح الموضوع موضوع تحدٍّ أمام أعين العالم. إمّا كوباني أو الموت. توجّهت كلّ الأنظار إلى تلك البقعة الصغيرة من العالم. أصرّ المسلّحون على أن يستولوا على كامل المدينة. كوباني أصبحت في كل نشرات الأخبار التلفزيونيّة ومانشيتات الصّحافة العالميّة. أصبح الموضوع بالنسبة إليهم قضيّة مصيريّة بعد أن أطلقوا على المدينة اسم عين الإسلام واهتمّوا بها في إعلامهم بدرجة لا تقلّ عن اهتمام إعلام العالم بها.

لم تستطع أطنان من تراب الأيديولوجيا الدينيّة أن تطمر ضمائر بعض المسلّحين فندموا. كان زياد واحدًا منهم. بحث عن منفذ للهروب فلم تواتِه الفرصة. أراد أن يسلّم نفسه للمقاومين فلم يجد فرصة لذلك أيضًا. أخيرًا ترك زورق حياته لأمواج القدر ترمي به أنَّى شاءت.

تعجّب حين شاهد في حارة واحدة مئذنة مسجد الشريعة الشامخة ثمّ مئذنة مسجد سَيْدا. كان قد صادف في طريقه قبل أن يشاهد المئذنتين مساجد كثيرة من شيران إلى مِكْتَلة وصولًا إلى حارة سَيْدا. رأى كتبًا دينيّة ونسخًا جميلة من القرآن موضوعة بعناية في أغلفة مخمليّة مطرّزة معلّقة على جدران كثير من البيوت. بدا أن تلك النسخ تُقرأ إذ شاهد بين صفحات كثير منها أرياشَ طواويس وحمام علامة على بلوغ قرّائها في التّلاوة تلك الصفحات.

تلاطمت أفكار كثيرة في رأسه وهو يحدّق في القطتين الجائعتين المنهمكتين في ازدراد قطع الخبز. أصبح رأسه قدرًا تغلي فوق نيران الشّكوك والهواجس المختلفة. ما الذي أفعله؟ أين أنا وأين اختفى سكّان هذه البلدة ومن هم الذين أحاربهم؟ من الذي أتى بي إلى هنا، إلى هذه الحرب، إلى هذا الجحيم؟ لقد تركت مدينتي وتلك الحكومة التي ظلمتني وظلمت أمّي وجئت إلى هذا المكان النائي لأحارب الملاحدة؟ أيّهما أولى بكفاحي يا ترى؟ كوباني أم بن قردان؟ بلادي التي لم تنجح فيها الثورة بعد أم سوريا التي صرت أجهلها أكثر مذ وطئت قدماي أرضها؟

التفّت الأسئلة على رقبته كحبل مشنقة. أنشبت مخالبها وأنيابها في روحه. تذكّر وجوه الذين قام بتصفيتهم بطلقة يتيمة في الرّأس واستغرب أنّه اعتاد على القتل بسهولة وسرعة. تراءت له النّظرات الأخيرة لمن قتلهم، حشرجات الحلاقيم، تدفّق الدّماء القانية الساخنة والقطرات الأخيرة

التي كانت تسيل ببطء شديد ثمّ يتوقّف النزف. مثل شريط سينمائي عبرت الصّور والمشاهد في خياله. بقي يحدّق في القطتين التائهتين. نظر في عيونهما المتوسّلة الخائفة فتذكّر قطّته الشقراء ولحظاتها الأخيرة في الحياة إلى أن ضاق صدره وشعر بالاختناق. رمى ما تبقّى لديه من خبز ناحيتهما ثمّ نهض وسار في اتّجاه مسجد سَيْدا.

رأى كلّ البيوت خرساء، حزينة وموصدة الأبواب. لا رائحة للحياة فيها. لا أثر يدلّ على أن بشرًا سكنوا تلك البيوت على طرفي الشارع.

مضى صوب الشمال يرافقه صمت مرعب لا تقطعه، حتّى أصوات الرّصاص والاشتباكات وهدير طائرات تحوم كأنّها طيور سكرى. حين وصل قبالة المسجد سمع صوت أغنية كان يحبّها كثيرًا. أغنية لم يسمعها منذ أن تعرّف إلى أبي سالم أثناء وجوده في تونس. وقف مذهولًا. خاف. أصغى السمع جيّدًا وعرف أنّ الصّوت قادم من بيت في الزاوية يبعد أمتارًا قليلة.

جذبته الأغنية التي اشتاق إليها، الأغنية التي طالما اعتبرها مطابقة لواقع حاله. اتّجه إليها، إلى الدّار التي تصدر عنها الأغنية. على جانبي الباب الحديد كتبت عبارات الترحيب بزائر بيت الله: حجًّا مبرورًا وسعيًا مشكورًا. صورة للكعبة وتحتها عبارة بخطّ أنيق: أهلًا وسهلًا بزوّار بيت الله الحرام. لمس حديد الباب. ضغط زر الجرس.

لم يسمع صوتًا. الكهرباء مقطوعة. وفجأة اتّسعت عيناه من الدهشة وكاد يسقط مغشيًّا عليه. فرك عينيه ليتأكّد أنّه ليس في حلم. قرأ الاسم مرّتين وثلاثًا: منزل الحاج مسلم حَمْزِراقْ. أسعفته ذاكرته الفتيّة بالتعرّف إلى الاسم لأوّل وهلة. أهي معقولة كلّ هذه التقادير؟ أهذا هو فعلًا بيت والد صديقي محمد صالح ابن الحاج مسلم صاحب الحفّارة الذي عرفته في تونس قبل أعوام؟

تناهت إلى سمعه كلمات أغنية «مسافر» بوضوح. الأغنية التي سمعها مئات المرات في نوادي وملاهي تونس والجزائر ورقص مخمورًا على أنغامها. إنّها هي نفسها يتردّد صداها في سكون ساعة الأصيل الصامتة هذه في حارة سَيْدا ومن بيت رفيق لياليه الحمراء بالذات.

تلاطمت في ذهنه أمواج بحر هائج. اختلط صخب تلك الأمواج المزبدة بصدى الأغنية:

«عارف آخر محطَة في السفرة متاعي هي الموت لكن مجبور نكمل سفري كيما النّاس الكلّ مالقيت الحل آخرتي كيما آخرة النَاس الكلّ التّراب والدّود.

ساعات نسأل روحي علاش موجود؟

نحبّ نهرب مالواقع نلقى روحي فيه مشدود.

....

مانيش ملحد، عارف فَمَّا ربي في الوجود عارف الّي الموت حقّ مانيش نلوّج عالخلود.

مسافر وحدي ليوم من مكان لمكان هارب باش ننسى غدر الزمان الّي كان.

سفري ليوم طويل... الحمل فيه ثقيل.. زاد قليل... الطريق مازال قدّامي طويل.

نبكي عالفراق.. آه يا ماضي ليك مشتاق.

حياتي رحلة الماضي كان فيها أحلى.

رحلة حياتي بدات مع أوّل بكية بكيت رحلة حياتي بدات مع أوّل خطوة مشيت.» لم تهدأ أصوات الاشتباكات. لكنّه لم يعد يسمع سوى اشتباكات الهواجس والأفكار في روحه. لم يعد يسمع سوى صراع الشك واليقين. ظلّ يركّز على كلمات الأغنية التي كان يجد نفسها فيها. دفع الباب فانفتح بسهولة غريبة. ذكَّرته سهولة فتح الباب بدخولهم إلى كوباني في البداية من دون مشقّة. توجّه إلى حيث صوت الأغنية. دخل غرفة فسيحة. رأى مسجّلة على طاولة صغيرة وقرآنًا معلّقًا على الحائط الجنوبي يتوسّط صورتين لشابّين تشبه ملامحهما ملامح صديقه محمد صالح الملقب حَمِهْ.

اشتدّ تلاطم الأفكار في رأسه. تذكر لياليه الصّاخبة في تطاوين وبن قردان وتونس ومدن الجزائر. تذكر كيف أنّ صديقه محمد صالح ابن الحاج مسلم كان يصرّ أن يدفع حساب الملهى كلّ ليلة جمعة.

لم يعرف زياد أنّهم يتوجّهون إلى كوباني إلاّ حين صار في قلب المدينة. قال رفاقه إنها مدينة تُسمّى عين العرب، لكنّها في دولة الإسلام تُسمّى عين الإسلام. عرف بالصدفة أنّ هذه المدينة هي كوباني التي حدّثه رفيقه عنها وتمنّى كثيرًا أن يحلّ ضيفًا عليه فيها ذات يوم:

- عندنا في كوباني مقصف جميل يقدم الخمر. وبالقرب منّا في الحارة مسجد. كلّ منهما يبعد عن بيتنا حوالي ثلاثين مترًا وأنت حرّ أيهما تختار.

قال له حَمِه ذات سهرة وهو يضحك.

ردّ عليه زياد وهو يفرغ ثمالة كأسه في جوفه:

- لست محتاجًا إلى بيت خاصّ لأصل إلى ربّي يا صديقي. لقد جعل سدنةُ الشريعة الطريقَ إلى الله طويلًا جدًا مع أنّه أقرب للإنسان من حبل الوريد. هذا بيت ربّي.

وأشار إلى قلبه.

استمرّت الأفكار والهواجس تشتبك في خياله. «أليس من الممكن أن يكون صديقي ذاك واحدًا من ضحاياي؟ ألا يمكن أن يكون هو مقاتلًا وأقتل على يديه؟ أي دنيا عجيبة؟ أي عبث؟ لا. حتّى رحم أخصب خيال لا يمكنه إنجاب قصّة مثل هذه. إنّه فيلم» تـذكّر الموسـيقى الصـاخبة، الأضـواء الخاطفـة، رائحـة التبـغ وعطـر الفتيـات القـادمات مـن أعمـاق تـونس والغائصـات فـي أعمـاق البـارات والمـراقص. تناوبتـه أحاسـيس مختلفـة. صـار خيالـه أرجوحـة تنـوس بـين حاضـر تـراق فيـه الـدماء ويُقتـل الـنّاس فيـه علـى الشـبهات وبـين مـاضٍ طفولتـه مـن شـوك وشـبابه مـوزّع بـين خمـارات البـلاد وصرف المال على المتع والملذّات. ناست أرجوحة الخيال بين ماض قاسٍ في وطن لم يختر الولادة فيه وحاضر أكثر قسوة في بلد اختار الانتقال إليه للجهاد وإعلاء كلمة الله والموت دونها.

- لكنّنا لم نُعْلِ سوى تلال الجماجم، ولم تمت سوى ضمائرنا.

حدَّث ذاته غاضبًا ثمّ أخذ يدور حول نفسه كمن يبحث عن شيء حتّى لمحت عيناه علبة دخان فمدّ يده إليها. وجد فيها ستّ لفافات. سحب واحدة وأشعلها نافخًا دخانًا كثيفًا في فضاء الغرفة ومحدّقًا من خلال حلقاته إلى سنواته الماضية.

تـذكر البـارات التـي كـان يرتـادها بعـد أن يـهبط عشـر درجـات. تـذكّر ليـالي الجمعـة حـين يلتقـي بصـديقه محمـد صـالح الـذي يتكـلّم العـربيّة برطانـة واضـحة ويقضّيـان سـهرات ممتعة. تذكّر تلك الأجساد السمراء التي أنضجتها شمس أفريقيا، بائعات المتعة اللّواتي يحمن حول البارات والملاهي اللّيليّة ويقدّمن فنون اللّذة وأطباق الشّهوة إلى ذكورة مجتمع أخصاه الحاكم وحاول تدجينه في ظلال خصيتيه.

أوشـكت اللّفافـة أن تنتـهي، فأشـعل زيـاد واحـدة أخـرى بـها. شـعر بـدوخة لـذيذة. كـانت تلـك اللفافـةُ السـيجارةَ الأولـى لـه منـذ أن تركـها بعـد تعرّفـه إلـى أبـي سـالم وصحبه. حمل علبة الدّخان التي بقيت فيها أربع لفافات ووضعها في جيبه ثمّ تجوّل قليلًا في الدّار. أعجبه منظر الورود المصفوفة بعناية. وجد بعضها ذابلًا فحمل إبريق ماء وسقاها. قطع ورقة ليمون وفركها بين أصابعه، ثمّ شمّ رائحتها الزكيّة بعمق. مدّ يده إلى الدّراجة الناريّة ولمسها. تذكر أنّه كثيرًا ما سار بين دروب تونس الصحراويّة والساحليّة بدرّاجة ناريّة يستعيرها من أحد أصدقائه.

- بلا شكّ كان محمد صالح يستعملها داخل المدينة بدلًا من سيّارته.

أسرَّ لنفسه واتّجه إلى المطبخ. فاحت رائحة الطعام. رأى أوعية المونة مصفوفة

بجانب الجدار الشمالي: جبنة وزيتون ورب بندورة وهريسة فليفلة حمراء ومكدوس ومربّيات ومخلّلات وورق عنب وغيرها من الخضار المجففة كالباذنجان والباميا والفليفلة والكوسا والطماطم بالإضافة إلى صنوف المونة كالبرغل والأرز والعدس والطحين وأنواع البهارات. بحث بين الأشياء دون أن يعرف سببًا لذلك، أزاح ستائر النافذة المطلّة على باحة الدّار وفتح الخزانة التي اصطفت فيها الكؤوس والصحون وبعض القدور والمقالي والملاعق. وقعت عينه على زجاجة صغيرة مختبئة خلف الصّحون. مدّ يده إليها وقرأ بدهشة: عرق الرّيّان. إنّه نفس العرق السوري الشهير الذي أهداه محمد صالح قنّينة منه ذات أمسية قبل أن يسافر إلى الجزائر. تذكّر طعمه الحادّ ونكهة اليانسون اللّطيفة فيه: «كانت ألذّ من البوخا».

قال لنفسه بعد أن فتح غطاء القنّينة وشمّ ما فيها. تناول بشكل لاإراديّ كأسًا رشيقة من الخزانة، ثمّ صب الربعيّة في الكأس وصار يكرعها حتّى أتى عليها كلّها.

- أنا أفعى. نعم أنا أفعى.

قبض على لحيته وشدّها إلى أسفل مكرّرًا عبارة أنا أفعى حتّى أحسّ بالألم في حنكه ووجهه، ثمّ نظر إلى ثيابه وقال بنبرة هي مزيج من الحزن والغضب والقرف:

- وهذا الجلد ضيّق عليّ. أضيق من قبرٍ.

شعر بالإنهاك فجلس على أرض المطبخ يتذكّر فيلمًا وثائقيًا شاهده في القناة الوطنيّة الأولى قبل أعوام. كانت أفعى صحراويّة تنسلخ عن جلدها بصبر. أفعى رقطاء عيناها مغشّيتان بطبقة بيضاء من الجلد القديم تبحث عن مكان صلب بين الرّمال لتضرب رأسها به فتشقّ الجلد وتخرج منه رويدًا رويدًا. صارت الأفعى تغرز مقدّمة رأسها في الرمل وتحكّها به. تأتي وتروح قلقة بادية الضجر من جلدها الذي ضاق عليها وصار يعيق نموّ جسمها، حتّى تمكنت من خدش الجلد فأخرجت رأسها أوّلًا، ثمّ صارت تشد عضلات جسمها وهي تزحف، تنسلخ من جلدها الضيّق والسعادة ظاهرة على عينيها اللتين صارتا تريان جيّدًا بعدما زال ذلك الغشاء اللعين.

وما هي إلاّ دقائق معدودات حتّى انزلق الجلد عن الذيل بيسر وانسلَّت الأفعى زاحفة على الرّمال سعيدة بأنها تركت وراءها جلدَها، السجنَ الذي عاشت داخله شهورًا مديدة.

شعر زياد بعد أن استحضر مشهد انسلاخ الأفعى بأنّ ثوبه القصير وسرواله الفضفاض ضاقا عليه وآن أوان الانسلاخ. نظر من خلال باب المطبخ المفتوح إلى

باحة الدّار الخالية والأزهار الملوّنة التي بدأت تنتعش. سمع حفيف نسمة خفيفة تهزّ أغصان اللّيمون. كرّر حديثه:

- أنا أفعى. أنا أفعى سامّة.

صلاة الدّاعشيّ الأخيرة

شعر زياد بثقل في رأسه وتوتّر دفعه إلى النّهوض. نظر بحزن إلى ما حوله. قام بجولة قصيرة في فناء الدّار، قطع ورقة ليمون أخرى وفركها بين أصابعه، أدناها إلى أنفه، شمّها لثوان عدّة، ثمّ رماها على الأرض. مرّر أصابعه بين أزهار اللبلاب الصغيرة الشبيهة بمزهريّات دقيقة، كانت ثمّة أزهار أخرى جميلة مصفوفة بعناية في أصصها لم يعرف أسماءها. دهمته موجة حزن غامضة وقويّة فمشى إلى الباب وخرج إلى الشارع متّجهًا إلى المسجد تنتابه مشاعر غريبة لم يعهد مثيلها في حياته.

وصل بعد ثلاثين خطوة خطاها جنوبًا إلى باب المسجد. ولمَّا همَّ بالدّخول رآه من بعيد أحد المسلّحين من مجموعته فناداه:

- خيرًا يا أبا طارق؟ عمّ تبحث يا أخي؟

لم يردّ عليه زياد، لكنّه رفع يديه إلى رأسه ثمّ وضعهما على صدره مقلدًا تكبيرة الإحرام في إشارة إلى أنّه يريد الصّلاة. دخل المسجد المقفر، ثمّ مشى بضع خطوات حتّى اقترب من باب يفضي إلى بهو المسجد.

لمح على اليمين حجرةً صغيرة كُتب على جدارها بالعربيّة: الميضأة. دخلها فوجد صنابير مياه نحاسيّة مغروزة في الجدار على صفّ واحد. جربها كلّها. كانت ناضبة لم تجد له ولو بقطرة ماء.

اتّجه إلى البهو الكبير. رأى الثريات تتدلّى من سقف البهو الفسيح الصامت مثل عناقيد عنب. درجات المنبر الخشبي مغطّاة بقماش أخضر. ثمّة أربع نوافذ في الجدار الجنوبي. نافذتان على يمين المحراب ونافذتان على شماله. هناك ما يقرب من خمسين نسخة من القرآن عند المحراب. توجّه إليها وتمعّن فيها بحزن. حين صار في المحراب دقّت ساعة الحائط المعلقة على اليمين خمس مرات. وقف زياد وصار يصغي إلى الرنين العذب الذي اختلط بأصوات الرّصاص المرعبة في الخارج.

حـين انتـهت السّاعـة مـن إفصـاحها عـن وصـول الزمـن إلـى نقطـة محـددة، جلـس زيـاد فـي المحـراب ونظـر إلـى الآيـة المكتوبـة فوقـه: «فـولِّ وجـهك شـطرَ المسـجد الحـرام» وقال:

«لقد ولّيت وجهي شطر الموت والقتل. وليت وجهي شطر الخراب. يا إلهي ماذا فعلتَ بي؟».

تذكّر ما قاله الأمراء من بن قردان حتّى عنتاب إلى حلب وإلى الرقّة: «إنّنا نقاتل الكفر وسنرفع راية التّوحيد في كلّ مكان. النصيريّون الكفرة يظلمون أهل السنّة

والجماعة. وإن نصرة المظلومين فرض على كلّ مسلم. إنّ الجهاد فرض عين الآن. جاهدوا فإمّا أن تستشهدوا وتنالوا الجنّة أو تروا بأعينكم كيف تنهار دولة الظّلم».

ثارت الأسئلة في ذهنه:

«كان النّاس يأتون بلا شكّ إلى هذا المسجد. لقد شرّدناهم كلّهم. أهكذا تُزال دولة الظلم؟ كان في هذه الحارة بلا شكّ أطفال يملؤونها ضجيجًا عذبًا وحياة ملوّنة.

من يدري لعلّهم كانوا يصدحون بقراءة القرآن يوميًّا. ماذا أفعل هنا؟ أرض مجهولة، مدينة خالية وبلاد بعيدة. لقد جئت من تلك الأقاصي إلى هنا لأحارب الملاحدة. وهل الملاحدة يبنون المساجد ويقرؤون القرآن؟ إنّني في المكان الخطأ. أي درب سلكته؟ دماءٌ دماء دماء. لم أجد سوى سفك الدّم منذ أوّل يوم وطئت فيه قدماي أرض سوريا. هذه البلاد مسلخ وأنا أحد القصّابين. قتلت النّاس. فكيف حدث ذلك؟ من فعل بي هذا؟ من هم الذين كنّا نمسك بهم ونرميهم في تلك الحفرة السحيقة المسمّاة «الهُوتة»[26]؟ لقد ألقينا بالعشرات هناك وهم على قيد الحياة. كيف سأنسى صراخهم؟ لماذا قتلناهم؟ وهل كانوا يستحقّون القتل فعلًا؟

كانوا يقولون لي اقتل فأقتل. لم أعد إنسانًا. تحوّلت إلى آلة. آلة للقتل تعمل من دون إرادتها. لقد كانت حياتي الماضية، تلك المليئة بالصّخب في النوادي والبارات وملاهي اللّيل أطهر من هذه الحياة. لقد تحوّلت إلى ذئب دون أن أشعر. أنا ذئب. ذئبٌ شرس».

رفع وجهه إلى سقف المسجد وصار يعوي كالذئاب. ردّدت الجدران العارية صدى عوائه. عوى ثانية وهو يمدّ يده إلى لحيته الكثّة الطويلة. نظر باشمئزاز إلى ثوبه القصير، أنزل بندقيّته عن كتفه ووضعها أمامه. نظر إلى النوافذ الملوّنة المطلّة على باحة المسجد:

«لقد كانت حياتي فيما مضى ملوّنة بهيجة كهذا الزجاج البديع. الآن هي سوداء. سوداااااء مثل لحية أبي دجانة. ما الذي فعلته بنفسي يا إلهي بعيدًا عن أمّي وعن بلادي، لا بيت ولا عائلة ولا وطن؟».

نهض حاملًا بندقيّته من جديد. وقف في المحراب وناجى نفسه:

«لا مجال الآن للخروج من المستنقع. لا فرصة للهرب. إن حاولت سيقطعون رأسي بتهمة الفرار يوم الزّحف. الموت أمامي. الموت خلفي. هو فوقي وهو تحتي. وهو بين يدي أوزّعه على النّاس. محاصر أنا بالموت من كلّ جهة».

رفع رأسه مرّة أخرى إلى الآية فوق المحراب وناجى:

«الآن سأولي وجهي شطر الكعبة الحقيقيّة. سأصلّي آخر صلاة في حياتي».

وضع فوهة الرشاش على قلبه وثبت الأخمص على الأرض وثنى جذعه كمن يركع في الصّلاة. لم يضف شيئًا آخر. ضغط ببساطة شديدة بإبهامه على الزّناد وهو يحدّق في نقوش السجادة الممدّدة على أرض المحراب.

صخب الصّمت

كان بيتنا قطعة من الجنّة. تتوسّط باحةَ الدّار بئرٌ محفوفة بالنعناع. إلى شرق البئر تتّكئ دالية عنب على أربعة أعمدة نسمّيها العرش. وإلى شمال الدالية ترتفع شجرة رمان كانت أحبّ الأشجار إلى أمّي، فلا تستظلّ إلاّ بظلّها. ومن كثرة ما كانت تقرأ القرآن تحت تلك الشجرة صرت أظنّ أنّها لن تزهر ولن تثمر إذا لم تسمع القرآن بصوت أمّي الدافئ. في الصباح كانت أمّي، بعد أن تنتهي من عمل الخبز في التنّور، تأتي إلى صديقتها الشجرة، تجلس وتمدّ ساقيها المتألمّتين من كثرة الوقوف عند التنّور ثمّ تفركهما وتشكو غدر الزمان.

في الجنوب مدّت شجرة تين أسود ظلالها على التراب، سمقت شجرة خوخ وارتفعت شجيرة زيتون تزهر أواخر الربيع أنوارًا صفراء صغيرة بهيّة اللّون. أمّا في الجنوب الشرقي فقد شمخت في الجو شجرتا صنوبر يعشش زوج يمام بين أغصان إحداهما كلّ عام. في الشرق وزعت شجرة توت أبيض أغصانها على مساحة كبيرة من الدّار، كانت شجرة التوت تلك مرتعًا لمئات العصافير الزائرة التي تحطّ على الأغصان هربًا من حرّ الصيف وبرد الشتاء، ثمّ تغدو إلى وكناتها في المساء.

وكنّا، حين ينضج التوت صيفًا، نضرب الجذع بقوّة أو نهزّ الأغصان بعصيّ طويلة أو يصعد أحدنا ليخبط غصنًا برجله، فتتساقط الثّمار الحلوة كحبّات لآلئ على الأرض فنلتقطها، ننفخ عليها ونزيل الغبار عنها، ثمّ نلقيها في أفواهنا.

بجانب شجرة التّوت الأبيض تلك، كانت دالية عنب أخرى من نوع العنب الرازقي ونسمّيه «بالْـمَهْ» تمدّ ظلالها الوارفة فوق مساحات صغيرة تصطفّ فيها أصص الورد والأزاهير المختلفة.

حول البئر زرعت أمّي أنواعًا كثيرة من الأزهار والورود، فسائل الباذنجان والطماطم، الذرة الشامية، عباد الشمس، أزهار الشامبو التي تتفتّح مع غروب الشمس وحتّى صباح اليوم التّالي، زهرة الخريف البنفسجيّة نجميّة الشكل وكانت أحبّ الأزهار إلى قلبها وتناسب مزاجها الحزين، اللبلاب، وحتّى البصل والفجل والرشاد والبقدونس وغير ذلك من النباتات المنزليّة.

أحيانًا، خاصّة خلال غياب والدي عن البيت، كنت أعود من الشارع أو المدرسة فأسمع صوت المغنّي الكرديّ محمد شيخو يتناهى حزينًا مختلطًا بجلبة ماكينة الخياطة سينجر التي مذ فتحت عيني على الدنيا رأيت أختي جالسة على كرسيّ أمامها تخيط لنا ثيابًا وسراويل وصداري المدرسة.

مرَّات كثيرة أخرى، حين كان الباب ما يزال خشبًا، كنت أدفعه فأسمع من جهة البئر صرير البكرة المعدنيّة، إذ يمرّ الحبل عليها وأرى أختي الكبيرة، التي ربّتني بدل أمّي، واقفة تسحب الماء من البئر وتملأ أباريق وأوانٍ مصفوفة بجانب حقل النعناع. ثمّ أراها، بعد أن تنتهي من ملء الأباريق بسائل الحياة، تميل على الحقل الأخضر اللّمّاع تسكب عليه دلوًا أو دلوين.

كثيرًا ما وقفت بالقرب من البئر ونظرت فيها مستندًا بجذعي إلى حافتها أصيح: ها. فيردّد الصدى من القاع صوتي: ها آ آ آ. كنت أشعر كلّ مرّة برعشة خوف لذيذة فقد سمعنا في القصص أنّ بعض أنواع الجنّ يعيش في قيعان الآبار. وبالرّغم من مشاعر الخوف فقد كانت رغبة غامضة في النّزول إلى الأسفل تستبدّ بي لأكتشف هويّة من يقلّدني.

وكم هدّدت أمّي أو إحدى أخواتي حين يضايقنني بأنّني سألقي نفسي في البئر. أركض حافيًا صوبها فتلحقني أختي الكبيرة وتضربني بالشبشب على قفاي لئلاّ أعيد الأمر.

في الصيف، قبل أن نعرف الثلاّجات، كنّا نقوم بتبريد الفواكه بأن نضعها في سلة ونُدليها في البئر لتصل إلى حدّ الماء وتبقى هناك ساعة أو ساعتين، ثمّ نسحبها باردة عند الحاجة.

عامًا بعد عام غارت المياه الجوفيّة في كوباني. بدأت آبار البيوت تنضب ونقصت المياه في بئرنا أيضًا، فجاء جارنا رجل المهمّات الصّعبة الصوفي فخري وهو أحد مريدي جدّي وحفرها قليلًا لتغزر المياه، لكن لم يدم ذلك طويلًا، إذ انتشرت الآبار الارتوازيّة في كلّ مكان وأصبح المزارعون يسقون حقولهم وبساتينهم منها على حساب آبار البيوت.

نضبت بئرنا.

ماتت البئر التي منحت دارَنا الحياةَ طويلًا.

* * *

مازلت أمام الباب أتخيّل صرير الحبل إذ يُنزل الدلوَ إلى البئر.

أريد أن أتقدّم لكن كومة من الحجارة تمنعني. لا أصدّق ما تراه عيني. الدنيا مقلوبة في دارنا. صمت يخيم كأن لا نسمة حياة في هذا العالم. كأنّ الدّار بئر مهجورة نضب ماؤها منذ أعوام. لا إنس ولا جن. الصالون الذي جلب أخي حجارته المرمر من مدينة منبج وأحضر أمهر البنّائين لبنائه تهدم. حجارة منحوتة كثيرة وقعت من الجدار الجنوبي لغرفنا الواقعة شمال الدّار. الحجر المكتوب عليه تاريخ 1952 لم يعد موجودًا. يبدو الجدار مثل جسد أثخنته الجراح. لا، بل يبدو مثل جثة ميّت.

الصّمت يخيفني.

فجأة أسمع صوت ابن أختي محمد:

- أنت هنا يا خال؟

- حمودة!

أردّ مذهولًا.

ابن أختي محمد الذي يتجوّل بين ركام الحارة مثل ذئب وحيد، لا ينتظر إجابتي ولا يردّ عليّ. يوليني ظهره ويخرج من الباب الذي تركته مفتوحًا. ألحقه فأراه يتّجه إلى بيت أخي الأكبر. هناك تتمدد جثّتان لمسلّحين من داعش ملفوفين ببطانيّة. أرى ابن أختي يقف قربها ويحدّق فيهما وهو يضع يديه في جيبي البنطلون. لا أفهم تصرّفه هذا ولا فيم يفكّر.

- بعد أن أنهي جولتي هنا سأذهب أيضًا لأرى هذه المخلوقات التي تسبّبت في دمار مدينتي.

ألمح درجًا حديديًّا على اليمين يصعد إلى سطح البيت. إنّه درج حديث. مازالت غرفة الضيوف الواقعة شرقًا موجودة ونافذتاها الجنوبيتان مشرعتين. أدخل تلك الغرفة أوّلًا. إنّها عارية، مغبرة ومليئة بحجارة صغيرة. المكتبتان اللتان على شكل نافذتين في الجدار الغربي مفتوحتان. أغمض عيني وأستدعي الماضي. تمضي الصور والمشاهد مثل نهر وتعبر خيالي. في السّابق كانت النافذتان اللّتان أراهما الآن خزانتين ملأهما أبي بكتب الفقه والتّفسير والصّرف والنّحو والسّيرة والمنطق والعقيدة.

كانتا تحويان أيضًا بعض المخطوطات مثل مكتوبات مولانا خالد النقشبندي وبعض حواشي الفقه بالإضافة إلى بعض الكتب القديمة التي يعود تاريخ طباعتها إلى مائتي سنة تقريبًا وبعضها مطبوع في مطبعة بولاق الشّهيرة.

حين أحسّ والدي بدنوّ أجله باع كتبه. دعا أحد تجّار الكتب الحلبيّين إلى بيتنا وكنت موجودًا معه:

- أعرف أنّكم لن تقرؤوا هذه الكتب.

قال لي بحزن وهو يعرض الكتب التي جمعها منذ شبابه على التاجر الحلبي.

بعد ذلك انتقلت الغرفة إلى عهدة أخي خلّو، ثمّ أصبحت غرفتي التي بدأت وأنهيت فيها ترجمة مم وزين إلى العربيّة. كثيرًا ما جاء أبي ليمسك بعضادتي الباب يسأل:

- ماذا تفعل يا ولدي؟

- أترجم مم وزين وأشرحها يا أبي.

- اكتب يا ولدي اكتب. مم وزين كتاب في غاية الصعوبة. لم نكن نفهم أبياته حين كنّا طلّاب علم.

في تلك الغرفة أنهيت أيضًا كتابي الشعري الأوّل باللّغة الكرديّة: ملحمة قلعة دِمِدم التي بلغت ألفًا وثمانمائة بيت. أنجزت ذلك وأنا في العشرين من عمري. كنت فتى يافعًا متحمّسًا أظن أن كردستان مستقلّة وحرّة وموحّدة يمكن أن تأتي على يد بضعة مسلّحين.

في اللّيل أجلس إلى طاولتي أمام آلة كاتبة عتيقة من نوع إنتركونتيننتال اشتراها أخي خلّو من سوق الجمعة في حلب، ثمّ في مرحلة لاحقة صادرها جهاز الأمن العسكري حين داهم منزلنا مع ما صادره من القواميس والكتب الكرديّة. على تلك الآلة الكاتبة دققت الملحمة الطويلة كلّها. كنت أضع بطانيّة تحت الآلة الكاتبة لئلاّ تصدر صوتًا فيسمعها العسس ويخبروا عن ارتكابي جرم الكتابة.

فوق الطاولة إلى الأعلى، قريبًا من السّقف، كانت ثمّة كوّة صغيرة، نافذة شرقيّة بطول نصف متر وعرض سبعين سنتيمترًا حين يراها أهل الحارة مضاءة يعرفون أنّني موجود فيأتون لزيارتي. ولمّا رأيت أن تلك الزيارات تهدّد كتابتي عمدت إلى حيلة تجعلهم لا يعرفون أنّني موجود في الغرفة فأغلقت النافذة من الداخل بلوح رقيق من الخشب فانقطعت الزّيارات العشوائيّة.

في هذه الغرفة عقدنا سهرات كثيرة، لعبنا الشطرنج، بحثنا في الأدب والسّياسة، استمعنا إلى الأناشيد الدينيّة والموسيقى، مارسنا الشقاوات، ضحكنا وبكينا واستقبلنا عددًا لا يحصى من الضيوف والزوّار.

أغادر الغرفة بحزن ولا أعرف ما الذي يجذبني إلى سطحها!

أصعد عبر الدّرج الحديديّ حتّى أصل إلى السّطح. أتلفت حولي. ركامٌ ركامٌ ركام. على مد البصر خرائب وأنقاض. دور جيراني وإخوتي لم تعد موجودة. يبدو الأمر كما لو أنّ زلزالًا مدمّرًا ضرب المكان.

لم يبق من بيت إحدى أخواتي، التي تفرّق أولادها بين تركيا والسويد وإسبانيا وألمانيا، سوى حفرة كبيرة. ألم شرسٌ يغرز أنيابه في حنجرتي. أرغب في البكاء فلا أستطيع.

بكاء؟

البكاء وسط هذه الكارثة تهريجٌ.

أقول لنفسي بصوت أسمعه: «هل بقي شيء لم أبكِه!».

لا أرى محمّدًا. لكنّ جثّتيْ الداعشيّين ما تزالان في مكانهما عند باب بيت أخي.

أشكّ في حقيقة ابن أختي، إنّه ليس سوى شبح، أسر لنفسي.

أسمع صوتًا. إنّها تكتكات ساعة. لا أستغرب. ففي هذا الصّمت الرهيب يستطيع المرء أن يسمع صوت إبرة تقع على صخرة في مِشْتَنُور.

أتّجه وأنا ما أزال على السّطح إلى الغرب.

الصّوت قادم من الأسفل.

قطار يرسم الحدود

بعد أن أوصل حَمِه أباه وزوجته وولديه إلى الحدود ليعبروها مع الآلاف من النّاس عاد بأمّه التي لم تستطع المشي إلى بيته القريب من مسجد الحاج رشاد. قرر أن يعود بأمّه على أمل أن يأخذها لاحقًا، فلعلّ الترك يفتحون الحدود لعبور السيّارات أيضًا.

في اليوم التّالي أخذ حَمِه أمّه مرّة ثانية إلى الحدود، فبقيا هناك حتّى المساء، ولكن من دون فائدة. بقيت الحدود مقفلة في وجه النّازحين الذين استظلوا بسيّاراتهم وجرّاراتهم الزّراعيّة ووسائل نقلهم الأخرى. ربطهم الأمل في فتح الحدود إلى ذلك المكان القفر بحباله القويّة فلم يتزحزحوا عنه.

لكن انتظارهم ذهب عبثًا. ذابت أحلامهم على سكّة القطار التي ترسم حدود دولتين منذ عقود طويلة. أغلقت الحدود إذن ولم يعد حتّى الطير يستطيع العبور.

قبل عشرات السّنين رسمت تلك الحدود على صدر التّراب الأسير بيد أهل المنطقة أنفسهم مثل سيفين في يد القدر. مدَّ أجداد أولئك المنتظرين على الحدود تلك السكّة التي قسّمت الأرض بين قوميتين على تلك الجغرافيا العاهرة وصارت خنجرًا في خاصرة قوميّة لا دولة لها، فانقسمت العشائر والعائلات والتّراب والماء والهواء، حتّى انقسمت اللّغة أيضًا في أفواه أفراد تلك القوميّة الملعونة: العربيّة أسفل السكّة والتركيّة أعلاها. حين كان الأجداد يمدّون تلك السكّة اللّعينة كانوا يهزجون ويغنّون أغانيهم الفولكلوريّة بالكرديّة التي ستُمنع فيما بعد على طرفي الحدود.

هاهم الأحفاد بعد قرن كامل يقفون أذلاّء أمام حدود وضعها أجدادهم بأيديهم عاجزين عن عبورها. ينتظرون بعيون دامعة أن يحنّ الأتراك عليهم، يحدّقون بنظرات متوسّلة فاغري الأفواه إلى الجنود من حرس الحدود.

قالت خانِهْ لابنها:

- خذني إلى البيت يا بني. إن كان لا بدّ فليأخذ الله أمانته منّي على فراشي. ذلك أفضل من أن أموت في هذه البرّيّة مثل الكلاب.

- حاشاك يا أمّي. لا تقولي هذا الكلام. ستُفتح الحدود وسنلتحق بأبي وعَيْشه.

- إن شئت أن تلحق بهم فاذهب. أما أنا فلن أذهب ولو قامت القيامة هنا.

اضطرّ حَمِه أن يبقى مع أمّه. اتّصل بأبيه وشرح له الوضع. غضب الحاج مسلم كثيرًا:

- طيّب والحلّ؟

- اصبر يا أبي. أنت رجل مسلم وما عند الله خير.

- لا إله إلاّ الله. إنّه عليم بنا على كلّ حال.

أصبحت خانِهْ دائمة الأنين والشّكوى. آلمها تشتّت أسرتها، آلمتها فكرة دخول داعش إلى المدينة في أيّ لحظة، آلمها أنّها تنام لأوّل مرّة في حياتها بعيدة عن بيتها الذي أحبّته واعتنت به كلّ يوم بالرغم من آلام قدميها.

أعدّ حَمِه لأمّه مكانًا في غرفة من الطّابق الثاني قريبة من الحمام، وبقي يعتني بها ويسهر على راحتها. يذهب بين الفينة وأختها إلى النافذة المطلّة على الشّارع فيصغي إلى صوت الاشتباكات وينظر إلى المدينة الخاوية. تسأله أمّه: «ما الذي يجري في الخارج يا بني؟» يجيبها بثقة: «لا شيء يا أمّي. حارتنا بعيدة عن خطر الاشتباكات».

بعد أيّام، نزل حَمِه إلى المطبخ يعدّ الطعام له ولأمّه، فسمع صوت طرق على الجدار الملاصق لمنزل جاره.

«هل يُعقل أن يكون جاري قد عاد إلى منزله؟ لا ليس هو. فلو عاد لرأيته على الأقلّ وسمعت جلبته. ربما هم اللّصوص. لكنّ المدينة خالية وليس فيها سوى المقاتلين. فقط أمّي وأنا لن نقاتل». انتابته هذه الهواجس وضحك حين تخيّل أمّه في زي المقاتلات تحمل بندقيّة وتقاتل بجانب ابنتها رَوْشَنْ.

لم تنقطع حيرته فبقي بجانب الجدار إلى أن وجد لبنة بناء تقع ثمّ تبعتها لبنة ثانية فثالثة وسط ذهوله. سقطت بعض اللبنات فانفتحت طاقة في الجدار:

- متين!

بُهت حمِه. كانت السكين ما تزال في يده وهو يقف متوثّبًا أمام الطّاقة التي تسمح لشخص واحد أن ينفذ منها.

إنه شقيقه متين فعلًا. البندقيّة على كتفه والمطرقة في يده.

- حَمِه هذا أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

- هذا بيتي يا أخي. أنتم ماذا تفعلون هنا؟

- لا تخف. ألق السكين من يدك. أنا ومعي الرّفاق.

- ماذا تفعلون؟

وضع متين قدمه في المطبخ بعد أن نفذ من الطّاقة وقال:

- هذا من تكتيكات حرب الشّوارع. نحن لا يمكننا أن نعبر الشوارع كما نريد خوفًا من قنّاصي العدوّ.

- إي!

- إي إي. نحن مضطرّون إلى أن نفتح الطاقات والكوى في الجدران لننتقل من هنا إلى هناك.

رد متين على أخيه، تقدم قليلًا ونادى رفاقه الآخرين وهو يضحك:

- تعالوا يا رفاق. تعالوا هذا بيت أخي. لقد خرّبت بيته بيدي.

دخل من الكوّة ثلاثة مسلّحين وسلّموا:

- مرحبا رفيق.

ردّ حَمِه تحيّتهم ممتعضًا، ثمّ نظر من خلال الكوّة إلى بيت جاره الشاب الذي حضر حَمِه حفل زواجه قبل شهرين وأهداه مروحة سقف من نوع توشيبا رآها ما تزال معلَّقة تتدلّى منها مصابيحها الخمسة.

قال متين:

- جيد يا حَمِه أنّك في البيت. هؤلاء الرفاق الثّلاثة ضيوفك. أمّا أنا فسأذهب. الرّفاق ينتظرونني.

- ألن تسلّم على أمّك؟

- سلّم عليها. أنا مستعجل سأذهب.

قال متين ثمّ غاب عبر الكوّة التي فتحها مع رفاقه قبل قليل.

زمَّ حَمِه شفتيه مستغربًا، ثمّ مشى نحو الكوّة وهو ينوي أن يناديه مرّة أخرى ليزور أمّه لكنّه اختفى عن أنظاره.

* * *

يوم دخلت داعش من جهة مِكْتَلة إلى المدينة، حاول حَمِه كثيرًا أن يتصل بأخته رَوْشَنْ لكنّ هاتفها لم يردّ. تغلغل الخوف في قلبه وكاد يطفر من عينيه ويزهر على وجهه، لكنّه أخفى مشاعره خشية أن تلاحظ أمّه ذلك. كان يمني نفسه بأن المقاتلين هناك سينسحبون إلى داخل المدينة. وحين رأى راية داعش ترفرف على هضبة مِشْتَنُور أدرك خطورة الموقف وشعر أنّ الموت في طريقه إلى المدينة. اتّصل بأخيه متين:

- ما هي الأخبار يا متين؟

- لا شيء غير المقاومة.

- هل تعلم شيئًا عن رَوْشَنْ؟ أمّك تسأل عنها.

- لماذا؟

- أمّي وأنا نقلق عليها.

- ولماذا تقلقان عليها؟

- نخاف أن يحدث لها مكروه. لا سمح الله تقع في الأسر أو تستشهد.

- أمّا الأسر فهذا مستحيل. رفاقنا يضحّون بحياتهم ولا يقعون في قبضة العدوّ. أمّا إذا استشهدت فهذا شرف وفخار. لا أفهم خوفكما وقلقكما.

- إنّها ما تزال صغيرة وأمّي تقول...

- كلّ هذا من تأثيرات العدو والأفكار الإقطاعيّة. عليك أن تفهم فلسفة المقاومة. على المرء أن يراجع نفسه وأفكاره. هذه حربٌ يا حَمِه وليست عرسًا.

- يا أخي دعك من هذا الكلام الكبير. المهم رَوْشَنْ وماذا...

- لا وقت لديّ الآن. الرفيق حمزة ينتظرني.

أنهى متين المكالمة وأغلق الهاتف.

شعر حَمِه بألم صفعة قويّة على وجهه، أحس بماء مثلج ينسكب على بدنه وجمرة تحرق كيانه. لم يعد يهدأ. أراد معرفة مصير أخته وحسب. أراد أن يعرف هل هي أسيرة أم شهيدة! وبينما هو واقف تتناهبه الهواجس سمع صوت سيّارة مسرعة قادمة من الشرق. نزل حَمِه على عجل وأصبح خلال أقلّ من دقيقة في الشارع. أشار بيده للسائق فأوقف السيّارة، سأله حَمِه السائق بلهفة:

- خير يا رفيق! ما هي أخبار الجبهة الشرقيّة؟

- سيطرت داعش على مِكْتَلَة وكانيا عَرَبانْ. استشهد جميع الرفاق هناك و أصيب آخرون. معنا في السيّارة شهيدة وإحدى الجريحات.

- لحظة لو سمحت يا رفيق. لحظة واحدة فقط.

صاح حَمِه وهو يمسك بباب السيّارة حين رآها تنطلق من جديد:

- هل قلت معكم رفيقة شهيدة؟

- نعم يا رفيق. الشّهيدة بهار. بهار كوباني.

أخرسته الدّهشة. وقف لبرهة مثل تمثال حجري ثمّ قال بتضرّع:

- دعني يا رفيق أراها لحظة واحدة فقط. الرفيقة بهار أختي الصغرى.

- لا يا رفيق علينا أن نستعجل. معنا جريحة يجب أن نسعفها فورًا. وسندفن الشّهيدة في مقبرة الشهداء.

Made in Swiss

دقّات السّاعة المجهولة التي أسمعها في هذه اللّحظة تذكّرني بمحلّ إصلاح السّاعات لشقيقي خلّو.

في بداية الثمانينيات من القرن المنصرم استأجر أخي محلًاّ في القيصريّة التي بناها الأرمن ليقوم بإصلاح السّاعات بعد أن ترك تدريس اللّغة الإنكليزيّة.

فور دخول المرء إلى المحلّ، كانت تحاصره التكتكات التي تصدرها ساعات مختلفة موضوعة في كلّ ركن: ساعات حائط، ساعات رجال، ساعات نساء، إلكترونيّة وذات عقارب، من اليابان وسويسرا والصين وساعات منبّهة كانت تَرِدُ بكثرة إلى المحلّ لإصلاحها في موسم شهر رمضان.

كنت أتساءل أحيانًا وأنا أساعد أخي في إصلاح ساعة معطوبة: «أيّ عقل هذا الذي عرف الزّمن ثمّ صنع آلة يقيسه بها؟».

يلاحظ أخي أنّني ساهم شارد الذّهن، فيسألني:

- خير يا أخي؟ فيم تفكّر؟

- أفكّر في ما جعل الإنسان يتعرّف إلى الزمن وكيف بدأ ذلك.

يضحك أخي. يمدّ لي ساعة معطوبة ويقول:

- أزل شعرة وقحة تعيق حركة مسننات هذه السّاعة الآن، وحين نعود إلى البيت سنتحدّث عن فلسفة الزّمن وآلات قياسه. هذه ورشة عمل يا أخي، وليست قاعة محاضرات في فلسفة الوجود.

مع هذه الذكرى، وعلى وقع تكتكات مجهولة أتذكّر سويسرا وسفري إلى جنيف.

أضع بعض اللّبنات الإسمنتيّة فوق بعضها مثل كرسيّ وأجلس. أستعيد تفاصيل ذلك السّفر وأنا أحدّق في الخرائب حولي.

مع بدء الثورة السوريّة تشكّلت المئات من المنظّمات والمجموعات حتّى وجدت نفسي ذات يوم عضوًا في مجموعة استشاريّة لدى مبعوث الأمم المتّحدة الأخضر الإبراهيمي.

ذهبنا مرتين إلى جنيف للتباحث مع المبعوث الأمميّ في مكتبه الواقع في مبنى الأمم المتحدة ولإسداء المشورة وبحث سبل الحلّ في سوريا.

حين هاجمت داعش كوباني شعرت بالعجز عن فعل أيّ شيء. رأيت أن وجودي في تلك المجموعة التي سمّيت مجموعة دعم السلام كعدمه. ماذا أفعل في مجموعة تذهب إلى جنيف وتأتي دون أن

تكون قادرة على منع الطّوفان عن بلدي؟

«إن لم تكن قادرًا على إشعال شمعة فالعن الظّلام على الأقلّ». كتبت في صفحتي على الفيسبوك.

لم أكن قادرًا على إشعال شمعة لأجل كوباني، لم أستطع أن أجعل روحي شعلة لأجل لياليها البائسة. أكان ذلك جبنًا؟ أكان ذلك بسبب خلافي السّياسي مع السلطات الكرديّة الحاكمة في كوباني؟ هل كان ذلك بسبب عدم الثّقة؟ لا أدري. لكنّني أصبت بما يشبه الشّلل. أعلنت انسحابي من مجموعة دعم السّلام.

اتّصلت بي المسؤولة عن المجموعة وهي أكاديميّة مقيمة في لندن، بعد أن اطّلعت على إعلان انسحابي في الإنترنيت، وقالت لي: «هل تريد أن تفعل شيئًا لأجل مدينتك؟» قلت «نعم بلا شكّ ولكن كيف؟» فقالت: «انسحابك ليس حلًّا. تعال في الأسبوع المقبل إلى جنيف وستلتقي مجموعتنا مع مبعوث الأمم المتّحدة الجديد السيد دي ميستورا. ليكن هذا حضورك الأخير إن شئت. ربّما كان في إمكانك فعل شيء لمدينتك المهدّدة».

تردّدت بين الرفض والقبول مثل رقّاص ساعة حائط إلى أن استقَرَّ رأيي على الذهاب. سأذهب وأشارك فربّما كان في ذهابي نفع لمدينتي وأهلها المنكوبين. قلت لنفسي. ثم:

- سآتي.

أرسلت رسالة قصيرة إلى زميلتي في لندن وتهيّأت للسّفر.

* * *

أتأمّل الآن أطلال مدينتي وخرائب حارتي. لم أعد أسمع تكتكات السّاعة من شدّة حزني. ألقي نظرة على بيتي الحجري الجميل الذي بعته وسافرت بثمنه إلى أوروبا.

لم يبق منه سوى الجزء الشرقي والباقي صار ركامًا. لا أرى بيت أختي الذي عشت فيه بعد وفاة أمّي وأبي. أختي التي استقرّت في حلب مع بناتها، ثمّ هربت منها إلى إسطنبول حين تحوّلت الثورة إلى حرب.

لا أرى بيت أخي، ولا بيت أخي الثاني ولا الثالث أيضًا.

لا شيء سوى الركام.

* * *

في التّاسعة والنّصف كان اجتماعنا في مكتب الأمم المتحدة في جنيف.

خرجت في الصباح الباكر من الفندق وذهبت لأتمشّى بجانب بحيرة ليمان. كان صباحًا رائعًا وَهَبَت السماء فيه للأرض مطرًا رذاذًا وهبَّت نسمة قادمة من سطح البحيرة أنعشتني. فكّرتُ في ما سأقوله للسيد دي ميستورا وماذا بإمكانه أن يفعل من أجل مدينتي؟ وهل تفيد اجتماعات ذوي النيات الحسنة في الغرف الأنيقة الفارهة بشرًا يفترشون العراء لا يجدون شيئًا يستضيئون به ويتدفّؤون عليه إلاّ أمانيَّهم؟

وشت أمواج تلك البحيرة بأسرار مئات الاجتماعات بل آلافها. كانت أمواجًا لطيفة حكت لي أسرار لوزان وكيف أنّ المؤتمرين هناك دقّوا آخر مسمار في نعش أحلام الكرد قبل عشرات السنين. حكت لي الأمواج الرّاقصة على ضفاف البحيرة أسرار اجتماعات كثيرة بعضها عُقد لإيقاف الحروب فعجز لتستأنف الحروب حصادها الأليم للأرواح.

بعد جولة نصف ساعة على ضفة البحيرة رافقني فيها القهر وصحبتني الحسرة وتلك الخيالات عدت إلى الفندق حيث أقيم لننطلق من هناك إلى موعدنا المحدّد.

كنّا ستّة أشخاص: زميلتي الناشطة من لندن، ممثّل وزارة الخارجيّة السوريّة السّابق، أنا وثلاثة أشخاص آخرين صعدنا الترام ووصلنا بعد عشر دقائق إلى المحطّة القريبة من مبنى الأمم المتّحدة.

هناك رأيت مئات النّاس من شتّى أنحاء الأرض يحملون في حقائبهم الصغيرة همومًا كبيرة لأوطان مثل وطني تعرّضت للحروب والمآسي فجاؤوا يبحثون عن حلّ ويتعلّقون بقشّة لم تنقذ أيّ غريق اسمها جنيف.

راجعت وأنا في الترام ما سجّلته من ملاحظات وما ينبغي عليّ قوله في مقابلتي مع السيّد دي ميستورا.

تبعنا الزميلة القادمة من لندن حتّى وصلنا إلى المبنى الكبير، ودخلنا بعد إجراءات تفتيش صارمة وتدقيق في الهويّات، ثمّ صعدنا إلى الطابق الثاني وتوجّهنا إلى حيث مكتب وزير الخارجيّة المصري سابقًا ونائب المبعوث الأممي السيّد رمزي عزّ الدين. استقبلنا الوزير السّابق ورحّب بنا، وبعد أن جلسنا في حلقة مفتوحة حول طاولته قال معتذرًا: «السيّد دي ميستورا لا يمكنه اليوم أن يستقبلكم. هو مشغول وسيكون بعد قليل على الهواء مباشرة ليتحدّث إلى الإعلام.» أصبت بخيبة أمل وندمت على مجيئي. طفحت عينا زميلتي اللندنيّة أيضًا بالخيبة وصارت تنظر إليّ ثمّ إلى الآخرين كأنّها تعتذر. ولكسر الجليد الذي سبّبته لنا تلك الصدمة ابتسم الدبلوماسي المصري وقال: «أيّها السادة إلغاء موعد اليوم لا يعني إلغاء اللقاء مع السيد دي ميستورا نهائيًا. سنعيّن بلا شكّ موعدًا آخر للقائه.

الأزمة في سوريا لن تنتهي سريعًا». ثمّ استدرك قائلًا: «أرجو ألاّ تفهموني على عكس ما أقصد. نحن نسعى إلى حلّ الأزمة وإيقاف العنف الوحشي ونأمل أن يحلّ السّلام ويهنأ الشعب السوري».

ثم بدأنا نعرّفه بأنفسنا وحين جاء دوري وقلت:

- أنا من كوباني.

ابتسم وهزّ رأسه ورأيته يومئ للموظّفة فجاءت إليه فوشوش في أذنها بكلام وسرعان ما خرجت من الغرفة.

ثم تباحثنا وإيّاه في الشأن السّوري وسبل حلّ الأزمة التي تعصف بالبلد وإنهاء الحرب، وقدّمنا له نسخة من خارطة الطريق التي أعددناها للمبعوث الأمميّ. لم تكد تنقضي خمس دقائق حتّى عادت الفتاة لتقول:

- يريد السيد دي ميستورا الاجتماع بكم لمدّة نصف ساعة.

تسارع نبض قلبي.

بعد برهة دخل رجل أبيض الشعر، طويل القامة رشيقها، يرتدي قميصًا أبيض وربطة عنق ذهبيّة منقطة بالأزرق. سلّم علينا مصافحًا المجموعة فردًا فردًا. وحين وصل إليّ وصافحني، قدمت له نفسي فقال:

- أعرف ذلك. وأنا جئت لأجل أن أسمعك.

وجلس في مواجهتي:

- ما هي أخبار كوباني؟

- قتال، تشرّد، ولاجئون بالآلاف.

- فلنضع مسألة اللاجئين على طرف الآن. كيف هي حال المقاتلين داخل المدينة؟

- الوضع سيّئ. إن استمرت الأمور هكذا فإنّ كوباني ستسقط. لم يبق في يد المدافعين عن المدينة سوى حارة صغيرة هي حارة الجمرك. لا توجد أسلحة ثقيلة. تلك الحارة محاصرة من ثلاث جهات من قبل داعش.

- هل هم بحاجة إلى مقاتلين إضافيّين؟

- لا. لكن هناك حاجة إلى أسلحة.

- ما رأيكم في مساعدة تركيا؟

- بالنّسبة إلى الأكراد هناك حساسيّة تجاه الأتراك. لن نرحّب بمساعدتهم ولا أعتقد أن فكرة التدخّل التّركي ستكون فكرة صائبة. سيعتبر الأكراد دخول قوات تركيّة حتّى ولو بحجّة مساعدتهم احتلالًا.

- يمكنها أن تساعد من خلال فتح الحدود والسّماح بدخول الأسلحة إلى المقاتلين.

مساءً، كنت لوحدي في غرفتي بفندق إيبيس القريب من محطة قطارات جنيف. لم يكن أحد يعلم بأحزاني ولا بوحدتي ولا بمسعاي الأخير. من درج خزانة صغيرة حملت الكتاب المقدّس وقرأت قليلًا من مراثي إرميا: «كيف جلستْ وحدها المدينةُ كثيرةُ الشعبِ! كيف صارت كأرملةٍ العظيمةُ في الأمم؟ السّيّدة في البلدان صارت تحت الجزية! تبكي في اللّيل بكاءً ودموعها على خدّيها. ليس لها مُعَزٍّ من كلّ محبّيها. كلّ أصحابها غدروا بها».

في التلفزيون شاهدت وقائع مؤتمر دي مستورا الصّحفي الذي عقده بعد الخروج من محادثتنا، رأيته يحمل في يده خارطة كوباني ويشير إلى مناطق وصول عناصر داعش.

أنهض عن تلك اللّبنات الإسمنتيّة التي هيّأتُها قبل قليل مثل كرسي. أواصل التوجّه غربًا ببطء فوق سطح المنزل. أسمع دقات السّاعة بوضوح أكثر.

أرى كوباني المدمّرة، أرى كوباني المدينةَ كثيرةَ الشّعب جالسةً وحدها كما وصف إرميا القدسَ في مراثيه. أرى قلبي المتهدّم، أرى ذكرياتي القتيلة وطفولتي الضّائعة أيضًا، ولا أشعر إلاّ وأنا فوق سطح غرفتي الصغيرة السّابقة أحمل خارطة الهمّ الكبير في قلبي.

السّقف القاتل

قبل أن تغرب الشّمس دوّى صوت انفجار هائل. ترك حَمِه أمّه وصعد إلى السطح فرأى المسلّحين الثلاثة ينظرون إلى جهة المخفر ويتحدّثون:

- طار المخفر.

- رأيت بعيني كيف تناثرت الأشلاء في الفضاء.

- لقد قضى الرفاق هناك جميعًا.

- هذا يعني أنّ المدينة سقطت ولا فائدة من المقاومة.

- لا تقل ذلك يا رفيق.

نظر حَمِه إلى جهة حارة سَيْدا حيث يقع المخفر المستهدف. لم يبق أيّ أثر منه سوى البرجين الشاهقين. زلزل الخوف قلبه وفهم أنّ من الصعب إيقاف هجوم داعش. «إنّه الطوفان» قال في نفسه.

نظر إلى السماء فرأى الطائرات الأمريكيّة تحوم دون أن تقصف أي هدف لداعش. صرخ فيها بغضب:

- ما أنت إلاّ دجاجات لا تبيض. دأبك القأقأة.

حاول الاتّصال بأخيه متين عدّة مرّات فلم يفلح.

أخيرًا فكّر في زوجته:

- ألو. عَيْشه!

- ألو. مين؟ حَمِه أهذا أنت؟ ما الخبر؟ ما هذا الدّويّ العظيم؟ كدنا نموت رعبًا هنا.

- عَيْشه سأخبرك بشيء لكن حذار أن يصل إلى أبي. استشهدت رَوْشَنْ. أنا رأيت جثمانها. أمّا الانفجار فهو من المخفر. لقد فجّروه. استشهد كلّ عناصر الأسايش.

- يا لطيف. يا ساتر.

- اِخفضي صوتك يا امرأة. لا أريد أن يصل الخبر إلى أبي.

- تمام تمام. ألا تستطيع المجيء؟

- المجيء؟ هل أنت مجنونة. الحدود مقفلة. حتّى الجنّ لا يستطيعون اجتيازها. وأمّي مريضة لا تستطيع أن تخطو خطوتين. على كلّ حال سلّمي على أبي وكما قلت لك: لا تخبريه بشيء.

- تمام.

تنفّس حَمِه الصعداء بعد أن نقل خبر استشهاد أخته. نزل إلى أمّه. كانت ما تزال تصغي إلى أغنيتها الفولكلوريّة المفضّلة. جلس حزينًا مكفهرّ الوجه حائرًا لا يدري هل يخبرها أم لا! هل يتّصل بأبيه أم لا؟ لم يفعل شيئًا. جلب لأمّه كأس ماء وجلس صامتًا. سألته أمّه:

- ما هذا الانفجار الكبير يا بني؟ اهتزّت النوافذ والجدران حتّى ظننت أن السّقف سيسقط عليّ.

- حدث ذلك بالقرب من حارتنا. فجّروا المخفر.

- المخفر! ومن فعل ذلك؟

- من يعني؟ داعش.

- حَمِه ألديك أخبار عن رَوْشَنْ؟ اتّصل بها يا بني وافهم منها أين هي.

خرس حَمِه كأنّ أقفالًا ألقيت على شفتيه. كان سؤال أمّه حفنة ملح رُشَّت على جراح قلبه، لكنّه تماسك وقال ببرود:

- إنها بخير. تكلّمت معها قبل قليل. لا وقت لديها وهي تسلّم عليك.

- لا أفجعني الله فيكم يا ولدي.

ثم رفعت يديها بالدعاء:

- اللهم أطفئ هذه النيران بماء من عندك. اللّهم ارحم أمّة محمد جميعًا وأبعد عنّا غضبك.

- آمين آمين.

ردّ حَمِه ثمّ نهض وذهب إلى غرفة أخرى ليتّصل بأحد المسؤولين في كوباني:

- مرحبا أستاذ. أنا حَمِه، محمد صالح ابن الحاج مسلم حَمْزِراقْ.

- أهلًا أهلًا أبو سيامند. الواجب أن أتّصل أنا بك لأعزّيك لكنّك تعرف الوضع. المهمّ البقيّة في حياتك. لقد أثبتت الرفيقة بهار كوباني بدمائها أنّكم عائلة وطنيّة.

الشّهداء لا يموتون.

- شكرًا لك. الشّهداء لا يموتون. كنت أريد أن أسأل إلى أين تتّجه الأوضاع؟ إن كان من خطر علينا فسآخذ أمّي إلى حارة الجمرك لعلّها أكثر أمانًا. لقد سمعت أنّ الحارات الشرقيّة وبعض الجنوبيّة كلّها سقطت. سقطت كانيا عَرَبانْ، مِكْتَلَة، مِشْتَنُور، تلّة النبع. لقد وصلت داعش إلى مشارف حارة سَيْدا. حارتنا يعني.

- ما هذا الكلام؟ لا شيء يقلق. لا تهتمّ للإشاعات. هناك اشتباكات لكن الوضع تحت السيطرة.

- أرجو ذلك.

- طيّب. أكرر لك تعازيّ الحارّة.

بعد أن أنهى المسؤولُ الاتّصالَ أخذ حَمِه يفكّر:

«ياربّ اجعل هذا الذي نعيْشه مجرّد كابوس، خيال وتهيّؤات. من يصدّق هذا الذي نعيشه؟ أبي وعَيْشه وأولادي وراء الحدود. أنا وأمّي مثل سجينين في البيت.

رَوْشَنْ استشهدت بالقرب من مِكْتَلَة. متين عاد من الجبل ولا يسأل عنّا. لَوَنْدْ مقاتل في بيشمركة كردستان. باران اتّجه إلى الرقّة وانقطعت أخباره. ماذا سيحصل بعد؟ وهل سيكون هناك وضع أصعب ممّا نعيش فيه؟».

* * *

في يوم الجمعة، العاشر من تشرين الأوّل، لم ترتفع الصلوات من مئذنة مسجد الحاج رشاد وغابت تمامًا جلبة النّاس الذين كانوا يتوجّهون سابقًا إلى المسجد.

كذلك صمتت مئذنة مسجد سَيْدا وباقي مآذن البلدة. كانت تلك أوّل مرّة في حياة المدينة ذات المائة عام لا يُرفع فيها الأذان. هبط الصّمت كما لو أنّه حجر ثقيل.

كان حَمِه يتحادث مع أمّه ويشرب الشاي حين ناداه هاتف خفيّ فقال لها:

- سأذهب إلى الشّباب فوق لأرى هل هم بحاجة إلى شيء.

أخذ معه إبريق الشّاي وثلاثة كؤوس شفّافة ضيّقة الخصر وصعد إلى السّطح.

- أين ذهب هؤلاء؟

تلفّت حوله بدهشة وسأل بصوت مسموع.

كان المسلّحون الثلاثة قد غابوا واختفوا دون أن يشعر بهم أو يعرف إلى أين غادروا. حاول معرفة الموضوع ولم يكن أمامه بدّ من الاتّصال بجاره المسؤول وسؤاله:

- يا أستاذ. لقد تركنا المقاتلون وذهبوا. إن كان هناك خطر سنغادر نحن أيضًا!

- لا يا أخي لا. كم مرّة سأقول لك إنّ الخطر يتركز في الجهة الشرقيّة! والمقاتلون لم يتركوك إنما هم يبدّلون مواقعهم حسب التعليمات. لا تنس أنّنا في حالة حرب.

لم يطمئن حَمِه إلى جواب المسؤول. أحسّ باقتراب الخطر. لكن إلى أين سيتّجه؟ الرّصاص يلعلع والأرض تهتزّ والشمال حدود مقفلة. الأفضل أن يبقى مع أمّه في البيت ينتظران الفرج. كانا وحيدين في الحارة تكفيهما مونة البيت

لمدة أسبوعين تقريبًا.

عند الغروب لاحظ وهو يطلّ من النافذة حركة غريبة. لمح أربعة أشخاص يتجولون في شارعهم. بدا من شكلهم أنّهم عناصر من داعش. «لقد وصلوا إذن». همهم لنفسـه. لـم يعـد أمامـه أيّ مجـال للـهرب. تخـيّل أنّ المسـلّحين الأربعـة يصـعدون إليـه وأنّه يقـول لـهم: «أمّي عجـوز مريضـة وأنـا بقـيت لأجـل رعايتـها وأنـا لا علاقـة لـي بشـيء».

«لكنّ هؤلاء الظالمين لا يعرفون مريضًا ولا عجوزًا ولا طفلًا. يذبحون كلّ من تطاله سيوفهم». قال في نفسه وذهب ليجلس بجانب أمّه ويهمس لها:

- يبدو يا أمّي أن داعش في الحارة؟

- يا لطيف.

- لا ترفعي صوتك. لقد رأيتهم بعيني حين نظرت من النافذة.

- هات إبريق الماء. سأتوضّأ وأصلي ركعتين لله وليحدث ما يحدث.

توضّأت أمّه وصلّت المغرب، ثمّ جلست تنتظر مع ابنها مصيرهما المجهول.

فكّر حَمِه في عائلته الصغيرة وراء الحدود، ولأنّه اعتقد أنّها اللّحظات الأخيرة في حياته التقط الهاتف الذي أمامه واتّصل بزوجته:

- سامحيني يا عَيْشه وانتبهي للأولاد. سيقتلنا هؤلاء. سلّمي على أبي.

- من هم هؤلاء.

- داعش. لقد وصلوا إلى بيتنا.

- يا ساتر يا رب. لا تقل ذلك يا حَمِه. لا تخوّفنا. اخرج حالًا من كوباني. الحقّ عليك. كان يجب أن تخرج معنا مهما كلّف الأمر.

- لا وقت للعتاب الآن يا عَيْشه. فات الأوان. لا أستطيع أن أكلّمك أكثر. الوداع. أسمع أصواتهم. إنّهم أسفل بيتنا في الحارة.

ثم أخرج مسدّسه وصار يصغي بانتباه إلى كلّ نأمة من الخارج. كانوا أربعة يروحون ويجيئون كأنّهم يراقبون المكان. لكنّهم ابتعدوا أخيرًا وغابوا في عمق الشارع.

أطلق حَمِه صرخة مثل طفل يولد وانكبّ على يد أمّه يقبّلها ويقول:

- كلّ هذا بفضل دعائك وصلواتك يا أمّي. من يصدّق ما جرى؟ لقد وصل الموت إلى باب البيت ثمّ عاد على أعقابه!

- كلّ شيء في يد الله يا ولدي. لو كان لك نصيب في الحياة فلن يحرمك منها أحد.

قبل أن يذهب حَمِه إلى فراشه، سأل أمّه: «هل تريدين شيئًا؟ أريد أن أنام». ردّت أمّه بصوت ضعيف: «الله يرضى عليك يا بني. لو أتيتني فقط بكأس ماء ووضعته عند رأسي».

في الثانية بعد منتصف اللّيل استيقظ من كابوس. رأى أنه واقف أمام تلة بيضاء كالثلج ووجد هناك رجلًا ضخم الجثّة كثّ اللّحية يضع حربة البندقيّة في خاصرته ويأمره بقضم تلك التلّة:

- كُلْ.

أخذ حَمِه قطعة صغيرة من التلّة البيضاء وألقاها في فمه فرآها شديدة الملوحة فازدردها ولم يقدر على ابتلاعها. أحسّ بعطش شديد. شعر كأنّ حلقه بريّة قاحلة.

أيقظه الظمأ فتوجّه عبر الصالون ونزل بأقصى حذر عبر الدرج الإسمنتي إلى المطبخ. حمل إبريق الماء ودلقه في جوفه حتّى ارتوى. مسح فمه المبتل بظاهر كفّه وبقي لحظة يفكّر فيما رآه. كان اللّيل أخرس لم يسمع فيه سوى أنفاس أمّه تتردّد هادئة. شكر الله على نعمة البقاء على قيد الحياة ودعا بخوف:

- يا الله نجّنا من هذا التّيه.

لم يكد ينهي دعاءه حتّى هز انفجار عنيف البنايةَ كلّها.

- القذيفة أصابت منزلنا.

قال بخوف وصعد نحو الغرفة التي تنام فيها والدته.

هبط قلبه كما لو كان كرة ثلج تدحرجت من قمّة جبل.

- أين الغرفة؟

صرخ كالمجنون.

كان سقف الغرفة الإسمنتي قد وقع على أمّه حيث تنام. السّقف الذي سقته أمّه عشرات المرّات بالماء بعد أن صبّوا الإسمنت فوق قضبان الحديد ذات صيف. كانت تقول لزوجها ضاحكة حين يصعد معها إلى السّقف: «بقدر ما تسقي البيتون فإنه يصبح صلبًا قاسيًا لا يتشقّق».

- يا أمييييي.

صرخ حَمِه ثمّ جثا يمدّ يده من هول الصدمة إلى السّقف يريد أن يرفعه. سمع أنينًا خافتًا من أمّه.

- أمييييي.

صرخ بصوت أقرب إلى البكاء. أسرع إلى غرفته وأحضر هاتفه الجوّال وبحث في

ضوئه خلال شقوق السقف المنهار فلم يشاهد سوى كتل هائلة من الإسمنت المسلّح طبقة فوق طبقة. اتّصل بأخيه المقاتل متين:

- تووت. تووت.

لا جواب. «من سيسمع نداء استغاثتي في هذا اللّيل؟» سأل نفسه وفكّر في جاره المسؤول واتّصل به:

- توووت. الرقم المطلوب مغلق حاليًا أو خارج نطاق التّغطية.

تقطّع قلبه على أمّه التي واصلت الأنين بصوتها الضعيف.

- أنا أسمعك يا أمّي. قولي لي هل أنت في خطر؟ هل جراحك بليغة؟

لم يكن جواب أمّه سوى حشرجات أقرب إلى سكرات الموت.

- ألو عَيْشه. سقطت قذيفة على بيتنا. انهار السقف على أمّي. إنّها تموت. دعيني أتكلّم مع أبي.

سلمت عَيْشه الهاتف إلى الحاج مسلم:

- خيرًا يا حَمِه؟ ما الذي دعاك لتتّصل بنا في هذا الفجر؟

- أمّي أمّي. لقد وقع عليها السّقف بسبب قذيفة هاون. أمّي الآن تحت سقف البيتون. إنّها تموت يا أبي. إنها تموت وأنا عاجز عن فعل أيّ شيء لإنقاذها. لقد انقطع الصّوت عنها يا أبي. لا صوت الآن. لقد ماتت أمّي. ماتت يا أبي.

المهاجر

حين اجتاز الحاج مسلم وزوجة ابنه الحامل وولداها الحدودَ، التفت إلى الخلف فرأى سيّارة ابنه تنطلق عائدة إلى المدينة. شعر بنفسه في تلك اللحظة شجرة تُقتلع من تربتها وأحسّ في قدميه بآلام الجذور وهي تتقطّع أدرك أنّه بدأ يعيش واقعًا أليمًا ويُقبل على مستقبل مجهول.

- ترى هل انتابت أبي نفس هذه المشاعر حين اجتاز الحدود من الشمال إلى الجنوب قبل قرن من الزمان؟

راوده هذا السّؤال، ثمّ سرعان ما ضاع سؤاله في خضم ضوضاء النّازحين.

قبل تسعين عامًا تقريبًا هاجر والده هربًا من الموت بعد فشل ثورة الشيخ سعيد، من أرض الموت إلى مرفأ الأمان واستقرّ في مُرْشِدْبينار. ومنذ ذلك اليوم التصق بالعائلة لقب المهاجر. لم تستطع السنوات المديدة ولا الثروة ولا حتّى دم ابنه الذي قتل خلال خدمته في الجيش السوري نزع طوق اللّعنة ذاك عن أعناق أفراد العائلة.

وحين اتّخذ الحاج مسلم طريقًا معاكسًا لطريق أبيه، هربًا مرّة أخرى من الموت، فاتّجه شمالًا صار مهاجرًا بالنسبة إلى من استقبلوه على الطرف الآخر من الحدود.

بل اكتسب إلى جانب صفة المهاجر صفة جديدة، طوق لعنة آخر: السُّورَلي.

والسورلي أي السوري لقب أطلقه النّاس في بلدة سروج وما حولها على كلّ من هرب من كوباني وسوريا وكأنّ السوريين وباء دهمهم من جنوب الحدود.

بل أصبح السَّورَلي لقبًا لازم كلّ السوريين الهاربين بجلودهم التي ضاقت عليهم إلى تركيا. وحتّى لحظة مغادرتها بحرًا عبر زوارق مطّاطيّة خانت الكثيرين منهم، فأفرغت حمولتها لتسلّمها إلى أعماق البحار طعامًا لأسماكه الجائعة.

* * *

غربت شمس ذلك اليوم وحلَّ المساء ثقيلًا واحتار الحاج مسلم في إيجاد مأوى له ولزوجة ابنه وحفيديه فعاد إلى الحدود. لم يكن له أقارب هناك بعكس الكثيرين الذين آواهم ذووهم في سروج وقراها وحتّى مدينة أورفة. بينما أكمل بعض النّازحين رحلتهم إلى إسطنبول وماردين وأضنة وملاطية ودياربكر. أمّا عائلة عَيْشه فقد واصلت نزوحها حتّى وصلت إلى ميرسين ولجأت إلى أقاربها هناك. لم يسمح الحاج مسلم لزوجة ابنه وحفيديه بمرافقتها بالرغم من الإلحاح الشّديد من قبل أهل عَيْشه. هي بدورها لم تكن ترغب في الابتعاد عن كوباني والحدود الفاصلة لاعتقادها أنّ زوجها سيلحق بها قريبًا.

اعتقد النّاس في البداية أنّهم سيعودون خلال أيّام قليلة لذلك بقوا بجانب الحدود قريبين من مدينتهم التي أخرجوا منها ينامون في الحقول والبساتين. يمدون البسط ويلتحفون البطانيات وينامون على وقع أزيز الرّصاص. كان الحاج مسلم وحفيداه وأمّهما من بين أولئك النّاس. في اليوم الأوّل لم ينم حتّى الفجر. جلس متوجّهًا صوب الجنوب، يسمع أصوات الاشتباكات ويشاهد لمعان الانفجارات ويدعو ربه:

- اللّهم الطف بنا وبأولادنا وبأمّة محمد جميعًا. اللّهم أطفئ هذه النار بماء من عندك. لا طاقة لنا بغضبك يا ربّ. أنت القادر على كلّ شيء.

في اليوم التّالي وقف الحاج مسلم مثل تمثال وجهُه إلى مدينته. ترقّب وصول ابنه وزوجته في أيّ لحظة. بقي يظلّل عينيه بكفّه المرتعشة بين لحظة وأخرى مترقبًا نازحين جددًا من جهة كوباني. أغلق الأتراك الحدود فبات من المستحيل خروج من تبقّى في المدينة. وحدها أصوات الانفجارات كانت تعبر الحدود بالتّوازي مع أصوات المتحدّثين عبر الهواتف النقّالة:

- يا أبي يستحيل أن نخرج أنا وأمّي من البلد. تركيا أقفلت الحدود.

- كلّ الحقّ على أمّك. لو تحمّلت ساعة مشي لما حدث ذلك.

- المهمّ أنّنا بخير وفي أمان. لا تقلق يا أبي. كلّ الرّفاق يؤكّدون أنّ الوضع تحت السيطرة.

- طيّب اذهب إلى غرفة النوم في بيتنا. لقد تركت نقودي هناك.

- لا أستطيع يا أبي. قناصة داعش في كلّ مكان.

- يعني النقود راحت؟

بقي الحاج مسلم كامل يومه يفكّر في ما يحدث. لم يستوعب المسألة بل ظنّ أنّ ما يعيشه كابوس لا يستطيع الاستيقاظ منه. لم يصدق أنّه ينام بين البساتين كأيّ مشرّد على بعد مئات الأمتار من بيته وفراشه الوثير.

ولمّا وجد أنّ الموضوع سيطول وأن الحدود صارت محكمة القفل ويئس من التحاق زوجته وابنه توجّه مثل كثيرين إلى مخيّم علي كور وهو مخيّم لجوء قريب من سروج. هناك استلم خيمة وعددًا من البسط والإسفنجات والبطّانيّات.

- هذا أفضل من النّوم بين الحقول والبساتين. لقد تعبت هذه المسكينة الحامل عَيْشه.

أسرّ لنفسه وهو يتمدّد على إسفنجة داخل خيمته.

- متى سنعود يا جدّي؟

سأله حفيده سيامند في أوّل صباح بعد إقامتهم في المخيم، فردّ عليه بثقة:

- الله كريم يا بني. على الأكثر أسبوع ونعود بعده. لا حاجة إلى أن يخاطر أبوك باللّحاق بنا. سنعود نحن.

مضى الأسبوع الأوّل ثمّ تبعه أسبوع آخر ولم يعودوا. مضى الثالث واشتدّت المعارك أكثر. صارت الطائرات الحربيّة تحوم في السماء على مدار السّاعة وتقصف مواقع داعش في المدينة.

جاء ناس مجهولون من سروج وغيرها إلى المخيم يكرّهون اللاجئين في خيامهم ويحدّثونهم عن بيوت رخيصة للإيجار. ذات يوم جاء أحد هؤلاء إلى خيمة الحاج مسلم أيضًا وقال له:

- يا خال هذه الخيام ليست للبشر. والله حتّى البقر لا يقبل بها.

حدّق الحاج مسلم في عينيه وقال بعصبيّة:

- دعنا وشأننا يا أخي. مصيبتنا تكفينا. نحن الآن أقلّ مرتبة من البقر.

- حاشا يا خال حاشا. قصدي أنّ هناك بيوتًا للإيجار في سروج أو أورفة.

- المشكلة أنّنا لم نجلب معنا نقودًا. لقد هربنا كمن وجد في ثوبه عقربًا.

نظر الرّجل إلى خاتم عَيْشه وقال:

- بلا شك جلبت ابنتك معها بعض الحليّ الذهبيّة. حين يضطّر المرء يبيعها. لا أحد يأخذ معه شيئًا إلى القبر.

ردّ الحاج مسلم محتدًّا:

- هذه الخيمة أكرم من وجهك ووجه أبيك. اُخرج منها قبل أن أغلط بحقّك. همّنا يكفينا.

- ماذا قلت لتثور هكذا؟ كنت فقط أريد عمل معروف لك.

- اغرب عن وجهي أنت ومعروفك ولا تنطق بكلمة زائدة.

خرج الرّجل يجرّ خيبته خلفه، بينما صارت عَيْشه تضحك في زاوية من الخيمة. نظر إليها الحاج مسلم وقال:

- أترين يا بنتي أيّ نسل هذا؟ بعمر ابني ويعتبرنا بقرًا. ولا يكتفي بذلك بل يتدخّل فيما لا يعنيه. يُحكى أن نارًا شبَّت في ثوب رجل فقال له آخر: «أتسمح لي يا خال أن أشعل سيجارتي بهذه النّار!» هؤلاء الأنذال من نفس الطّينة.

في الصّباح ذهب الحاج مسلم إلى خيمة الحاج بَرْكَلْ نَجو وهو أحد أصدقائه وكان جاره في السّوق قبل النزوح ورفيقه في رحلة الحجّ وقصّ عليه الحكاية التي جرت معه البارحة. لم يكد الحاج مسلم ينهي حكايته حتّى بدأ رفيقه حديثًا غاضبًا: «لا تشكي لي أبكي لك يا جاري. ما جرى لنا لم يجر لأحد من

العالمين. أمس جاءني أحدهم واستضفته عندي إذ حسبته إنسانًا. ما إن جلس في الخيمة حتّى قال: أريد مصاهرتك. فقلت له: للأسف لا بنات عندنا للزواج. فقال: عندك بنت أخ اسمها زليخة...». استوى الحاج مسلم، المتّكئ على وسادة مشبكًا أصابع يديه خلف رأسه، جالسًا وسأل بدهشة:

- زليخة بنت المرحوم عادل؟

- نعم ابنة أخي المرحوم عادل.

- إنّها طفلة يا رجل.

- وأنا أجبته بذلك حرفيًّا. لكن تخيّل بم أجابني؟

- بماذا أجابك؟

حكّ الحاج بَركَلْ رأسه من تحت الكوفيّة، نزع لفافة من علبة السّجائر التي أمامه ومدّها إلى الحاج مسلم، ثمّ سحب واحدة لنفسه وقال: سألني هذا النغل ابن النغل حاشاك: «كيف هي صغيرة يعني؟» فقلت: اتّق الله إنها طفلة، في الثانية عشرة من العمر. فردّ علي: «طفلة؟ ما هذا الهراء! إن كانت البنات في سنّ الثانية عشرة أطفالًا فلماذا ترسلونهن إلى جبهات القتال؟ عند الزواج هنّ طفلات لكن في الحرب هنّ بالغات! نحن لا نريد إلاّ مصلحتكم. لقد أصبحتم مهاجرين بلا مأوى وهؤلاء البنات مصيرهنّ التشرّد والضياع. نحن لا نريد لهنّ إلاّ السترةَ ولنا بعضَ الثّواب».

تحوّل الحاج مسلم إلى جمرة غضب متّقدة، وقال: «لا أدري ماذا أقول؟ شرفنا واحد يا حاج بركل. وهذا الذي جاء إليك ليس سوى عديم شرف ونذل وداعر.

يستحقّ أن يشرب المرء دمه. بالله عليك إن جاء مرّة أخرى أخبرني بقدومه لأبصق على الأقلّ في وجهه».

كاد الدّخان الّذي نفثه الحاج بَركَلْ يحجب عنه جليسه الحاج مسلم. صمت برهة ثمّ قال بانكسار: «لكن بالله عليك أليس في ما قاله هذا النذل شيء من الحقيقة؟ صحيح أنّ الإنسان في سنّ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة لا يزال طفلًا فلماذا يسحبونه إلى جبهات القتال؟ أصحابنا هم الذين جعلوا النّاس يطيلون لسانهم علينا. كيف لبنت صغيرة أن تذهب وتحارب مع الرّجال؟!».

لم يردّ الحاج مسلم. تراءت له بين دخان سيجارته الكثيف صورة ابنته الصغيرة رَوْشَنْ، فاحترق قلبه أكثر من تلك اللّفافة التي بين أصبعيه.

* * *

انقطعت عنه أخبار ابنته. قلق عليها كثيرًا. كان يقول لابنه حَمِه كلّما اتّصل به:

«اسأل يا ولدي عن أختك. انظر هل هي ميتة أم على قيد الحياة. إنّها شرفك يا ولدي».

مضت أيّام، ثمّ انقطعت أخبار حَمِيه أيضًا. كان آخرَ ما سمعه من ابنه خبرُ وفاة زوجته تحت الأنقاض. بكى ذلك اليوم كما تبكي النساء. اتّجه إلى الحدود كالمجنون.

لكنّ الجندرمة الأتراك من حرس الحدود صاحوا به وأوقفوه، أمسكوا بذراعه وجرّوه خلفهم مهانًا مثل كبش يُقاد للذّبح.

في اليوم التّالي أخذ معه حفيده سيامند، وذهب مرّة أخرى إلى الحدود. نظر إلى حارة مسجد الحاج رشاد وقال بنبرة بكاء: «ما هذه المصيبة يا إلهي! ما هذا الغضب الذي حلّ بنا؟ إلى أين ستأخذنا رياح القدر بعد؟». ثمّ غصّ بالبكاء وذُبِحت العبارات في حنجرته.

كان بجانبه رجل مسنّ يحدّق حزينًا في الدّخان والحرائق التي انتشرت في المدينة، وحينما سمع كلام الحاج مسلم قال: «هذا هو ما يسمّونه البلاء العميم. لست وحدك في هذه المصيبة بل نحن جميعًا ضحاياها». ردّ الحاج مسلم: «لكن ليس هناك من يعاني ما أعانيه». ضرب الرّجل المسنّ حجرًا أمامه بعكّازه، فأزاحه من مكانه بعيدًا، ثمّ جلس ونظر بازورار إلى الحاج مسلم، وقال: «كان لي ثلاثة أبناء استشهدوا جميعًا. أمّا أمّهم فهي طريحة المستشفى بين الحياة والموت».

أراد الحاج مسلم أن يواسيه فجاء حتّى جلس بجانبه وقال: «رحم الله أولادك وإن شاء الله تقوم زوجتك بالسّلامة. أمّا أنا فقد قضت زوجتي دون أن أراها. ولي بنت وابن في الداخل يقاتلان. ولي ابن فقدنا أثره و... ماذا سأروي لك بعد! كلامك صحيح. هذا هو البلاء العميم. لقد جرفنا الطوفان جميعًا».

مسح الرّجل المسن دموعه، ثمّ قال بحزن: «كلّ يوم حين أستيقظ من النوم أبقى ساعة من الزمان أفكّر وأقول لنفسي إن ما يجري لنا حلم. من كان يصدق أنّنا سنصادف كلّ هذه الأهوال؟ حين وصلنا إلى هذه الجهة رأينا حشودًا في استقبالنا. ظننّا أنّهم جاؤوا للتّرحيب بنا حسب الأعراف العشائريّة. لكنّهم في الحقيقة جاؤوا ليتاجروا». اتسعت حدقتا الحاج مسلم وسأل مندهشًا:

- ليتاجروا؟

- ساومونا على آلياتنا، على أغنامنا ودوابنا. درّاجاتنا. كلّ شيء كلّ شيء. والله العظيم، أحلف بدماء أبنائي الثلاثة أنهم اشتروا منّي درّاجتي الناريّة هوندا بربع القيمة. باع النّاس قطعانهم بأثمان بخسة. السيّارات كذلك. لم يشفقوا علينا نحن الذين هربنا بأرواحنا وأموالنا. استغلّوا الفرصة فنهبونا. أليسوا أكرادًا مثلنا؟

- لا ينفع إن كانوا أكرادًا أو غير ذلك. ألم تسمع بالمثل القائل: الذئاب تفترس الضحيّة والضباع تأتي لتأكل البقيّة. هؤلاء ضباع. ضبااااع.

- لكن لنكن منصفين ففيهم الصّالح والطّالح. لقد رأينا الصنفين.

- لكنّ كفّة الطالحين هي الرّاجحة.

- صحيح صحيح.

وقف سيامند بعيدًا عن جدّه يراقب غروب الشمس وهو يقضم قطعة خبز كانت في يده. شاهد إلى جانب غروب الشمس مدينته التي تتهدّم جدارًا جدارًا، سقفًا سقفًا فتذكّر والده الذي انقطعت أخباره عنهم.

جاش صدر سيامند فصار ينتحب. ولما رآه جدّه على تلك الحال ذهب إليه متثاقلًا:

- خير يا ابني؟ ماذا دهاك؟

لم يتوقّف سيامند. أمسك جدّه بيده وقال له: «فلنذهب إلى خيمتنا قبل أن يحلّ الظلام». في الطريق، حين هدأ سيامند قليلًا سأله جدّه مرّة أخرى:

- قل يا بني لقد أقلقتني. ما الأمر؟

- لقد اشتقت إلى أبي. أخاف عليه.

تنهّد الحاج مسلم، مسح على رأسه مواسيًا وقال:

- لا تخف يا ولدي. له ربّ يحميه. سيعود. أو ربّما تنتهي الحرب قريبًا فنعود نحن.

غربت الشمس فأشرقت الهموم.

* * *

ذات يوم تقدّم رجل متوسّط العمر من الحاج مسلم المرابط كعادته عند الحدود وسلّم عليه:

- يا حاج هل أنت من كوباني؟

- نعم - وأنا من أورفة.

- أهلًا وسهلًا.

ردّ الحاج مسلم ثمّ أشار إلى مكان انفجار حدث للتو:

- هذا الانفجار وقع عند البوّابة. بوّابة الحدود. أحرق الله هؤلاء الدّواعش فقد دمّروا مدينتنا. فليستر الله أولادنا هناك.

لم يهتمّ الرّجل بموضوع الانفجار. أخرج سيجارة ومدّها إلى الحاج مسلم قائلًا:

- تفضّل دخن يا حاج.

- شكرًا شكرًا. لا أشتهي الآن.

ردّ الحاج مسلم دون أن يقطع نظره عن مشهد الانفجار وصار يتأفّف. سأل الرّجل:

- لم تقل لي يا حاج ما هي عشيرتك؟

احتدّ الحاج مسلم وردّ بعصبيّة: «عشيرتي؟ عشيرتي هي ابنتي وابني اللذان يقاتلان الآن. عشيرتي هي زوجتي التي ماتت على فراشها في القصف. عشيرتي هي حارتي، جيراني، دكاكيني وأملاكي. كوباني هي عشيرتي التي صارت فريسة للحرب التي لا نعرف لماذا بدأت ومتى ستنتهي. عشيرة؟ جئت تسألني عن عشيرتي؟ وهل بقيت عشائر حتّى تسأل عنها!».

دهش الرجل. نفث ما سحبه من دخان تراكم في رئتيه وابتعد عن الحاج مسلم الغاضب وصار يتمتم:

- ما بال هؤلاء السُّورَليين عصبيّون؟ إنّهم مفخّخون والله. ينفجرون في وجهك لمجرّد سؤال.

اكتشاف النّار

أنا جالس على ركام غرفتي. الغرفة الصغيرة التي بناها أبي لنفسه فوق سطح المطبخ ولم يستسغ الإقامة فيها فصارت لي.

الآن لم يبق فيها حجر على حجر.

ترى هل تكفي هذه العبارة المكرّرة لوصف ما جرى؟ هل يتعلّق الأمر بحجارة بعضها فوق بعض فقط! ليست المباني والدّور حجارة فقط. لا يعرفها إلاّ من فقدها أو ناء عنها لسنوات طويلة.

في هذه الغرفة حلقت شاربي لأوّل مرّة. كنت في الرابعة عشرة من العمر تقريبًا. أتيت بشفرة حلاقة من شفرات أخي من الحمّام. وضعت أمامي في النافذة المطلّة على الجنوب مرآة صغيرة وبدأت أحلق شاربي الذي نبت حديثًا. كنت أستعجل أن يكون لي شاربٌ كثٌّ مثل الشّباب. ولمّا كنت قد سمعت أنّ الحلاقة تساعد في ذلك، قرّرت التخلّص من تلك الشعرات المتناثرة الخفيفة فوق شفتي. كرجل حقيقي لكن بخجل شديد وتوتر كما لو أنني أرتكب حماقة بدأت أمرّر الشفرة الحادّة على الشعرات الخفيفة. لم أشعر إلاّ وأنا أجرح شفتي العليا.

ما العمل الآن؟

لم أتجرّأ على الخروج من الغرفة والنزول إلى تحت. وضعت أصبعي على الجرح دون فائدة. ثمّ شققت ورقة من أحد الدفاتر ووضعتها على شفتي حتّى توقّف النّزف. كتبت في هذه الغرفة أولى قصائدي في الغزل. فيها اكتشفت ذكورتي وتلصصت عبر زجاج نافذتها على فتاة فاتنة العينين رشيقة ذات سمرة رائعة ستصبح حبيبتي الأولى التي بادلتها الغرام. كانت ضيفة في بيت زوجة أبي أراها يوميًا تروح وتجيء في باحة دارها تتهادى بفستانها الطويل الملوّن الذي يخفق قلبي مع خفقان حواشيه.

كنت فتىً يانعًا، عرفت عالم الشعر باكرًا، ثمّ دخلت من بوّابته إلى عالم الحبّ. أنت شاعر يعني أنّك عاشق ولهان. لا شعر بلا حب ولا حب بلا شعر.

صرفت ساعات من أيّامي أمام النافذة أترقّب ظهور الفتاة التي خفق لها قلبي وأحاول نظم الشعر. ألهمتني تلك القامة الرشيقة والنظرات التي تلقيها صاحبتها على نافذتي. كتبت قصائد كثيرة بالعربيّة. كنت أعتقد أنّ الشعر فنّ عربيّ خالص إلى أن فتحتُ عيني على قصائد أعظم الشعراء الكُرد مَلايِ جزيري. اكتشفت أنّ التعبير عن الحبّ يمكن أن يكون بالكرديّة أيضًا، اكتشفت أن الأحاسيس هبة القلوب والقلوب تتحدّث كلّ اللغات.

اتخذت من هذه الغرفة صومعة للمطالعة أيضًا. أتيت من المركز الثقافي القريب من بوّابة مُرْشِدْ بينار بشتى أنواع الكتب وطالعتها بنهم، روايات، دواوين شعر، مجموعات قصصيّة، كتب في النقد الأدبي، كتب دينيّة، طبيّة، وحتّى كتب في علوم البيئة وتفسير الأحلام والفلك. من بين الكتب التي علق اسمها بذاكرتي كتاب النّبيّ لجبران خليل جبران. ربما لوجود صور عارية فيه كنت أتأمّلها كثيرًا، وأكتشف تفاصيل الجسد الأنثويّ عاريًا لأوّل مرّة.

صرت أعتكف في هذه الصومعة وأنقطع عن العالم الخارجي، وأستغرق ساعات طويلة في عالمي الذي بنيته من أحرف وورق ورائحة حبر.

كثيرًا ما نهرتني أمّي وهي تراني معتكفًا في الغرفة الصغيرة منكبًّا على تلك الكتب:

- يا ولدي اخرج والعب مثل رفاقك. لقد تعفّنت في هذا الكهف.

الغرفة الصغيرة، التي وصفتها أمّي بالكهف، والتي كنت أصعد إليها عبر حوالي خمس عشرة درجة، الغرفة التي أقف على ركامها الآن، كانت لي بمثابة غار حراء تلقّيت فيها وحي اقرأ، فأجبت: نعم أنا قارئ.

كنت في بداية شبابي مولعًا بالرّسم أيضًا. اشتريت قماش الرّسم والألوان الزيتيّة وفراشي الرّسم، وصرت أصعد إلى هذه الغرفة حتّى في أيّام الصيف اللاهبة وأرسم. لم تكن موضوعاتي سوى ما كنت أقرأه من أشعار وقصص. ذات مرّة رسمت لوحة من وحي رباعيّة للخيام سمّيتها لوحة الخزّاف. رجل عجوز يجلس في معمله وحوله جرار صغيرة كثيرة وبين يديه جرّة لم ينته من صنعها بعد. حين رآها والدي غضب كثيرًا. وكان قد نبّهني قبل ذلك لحرمة التّصوير حتّى إنّه شقّ بعض الصور التي وضعتها على زجاج المكتبة في غرفة الضيوف. هدّدني قائلًا: «لا أريد أن أرى هذه الصّور في بيتي. ألا تفهم يا ولد؟ لو رأيتها ثانية فلا تلومنّ إلاّ نفسك».

كذلك جرّبت تعلّم العزف على النّاي. عمل أحد أبناء أختي الكبرى عدّة نايات من أنبوب معدني وأهداني واحدة. صرت أنفخ لحنًا وحيدًا ولا أتعدّاه إلى غيره. ولمّا رأيت أنّني لن أتعلّم النّاي ذهبت إلى الأكورديون. تكرّر الأمر ولم أتعلّم سوى لحن وحيد.

فشلت في الموسيقى كما فشلت سابقًا في الرّسم. بقي لدي الأدب الذي لم أستطع الفكاك من براثنه النّاعمة. كان الأدب هو الزّورق الذي طاف بي كلّ المرافئ واكتشفت على متنه جزرًا جديدة في عرض البحر.

ما زلت جالسًا مثل حمامة وحيدة على سطح غرفتي المهدّمة أتذكّر ماضيًا

بعيدًا.

تذكّرت حماماتي التي كانت تحطّ غالبًا على هذا السّطح حين تتعب من الطيران أو حين توشك أن تطير. أربط خرقة على عصا طويلة وألوّح بها فتطير الحمامات فأستمتع بطيرانها ورفرفة أجنحتها. وبعد جولة طيران في الأجواء القريبة يعود سرب الحمام ليحطّ ثانية على السطح ومن هناك ينزل إلى الكوخ الذي بنيته للحمام خصّيصًا في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة. وأحيانًا يبقى هناك مستمتعًا بنور الشمس إلى أن أصفِّر فينزل ليتناول ما أعددته من طعام.

عشرين عامًا عشت أربي الحمام.

* * *

ما زلت على سطح الغرفة الصغيرة. لا أتحرّك من مكاني. أطلال على مدّ البصر. بيوت الجيران، حارتنا كلّها، دور إخوتي وأخواتي كلّها دخلت دبكة الخراب. أنظر قبليًّا إلى الغرب، بضعة أمتار إلى الأسفل، أشاهد بيت زوجة أبي. كلّ الغرف سوّيت بالأرض. السقوف الإسمنتيّة هابطة وكأنّ أحدًا سحب الجدران من تحتها فبركت واستراحت مثل غنم عند الظهيرة. أنظر حزينًا إلى سقف الغرفة التي قضّى فيها والدي آخر ثلاث سنوات من عمره. هبط السّقف حتّى صار بمستوى الأرض.

ذات يوم دهمت والدي وهو في المحراب يصلّي المغرب نوبةٌ قلبيّة خفيفة. غاب بسببها حوالي الدقيقة عن الوعي. تداعى المصلّون لإسعافه وطلبوا طبيبًا حاذقًا درس في إسطنبول وبريطانيا. جسّ الطبيب نبض مريضه ووضع السّمّاعة على صدره، ثمّ قال:

- سَيْدا، هذه علامات الموت.

بعد تلك الجملة التي أطلقها الطبيب دون تدبّر في عواقبها انقلبت حياة أبي رأسًا على عقب. لم يعد يجرؤ على الذهاب إلى المسجد خائفًا من أن يكون الموت كامنًا له في المحراب.

بقي حبيس المنزل لا يغادره إلاّ نادرًا. تدهورت صحّته يومًا بعد يوم. هدَّه الخوف من الموت. لم ينفع قولنا له دعك من كلام الأطباء فهو رجم بالغيب، وقل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا. استحوذ عليه الخوف، فصار لا يفكّر في إلاّ في انتظاره ساعة بعد أخرى.

- عد سريعًا يا ولدي فربّما لن تجدني حيًّا.

كان يقول حين يزمع أحدنا على سفر مّا.

حاولنا كثيرًا أن نزيل الخوف من الموت الوشيك عن قلبه فلم نفلح.

تعجبت من حاله كثيرًا! كيف لرجل مثله يعظ النّاس بالصبر على الشّدائد والاستعداد للموت أن يخاف إلى هذه الدرجة؟ هو لم يأكل المال الحرام، ولم يرتكب الكبائر وهو أعلم بنفسه، فلماذا يخاف الانتقال من دار الفناء إلى جوار ربّه في دار البقاء مع الأنبياء والصدّيقين؟

أيّ سرّ في هذه الحياة يجعل الإنسان يتعلّق بها بشدّة ولا يريد تركها من يده؟

كنت أتذكّر، خلال مرض أبي الذي دام سنوات ثلاثًا، مشهدًا في رواية جاك لندن ذئب البحر بقي عالقًا في ذاكرتي: خلال معركة بين البحّارة على متن سفينة لارسون يصعد أحدهم إلى أعلى الصارية هاربًا من بحّار آخر. تهتزّ الصارية وتتأرجح به مع الريح. رعب شديد يأخذ بمجاميع قلب البحار الهارب المتعلّق بالصارية.

يقول لارسون، بطل الرواية، لرفيقه على سطح السفينة: «تمعّن في هذا المخلوق! أليس مسيحيًّا يؤمن بالله ويعتقد أن الرب يكافئ عباده المحسنين؟ ألا يعتقد أنّ الرّبّ يدخلهم جنّته؟ لماذا يخاف إذن من الموت الذي تعقبه سعادة أبديّة؟».

هكذا أصبح أبي. تعلّق بصارية الحياة التي مالت به وصار ينظر برعب إلى أمواج الموت التي بدأت تلوح له في الأسفل.

ساءت به الحال يومًا بعد يوم. كنّا نتحلّق حوله ونتناوب نحن أولاده وبناته وأحفاده على رعايته ومؤانسته. كان كثير من المعارف والأصدقاء أيضًا يأتون لعيادته دون أن نرى منه أيّ تجاوب مع الجالسين.

أنهيت في تلك الأيّام شرح وترجمة مم وزين لأحمد خاني إلى العربيّة وبقيت أنتظر طبعها ونشرها بعد أن صدَّرتها بإهداء إلى أبي. كان الإهداء وفاء منّي إلى من علّمني اللّغة العربيّة على أصولها صرفًا ونحوًا وبيانًا. ألححت على الناشر أن يستعجل في الطّباعة حتّى يرى أبي ثمرة جهدي والإهداء الذي افتتحت عملي به قبل أن يختطفه الموت. صرت أستعجله حتّى صدر الكتاب من إحدى مطابع دمشق سرًّا.

حرص أبي منذ طفولتي على تعليمي مبادئ الفقه وعلوم اللّغة العربيّة وتفسير القرآن. قضّيت في الصيف ساعات طويلة أتدارس معه في ظلّ الجدار الغربي الذي لا أثر له الآن. تحمّلت أسلوبه الشّديد في الدرس وقسوته بعكس إخوتي الآخرين الذين كانوا يهربون من دروسه. أتذكّر أنّه ذات مرّة، حين كان يعلّمني قصار السور وأنا لا أزال صغير السن، شد شعري من الخلف وضرب رأسي بالأرض لأنّني أصررت على خطئي في لفظة أَلْهَاكُم من سورة التكاثر. كنت ألفظها ألهيكم كما هي مكتوبة في المصحف وهو يصحّحها لي كلّ مرّة. اعتقدت أن أبي هو الذي يلفظها خطأً، لذلك

بقيت مصرًّا على طريقتي في اللّفظ إلى أن ضاق ذرعًا بي وعلّمني بقسوته أن أثق فيه وفي علمه وأنّ ما أراه ليس سوى طريقة القرآن في كتابة بعض الكلمات وهو ما يسمّى بالرّسم القرآني.

في شتاء أحد الأعوام شاء أبي أن يدرّسني علم الصرف من كتاب العِزّي الذي اشتراه ذات سفر من إسطنبول. لم أكن أستسيغ هذا العلم لكنّني اضطررت إلى الجلوس بين يديه والاستماع إلى صرف الكلمات برًّا به. كثيرًا ما حضرت والدتي الدّرس لتسمع أبي يردّد مثلًا:

اقْعَنْسَسَ يقعنسس اقعنساسًا، افعنلل يفعنلل افعنلالًا، فتضحك وتقول له: يا رجل علّم هذا الولد شيئًا ينفعه. ما هذه العنسسة والمنسسة التي تعلّمه إيّاها!

فيردّ أبي ضاحكًا بدوره: أنت لا تفقهين شيئًا يا حُرمة. إنّ دين هذا الولد ودنياه في هذه العلوم.

مضت ثلاث سنوات ضعف والدي خلالها كثيرًا. لم تعد لديه القدرة حتّى على حمل ملعقة طعامه. بدأت أخفّف له لحيته بمقصّ صغير وأحلق شعره بشفرة الحلاقة، أقلّم أظافره وأحمله أحيانًا في حضني لآخذه إلى بيت الخلاء.

أتذكّر الآن، وأنا أحدّق في سطح تلك الغرفة التي قضّى فيها سنواته ينتظر الموت، ساعةَ وفاته ذات صباح شتائي مكفهرّ. كنّا متحلّقين حوله وكان صدره يعلو ويهبط. نسمع حشرجته بصمت. لم يكن من علامة للحياة في ذلك الصباح سوى صوت الريح خارجًا. فجأة صاحت زوجة أخي خلو: مات عمّي. مات عمّي.

اندفعت إليه، وضعت رأسه في حجري وتمعّنت في وجهه: كان مصفرًّا، ذابلًا. كان وجه رجل عجوز قضّى حياته في صراعات كثيرة انتصر فيها كلّها إلاّ صراعه مع الموت.

معبر الموت

بعد مقتل أخته رَوْشَنْ في جبهة مِكْتَلَة وموت أمّه تحت الأنقاض حاول متين الاتّصال عدّة مرات بأخيه حَمِه فلم يفلح. لم يكن رقم والده في حوزته ليتّصل به لذلك انشغل بموضوع المقاومة والدفاع عن المدينة.

خلال تدريباته في جبل قَنْديل لُقِّن أنّ الوطن هو الشّرف الأعظم وأنّ الارتباط بالعائلة، خاصّة بالإخوة والأخوات والوالدين، ليس سوى مظهر من مظاهر الإقطاعيّة المتجذّرة في المجتمع. فبقدر ما يبتعد المرء عن هذه الرّوابط ويتجرّد من العواطف الأسريّة يصبح أقرب إلى روح الثورة، يصبح أقرب من أي وقت مضى إلى مفهوم الغيرة والشرف والنخوة. أمّا الحبّ فهو الاسم الجميل للفخّ الذي ينصبه المجتمع الإقطاعيّ أمام الإنسان الثوري. إنّ العائلة التي لا تريد لفرد منها أن ينخرط في صفوف الثورة، تدفعه مثل خروف إلى مسلخ الحب ثمّ الزواج وإنجاب الأولاد، وهذا ما يربط الفرد بقيود كثيرة تمنعه من الانطلاق بحرّيّة إلى رحاب الثورة.

أصبح متين ثوريًا حتّى العظم، آمن بتلك المبادئ التي أصبحت منهاجًا يسير عليه في حياته. شعر أنّه خلق ليكون ثائرًا وثائرًا فقط.

وحين عاد إلى مدينته المحاصرة قادمًا من الجبال، لم يعد يعرف الهدوء بل صار يثب من هنا إلى هناك. يسعف الجرحى، يرافق الصحافيين إلى مناطق الاشتباكات، ويرابط في اللّيل يحرس رفاقه. أظهر خلال الاشتباكات بطولة فريدة وشجاعة نادرة. دأب على أن يثير حماس المقاتلين الّذين يلتحقون حديثًا فيقول لهم ضاحكًا:

-يعيش الثّعلب الجبان أكثر من أسد شجاع، لكنّه يبقى ثعلبًا حتّى لو التهم آلاف الدّجاجات.

وبعد أيّام من وصوله احتلّت داعش مزيدًا من الحارات بالرّغم من المقاومة الشرسة. لعب انتحاريو داعش دورًا كبيرًا في كسر شوكة المدافعين عن المدينة. ترقّب العالم مجريات القتال بقلق واهتمام كبيرين: ستسقط، لن تسقط، على وشك السقوط إلى آخر هذه العبارات التي عكست القلق على المدينة ومن فيها.

في النهاية لم يبق في يد المدافعين سوى بقعة صغيرة قريبة من معبر مُرْشِدْبينار الحدودي هي حارة الجمرك.

* * *

عند الفجر، في يوم سبتٍ بارد من تشرين الثاني، وبعد شهر كامل من قدوم مائة وعشرين عنصرًا من البيشمركة من إقليم كردستان عبر تركيا إلى كوباني أطبق صمت ثقيل على المدينة كلّها. سكتت أصوات الاشتباكات التي هزّت المدينة حتّى منتصف الليل. لم ينم متين سوى ساعتين. كانت ساعات نومه قد قَلَّت في الأصل بسبب حماسه الشديد للقتال. وبات حين ينام، يعانق بندقيّته، يحتضنها ثمّ يغمض عينيه.

في ذلك الفجر هطل رذاذ خفيف. انتابه شعور غريب وشعر بالملل. أضجره الصّمت فتذكّر كلام أحد المعلّمين في المدرسة:

- يسبق العواصفَ الكبيرة صمتٌ كبير.

تناهى إلى سمعه صوت رفيقة تغنّي بهدوء.

غالبه النعاس فقاوم كثيرًا. أراد أن يسمع الأغنية حتّى نهايتها لكنّ النوم سلطان. أخيرًا استسلم فنام في خندقه والبندقيّة في حضنه تتناهى إليه أنغام حزينة من رفيقة السلاح.

* * *

الوقت مساء. متين والعائلة متحلّقون حول مائدة العشاء. أبوه قدم لتوّه مع حَمِه من السوق. أمّه تشير إليه بالسكوت.

- أريد فقط أن أفهم ماذا تفعل مع أولئك الصّعاليك؟

يقول والده بعد أن يفرغ من عشائه ويذهب ليستند إلى وسادة عند الجدار الشمالي. ذلك هو مكانه الخاص. لا أحد يتجرّأ على الجلوس هناك. على الجدار، حيث يسند أبوه رأسَه دائمًا ثمّة ما يشبه حفرة صغيرة. على مدى سنوات طويلة تقعّر الجدار بسبب ضغط رأس الحاج مسلم.

- هم ليسوا صعاليك يا أبي. إنّهم رفاق.

يجيب متين والده بنبرة تحدٍّ كبيرة.

تعضّ أمّه على شفتها السفلى علامة تحذير. ثمّ تعامد أصبع السبابة على فمها طالبة منه السّكوت من جديد. لكن متين لا يسكت بل يتوجّه إلى أبيه ويقول بجرأة:

«أنت دقة قديمة يا حاج. أنت لا تعرف قوّتنا نحن الشباب بعد. ولا تعرف كم هي عميقة فلسفة الحزب. انظر مثلًا إلى مكان رأسك على الجدار. لقد تقعّر بمرور الزمن. إنّ تأثير فلسفة الحزب في الشعب أعظم بكثير من تأثير رأسك في الجدار. سألتحق بالگريلا وأذهب إلى الجبال. أنا مصمّم على ذلك إن شئت أم أبيت.

سأذهب ولتفعل ما بدا لك».

تجحظ عينا أبيه من الدّهشة. يستغرب وقاحة ابنه ويبقى بضع ثوانٍ حائرًا في ما ينبغي له فعله! أخيرًا ينهض ويتّجه صوب متين. وبكلّ ما أوتي من قوّة يصفعه على وجهه.

استيقظ متين على صوت انفجار اختلط بصدى صفعة والده في الحلم. لم يعد يسمع أنغام المقاتلة التي كانت تغنّي قبل أن ينام. رأى الشمس قد أشرقت وغمرت المكان بنورها.

- داعش تهاجمنا.

صرخ جاره من حارة سَيْدا، المقاتل حِلمي بابوكي.

كان حلمي، الذي يسمّيه أهله هِرْمي حِسْنيري، قد نزح مع زوجته وأطفاله السّتّة من كوباني مثل غيره من الآلاف واستقر في تركيا لكنّه سرعان ما قرّر العودة بالرغم من تحذير أصدقائه له. قبل أن يعود تضرّعت إليه زوجته:

- لا ترمّلني ولا تيتّم أطفالك يا حلمي.

- ما هذا الفأل السيّئ يا امرأة؟ وهل يستشهد كلّ الذين يذهبون إلى القتال؟

- أتمنى أن تفكّر فينا. لقد رأيت كيف هرب المسؤولون! ثمّ هناك من يقاتل في الدّاخل. هناك فتيات كثيرات وشباب يقاتلون يا حبيبي.

لم يصغ حلمي إلى توسّلات زوجته. تركها مع أبنائه في المخيّم وتوجّه إلى المعركة.

- خير يا رفيق حلمي؟ ما مصدر الهجوم؟

سأل متين وهو يلقم البندقيّة.

- البوابة يا رفيق جودي. يقولون إنّ داعش تهاجم من البوّابة. وهناك عناصر قادمون من الشرق، من كانيا عَرَبانْ.

- هل أخبرت الرّفاق؟

- كلّهم الآن على علم بالهجوم. لكنّ المهاجمين باتوا قريبين جدًّا منّا.

- هذا أفضل. سنبيدهم كزرع حان وقت حصاده.

لم يكن المهاجمون مشاة فقط، بل تقدّمتهم آليّة مفخّخة مصفّحة. شاحنة صغيرة مزرَّدة بالحديد لا يبدو منها في الأمام سوى بقعة زجاجيّة تسمح للسّائق الانتحاري برؤية دربه النّاري إلى الجنّة.

تقدمت الشاحنة بسرعة. أطلق المقاتلون النّار عليها دون أن تتأثّر. أصابت

الرّصاصات الحديد الثقيل فأصبحت ترنَّ دون أن تؤذي حافلة الرّعب.

تفـرق المقـاتلون فـي كـلّ اتّجـاه، احتمـى نفـر منـهم بالدشـم فيمـا انسـحب بعضـهم إلـى الخلـف وصـعد آخـرون أسـطحة المنـازل وصـاروا يقصـفون شـاحنة المـوت القادمـة إليهم بالرشّـاشـات والرمّانات وقذاف الآر بي جي دون أن يوقفوها.

حين رأى الانتحاري أنّه بات قريبًا من المقاتلين وفردوسه الموعود فجّر نفسه. اشتعلت حتّى الشوارع القريبة من المعبر وارتفعت ألسنة اللهب أمتارًا عدّة في الجوّ.

انقذف بعض المقاومين من عزم التفجير ثمّ هووا من الأعلى فيما اصطدم آخرون بالجدران بينما تمزّق آخرون إلى أشلاء.

كان متين واحدًا من الذين قذفهم ضغط الانفجار إلى أعلى. لم يفهم في أوّل ثانيتين ما الذي جرى له. تراءت له في تينك الثّانيتين صورة أمّه تبتسم له. بدا ثغرها أقحوانة أزهرت أوّل الصيف. لم يشاهد متين سوى تلك الابتسامة، سوى تلك الأقحوانة اللطيفة.

لـم تكـد جثّتـه تصـل إلـى الأرض حـتّى فـجّر انتحـاري آخـر مـن الطّامعـين بلقـاء الحـور نفسـه. تحـولت المنطقـة المحيطـة بـالمعبر إلـى جحـيم. لا بـدّ مـن إشـعال جحـيم علـى الأرض لكي تصل إلى الجنّة في السماء. هكذا تمتمت أشلاء الانتحاري، شلوٌ يهمس لشلوٍ آخر. لم يعد المقاتلون يعرفون من أين يهاجم عناصر داعش. احتاروا إلى أين يوجّهون رشاشاتهم وقاذفاتهم. قال كثيرون إنّ المهاجمين قدموا من وراء عنابر القمح الفضّيّة العملاقة التي يرفرف عليها علم تركي كبير في الجهة الشماليّة من الحدود.

- الأتراك هم الذين يسّروا لهؤلاء الوحوش سبل الاقتحام.

هكذا قال المقاتلون بعد أن تم إحباط الهجوم.

طـار حلمـي أيـضًا فـي الـهواء بعـد التفجـير الأوّل. طـار مـع أحلامـه هـو الـذي لـم يصـعد متـن طـائرة فـي حياتـه. طـار بجنـاحين مـن هـواجس زوجتـه وتـرقّب أطفالـه السـتّة عودتَه إليهم مظفرًا كما وعدهم حين ودعهم فجرًا على باب خيمته. طار وارتفع في الهواء، ثمّ هوى بعد بضع ثوانٍ إلى الأرض ليسقط قتيلًا بجانب رفيقه وجاره متين.

أنين الزمن

ألمٌ يشبه الألم الذي انتابني صبيحة موت والدي يلفّ قلبي الآن ويعصره. يمور الخيال بمشاهد تتزاحم في ذاكرتي المرهقة. دقّات السّاعة تدعوني. أشعر بها نداءات استغاثة من شخص موشك على الغرق.

أنزل وأمشي بحذر بين ركام الإسمنت المسلّح وقضبان الحديد والحجارة التي تخفي الدرج الإسمنتي. الأنقاض المتراكمة أمام المطبخ قريبة منّي. بعد بضع خطوات متعثّرة أقف على تلك الأنقاض في مواجهة باب المطبخ. إنّه المطبخ نفسه الذي كنت أركض إليه من غرفة المعيشة لأحضر ملعقة أو كأسًا أو صحنًا لأمّي.

- يا منحوس ما لك تسرع كالهدهد؟ والله ستُدفن ذات يوم بلا رأس.

تصرخ أمّي كلّ مرّة تراني فيها أركض لتنفيذ طلباتها المنزليّة.

أطلقنا على المطبخ في البداية اسم بيت النار أو بيت المونة. لم تدخل لفظة المطبخ قاموسنا المنزلي بسهولة. في بيت المونة كان ثمّة مستودع خلفي كبير مليء بالقشّ ندفن فيه البطيخ الأحمر حتّى يبرد. إلى جانب القش اصطفت مرطبانات كبيرة وجرار لحفظ الجبن والزيتون والمربّيات وورق العنب ورب البندورة وهريسة الفليفلة والمخلّلات وغيرها. كذلك كان فيه موقد نار من ثلاث أثافٍ نضع عليها القدور ومواعين الطعام آناء الطبخ. أخيرًا صرنا نسمّيه المطبخ لما جاءتنا ثلاجة من نوع سيبيرا حملها إلينا المهرّبون من تركيا ووضعوها عند باب البيت ذات فجر.

في هذا المطبخ الذي أواجهه الآن، ودعتُ أمّي الوداع الأخير. كان ذلك بداية شباط فبراير عام 1988 وكنت ما أزال طالبًا في جامعة حلب. كانت أمّي هناك تهيّئ طعام الغداء. تشدّ رأسها بعصابة موصليّة على منديل أبيض من الكتان وفستانها الطويل حقل زهور.

ذهبت إليها لأودّعها. انحنيت وقبّلت يدها، ثمّ ابتعدت حزينًا. لم أكد أمشي بضع خطوات حتّى سمعت صوتها تناديني:

- لحظة يا جروي الصّغير. تعال إليّ.

عدت إليها. وجدت أنّها ماتزال واقفة على الباب يطفح وجهها بالحنان وعلى فمها أروع ابتسامة:

- تعال أقبل عينيك.

قالت ثمّ مدَّت يديها واحتضنت بهما وجهي وطبعت قبلة على كلّ عين.

شعرت بوخز في قلبي حين أدرت لها ظهري. امتزج ألم الوخز بالخوف حين تذكّرت بعد دقائق كلمات أغنية للمطرب محمد عبد الوهاب تقول:

بلاش تبوسني في عينيًّا، البوسة في العين تفرَّق.

ممكن في يوم ترجع إليًّا والقلب حلمو يتحقّق.

خلي الوداع من غير قُبَل.

علشان يكون عندي أمل.

وسوست لنفسي: ترى ما الذي دفع أمّي إلى أن تناديني وتقبل عينيَّ بعد أن ودّعتها؟ ما الذي تذكّرته؟ إنّ القبلة في العينين حسب هذه الأغنية علامة فراق ربما يكون أبديًا.

تشاءمت.

بعد حوالي شهر ماتت أمّي دون أيّ كلمة وداع.

رحلت في تمام السّاعة الحادية عشرة. أوّل ما فعلته بعد وفاة أمّي أنّني أوقفت عقارب السّاعة ومنعتها من الحركة وبالتّالي إعلان الزمن. أوقفت الرقّاص حتّى بقيت السّاعة أربعين يومًا صامتة لا تشير إلاّ إلى فاجعتي.

أتذكّر ساعة أمّي الجميلة. السّاعة التي ألهمتني كتابة قصيدة وأنا في الخامسة عشرة من العمر. أرسلت قصيدتي النّثريّة، التي كتبتها بالعربيّة، إلى برنامج أقلام واعدة الذي كانت إذاعة دمشق تبثّه ظهيرة يوم الخميس من كلّ أسبوع وتنشر فيه قصائد الهواة ثمّ يعمد الدكتور رضوان الداية إلى تقييم ما وصل إلى البرنامج من قصائد. تابعت بشغف كبير حلقات ذلك البرنامج حتّى فوجئت ذات يوم بالمذيع يقول: ضيفنا لحلقة هذا الأسبوع جان قادر (وهو اسمي المستعار آنذاك). ثمّ قرأ القصيدة التي لم أعد أتذكّر منها شيئًا سوى أنّها كانت قصيدة طافحة بالحزن أتحدث فيها عن ساعة أمّي التي تحزنني دقّاتها وتذكرني بالموت القادم لا محالة.

الآن يرتفع صوت الدّقّات. أسمعها بوضوح. إنّها قادمة من زمن لن يعود. إنّها ساعة أمّي ذاتها. تك تك تك. إنّه نفس الصّوت الذي سمعته لحظة احتضارها. إنّه الصّوت الذي أخرستُه من قهري كأنّني بذلك أعاقب الزّمن الذي خطفها منّي. هي هي دقّات السّاعة التي أوقفت حركتها بإيقاف الرقاص إذ لم يعد للزّمن أيّ معنى بعد موت أمّي.

* * *

من مكاني قبالة المطبخ أدخل الصالون الذي بناه أخي خلو ورفع فيه أعمدة من الرّخام تحت أقواس بديعة التصميم. أراه مقلوبًا رأسًا على عقب. اللّوحات مرميّة

على الأرض، محطّمة يعلوها الغبار والحجارة. الكنبة والكراسي وطاولة الطعام وأدوات المطبخ تحطّمت وتناثرت في كلّ جهة. أمشي بينها وأخطف نظرة إلى الغرفة التي كانت لأخي الأكبر، الشاعر الذي رمت به الحرب إلى إسطنبول مع زوجته وأولادهما، ومن هناك تفرّق الأولاد أيضًا وانفرط العقد. أمشي بضع خطوات أخرى حتّى أخرج من باب الصالون الشرقي.

مازلت أصغي إلى دقّات السّاعة. إنها صادرة من غرفة أمّي التي شهدت مولدي ووفاتها وأحزان أبي.

أنا الآن أمام هذا المعبد المقدّس. أسمع أنين الزمن، أسمع الدّقّات كأنّها أنين شخص يحتضر. إنّها مثل حشرجات أمّي قبل وفاتها بدقائق.

حجارة كثيرة من الجدار الجنوبي واقعة على الأرض. زجاج النافذتين الواطئتين المطلّتين على باحة الدّار مكسور. الزمن يستمرّ في الأنين.

ينبض قلبي مع إيقاعه، يتماهى قلبي مع السّاعة ودقّاتها.

* * *

كان مساءُ الثاني عشر من آذار قبل حوالي نصف قرن مساءً قليل البرودة. شعرت فيه أمّي ذات الخمسة والأربعين عامًا بأن جنينها، الذي كنتُه يستعجل الخروج إلى الدنيا.

تشمّر داية الحارة، الخالة خجو، عن ساعديها استعدادًا لاستقبالي. تمسّد بطن أمّي ثمّ تنادي إحدى أخواتي لتحضر لها ماء ساخنًا وفوطًا. والدي في المسجد ولم يعد بعد من صلاة العشاء. إنّه في المحراب يترقّب بقلق قدوم الوليد الرابع عشر ويخشى أن يكون بنتًا. هو أب لعشر بنات وثلاثة صبيان من زوجتين. وعلى الأرحام أن تنجب مزيدًا من الصّبيان، على القادمين الجدد إلى هذه الدنيا أن يحملوا بين أفخاذهم آلاتِ ذكورةٍ غُرْلًا.

حاولت أمّي، كما روت لي في شبه اعتراف لاحقًا، أن تجهضني مرّات كثيرة ففشلت. حملت مواعين طعام ملأتها بالحجارة ومشت بها في باحة الدّار، صعدت سطح التنـور وقـفزت مـن هنـاك علـى الأرض، ضـربت بطنـها بقـوّة مـرّات عـديدة دون جـدوى. لـم تكـن أمّي تعـرف شـيئًا عـن حبـوب تمنـع الأرحـام مـن أن تثمـر أجـنّة. بقـيت ملتصقًا برحمها مصرًا بعناد على المجيء إلى هذه الدنيا. كانت تخجل من أن تنجب وعندها بنات ينجبن الأطفال. إنّها جدّة لخمسة أحفاد وأمّ لتسعة أولاد ولا يليق بها أن تنجب بعد هذا العمر على حدّ قولها.

العرق يتصبب من جبين والدتي. تتألّم. يؤلمها الطلق. والداية تنصحها:

- اضغطي على نفسك أيضًا. هذه ليست المرّة الأولى التي تلدين وتنجبين

فيها. اضغطي على نفسك بقدر ما تستطيعين. هكذا تتيسّر الولادة. لم يبق إلاّ القليل.

نعم هكذا. أكثر. أكثر. هيّا. ممتاز. أيضًا. أحسنت.

أنزلق من بطن أمّي إلى عتبة الغرفة التي يستحمّ ويتوضّأ فيها والداي ويغتسلان أيضًا. أولد في العتبة جائعًا عاريًا ملطخًا بالدم، صارخًا من وخز الحياة آتي إلى هذه الدنيا.

- صبيّ، صبيّ، إنّه صبيّ.

تبشّر الداية خجّو أمّي المنهكة وأخواتي اللّواتي ينتظرنها لدى الباب، ثمّ تلقيني على صدر أمّي الدافئ.

أنا الآن واقف في نفس العتبة التي ولدت فيها قبل نصف قرن. أصغي إلى دقّات السّاعة. هي أشد وضوحًا وقربًا. إنها ساعة أمّي بلا شكّ.

فجأة أرى ابن أختي محمد بجانبي. يصيبني الذّهول مرّة أخرى.

- هذا أنا يا خال.

- أرعبتني يا ابن أختي!

يضحك. ثمّ يصمت برهة ليسأل:

- أتسمع أنت أيضًا يا خال؟

- دقّات السّاعة؟

- نعم. ما هذا؟

- هذه ساعة جدّتك يا حمودة. أعرف صوتها. لكن لا أعرف مصدر الصّوت!

- أسمعها منذ أيّام لكنّني لم أعرها اهتمامًا.

أنا في الغرفة. في غرفة أمّي وأبي. الغرفة التي شهدت صرختي الأولى وعشت فيها ستّة وعشرين عامًا. الغرفة التي تبدو كأنّها ولدت من رحم زلزال.

أسمع دقّات السّاعة من إحدى الزوايا.

- هنا.

أقول متّجهًا إلى الجدار الشّرقي.

- نرفع الحجارة؟

يسأل ابن أختي. فأقول مستغربًا:

- لو كانت السّاعة تحت الحجارة لتحطّمت.

لا أصدق أن ساعة أمّي قد سقطت من الجدار ثمّ سقطت عليها الحجارة. لو كان الأمر كذلك لخرست إلى الأبد. لتحطّمت وتحوّلت إلى قطع صغيرة.

يفكّر حمودة قليلًا. ثمّ يبتسم ويقول:

- ربّما دفنها عنصر من داعش!

- لماذا؟

- ليزيّن بها جدار بيته في الرقّة أو منبج حين يعود.

- وعناصر داعش القادمون من القوقاز ومصر والسعوديّة وغيرها؟

- هؤلاء لا يبحثون عن السّاعات. همّهم حور الجنّة. يضبطون مواقيت صلوات الفحولة على ضحكاتهن.

نضحك معًا.

أصرخ فجأة:

-هنا. هنا. الصّوت هنا.

سيلفي

أدمن الحاج مسلم الذّهاب إلى الحدود كلّ يوم. يخرج من خيمته ويمشي جنوبًا حتّى يصل إلى مشارف كوباني يعذّب نفسه بمشاهدة التحرير المدمّر.

يومًا بعد يوم ساءت حاله أكثر. لم يقبل أن يحلّ ضيفًا على أحد لأنفته وعزّة نفسه. دعاه العديد من وجهاء سروج للإقامة في بيوتهم لكنّه رفض. رفض أيضًا الإقامة في المساجد والمدارس والحدائق حيث أقام أغلب النّازحين. لم يكن قد جلب معه نقودًا يستأجر بها بيتًا مثل الآخرين. اضطرّ إلى أن يسكن مع حفيديه وزوجة ابنه في خيمة بمعسكر علي كور الذي أنشئ على عجل، ومن هناك صار يذهب يوميًّا إلى الحدود ليشاهد ذبح مدينته.

انتظر وصول ابنه وزوجته طويلًا آملًا أن يعودا مع النّقود التي تركها في البيت من شدّة العجلة لكنّهما لم يأتيا.

صار يتّصل بابنه يوميًا ويسأل عن الأوضاع داخل المدينة، يطمئن على حال ابنته رَوْشَنْ، يستفسر عن مناطق وصول داعش ويستمع أحيانًا إلى ثرثرة زوجته المريضة أيضًا.

افتقد عاداته السّابقة وتكسّر روتين حياته. في السّابق تعود أن يذهب كلّ صباح إلى حانوته لعشرات السنين. الآن لا شيء. حتّى الصّلوات الخمس التي واظب عليها منذ طفولته تشوّشت. صار ينسى أنّه صلّى ويعتقد أن الصّلاة الفلانيّة فاتته فيعيدها. أو تفوته إحدى الصّلوات لظنّه أنّه أداها. يمدُّ سترته على الأرض كسجّادة ويتوجّه بقلب يحترق مثل جمرة بين ضلوعه إلى المدينة التي تحترق جنوبًا. حرائق مدينته تحول بينه وبين القبلة فيفقد التركيز في الصّلاة ويعيدها مرات عديدة لظنّه أنّها فسدت وأنّه نسي تكبيرة الإحرام أو الفاتحة أو ما شابه.

لم يعد يلاعب حفيديه. بل صار بدل ذلك يعنّفهما في كلّ شاردة وواردة. وحين سمع خبر موت زوجته انقلب مجنونًا. ذهب إلى هنا وهناك على غير هدى. انقطعت الأخبار عن ابنه حَمِه أيضًا فدنا زورق عقله أكثر من ضفة الجنون. واسته زوجة ابنه كثيرًا وقالت له: «تفاءل خيرًا يا خال. لا بدّ أن يتّصل حَمِه بك». لكنّ قلبه أخبره أمورًا أخرى. في إحدى المرّات أرادت عَيْشه أن تواسيه كعادتها مكرّرة جملتها المعتادة «لا بدّ أن يتّصل حَمِه».

انفجر الحاج مسلم غاضبًا دفعة واحدة، فرمى إبريق الوضوء عبر باب الخيمة إلى الخارج حتّى ضربت خيمة أحد الجيران وصرخ:

«تبًّا لك ولجملتك التي تكرّرينها كلّ يوم مائة مرّة مثل فاتحة العميان. متى سيتّصل ها؟ لا أخبار عن رَوْشَنْ. لا أخبار عن لَوَنْدْ. ولا أعرف أين باران. راحت

أموالنا.

متـين السـافل قلبـه مثـل صـخرة. عمّتـك مـاتت تحـت السـقف. والقصـف علـى مـدار السّاعـة. دخـان وحـرائق وانفجـارات. إي..؟ وأنـت تـهذين بكـلام لا يشـبه إلاّ رحـى الطاحونة في دورانه حين يطحن الهواء!».

ثم رفع رأسه إلى أعلى وقال: «أيجوز هذا يا ربّ؟ هل نحن جبال لتلقي على كواهلنا هذه الأحمال؟ أستغفرك ربّي وأتوب إليك».

في المرّة الأولى حين توجّه الحاج مسلم إلى جامع أحمد بيجان في سروج وجلس في أحد الصفوف الخلفيّة واضعًا ركبتيه بين ذراعيه يصغي إلى الخطبة فوجدها باللّغة التركيّة ولم يفهم منها شيئًا. في الجمعة التّالية ذهب إلى جامع حاجي ناجي فكان الأمر كما في الجمعة الماضية. في الجمعة الثالثة غيَّر إلى جامع الهجرة، لكنّه ترك الخطبة في منتصفها وخرج غاضبًا دون أن يؤدّي الصّلاة.

نظر وهو يخرج من باب الجامع إلى الجنوب وقال بحسرة وحرقة قلب:

«آآآآه. آه. أين مضى ذلك الزّمن حين كان يجلس الشيخ في محراب مسجد سَيْدا ويعظنا بالكرديّة! يا ربّ نجّنا ممّا نحن فيه واجعل خاتمة هذا الأمر خيرًا يا ربّ العالمين».

* * *

في أحد الأيّام ذهب كعادته إلى الحدود. جلس على صخرة وصار ينظر إلى جموع المحتشدين هناك. رأى مجموعة من الفتيات والشبان يصيحون: «ليخه رشّو ليخه» أي (اضرب يا أسود اضرب).

سألهم الحاج مسلم:

- يا شباب من هو رشّو؟ فلأعرفه أنا أيضًا.

تقدّم إليه شاب مراهق يحيط عنقه بشال مرقط وقال:

- إنّه أوباما يا حجّي. وهذه الطائرات أمريكيّة تقصف ISIS.

- طيّب فهمت. رشّو هو هذا النّحس. لكن ما هي هذه الـ ISIS ؟

لم يجبه الشاب المراهق. انضمّ إلى حلقة رقص مع رفاقه على أنغام أغنية حماسيّة تردّد صداها من هاتف أحدهم.

تنقل الحاج مسلم ببصره بين الفتيان الراقصين وبين الدخان الذي يرتفع من حرائق المدينة، ثمّ ألقى نظرة على السماء حيث تهدر الطائرات، ثمّ أعاد بصره كرّة أخرى، فحدّق في أولئك الجمع من الشباب وقال متحسّرًا:

- إنّهم ليسوا مراهقين فقط بل حمقى أيضًا.

وذهب ليجلس بعيدًا عنهم. هناك رأى مجموعة أخرى من الشباب. كلّ واحد منهم يعطي ظهره لكوباني وينظر إلى عدسة كاميرا هاتفه النقّال، يرفع أصبعي النصر مع ابتسامة، ثمّ يلتقط صورة سيلفي وحيدًا أو مع مجموعة من الصديقات والأصدقاء. ملأت صور السيلفي الملتقطة مع حرائق كوباني صفحات الفيسبوك.

تحوّلت كوباني التي تقاوم الغزاة وتقدم عشرات الضحايا يوميًا إلى مشهد خلفي لصور السيلفي.

ضاق الحاج مسلم ذرعًا بأولئك النّاس. لم يعد يعرف كيف يتصرّف من قهره. تقدّم نحو شاب وفتاة يستعدّان لالتقاط صورة سيلفي وقال لهما: «من أين أنتما؟» بصوت واحد أجاب الاثنان معلنين عن اسم بلدتهما. ازداد الحاج مسلم عصبيّة وقال بصوت مرتجف:

- جئتما من ذلك البعد إلى هذا المكان لتلتقطا بعض الصّور؟

- نعم يا عمّي الحاج. أهذا عيب؟ هذه ذكرى مقاومة كوباني نوثقها.

- إذن لماذا لا تذهبان للقتال هناك؟ بدل أن تقاتلوا جئتم تُعرِّضون هنا!

قهقه الشاب من كلام الحاج. أمسك بيد رفيقته قائلًا لها:

- هيّا نمشي. خالنا خَرفان يهذي.

- يا عديمي التربية.

رماهما الحاج مسلم بشتيمته، ثمّ أرسل نظرة إلى أعمدة الدخان المتصاعد من بعض البيوت في حارة صوفيان ليعود ويرمي الشاب ورفيقته بنظرة قاسية وهو يصرخ:

- الكلام الذي يحرق فمي ولم أقله بعد سأبوح به. نعم سأنطقه أخيرًا أيها الشباب. وعدًا مني سأنطقه وألفظ الجمرة من فمي.

لم تهتمّ الفتاة وفتاها بصراخه. ابتعدا قليلًا واستأنفا التفرج على المدينة التي تحترق متخذين أنسب الوضعيات وأفضل الزوايا لالتقاط صور سيلفي.

ظهرت في السماء طائرة حربيّة وقصفت موقعًا داخل المدينة، فارتفع الدخان من جديد. استعد الشاب والفتاة فقاربا بين رأسيهما بسرعة وصنعا بأصابعهما علامة النصر بتباهٍ كبير، ثمّ التقط الشاب سعيدًا صورة سيلفي سرعان ما وجدت طريقها إلى صفحاته لتنال إعجابات كثيرة.

كثيرًا ما صادف الحاج مسلم عند الحدود أشخاصًا مثل ذلك الزوج. كان ينتقد سلوكهم فيسمع كلمات قاسية من بعض الشباب ليعود مقهورًا إلى الخيمة، يضع وجهه الحزين بين كفيه يخفيه عن زوجة ابنه وولديها ويفكّر.

يوم حدث التفجيران الانتحاريان بالقرب من معبر مُرْشِدْ بينار ذهب الحاج مسلم كعادته إلى الحدود. سمع إشاعات كثيرة تجود بها أفواه النّاس. لكنّه لم يعلم بمقتل ولده مع العشرات من المقاتلين إذ لم يكن الإعلام يذيع أسماء الضحايا. كان يذيع فقط الأرقام: «اليوم فقد خمسة مقاتلين حياتهم، فقد ستة، عشرة، خمسة عشر مقاتلًا حياتهم».

- يا أخي كيف سنعرف من استشهد من أهلنا؟ هؤلاء لا يذيعون حتّى اسم شهيد واحد.

سمع الحاج مسلم أحدهم يقول لآخر صباح اليوم الذي حدث فيه تفجيرا المعبر. فرد بنبرة حادة:

- وماذا يهم النّاس في ذلك؟ انظر كيف عقد هؤلاء الصعاليك حلقة الرقص.

ثم مد يده صوب مجموعة من الشباب والبنات يدبكون على وقع أغنية ثورية، وذهب ناحيتهم مكفهر الوجه حزين العينين. حين رآه الشباب ورأوا دشداشته الطويلة وكوفيته البيضاء وعقاله عرفوا أنه من كوباني فصاحوا بصوت واحد مثل كورس:

- اضرب يا رشو اضرب.

اقترب الحاج مسلم من أحد الشباب وقال له:

- ما هذا الذي تفعلونه يا بني؟ ألا ترون ما نحن فيه؟ أهذا وقت رقص ودبكة؟ ألا تفكّرون في أولئك الذين يقاتلون هناك ويستشهدون؟

- نحن نتضامن يا خال.

- تتضامنون بالرقص والدبكة؟

أحسّ الحاج مسلم بصاعقة أصابت رأسه. لم يفهم ما الذي جرى له. أمسك برأسه وابتعد عن تلك المجموعة.

- تعال يا خال، تعال لتنفض عنك بعض ذنوبك[27].

ناداه شاب يافع فردّ عليه أحد رفاقه:

- اترك الخال فهو يخاف أن يقع عقاله لو رقص.

الأستاذ أحمد أرزاق

وصل الحاج مسلم بمشقّة زائدة إلى خيمته. كان محمومًا. أتته كنّته من إحدى خيام الجيران بقليل من زهر البابونج المجفّف، وعملت له منقوعًا ساخنا وناولته إيّاه. لم تمض دقائق حتّى تصبب العرق من جبين حميها وغط في النوم.

بعد حوالي ربع ساعة استيقظ فزعًا وهو يقول:

- الهواء. الهواء. لقد تعفّن الهواء.

لم تفهم عَيْشه ما يقصده فسألته باستغراب:

- أيّ هواء يا خالي؟

أجاب بعصبيّة:

- ألا تعرفين الهواء! لقد أفسدت هذه الطائرات والانفجارات هواءنا. يضيق نَفَسي. سيامند. يا سيامند.

نادى على حفيده الذي كان يلعب مع أقرانه عند باب الخيمة. وقفت عَيْشه عند الباب ونادت بدورها على ابنها:

- سيامند. تعال جدّك يناديك.

دخل سيامند لاهثًا:

- خير؟

أجاب جدُّه:

- اذهب يا بني وقل للحاج بَرْكَلْ نَجو والأستاذ أحمد أرزاق إنّ جدّي يطلبكما بسرعة.

بعد برهة كان الاثنان داخل الخيمة. جلس الحاج بَرْكَلْ عند رأس رفيقه وقال مازحًا:

- لا تتدلّل كثيرًا يا حاج. خلاص سنزوّجك. لا تقلق.

- آآآه يا حاج بَرْكَلْ آه! ليت همّي كان زواجًا، هذا أمر يسير.

سأل الأستاذ أحمد أرزاق الذي جلس في الجهة المقابلة للحاج بَرْكَلْ، مسترقًا النظر إلى عَيْشه كلّما سنحت الفرصة:

- خير يا حاج؟ أرعبنا سيامند وقال إنّ جدّي مريض. ما الأمر؟

- لا، لست مريضًا. صحيح أنّني محموم قليلًا لكن مشكلتي شيء آخر. ألا تشعرون مثلي أنّ الهواء قد تعفّن؟

- أي هواء يا حاج؟ ما هذا الكلام؟ وهل يتعفّن الهواء؟

- أقصد بالهواء هذا السّمّ الذي نتنفّسه. لقد تعفّن بسبب دخان الحرائق التي يتسبّب بها قصف هذا اللّعين أوباما وطائراته. لقد تحوّل الهواء إلى سمّ وزقّوم.

- اترك هذا الكلام يا حاج وقم من الفراش.

اعتدل الحاج مسلم جالسًا. شرب ما تبقّى من منقوع زهر البابونج وقال للحاج بَرْكَل:

- هل ستذهب غدًا إلى السوق أم لن تذهب؟

- حتّى لو لم أكن نويت الذهاب سأذهب لأجلك. أنت تأمر.

- الأمر لله. أريد غربالًا.

- غربال؟

نظر الحاج بركل مشدوهًا إلى رفيقه ومستغربًا هذا الطلب. ابتسم الأستاذ أحمد بدوره. حاد بنظره عن قامة عَيْشه الواقفة عند باب الخيمة وسأل بنفس نغمة استغراب الحاج بركل:

- غربال؟

ردّ الحاج مسلم بخشونة:

- ما بكما تسألان؟ هل أتكلّم التركيّة؟ نعم غربال. ألم أقل إن الهواء قد تعفّن وامتلأ بالسموم؟ أريد أن أغربل الهواء وأصفّيه من هذا الخراء. عَيْشه اعملي لنا شايًا.

ردّت كنّته:

- لم يبق عندنا سكّر يا خال.

- ألا يوجد عند الجيران أيضًا. ما هذا القحط؟

- لا يوجد عندهم أيضًا. أرسلت سيامند قبل قليل، الجميع يقولون لا سكّر لديهم.

- الهواء مسموم متعفّن. الشاي بلا سكّر. هل هذه قسمة؟ ألا فلتزدد سوادًا على سواد يا رشّو يا أوباما.

ضحك الضيفان. ثمّ نظر الأستاذ أحمد أرزاق إلى عَيْشه وقال لها:

- السكّر نادر هذه الأيّام. لكن يوجد عندي قليل منه سأجلبه لكم غدًا. أنتم أجدر به من غيركم.

- والغربال؟

سأل الحاج مسلم بنبرة أقرب إلى التضرّع من الاستفهام، فردّ عليه الحاج بَرْكَل:

- الأستاذ أحمد سيأتيك به. هو يذهب كلّ يوم إلى سروج.

* * *

صباح اليوم التّالي ذهب الأستاذ أحمد أرزاق إلى سروج واشترى غربالًا ثمّ قفل راجعًا إلى المخيّم. كان في خيمته كيس سكّر أبيض عبّأ منه كيسًا صغيرًا، ثمّ جاء إلى خيمة الحاج مسلم. لم يسمع من داخل الخيمة أيّ صوت فوقف عند الباب ونادى بلطف:

- هل من أحد في الخيمة؟

أخرجت عَيْشه رأسها من الباب وقالت:

- خالي الحاج ذهب إلى الحدود.

- لقد أحضرت له غربالًا وكيس سكر.

قال الأستاذ أحمد أرزاق ودخل الخيمة دون استئذان.

كانت الدنيا صباحًا والجميع هاجعين في خيامهم. بعيدًا في ساحة صغيرة انبرى الأطفال يتزحلقون على الطين. أمّا سيامند فقد كان يمسك بيد أخته ويتجوّل معها بين الخيام تحت رذاذ خفيف من المطر.

خفق قلب عَيْشه بشدّة وقالت:

- يا أستاذ لا أحد في الخيمة.

- هذا أفضل.

وضع الغربال وكيس السكّر بجانب باب الخيمة ومشى قليلًا ثمّ فاجأ عَيْشه فأخذها في حضنه. ذهلت عَيْشه. وضعت يدًا على صدرها ويدًا على صدره وحاولت أن تدفعه بعيدًا عنها فلم تفلح. التصق بها الأستاذ أحمد أرزاق بشدّة مطوّقًا خصرها بذراعيه متحسّسًا ردفيها غارزًا فيهما أصابعه.

- ما هذا يا أستاذ؟ ماذا تفعل؟

قالت عَيْشه بخوف وارتباك. وضع الأستاذ أصبع السبّابة على فمه طالبًا منها السكوت، وبدأ يفتح أزرار ثوبها عند النحر لكنّها دفعته بقوّة ثمّ ذهبت إلى باب الخيمة وقالت:

- إن لم تخرج حالًا فسأصرخ طالبة النجدة وأجمع كلّ من في المخيّم عليك. هيّا اخرج حالًا. هيّا.

مشى الأستاذ إلى باب الخيمة. وقبل أن يخرج قال:

- أنا أحبّك، صدقيني يا عَيْشه. لا أنوي شرًّا.

- تبًّا لك ولحبّك يا خسيس. ألا تخجل من بطني أنا الحامل؟ يا عديم الشرف.

أغلقت عَيْشه، وهي تلهث مثل غزالة فاجأها أسد، باب الخيمة بإحكام وراء الأستاذ أحمد أرزاق وحاولت أن تتّصل بزوجها:

- تووت. تووت. توووووت.

- حَمِه، يا حَمِه، قل لي متى ستجيبني؟ هل صحيحٌ أنك مِتَّ يا حَمِه؟ لو رأيت ما عشته الآن لخرجت من قبرك حتّى لو كنت ميتًا من ألف عام!

وانخرطت في بكاء مرّ. جلست في مكانها، نظرت إلى بطنها المنتفخ ثمّ حملت الغربال وقالت:

- كلامك صحيح يا خال. لقد تسمّم الهواء وامتلأ بالعفونة. هذه الحرب اللّعينة لم تسمّم الهواء فحسب. هي سمّمت البشر أيضًا يا خال. امتلأت شرايينهم بالسّمّ ولن تنفعهم الغربلة. هؤلاء تلزمهم بضع رصاصات تغربل أرواحهم.

ثم سمعتْ صوت ولديها فوضعت الغربال بجانب فراش الحاج مسلم، مسحت دموعها بظاهر كفّها، ثمّ عدّلت ثيابها كأنّ شيئًا لم يكن.

* * *

اشتهر المدرّس السّابق في ثانويّة بنين كوباني بين النّازحين بلقب الأستاذ أحمد أرزاق بسبب عمله موظّفًا لدى إحدى منظّمات الإغاثة الدوليّة. اعتاد النّاس أن يروه متجوّلًا في المخيّم ينتقل من خيمة إلى أخرى يسجّل أسماء المحتاجين ثمّ يوزّع الأرزاق عليهم ويذهب مع المرضى ذوي الحالات الصّعبة إلى المشفى الأحمر الحكومي في سروج على طريق حَرَّان. عرفه النازحون فيما بينهم فاعلًا للخير ولذلك تساهلوا في شأن دخوله إلى كلّ خيمة.

احتارت عَيْشه بين سمعة الأستاذ أحمد الحسنة وما يشيعه النّاس عن طيبته وسموّ أخلاقه وبين ما فعله معها! كانت الصدمة كبيرة فلم تسترجع هدوءها إلاّ بعد ساعة من طرده من خيمتها.

أرادت أن تقنع نفسها بأن ما رأته لم يكن سوى حلم مزعج، كابوس من كوابيس الغربة والنزوح، لكن الغربال وكيس السكّر شهدا بصمت على أن ما جرى لم يكن إلاّ حقيقة أفظع من كابوس.

حين عاد الحاج مسلم مساء، وقعت عينه مباشرة على الغربال فحمله على عجل وصار يديره بسعادة كأنّه يغربل شيئًا ما ثمّ قال:

- الآن امتلأ السّراج بالزيت[28].

ثم رأى كيس السّكر فتضاعف سروره وقال:

- هيّا اعملي لنا شايًا يا عَيْشه. سأحتفل بالغربال.

عمّ الظّلامُ مخيّم علي كور. تناهت صدى همهمات من بعض الخيام وبدأت ريح الشتاء تعوي. هطل المطر بغزارة وخرقت أصوات القصف والانفجارات القادمة من بعيد سكون ليل المخيّم.

وضعت عَيْشه إبريق الشّاي على النّار، ثمّ جلست بجانب باب الخيمة وصارت تصغي ساهمة إلى أصوات الحرب في كوباني.

فجأة سمعت حوارًا قريبًا من خيمتها. أصاخت سمعها، فإذا به حوار كالهمس. ركّزت أكثر. تناهى صوت اللّغط خارجًا إلى سمع الحاج مسلم أيضًا فسأل عَيْشه:

- صوت من هذا الذي يأتي من عند باب الخيمة؟

- هذا أنا يا حاج. الأستاذ أحمد.

وصار يضرب باب الخيمة بكفّه. خفق قلب عَيْشه بشدّة. نظرت بقلق إلى أطفالها النائمين في إحدى الزوايا.

- افتحي الباب للأستاذ يا بنتي. هذا رجل شهم.

قامت عَيْشه وفكّت أشرطة الباب، فاندفع إلى الداخل تيار هواء شديد البرودة تبعه الأستاذ أحمد في الدّخول وقبل أن يجلس قال:

- لمَ لا! من عنده سكّر يصنع شايًا!

ثمّ اتّخذ مجلسه عند الحاج مسلم وهو يتابع حركات عَيْشه باشتهاء.

- شكرًا جزيلًا أستاذ لأنّك حقّقت حلمي. سأغربل الهواء المسموم حتّى أنظفه. سترى غدًا كيف أنه سيصبح نقيًّا صافيًا.

قال الحاج مسلم ورفع الغربال وأداره مثل دفّ ثمّ وضعه بجانبه.

جلست عَيْشه بجانب إبريق الشاي الذي بدأ يغلي تنتابها أفكار وهواجس عديدة بخصوص ما فعله معها الأستاذ أحمد أرزاق. أطفأت النار ثمّ وضعت الإبريق على الأرض وصبّت كأسًا للأستاذ وأخرى للحاج مسلم ووضعت الكأسين أمامهما، ثمّ ذهبت إلى ولديها النائمين وغرقت في هواجسها. ترى هل تخبر الحاج مسلم بسوء طويّة الأستاذ وأنه يراودها عن نفسها؟ لكن أين عقل الحاج مسلم؟ الظّاهر أنّه فقد رشده بسبب ما جرى له وأن لا شغل ولا هاجس له سوى غربلة الهواء المسموم. إن أخبرته أو أخبرت إحدى جاراتها فهي فضيحة وإن سكتت ماتت بقهرها. لو كان إخوتها ووالداها هنا لما ظنّ هذا الذئب أنّها لقمة سائغة يمكنه التهامها متى شاء لكن أين هم

الآن؟

امـتزج عـواء الـرّيح خـارجًا بالحـديث الـذي ارتفعـت نبرتـه فجـأة بـين الأسـتاذ أحمـد أرزاق ووالـد زوجـها وهمـا يرتشـفان الشـاي فـانقطعت سـلسلة أفكـارها. نظـرت إلـى وجهي ولديها النائمين بهدوء وبراءة وخلوِّ بال.

- ليتني كنت طفلة صغيرة مثلكما. ما هذا الحِمل الذي ألقيته على كاهلي يا ربّ؟

قالت في نفسها وسحبت اللّحاف تغطّي ولديها الحالمين.

أرادت أن تصغي إلى حديث نفسها لكنّ الأستاذ أرزاق ألقى الملعقة الصغيرة في الكأس فأصدرت رنينًا وقال:

- سلمت يداك يا عَيْشه. شاي كهذا الذي شربته للتوّ لا يوجد له نظير في الدنيا كلّها.

شرب الحاج مسلم ما تبقّى في كأسه ثمّ نهض وقال:

- أما أنا فسأذهب.

- إلى أين ستذهب يا خال في هذا اللّيل؟

- أتسمعين صوت ريح الشمال؟ هذه أيضًا ريح مسمومة. سأغربلها.

- طيّب خذ معك الأستاذ أحمد. لا تخرج لوحدك.

ضحك الأستاذ:

- وهل عمّي الحاج طفل حتّى أرافقه؟ دعيه فليتنفّس قليلًا. كلّنا متبرّمون ومقهورون.

خرج الحاج مسلم دون أن يهتمّ بوجود رجل غريب مع كنّته في الخيمة. ما إن وطئت قدماه خارج الخيمة حتّى رفع الغربال إلى أعلى يصدّ به ريح الشمال ثمّ خفضه وأداره كمن يغربل بالفعل شيئًا.

تسرّب قطران الخوف إلى قلب عَيْشه. في الخارج أطبق الظلام فكّيه على الخيام وخرق صوتُ الانفجارات القادمة من البعيد وزئيرُ ريح الشمال السّكونَ المرعب.

أمسك الأستاذ بيدي عَيْشه وأدنى فمه من فمها:

- أنا أحبّك يا عَيْشه. والله أحبّك.

حاولت عَيْشه أن تبعده عنها فلم تفلح. أضجعها بحركة سريعة على الأرض ثمّ هبط على صدرها وهمس:

- لن أتركك اللّيلة. فلا تحاولي الخلاص منّي.

ثم بدأ يحسر ثوبها عن فخذيها ويفكّ أزرار صدرها.

احتارت عَيْشه في أمرها. هل تصرخ وتجلب الفضيحة لنفسها؟ أم تسكت فيلوث هذا الوحش شرفها؟ إذا دخل أحدهم الخيمة الآن ورآهما على تلك الحالة فماذا سيقول؟ إذا عاد حموها الحاج مسلم مثلًا أو دخلت إحدى جاراتها كيف ستفسّر لهم الأمر؟

تلاطمت تلك اللحظة خيالات عديدة في ذهنها. بدأ الأستاذ أحمد يلهث ويتنقل بفمه من هذه الحلمة إلى تلك. اختلط لهاثه بأصوات الانفجارات القادمة من كوباني. أصبحت الرّيح تئنّ في الخارج مثل جرو اجتمع عليه أولاد أشقياء.

توسّلت إليه فلم يستجب لها.

- أستاذ أحمد أستاذ أحمد.

نادى أحدهم في الخارج.

توقّف الأستاذ ثمّ نهض عن صدر عَيْشه طالبًا منها السكوت. استغلت عَيْشه الفرصة وقالت:

- إن لم تخرج الآن فإنّني سأرفع صوتي بالاستغاثة.

نظر الأستاذ من شقّ باب الخيمة إلى الخارج فرأى شخصًا يحمل فانوسًا يتجوّل بين الخيام. عدّل من هيئته. وضع قميصه تحت بنطاله الجينز ولفّ شال الصوف على رقبته، ثمّ ارتدى حذاءه وخرج دون أن يقول شيئًا.

لم تمض دقيقة حتّى دخل الحاج مسلم وثيابه تقطر ماءً:

- هطل مطر غزير مثل الغضب. لم أعرف أن غيوم سروج تثرثر أكثر من أرملة. اللّعنة. وكأن الهواء المسموم لا يكفي حتّى يهطل الخراء أيضًا.

أخذت عَيْشه الغربال المبلّل من يده، خلعت عنه سترته وأعطته بطانيّة يتدفأ بها ثمّ قالت:

- أرجوك يا خال اترك هذا الموضوع. لا تخرج من الخيمة.

- وهذا الهواء! أأتركه يسمّمنا؟ أنا لا أكاد أتنفس بسبب عفونته. سيقتلنا هذا الهواء اللعين.

* * *

مضت أيّام دون أن يظهر الأستاذ أحمد أرزاق في المخيم. خشيت عَيْشه أن تسأل جاراتها عنه. ظلّت قلقة من أن يُفْتَضَح أمرها، خافت جلجلة الفضيحة وترقّبت الأخبار في المخيم بتوتّر بالغ إلى أن جاءتها ذات مرّة إحدى صديقاتها

تستعير منها بعض الملح. بعد قليل من الحديث قالت صديقتها التي فقدت زوجها في القتال:

- هل عرفت بما جرى؟

- لا. ماذا جرى؟

- الأستاذ أرزاق دخل السّجن.

- معقول؟

- أقسم بالقرآن الشريف. اسألي إن لم تصدقيني. كلّ من في المخيم يعرف الموضوع.

- ولماذا؟

- سرق من أموال الإغاثة.

- يا خسيس.

- وهناك شيء سأقوله لك لكن لا تخبري به أحدًا.

- ما هو؟

- لقد تحرّش ببعض نساء المخيم أيضًا.

أحد عشر جرحًا

لم تبق عندي ذرّة شكّ في أنّ ما أسمعه منذ لحظات ليس سوى صوت دقّات ساعة أمّي.

- من هنا يصدر الصّوت.

يشير ابن أختي إلى مكان بضعة أحجار وقعت من الجدار الشرقي في الغرفة المقدّسة.

على ذلك الجدار كانت أمّي تعلق في بداية كلّ سنة تقويمًا أنزع أنا ورقاته يومًا فيومًا.

ماتت أمّي في يوم السبت الثاني من نيسان 1988. لم أسمح لأحد بعد ذلك التاريخ أن ينزع أيّ ورقة. أوقفت الزمن عند ذلك التاريخ. كانت تلك الورقة تؤرّخ لفجيعتي التي لم أسمح حتّى لوالدي أن يغيرها:

- يا أبي لا تنزع هذه الورقة وانزع ما شئت من ورقات تحتها.

على ذلك الجدار كانت ثمّة مرآة أيضًا. مرآة بإطار من خشب الجوز الداكن اشترتها أمّي من ماردين استعدادًا لزفافها حين كانت صبيّة في الخامسة عشرة من عمرها.

كثيرًا ما طلبت منّي أمّي، بعد أن تكون قد وضعت الحنّاء على شعرها في اللّيل ثمّ غسلته صباحًا، أن أنزل لها المرآة وأضعها على الأرض بين النافذتين الجنوبيّتين اللّتين ينفذ منهما ضوء الشمس. كنت أنظر إليها بحبّ وهي تمشط أمام المرآة شعرها النديّ الجميل كقصيدة مسترسلة والأحمر الغامق مثل خيوط مغزولة من ماء الرُّمان تلمع في النّور الذي تريقه الشمس في الغرفة.

كانت تفوح من شعر أمّي وهي تسرحه بمشطها العاج الذي جلبه أبي لها من الحجّ رائحة أسطوريّة لا تشبه رائحة أي نوع من العطور. راقبتها كثيرًا وهي تفرق في المنتصف شعرها الذي أصبح خفيفًا بسبب تقدمها في السن، ثمّ تجدل في كلّ طرف جديلة رفيعة وتضع مند يلها الكتان الأبيض على رأسها لتشدّ أخيرًا عصابة الموسلين حول المنديل.

مرتدية منديل الكتان ذاته وعصابة الموسلين نفسها وقعت أمّي ذات ربيع مريضة، ثمّ ما لبثت أن ماتت بعد أقل من شهر. كنت طالبًا في السّنة الثالثة في كليّة العلوم بجامعة حلب. عدت ذات يوم من الجامعة لأرى أحد أصهارنا في البيت الذي استأجرناه أنا واثنين من أولاد أختي الكبرى. بعد التحيات وسؤال الأهل والحال وسبب زيارته لنا جلسنا على

مائدة الغداء.

- أصيبت أمّك فأتينا بها إلى المشفى.

- أمّي؟

- لا تخف هي بخير أكمل طعامك.

لم تخدعني كلماته. أمّي وجميع أهل كوباني لا يأتون إلى حلب للمعالجة إلاّ إذا كان الأمر خطيرًا. حتّى إنه باتت مقولة «أخذوه أو أخذوها إلى حلب للعلاج» علامة خطورة المرض.

لم أستطع أن آكل لقمة أخرى:

- فلنذهب.

- لا تستعجل. والله الأمر ليس خطيرًا.

أصررت على الذّهاب.

في المشفى رأيت أمّي ممدّدة على السرير مغمضة العينين. لا أتذكّر من كان معها في الغرفة لكنّه حين رآني قال:

- لا تقلق. الآن تناولت طعامها ونامت.

لم تستطع كلمات «لا تقلق، أمّك على ما يرام، هي بخير» أن تقنعني. دهمتني موجة من الخوف والقلق في أوّل لحظة. لا يمكن أن يأتي مريض من كوباني إلى حلب ما لم يكن وضعه خطيرًا.

حين فتحت أمّي عينيها ولمحتني ابتسمت. تحوّل وجهها إلى فردوس كما في كلّ مرّة حين تبتسم. لم تكن ابتسامتها سوى ربيع زاهٍ يجود به ذلك الوجه الذي أتعبته السنون. ذهبت إليها، انحنيت وقبلت يدها قبلات كثيرة وشممتها. لم تتفوّه بكلمة. نظرت إلي، حاولت أن تقول شيئًا لكنّها لم تستطع. فقدت أمّي النّطق ولكنّها لم تفقد الرّغبة في الابتسام. تكلّمت معي بعينيها وابتسامتها الجميلة وصارت تداعب شعري بحنان. كنت صغيرها، آخر العنقود الذي أعمل في البيت مثل فتاة.

أساعدها في الطبخ والجلي وكافّة أمور المنزل بعد أن انفرط عقد الأبناء والبنات ولم يبق معها سواي حتّى أطلقوا عليَّ في حارة سَيْدا لقب: ابن العجوز.

* * *

بعد أن عادوا بأمّي إلى كوباني، كرهت الجامعة فتركتها وتركت نشاطي السياسي بين الطلاّب هناك. تركت حلب من قلقي الزّائد على أمّي وسافرت إلى كوباني فرأيتها لم تعد تعرف اسمي ولا تستطيع

التلفظ بأسماء كثير من الأشياء. بعد يومين من وصولي ومثولي عند قدميها مثل هرّة صغيرة، دخلت أمّي في غيبوبة عميقة.

مرّت تسعة أيّام وهي في غياهب الغيبوبة لا تفيق. كنت أتحدث إليها، أصف لها كلّ شيء، أسمّي من جاء يزورها، أخبرها بمواعيد الفطور والغداء والعشاء، أكلّمها كما لو أنّها تسمعني فعلًا. في صبيحة اليوم العاشر، حين دقّت ساعة الحائط المعلقة فوق رأسها معلنة الحادية عشرة صباحًا، لفظت أمّي الواهنة أنفاسها الأخيرة. قفزت كالمجنون إلى السّاعة وأوقفتها. أوقفت رقّاصها. بقيت السّاعة خرساء لعدّة أشهر والعقارب لا تشير إلاّ إلى الحادية عشرة. أحد عشر جرحًا معلقًا على جدار غرفة أمّي. أحد عشر جرحًا نازفًا في قلبي.

كان على الكون أن يتوقف عن الحركة تمامًا مثلما توقف قلب أمّي عن النبض.

* * *

يختفي ابن أختي حمودة مرّة أخرى. أشك في أمره وتتناهبني الظنون في وجوده من جديد. أشك في نفسي وأشك أيضًا في رحلتي هذه إلى حارة سَيْدا.

أدع شكوكي جانبًا وأنحني على الخراب اليقين. أرفع الحجارة عن المكان الذي أشار ابن أختي المختفي توًّا إليه. تظهر بعض الألواح الخشبيّة. أزيحها. يزداد صوت الـدّقّات وضـوحًا. تزداد دقّات قلبـي. ألمـح زاويـة صـندوق السّـاعـة. رويـدًا رويـدًا تتّضـح معـالم ذلـك الصـندوق البنـي الجميـل. بحـذر وإشـفاق وخـوف أسـحب الصـندوق وكأنّني أسعف أحد الجرحى المطمورين تحت الرّكام. بل أشعر في تلك اللّحظة أنني أنقذ أمّي نفسها.

أخيرًا أتمكن من إخراج السّاعة. إنها خرساء. الرّقّاص واقف بلا حراك. العقارب تشير إلى الخامسة وأربع عشرة دقيقة، الفاجعة والربع تقريبًا. «لا شكّ أنّها لحظة القصف». أقول لنفسي.

أتساءل بيني وبين نفسي: ترى هل الصّوت الذي سمعته قبل قليل صدر عن هذه السّاعة؟ لا جواب. السّاعة واقفة ولا صوت يصدر عنها. أنظر في ساعة يدي. إنها أيضًا تشير إلى الخامسة وأربع عشرة دقيقة. ما هذه الصّدفة؟ أضع أذني على السّاعة الكبيرة. لا أسمع سوى صدى تلك السّنوات التي عشتها مع أبي وأمّي تحت هذه السّاعة. أسمع تلك الرنّات التي أعلنت الحادية عشرة لحظة ماتت أمّي في يوم السّبت ذاك من نيسان عام 1988.

أحـدّق بأسـى فـي سـاعة أمّي. زجاجـها مكسـور مثـل قلبـي. أرفعـها بحنـان وأضـعها بحـذر، كمـا لـو أنّهـا جريح، فـي نافـذة مـن النافـذتين المطـلّتين علـى الجنـوب. أمـدّدها وأتفرج عليها هناك لحظات ثمّ يسافر خيالي مرّة أخرى إلى ذلك الزمن البعيد.

* * *

لا يطول بي السّفر في الذاكرة، يدخل حمودة حاملًا صندوق أمّي الخشبي، لا أسأله أين اختفى بل أبادره قائلًا:

- أين كان هذا الصندوق؟

- وجدته تحت ركام غرفتك العُلوية. فارغ لا شيء فيه.

لا يعلم ابن أختي أنّه لم يكن صندوقًا فارغًا فيما مضى من زمن. لا يعلم حمودة ما يمثّله لي هذا الصندوق الكنز. أهرع إليه، آخذه منه وأحمله. أضعه على الأرض وأتأمّله بحزن.

كان هذا الصندوق المزرَّد بصفيح معدنيّ وأزرار معدنيّة على شكل نقوش، مستودعَ أسرار أمّي. وكنت أفرح كثيرًا حين أراها تفتح قفله الصّغير في أيّام الجمعة.

أتكوّر بالقرب منها مثل قطّة صغيرة أراقب ما تفعله. تدندن بلحن أغنية حزينة لا أعرف كلماتها وتعيد ترتيب ما فيه. تخرج أوّلًا بقجتها البيضاء المطرّزة برسوم طيور حجل وزهور صغيرة. تفتح البقجة وتفحص المناديل المرتّبة بعناية، تعدّ الهباري الموصلية وبعض الأقمشة ثمّ تعقد البقجة كما كانت. تخرج علبة معدنيّة عليها صورة مصباح الغاز وتفتحه. أنظر بدهشة إلى محتويات تلك العلبة الصغيرة: ملاقط شعر، مشط عاج، مكحلة نحاسيّة مرودها ذيل طاووس، طاسة نحاسيّة منقوشة عليها آية الكرسي من الخارج. من تلك الطاسة كانت أمّي تسقي أولادها الماء حين تلمّ بهم وعكة ما. كنّا نسميها طاسة الحجّ، مساوك صغيرة، مسبحة سوداء بتسع وتسعين حبّة ومنديل جيب معطّر مطرز الحواف بنقوش مألوفة.

ضوء مبهر يغمر الغرفة. يختفي حمودة. سكون رهيب يتخلّله صدى دندنة تلك المرأة النورانيّة، أمّي الحزينة، قادمًا من أعماق سنوات ولَّت ولن تعود.

هيفي

مضى أسبوع دون أن يظهر فيه الأستاذ أحمد أرزاق. لم تستطع عَيْشه أن تنساه وتنسى ما فعله بها، لكنّها انشغلت بحميها الحاج مسلم وما آل إليه أمره.

أصبح يحمل غرباله قبل أن تشرق الشمس ويذهب إلى الحدود. يبقى هناك يحدّق في مدينته صامتًا. لا تكاد تمرّ لحظة دون أن يرى دخانًا يتصاعد في السماء يليه صوت انفجار هائل. فيرفع الغربال مع كلّ انفجار، يوجّهه صوب جهة الصّوت والدخان، ثمّ يديره عدّة مرات ويصيح:

- اضرب يا رشو اضرب. دع الدخان يتصاعد من الأرض. مهما لوثت الأجواء فإنني سأغربلها وأصفّيها. أيها الصعلوك التافه، أيّها الأسود النّحس لقد دمّرت البلد.

اشتهر حال الحاج مسلم بين الجميع بغرباله حتّى صاروا يشفقون عليه. ذات يوم كان أحد الشباب يلتقط مع صديقته صور سيلفي، ولما رأى الحاج مسلم على تلك الحال مد يده إلى جيبه يريد أن يعطيه بعض المال. احتدّ الحاج، رفع غرباله في وجه الشاب، أداره بضع مرّات، ثمّ قال بحدّة وهو يبتعد:

- خذ نقودك وضعها في جيبك. أستطيع أن أضعك في كفّة ميزان وأزنك بالمال. هل تعتقد أنّ النقود هي كلّ شيء؟ هل تظنّ أن كلّ من سكن الخيام متسوّل؟ لقد خسرنا أعشاشنا. ثمّ ألا تنظر إلى هذا الهواء؟ ألا تشمّ؟ حين تحترق المدن تتعفّن الأجواء يا ابن أخي. الإنسان أيضًا يتعفّن بلا شكّ. وبطبيعة الحال فالنقود أكثر الأشياء عفونة. اذهب والتقط الصّور. هيا.

هكـذا صـار يقـضّي أيّامـه. يسـتيقظ فـي الصـباح البـاكر، يشـرب كـأس شـاي ويفطـر ثـمّ يتـأبّط الغربـال ويتّجـه إلـى الحـدود يتجـوّل بـين مجموعـات المتفـرّجين والمتنزّهـين والصـحفيّين وحـتّى أهـل كوبـاني الـذين يحـدّقون بقلـق وحزن إلـى مـدينتهم وهـي تتعـرض للتـدمير. يتـوقف عنـد كـلّ مجموعـة، يـرفع الغربـال ويـديره قليـلًا ثـمّ يشـمّ الهواء.

يئست منه عَيْشه. حاولت في الأيّام الأولى أن تثنيه عن الذهاب إلى الحدود لكنّها لم تقدر عليه. عرفت أنه أصبح عصيًا على العلاج. تركته. انشغلت بحملها وبطنها الذي بدأ يكبر يومًا بعد يوم وصارت تعرف الآن أن ما في بطنها بنت. في المرّة الأخيرة أخبرها الطبيب في المشفى أنها ستضع مولودتها بعد رأس السنة بحوالي شهر.

اشترت من سوق سروج بعض الثياب زهريّة اللّون: قبّعات، قفازات، أقمطة وبطانيّات ووضعتها جميعًا في خيمتها.

أصبحت ترعى ولديها الآخرين كأب وأمّ معًا. تأخذهما وتفسحهما، تشتري لهما الألعاب، تأخذهما إلى المراجيح وتجيب على سؤال: «أين بابا» بالدّمع وحده.

زال خوفها من عودة الأستاذ أحمد أرزاق بعد أن علمت أنّه سيمكث على الأقلّ سنة كاملة في السّجن.

- بعد سنة يفتح الله مائة باب في وجه المرء. بعد سنة يصبح ألف رأس بلا قبّعة.

قالت لجارتها فاطِمْ التي قضى زوجها في القتال داخل كوباني.

أبهجت الأخبار الواردة من داخل المدينة قلبها. بدأت داعش تنسحب حيًّا حيًّا وشارعًا شارعًا بعد أن تركت خلفها العشرات من عناصرها القتلى في الشّوارع وتحت الأنقاض.

بقيت، بالرغم من أنّها باتت على يقين من أنّ زوجها حَمِه قتل في القصف، تأمل أن تعود فتراه حيًّا يرزق:

- من يدري فلعلّ موضوع موته كذب! لقد جاءت أخبار استشهاد الكثيرين لكن تبين لاحقًا أنّهم مازالوا أحياءً.

أصبح الحاج مسلم لا يعود إلى الخيمة إلاّ لينام. بل كان أحيانًا يبقى دون أن يعود ولا تعرف عَيْشه ولا غيرها أين هو! في الصّباح يعثر النّاس عليه نائمًا عند الحدود، متوسّدًا حذاءه، ممسكًا غرباله ملتحفًا بأسمال عديدة.

تغيرت هيئته عما كانت عليه، فصار يعتمر قبعةً بعد أن رمى العقال والكوفيّة. طالت لحيته وتشعثت. حتّى أصدقاؤه ومعارفه وجيرانه صاروا يضحكون حين يرونه على تلك الهيئة الغريبة، لكنّهم سرعان ما يشفقون عليه ويحاولون مواساته دون جدوى.

قرض الحزن جذور عقله من الأعماق. أحرقت نيرانٌ مجهولةٌ مسعورةٌ روحَه المرهقة.

«لقد جُنَّ الحاج». هكذا صار النّاس يتداولون فيما بينهم. عرف ماذا يقول النّاس عنه، لكنّه لم يأبه لحظة لكلامهم. لم يعد يجالس النّاس. صار كلما اقترب من أحدهم أدار غرباله مرّة أو مرّتين، ثمّ شمّ الهواء حوله كأنّه يتأكّد من صفائه، ثمّ يواصل جولته، يقف وحده يتأمّل مدينته وما إن يرتفع الدخان حتّى يرفع الغربال موجّهًا إياه إلى مصدر الدخان ومقلّدًا حركة من يرفع الرغوة عن طبخة بالمصفاة أو من يغربل شيئًا ليصفيه.

مضى رأس السّنة وصارت كوباني على وشك أن تخرج من قبضة داعش لكن اليأس نال من الكثيرين. لم يعودوا يصدّقون أنّهم سيعودون مرّة أخرى إلى ديارهم لأنهم رأوها تتحول إلى أنقاض أمام أعينهم. احترقت تلك

البلـدة ذات المائـة عـام والعـش الـذي آوى عشـرات الآلاف مـن البشـر أمـام أعـين أهلـها. وشـت الانفجـارات الهائلة بالخراب العظيم الذي تتعرض له المدينة الصغيرة. تبين من الحرائق المرعبة التي غمرت ليالي سهل سروج الباردة بالضوء الوحشي أن جحيمًا رهيبًا فتح أبوابـه علـى شـوارع تلـك البلـدة وبيوتـها. تصـاعد الـدخان مـن المـواقع المـدمّرة بعـد كـلّ انفجـار وتمـدّد حـتّى جـاوز الغـيوم. عـرف الـنّاس أن الضـحايا ليسـوا فقـط عناصـر داعش، بل إن حلم عودتهم القريبة أصبح هو الضحيّة الكبرى.

كثيرون من الذين انتظروا عودة سريعة إلى كوباني، ملوا الحرب فتفرّقوا في متروبولات تركيا واندمجوا مضطرّين في الحياة الجديدة القاسية. بعضهم استقرّ بين أقربائه في ماردين ودياربكر وأربيل والسليمانيّة ودهوك وزاخو وغيرها. بينما قرّر آخرون أن يديروا ظهورهم لذلك الخراب العميم وتلك الجراح الغائرة ويتّجهوا إلى غرب الدنيا، يقطعون البحار ويجتازون الحدود مستسلمين للبحر وأمواجه مجازفين بحياتهم ليصلوا إلى أرض خمدت فيها براكين الحروب.

بالرغم من كلّ ذلك بقي بعض أهل كوباني قريبين منها: من انقطعت بهم السّبل، ومن لم يجدوا مالًا يسافرون به إلى بلدان بعيدة، ومن لم يكن لهم أقرباء في أماكن أخرى، وكذلك من أقسموا أن يبقوا بجانب مدينتهم الجريحة يواسونها ويعدونها بالعودة. قالت عَيْشه، وهي تضع يدها على بطنها الكبير، لجارتها فاطِه من كانيا عَرَبانْ قبل أن تعودا بأيّام:

- حتّى لو بقي في كوباني حجر واحد فسأذهب لأسند رأسي إليه. لن نتركها.

كذلك بقي الذين فقدوا أبناءهم في القتال داخل المدينة ولسان حالهم يقول:

- لمن سنتركهم؟ حتّى الضّواري لا تترك فلذات أكبادها.

* * *

كان الثّلاثاء الأخير من شهر كانون الثاني، من عام ألفين وخمسة عشر، يومًا باردًا غلب عليه الصّمت حتّى إنّ أصوات الانفجارات لم تعد تُسمع فيه. أمّا الساكنون في الخيام فقد بقوا داخل خيامهم تحت البطانيّات يتهامسون دون أن يتجرّؤوا على الخروج من شدّة البرد.

بقي الحاج مسلم في الخيمة ولم يخرج كدأبه كلّ صباح. كان مرهقًا واهن الجسم، لا رغبة له في الخروج. ألقى نظرة حزينة على الغربال المركون قرب رأسه ثمّ لامسه بيده ومسحه كمن يعتذر. وحين شعر بأن حفيديه مستيقظان ناداهما بهدوء:

- سيامند، زوزان تعالا إلي.

مضـى وقـت طويـل دون أن يسـمع الحفيـدان صـوت جـدّهما الحنـون

ينادي ـهما. وحـين سـمعا نـداءه ذلـك الصـباح أزاحـا اللّحـاف بفـرح وركضـا إليـه لينـدسّا بجانبـه فـي الفراش.

بقيت عَيْشه في فراشها. شعرت بآلام مبرحة في ظهرها. عرفت أنّ مولودها الثالث على وشك الولادة، فنادت ابنها سيامند بصوت يلفّه الخجل وأمرته بأن يذهب ويدعو جارتها.

- من؟

- فاطِهْ. فاطِه من كانيا عَرَبانْ.

- فلتذهب زوزان.

- زوزان صغيرة. اذهب أنت.

خرج سيامند ممتعضًا، ثمّ عاد بعد دقائق برفقة المرأة.

- صباح الخير.

- أهلًا وسهلًا. تفضّلي ادخلي.

رحب بها الحاج مسلم وهو يعتدل جالسًا في فراشه.

- خير يا عَيْشه؟ ما الأمر.

- إنّه المخاض.

- لا! كيف عرفت؟

- وهل هذه أوّل مرّة ألد فيها! منذ الفجر أشعر بآلام في الظهر. أعرف آلام المخاض.

- تريدين أن تلدي في المستشفى؟

- لا لا. أريد أن ألد في الخيمة.

- فلأذهب لآتي بالداية. هناك داية مشهورة وماهرة من حارة صوفيان خيمتها قريبة.

لم يفهم الحاج مسلم شيئًا ممّا تهامست به المرأتان فسأل بانزعاج:

- ما الأمر؟ ما بكما تتهامسان؟

ضحكت فاطِهْ وقالت:

- لا شيء يا عمّي الحج. عَيْشه تتألّم قليلًا وسأذهب لآتي بالداية زِلخو.

- همممم.

فـهم الحـاج مسـلم أنّ كنّتـه علـى وشـك الـولادة. مـدّ يـده إلـى

قبّعتـه وسـرعان مـا تركـها ليأخـذ كوفيّتـه، ويضـعها علـى رأسـه ثـمّ ثبـت العقـال، بعـد ذلـك نـهض ولبـس عباءته الفرو، ثمّ خرج وهو يقول:

- سأذهب لآتي بالطّبيب.

- لا يا عمي الحاج. أنا سأذهب لآتي بالداية زِلْخو. هذه أمور نساء.

لم تمض دقائق حتّى اجتمعت بضع نساء حول الخيمة:

- أتوقّع أنها ستلد صبيًا.

- صبي؟ لا. بطنها بطن بنات.

- يا سلام. يا سلام. وما أدراك بذلك؟

- أنا أعرف. لقد رأيت حوامل كثيرات وتنبّأت بنوع المولود وفي كلّ مرّة صدقت نبوءتي.

- طيّب. بعد قليل سيأتي المولود وسنعرف أهو صبيّ أم بنت.

- الولد القادم سيولد يتيمًا سواء كان بنتًا أم صبيًا. لقد مات الأب في القتال.

- ألم يقولوا إنّه لم يمت؟

- لو كان حيًّا لعرفت زوجته.

- أعانها الله.

صارت عَيْشه تئنّ من الألم بينما انهمكت الداية زِلْخو في عملها، وصارت تطلب من فاطِه ماء ساخنًا أو فوطة أو ما شابه. بقي سيامند وأخته زوزان في الخارج قريبين من الخيمة يضحكان على أمّهما التي تصرخ. أمّا الحاج مسلم فقد ابتعد حوالي عشرة خيام، وصار يتمشى ويداه خلف ظهره وحيدًا. كانت تلك المرّة الأولى منذ شهور يخرج من دون أن يأخذ معه غرباله.

- طلع الرأس.

سمعت النسوة اللائي اجتمعن لدى باب الخيمة صوت الداية.

مع جملة «طلع الرأس» التي أطلقتها الداية زلخو بفرح، لاح فتى صغير يركض من بعيد بين الخيام ويصيح. حين وصل إلى جمع النسوة صرخ بفرح غامر:

- خرجت داعش. تحرّرت كوباني.

وابتعد يوزّع البشارة على باب خيام أخرى.

زغردت النّساء. اختلطت زغاريد الفرح بسلامة عَيْشه مع مثيلاتها بخروج المدينة من قبضة داعش بعد خمسة شهور عصيبة على أهلها. أخرجت فاطِه رأسها من باب الخيمة وقالت:

- فلتأتنا إحداكنّ بمقص نقطع به سرّة هذه البنت.

صمتت النّسوة المجتمعات عند الباب من الصدمة، ثمّ قلن بصوت واحد وكأنّهن في كورس:

- يا للمسكينة. بنت؟

قالت المرأة التي تنبّأت بذلك، بنبرة تشفٍّ:

- طبعًا. قلت ولم تصدّقوني.

رفعت أخرى صوتها:

- المهمّ أنّ لها صبيًّا.

قطعت الداية سرة البنت، ملأت موضع القطع بالكحل العربيّ، ثمّ وضعت المشيمة في كيس وحملت عدّتها قائلة باعتزاز بالنفس كبير:

- الحمد لله كانت الولادة ميسّرة. وليسعدك الله بها يا بنتي. لا فرق بين بنت وصبيّ. الكلّ هديّة من عند الله.

- الحمد لله.

ردّت عَيْشه بصوت واهن وألقت نظرة على وليدتها الصغيرة وابتسمت حين رأتها تلتقم الثدي وترضع بنهم وعيون مغمضة. همست عَيْشه في أذنها بحنان:

- هيڤي. اسمك هيڤي. أراد أبوك أن يسمّي أختك زوزان بهذا الاسم. لكنّه نصيبك[29].

لأوّل مرّة منذ شهور انقطعت أصوات القصف القادمة من المدينة.

في صمت ذلك الصباح البارد لم تعد عَيْشه تسمع سوى صوت ابنتها القادمة للتوّ إلى الدنيا.

* * *

مساء، على بعد عدّة خيام بعيدًا عن الخيمة التي استقبلت الوليدة هيڤي، ذهب الحاج مسلم ليسهر عند صديقه الحاج بَرْكَلْ نَجو. كان المتسامرون يدخنون حتّى بدت الخيمة من الدّاخل مثل سفح جبل في صباح يوم خريفي اتّخذ الضبابَ جلبابًا له.

لم يكن من حديث سوى تحرير كوباني. ارتفعت الجلبة ولم يعد أحد يفهم ما يقوله من بجانبه حتّى علا فجأة صوت الحاج مسلم:

- يا جماعة سأقول شيئًا وأرجو ألاّ تسخروا مني.

ردّ عليه أحد الحاضرين:

- تحدث في كلّ شيء، لكن رجاء لا تحدّثنا عن عفونة الهواء.

- لا لا. لن أتحدّث لا عن الغربال ولا عن الهواء العفن. لكن يؤرقني حال هؤلاء الذين كانوا يرقصون مثل القردة ويلتقطون الصّور رافعين أصابعهم في الهواء بينما كان أبناؤنا يستشهدون في شوارع المدينة، بماذا سيتسلّى هؤلاء بعد الآن؟ ترى أليست هناك مدينة أخرى تحتلّها داعش فيقصفها أوباما فتتحول إلى أنقاض فيذهب هؤلاء ويمارسوا رقصهم الماجن مثل أيري!

ضجّ المجلس بالقهقهة. كان الجميع يعرفون حالة الحاج مسلم وكيف أن خراب بلدته رماه في وديان الجنون، مع ذلك خاطبه جاره الحاج بَرْكَلْ مستنكرًا:

- يا حاج مسلم أنت رجل عاقل ومن مريدي الشيخ صالح النقشبندي. ما هذه الكلمات التي تلفظها؟ تعال لنفكّر كيف نغادر هذه الخيام اللعينة ونعود إلى بيوتنا.

قهقه الحاج مسلم، اعتدل جالسًا، رفع الغربال وأداره بضع مرات ثمّ عاد إلى جلسته وقال:

- حتّى من هواء هذه الخيمة تفوح رائحة الخراء. خلاص. هل قلت نعود إلى بيوتنا! وهذا الذي يحدث منذ شهور ماذا تسمّيه؟ هل يقصف أوباما فرج أمّك بالصواريخ أم يقصف حاراتنا وبيوتنا؟ لقد انتهت المدينة. خلاص. كوباني راحت.

جاء صوت أحدهم من زاوية معتمة في الخيمة وقال بلطف:

- لا تقل ذلك يا حاج. كوباني باقية. المدينة في مكانها وسنعود لنبنيها من جديد كما بنيناها وبناها آباؤنا من قبل. مِشْتَنُور الكريمة ستهبنا حجارتها التي لن تنتهي.

سنعود إلى كوباني فعلى الأقل ثمّة جدران نسند رؤوسنا إليها، وسقف يقينا الحرّ والبرد.

احتد الحاج مسلم أكثر، عدل من وضع كوفيته على رأسه وقال:

- ستسند ظهرك إلى أيري هل فهمت؟ هل بقيت بيوت يا فهيم؟

رد آخر وكأنّه يستفزه:

- سنعود. لقد تبهدلنا في هذه الخيام. مهما يكن فهي مدينتنا وهي أحنّ علينا من أيّ حضن آخر.

عاد الحاج مسلم يقهقه ثانية. قهقه كما لو أنّه أصيب بهيستيريا. اختلطت قهقهته بالبكاء. أخيرًا، حين توقفت نوبة الضحك الهيستيري قال لاهثًا:

- اذهب يا أخي. عد إلى كوباني وأسند ظهرك إلى الجدران المنهارة. أصلًا لم

ينكنا غير الجدران. ما إن نسند ظهرنا إلى جدار حتّى ينقض وينهار. فلنسند ظهورنا لموج البحر أفضل من هذه الجدران. لن أعود. لقد رأيت بأمّ عيني كيف انهارت مدينتي. هل سأعود لأتفرّج على جثّتها؟ اذهبوا أنتم. اذهبوا وذوقوا طعم الهزيمة في ثوب النصر عيانًا.

ثم نهض دفعة واحدة، حمل غرباله وقبل أن يخرج بسرعة صرخ:

- أعرف أنّ هواء كوباني الآن أكثر عفونة لكنّني سأبقى هنا.

امرأة من نور

بلغ من حنان أمّي أنها بكت حين قتلنا أفعى في المنزل.

حدث ذلك عندما كنّا جالسين في باحة الدّار قبل أن تغرب الشمس في أحد أيّام الصيف. لمحنا حيّة رقطاء تتدلّى من ثقب في جدار الغرفة القبليّة كانت تتّخذه بعض العصافير عشًّا لها. كانت الحيّة تبتلع عصفورًا على مهل. قمنا إليها وقتلناها على الفور بالعصيّ والحجارة قبل أن تنتهي من ابتلاع فريستها.

مساءً، حين اجتمعت العائلة أمام باب الغرفة التي أقف فيها الآن، هبت نسمات منعشة ورأيت في ضوء المصباح الشاحب المعلّق في الجدار الجنوبي للغرفة عيني أمّي مغرورقتين بالدمع.

- خيرًا يا أمّي؟ ماذا جرى؟ لماذا تبكين؟

سألها أحد إخوتي فردّت بحزن:

- بأي حقّ قتلتم تلك الحيّة؟ إنها لم تتعرّض لكم بأذى. كانت تتناول رزقها فجعلتموه زقّومًا في حلقها وقتلتموها. على الأقلّ كنتم تتركونها حتّى تنتهي من ابتلاع فريستها. يا ظالمين!

أتذكّر أيضًا أنّ جماعة من النّمل اتّخذت مساكنها حول جذع شجرة الرمّان التي كانت أمّي تتفيّأ ظلالها دائمًا. رأيتها مرّات عديدة تذهب إلى حيث مساكن النّمل وتنثر حفنة من الحنطة أو البرغل هناك. ذات مرّة سألتها: ما هذا الذي تفعلينه يا أمّي؟ أشرقت الابتسامة في وجهها وقالت:

- يا جروي الصغير النّمل حيوان يكدّ ويتعب كثيرًا. وهو يبتعد عن مساكنه في سبيل الحصول على قوته. قلت لنفسي فلأنثر الحب هنا حتّى يرتاح قليلًا من عناء السعي وراء الرزق.

حين ماتت أمّي غضبت وأعلنت خصومتي مع الربّ. استغربت ممّا فعله الإله، لم أستوعب كيف أمكنه أن يميت إنسانًا مثل أمّي؟ كان يجب أن تحيا إلى الأبد.

كيف يعيش القتلة وتموت أمّي؟ لماذا لم تمت فلانة وفلانة؟ لماذا اخترت أمّي من بين الكلّ للموت يا الله؟

أحيانًا كنت أفكّر بصوت مرتفع وأسمي بعض جاراتنا اللواتي تقدّمن في العمر، وما كان أحد ليتضرر لو متن. كانت أخواتي يواسينني عارفات أنّني أتألّم لفقد أمّي أكثر من الجميع. كنّ يقلن لي راجيات: لا تكفر يا أخي. هذه إرادة الله ولا رادّ لقضائه. ولا أحد يستعير عمرًا من أحد. ألم تسمع المثل القائل إنّ الدنيا وردة شمَّها ثمّ أعطها لغيرك؟

* * *

أجد مفتاح ضبط منبّه السّاعة. مازال في الصندوق. كثيرًا ما كانت أمّي تقوم لتدير المفتاح حتّى «تعبئ» السّاعة وتضبطها على دقّات ساعة بيغ بن التي تعلن إذاعة البي بي سي عنها.

- رننننن. رننننن. رنننننننن.

أسمع ثلاث رنّات تعيدني إلى ذلك الماضي قبل ثلاثين عامًا. رنّات ساعة أمّي تشبه تمامًا رنات ساعة بيغ بن الشهيرة. أستغرب ممّا أسمع. كيف لساعة ميتة مطمورة تحت الأنقاض منذ خمسة أشهر أن تصدر هذه الرنّات؟

- مازال في السّاعة رمق من الروح. إنّها تعيش. إنّها تدقّ.

أخاطب نفسي ثمّ أجلس محاولًا تصحيح عقارب السّاعة، لكنّني لا أفلح في ذلك. العقارب مصرّة على أن تبقى متوقّفة عند الخامسة وأربع عشرة دقيقة، عند الفاجعة والربع تقريبًا. الزّمن متوقّف. الزّمن ميّت. لكنّه ترك وراءه أثرًا أتتبّعه. أتخيّل أن العقارب مثبتة إلى لوح السّاعة بمسامير لا مرئيّة مثل زوارق مثبتة بأمراس غليظة إلى ميناء مهجور. أنظر إلى ساعة يدي. أسمع دقّاتها لكن أرى عقاربها ثابتة أيضًا.

أستعين بخيالي وأسافر إلى بداية الثمانينيات. أسافر إلى الماضي بعكس الزمن الذي لا يعرف التوقّف ماضيًا أبدًا إلى الأمام. أرى نفسي في فراشي والسّاعة تشير إلى الحادية عشرة ليلًا:

- رنننننننن.

تتكرّر هذه الرنّة البديعة إحدى عشرة مرّة. تقول أمّي: «قم يا بني وأوقف صوت المنبّه. سننام».

كانت الرنة الأخيرة تبقى طويلًا. يتردّد صداها في سكون اللّيل. لم نكن نسمع وقتها سوى رنين هذه السّاعة وأصوات مضخّات سحب المياه من الآبار الارتوازيّة عند حقول القطن بالإضافة إلى أصوات الجنادب التي تهزّ بحيرة اللّيل السّوداء.

في كثير من الأحيان كانت رنّات ساعة بيغ بن تمتزج مع رنّات ساعة أمّي فتبتسم وتقول:

- ساعتنا دقيقة.

كانت راضية عن ساعتها ولا تعرف أنّه سيأتي يوم يتعرّض فيه بيتها إلى صواريخ قادمة من السّماء ومن وحوش على الأرض، وأنّ الرّكام سيغمر ساعتها الدّقيقة.

لم تكن أمّي تعرف أنّني سأوقف ساعتها عقب موتها عند الحادية عشرة، وأنني

سأحاول إعادة الحياة لنفس السّاعة بعد أن تتوقّف عن الحركة تحت الركام بعد ستة وعشرين عامًا.

- الزّمن لصّ مراوغ. يسرق أيّامك وعمرك ثانية بعد أخرى فيما تظنّ أنّه يضيف مزيدًا من السّنوات إلى عمرك.

أفكّر.

لقد خدعني الزّمن أنا أيضًا حتّى فوجئت بي على باب الخمسين. أشيب الشعر، كسير القلب، كثير الهموم أتجوّل في مدينتي المهدمة دون أن ألتقي بأحد.

الزّمن؟

أشعر في تلك اللّحظة بنصل الزمن على رقبتي.

يمرّ الزّمن على روحي، مثل قوس يمر على أوتار كمنجة. تبكي الكمنجات حين تلامس الأقواس أوتارها. لكن لا نغمة تصدرها هذه الروح التي تقطعت أوتارها.

* * *

مرّة أخرى يظهر ابن أختي. أتخيّله رقاص ساعة لامرئيّة ينوس ذات اليقين وذات الخيال. إنّه رقّاص ساعة هذا الخراب الأسود يتأرجح بين المكان وبين الزمان فلا يزيدني حضوره إلاّ شعورًا بغيابه.

أشكّ في أمره. أشكّ في أمر نفسي أيضًا. ترى هل ما أراه حلم؟ لا. الأحلام ليست طويلة هكذا وليس فيها تفاصيل كثيرة. لا يمكن أن يسافر المرء في أحلامه إلى مرحلة طفولته وشبابه ويستعرض تفاصيل كثيرة وفصولًا متنوّعة من عمره. ليس ما أعيشه الآن خيالًا عابرًا ولا أضغاث أحلام.

ألتفت بحنان إلى ابن أختي وأقول له بحزن:

- من الواضح يا حمودة أنّ حارتنا، حارة سَيْدا قد تحوّلت إلى أطلال. أمّا أهلها فبعضهم مدفون تحت التراب وبعضهم نازحون عنها. تعال معي.

- وإلى أين ستذهب يا خال؟

لست مهيّئًا لهذا السؤال. أنا أيضًا لا أعرف إلى أين سأذهب بعد أن أغادر خرائب هذه المدينة. أجيبه:

- المهمّ أن نغادر.

- ومن سيسقي شجيرة الرمّان يا خالي العزيز؟ من سيحرس الأرواح التي تخرج كلّ ليلة تدور في هذه الخرائب باحثة عن الأحياء؟ من سيؤنس هذه الأبواب التي اشتاقت إلى الطرق عليها؟ أتعرف يا خال، إنّني أتسلّى بالطّرق على كلّ

أبواب الحارة حتّى لا تضجر وتموت من الوحدة! إنّ الأبواب تصدأ حين لا يطرقها أحد. إنّ الأبواب تموت حين يغادر أهل البيت.

- إن الأبواب تصدأ حين لا يطرقها أحد. إنّ الأبواب تموت حين يغادر أهل البيت.

أكرّر هذه الجملة بصوت مسموع. لا أرى أحدًا. أنا وحدي في غرفة أمّي. حمودة يختفي. أشعر أنه اختفى في الزّمن. أحدّق بحزن إلى صندوق أمّي المليء بالذكريات.

أتأمّل ساعة الحائط الخرساء يتردّد منها أصداء ماضٍ لن تقتله الحروب.

عودة اليمام

هُزِمت داعش. لكن النّاس تردّدوا في العودة إلى بيوتهم. وكما لم يصدقوا في البداية احتلال مدينتهم فإنّهم لم يصدّقوا تحريرها أيضًا. خافوا من الموت الذي زرعه الغزاة في البيوت وفي زاوية كلّ شارع.

- يقولون إنّ داعش ملأت أرض كوباني بالألغام!

- صحيح. لقد استشهد بضعة رفاق حين دخلوا أحد البيوت.

صار أحدهم يقول للآخر محذّرًا حتّى انتشر الخوف بين جميع النّازحين وراءَ الحدود. ومع ذلك فقد قاد الشّوق والبؤس الذي عانوه في المخيمات جموعَ النّازحين للعودة إلى بيوتهم. كذلك عاد الكثيرون لمعرفة ما آل إليه مصير أبنائهم وبناتهم ممّن قاتلوا داخل حارات المدينة وشوارعها على مدى مائة وسبعة وعشرين يومًا.

- حتّى لو عاد النّاس جميعًا فإنّني لن أعود. إن كان الهواء هنا بهذه العفونة فكيف سيكون داخل البلدة؟ ها؟

كان الحاج مسلم قد تكوّر ملتحفًا عباءته الفرو حين قال لزوجة ابنه إنّه لن يعود. بدا كما لو أنّه يلتصق بالخيمة مخافة أن ينزعه أحد منها.

أمّا عَيْشه فإنها لم تعد تصدق متى ستعود إلى بيتها. اشتاقت إلى زوجها الذي لم تشأ له أن يموت في قلبها. لم يبق لديها سوى شمعة أمل وحيدة لكنّها كافية لتنير لها دربها الوعر في الحياة. أقنعت نفسها بأن حَمِه لا يزال على قيد الحياة: «لا أحد رآه ميتًا. لا أحد يعلم عنه شيئًا. إنّه إمّا أسير أو مفقود أو ربّما انضمّ إلى المقاتلين وانشغل بالقتال. بطبيعة الحال حين يسمع أنّ النّاس يعودون فسيعود لأجلنا».

جربت في السابق عشرات المرات أن تتّصل به لكنّها لم تسمع سوى الرنّة اللّعينة توووت. وقبل أن تتهيأ للعودة إلى كوباني جربت مرّة أخرى واختارت رقم زوجها:

- توت. تووت. تووووت. ألو.

- حَمِه.

صرخت عَيْشه ومدّت في صرختها. نظر إليها سيامند وزوزان مدهوشين حين سمعوا أمّهم تلفظ اسم أبيهم بلهفة. زمَّت هيفي الرّضيعة شفتيها وأوشكت على البكاء.

- أنا لست حَمِه.

- هذا رقم حَمِه. من أنت؟

- يا رفيقة أنا لا أعرف حَمِه. أنا أحد المقاتلين. اسمي شيخ نَبي من حارة بوطان.

- طيّب من أين أتيت بهذا الهاتف؟

- صدّقيني يا رفيقة لقد وجدته بالقرب من جامع الحاج رشاد. كنّا نقوم بتمشيط الحارة هناك فوجدته على الأرض.

هبّت ريح قويّة على شمعة الأمل. قاومت الشمعة، تراقص لهبها يمينًا وشمالًا لكنّها لم تنطفئ. قالت عَيْشه لنفسها مواسية:

- معقول جدًّا. يمكن أن حَمِه قد أضاع هاتفه. وقع منه بلا شكّ. لو كان مقتولًا لا سمح الله لبقي الهاتف في جيبه.

حمت عَيْشه شمعتها من الريح الهائجة، أبقت عليها متقدة في قلبها وانضمّت إلى أسراب اليمام المتهيّئة للعودة.

* * *

في البداية عاد النّاس فرادى. بقي الآخرون الهاربون من سيوف الله وجنوده متردّدين محتارين بين العودة والبقاء في المخيّمات. لكنّ الأخبار التي انتشرت في جميع أنحاء العالم حاملة بشرى التّحرير منحتهم الجرأة في اتّخاذ قرار العودة. تحرّرت كوباني وقراها وعادت داعش إلى حدودها السّابقة. فرَّت الأفعى جريحة بعد أن خربت الأعشاش وعادت إلى جحرها وآن لأسراب اليمام أن تعود.

وصلت عَيْشه مع أطفالها الثلاثة إلى بوابة مُرْشِدْ بينار. اجتمع النّاس هناك يتصايحون دون أن يظهر على الوجوه أثر للفرحة. بدوا محطّمين متعبين بعد شهور عديدة قضّوها مشرّدين نازحين في الخيام. بقي الخوف الذي رافقهم خلال الهرب الكبير ناشبًا براثنه في أرواحهم القلقة.

عاد كثيرون وهم يدركون أنّهم لن يلتقوا إلاّ بقبور أولادهم الذين تركوهم يقاتلون دفاعًا عن المدينة. تحرّرت الأرض لكن آلامًا عظيمة احتلّت القلوب التي ما لبثت أن انهارت تحت وطأة تلك الآلام.

- يا ويلاه يا ويلاه.

ولولت النّساء وهن يمسحن دموعهن بحواشي أثوابهن وأطراف مناديلهن وأكفهن المتغضنة. شاركتهن عَيْشه البكاء. ومع أنّها كانت لا تزال تأمل لقاء زوجها إلاّ أنّ الخوف غلب الأمل. أشارت إلى رضيعتها هيڤي وقالت لامرأة بجوارها بنبرة بكاء:

- ليت هذه البريئة ترى أباها. لن أطلب من الله شيئًا آخر.

- ستراه ستراه. لا تقلقي يا أختي. أبواب الله مفتوحة دائمًا.

واستها تلك المرأة قليلًا، ثمّ ما لبثت أن أطلقت صرخة مفزعة:

- البوّابة انفتحت.

كانت عَيْشه وأولادها ضمن المجموعة الأولى من النّازحين المنتظرين الذين عبروا البوابة الحدوديّة إلى جهة كوباني.

حين وطئت أقدامهم أرض مدينتهم، هيّأ العائدون رئاتهم لتستقبل عبق الحرّيّة. أرادوا أن يطهّروا تلك الرئات من هواء التّشرّد والبؤس الذي تنفّسوه خلال خمسة أشهر طويلة من العيش كنازحين في مخيمات الذلّ، لكنّهم سمعوا فجأة جلبة غير طبيعيّة فالتفتوا إلى الجهة التي علت منها أصوات غير مفهومة. رأى الجميع هناك شابًا معروفًا في المدينة بخفّة عقله يلثغ بالرّاء ويلفظها لامًا محاطًا باثنين من المقاتلين في استقبال النّازحين العائدين:

- تفوووو يا عديمي الناموس. تلكتم ألضكم وهلبتم. تفوووو يا عديمي الشلف. هلبتم من أمام داعش. تفوووو عليكم أخذتم نساءكم إلى المخيّمات وحضن العساكل الأتلاك.

لم يبق أحد في تلك السّاعة لم يبصق عليه ذلك الشاب أو يشتمه بأقذع الكلمات.

كان حَنو، وهذا اسمه الذي عرف به، قد بقي أثناء القتال في كوباني. رآه النّاس في عدد من الفيديوهات يرتدي لباس وحدات حماية الشّعب ويتنكّب بندقيّة ويتجوّل في الحارات الخالية من سكّانها. جعلوه أحد رموز المقاومة ومعيارًا للشّرف. حتّى إذا أراد أحدهم أن يعيِّر آخر بالتّقاعس عن نصرة مدينته قال:

- ألا يمكن أن تكون حتّى مثل حَنو؟ مع أنه مجرّد أبله فهو لم يترك المدينة وأصرّ على البقاء فيها يدافع عنها. أنت مع أوّل طلقة أطلقت ساقيك للريح.

لم يعرف أحد ما إذا كان هناك من حرَّض ذلك الشاب على استقبال النّازحين بالبصق على وجوههم أم هو تصرّف من تلقاء نفسه؟ لم يمنعه المقاتلان الواقفان بجانبه عمّا يفعله بل ظلّا يضحكان ملء شدقيهما وسط استغراب العائدين واستهجانهم.

حين مرّت به عَيْشه، نظر إليها وقال:

- تلكيا جميلة أليس كذلك؟ حضن ألدوغان دافئ أليس كذلك؟ شبعتم من حضن الأتلاك ها؟

غصّت عَيْشه بريقها لكنّها لم تقل شيئًا. ألقت على الشاب الألثغ نظرة غاضبة

وعبرت البوّابة صامتة مثل غيرها من العابرين.

تذكّرت وهي تمشي ذلك اليوم العصيب قبل أشهر حين نزحت من كوباني حيث وقفت امرأة تصدّ النّازحين وتحاول منعهم من النّجاة بجلدهم، تشتمهم وتبصق على وجوههم. نالت عَيْشه مثل غيرها نصيبها من البصاق والشّتائم يوم النزوح أيضًا.

قالت بصوت لم تسمعه الدنيا:

- إيييه يا دنيا. حين تركنا بيوتنا وهربنا من الموت ودّعتنا امرأة هبيلة بالبصاق. والآن ونحن نعود إلى بيوتنا المدمّرة يستقبلنا مجنونٌ بالبصاق أيضًا!

* * *

- يا للهول! لقد قامت القيامة هنا. لا يمكن أن نتعرف إلى المكان!

- وهل تعتقدين أنّ الدخان الذي كنّا نراه من سروج وأورفة وبيره جيك كان مزاحًا؟ هل كان دخانًا يتصاعد من النيران المشتعلة تحت القدور في عرس ابن المختار؟

- لا والله يا أختي. لم يكن مزاحًا ولا دخانًا تصاعد من نيران عرس ابن المختار. لقد كانت الطائرات تقصف منازلنا. لم يتركوا لنا جدارًا على حاله.

- وكنّا نصرخ كالبلهاء: اضرب يا رشُّو اضرب!

سمعت عَيْشه هذا الحوار بين امرأتين تمشيان مثلها بين الرّكام على مهل. كانت هي أيضًا مبهوتة مصدومة مثلهما، تجرّ ابنتها زوزان بيد، وتحمل رضيعتها هيڤي باليد الأخرى، فيما يتبعها سيامند حاملًا حقيبة كبيرة على رأسه ممسكًا بها بيدين واهنتين.

- أين نحن؟ ما هذا المكان؟

حين اقتربت من حارتها ندَّت منها صرخة ضعيفة. لم تتعرّف إلى المكان. البيوت منهارة والشوارع مليئة بالأنقاض تفوح منها رائحة البارود والحريق.

- أين نحن يا أمّي؟

- ويح أمّك يا سيامند. هي مثلك لا تعرف.

- ولماذا هذه البيوت كلّها مدمّرة؟

- والله لا جواب لديّ يا ابني.

- كيف سنعرف بيتنا؟

لم تردّ عَيْشه على سؤال ابنها. قادها قلبها إلى بيتها القريب من جامع الحاج رشاد. لم تعرف الشوارع. تاهت عدّة مرات لتعود إلى نفس النقطة إلى أن رأت عجوزًا يمشي في أحد الشوارع متوكّئًا على عكّازه، فنادته:

- يا خال يا خال!

وقف العجوز. وضع كلتا يديه على عكّازه وقال:

- خيرًا يا بنتي؟ أكيد أنّك ضيّعت طريق المنزل مثل كثيرين!

- صحيح يا خال. أنا تائهة. لا أستطيع الوصول إلى البيت.

- أين كان بيتك؟

- في شارع السراي قريبًا من جامع الحاج رشاد.

- أترين ذلك الباب المخلوع؟

- نعم.

- تجاوزي هذا الباب حتّى تصلي إلى عمود الكهرباء ذاك المتمدّد على الأرض في زاوية الشّارع. من هناك امشي يمينًا، ثمّ انعطفي يسارًا وسيواجهك جامع الحاج رشاد المدمّر.

- بارك الله لك يا خال. شكرًا لك.

مشت عَيْشه حسب ما أشار به الرّجل العجوز إلى أن وصلت إلى باب أسود كبير. عرفت أنّه باب بيتها. جحظت عيناها وبقيت متسمّرة في مكانها من الدهشة.

كان بيتها قد تهدّم فلم ترَ منه إلاّ الباب الكبير. وخلف الباب تراكمت كتل الإسمنت المسلّح والحجارة وأثاث المنزل ما سدّ الطريق إلى الدرج الذي يصعد إلى الطابق العلوي. بدا سطح الطابق العلوي منطبقًا على سطح الطابق الأرضي مثل دفّتيّ كتاب. ظهرت من بينهما الحصيرة البنّيّة الملفوفة منذ ما قبل النّزوح. رأت عَيْشه سطح الطابق العلوي المتداعي ولمحت بين الرّكام المخدّات وستائر الصالون وفرش الإسفنج، درّاجة سيامند وألعاب زوزان وقد علاها الغبار والطين. لم تبق غرفة واحدة سالمة. لم يبق جدار يستند إليه المرء. لم يبق سقف للنّوم تحته.

بكت هيڤي. شكت زوزان من النعاس. أما سيامند فما إن لمح درّاجته وقد أطبق الإسمنت بأنيابه عليها حتّى رمى الحقيبة على الأرض وصعد الأنقاض ووصل إليها.

حاول كثيرًا أن يسحبها من تحت كتل الإسمنت فلم يفلح وأخذ يشتم ويسبّ غاضبًا.

ردّت عليه أمّه بحدّة:

- وأنت ألا يهمّك شيء سوى هذه الدرّاجة؟ ألا تسأل أين أبي؟ أين جدّتي؟ لا يهمّك سوى هذا المعدن التّافه!

كانت عَيْشه تعرف أنّ حماتها مطمورة تحت أنقاض بيتها. لكن ترى أين زوجها؟ أهو مدفون مع أمّه؟ وكيف يمكن التأكّد من ذلك ورفع هذه الأنقاض الهائلة والبحث عن الجثث ليتمّ دفنها بكرامة؟

نامت هيڤي ملفوفة ببطانيّتها الثخينة، لكنّ زوزان ظلّت تبكي من شدّة النعاس. نظرت إلى فراشها الذي بدا قسم منه تحت السّقف الواقع على سقف الطابق الأرضي فازداد بكاؤها. انحدرت الدّموع على خدّ أمّها المتشقّق أيضًا.

أدركت أنّها لم ترجع إلاّ إلى عشّ مهدّم ومهد محترق ومأوى تحوّل إلى أطلال. في تلك اللّحظة مرّت الداية زِلْخو، التي ولدت هيڤي على يديها قبل أيّام في الخيمة، تحمل على رأسها بقجة كبيرة قادمة من بيتها المهدم في كانيا عَرَبانْ.

- عَيْشه هل تجرّعت مثلي سمّ العودة؟

- خالة زلخو هذه أنت؟ نعم والله تجرّعت السّمّ وعدت. ما من مكان آخر نذهب إليه. وأنت؟

- النّاس يتوجّهون إلى غربي المدينة. يقال إنّ هناك بيوتًا فارغة لم يعد أصحابها. أريد أن أذهب وأسكن في أحد البيوت حتّى يفتح الله علينا بابًا من أبواب رحمته.

ألا تأتين؟

- أنا لن أغادر باب بيتي. يكفيني الذلّ الذي عشته في الخيام في تركيا. عمتي مدفونة هنا ولا أعرف أين حَمِه! إلى أين سأذهب؟ مهما يكن فإن خرائب بيتي أحبّ إليّ من الخيام ومن بيوت الآخرين.

- أنت حرّة يا عَيْشه. أما أنا فذاهبة إلى هناك.

عشب طري

بالرّغم من أن بيت عَيْشه لم يعد قابلًا للسّكن إلاّ أنّها لم تشأ أن تتركه وتلجأ إلى أيّ مكان آخر. قالت لنفسها: «من يدري؟ ربّما عاد حَمِه! جميع الطيور تعود إلى أعشاشها عاجلًا أم آجلًا». منحها الأملُ ببقاء زوجها على قيد الحياة القوّةَ.

وضعت ابنتها الصغيرة على الأرض، ثمّ تقدّمت نحو الباب الحديد ودفعته. انفتح الباب مواربًا بسبب قطع الإسمنت والحجارة المتراكمة خلفه. كان ما انفتح منه كافيًا ليدخل منه شخص إلى الداخل.

- سيامند! تعال يا بنيّ وادخل لترى إن كان هناك مكان نستطيع السّكن فيه.

دخل سيامند النحيل وغاب بين الأنقاض برهة ثمّ صرخ بفرح:

- ماما ماما! المطبخ سليم.

حملت عَيْشه هيقي بيد وأمسكت باليد الأخرى يد زوزان الباردة وجرّتها خلفها دون أن تأبه بشكاويها. مرّت حذرة من خلال الحجارة وكتل الإسمنت والقضبان الخارجة منها كالسّيوف حتّى وصلت إلى المطبخ. رأت كلّ شيء على حاله. حتّى الستائر الرقيقة التي خاطتها هي بيديها ما تزال منسدلة على النّوافذ. بقي المطبخ المكانَ الوحيد الذي سلم من الدمار في ذلك المنزل الكبير. فكّرت عَيْشه في ما يجب أن تفعله إلى أن استقرّ رأيها على أن تبقى مهما كلّفها البقاء. قالت بصوت سمعه أطفالها:

- سنبقى هنا إلى أن يفرجها الله علينا.

فجأة صاح سيامند:

- ما هذا يا أمّي؟

كانت ثمّة كوة في أحد الجدران يظهر منها صالون الجيران الذي هبط عليه السقف فبدا مثل كهف مظلم.

* * *

بقيت عَيْشه عدّة أيّام ترتّب المطبخ وتجهزه للسكن، سدّت الطاقة المفتوحة على صالون الجيران، ثمّ أسدلت عليها ستارة حتّى تحوّل المطبخ في النهاية إلى غرفة نوم مريحة. جلبت عَيْشه من بين شقوق السقف المنهار على المطبخ بعض الأغطية والبطانيّات والفرش ومدّتها على الأرض. كانت المونة التي خزنتها هي بنفسها قبل النزوح ما تزال على حالها في العلب والأوعية الزجاجيّة، فصارت تأخذ منها حاجتها وحاجة أولادها.

بقيت تأمل عودة زوجها، بل صارت في بعض الأيّام تبقى

بجـانب بـاب الـدّار تنظـر فـي طـول الشـارع. ومـا إن تلمـح أحـدهم قـادمًا مـن بعيـد حـتّى تمـنّي النفـس بـأنّه زوجها: «قد يكون هو»، لكن سرعان ما كان ظنّها يخيب وتوشك شمعة أملها مرّة أخرى على الانطفاء.

دأبت كلّ مساء على أن تضع الحجارة وراء باب الدّار وتحكم إغلاقه، تهدهد أطفالها، تسلّيهم، تحكي لهم القصص. وما إن يبدأ الأطفال في النّوم حتّى تستيقظ هواجسها وأفكارها. تفكّر في حياتها الماضية، في زواجها الأوّل الذي فجعت فيه بمقتل زوجها مصطفى الذي لم تجد فرصة لتحبه إذ ذهب إلى الجيش في الشهر الأوّل من زواجهما، ولم يعد إلاّ في نعش ملفوف بالعلم السوري. لكنّها لم تستطع أن تنسى حَمِه الذي عاشت معه سنوات حلوة بعد أن اشترى منزلًا خاصًّا واستقل عن والديه.

- كلّ شيء راح. تحوّلت حياتنا إلى زقوم.

ردّدت عيشه بينها وبين نفسها.

لم تستطع، في أوّل ليلة بعد عودتها من تركيا، أن تنام من شدّة الخوف. كانت تعرف أن جثة حماتها مطمورة تحت سقف الغرفة الموجودة في الطابق العلوي.

وقبل أن ينبلج الفجر غلبها النّوم فأغمضت عينيها.

في منتصف اللّيل ظهر لها طيف حماتها. خرجت من بين كتل الإسمنت ونزلت إلى الأسفل. سمعت عَيْشه آثار خطواتها بوضوح. تاك تاك تاك. هكذا نزلت الدرج تشقّ الظلمة. قطع الخوف أنفاسها. شعرت بثقل صخرة عظيمة على صدرها لم تستطع الفكاك منه. لم تعد قادرة على تحريك أيّ عضو في جسمها الذي أصبح كالرّصاص. تسمّرت يداها وقدماها إلى الأرض. نظرت برعب إلى حماتها فرأتها تدخل المطبخ، تصبّ لنفسها كأسًا من الماء، ثمّ تعود أدراجها وتصعد الدرج درجة درجة بالإيقاع ذاته الذي نزلت به دون أن تهتمّ بأمر أحفادها الثلاثة النائمين وأمّهم.

فتحت عَيْشه عينيها. أدركت أن ما رأته مجرّد كابوس مزعج إلاّ أنها خافت وشعرت بالوحشة.

تكـرّر هـذا الكـابوس وصـارت تـرى كوابـيس أخـرى كـلّ ليلـة، مـرّة تـرى أن سـقف المطبـخ يقـع عليـها وعلـى أولادهـا، مـرّة تـرى الأسـتاذ أحمـد أرزاق يتحـرّش بـها ويحـاول اغتصابها، يضع يدًا على فمها ليمنعها من الصراخ ويفكّ باليد الأخرى أزرار صدارها، يعض لحمها وينهشه مثل ذئب. وأحيانًا ترى زوجها جالسًا في المنزل يرتدي دشداشة بيضاء مبقّعة بالدم ويدخن لفافة مشتعلة بين شفتيه. يقطر الدم من دشداشته لكنّه لا يأبه لذلك بل يواصل التدخين وينفث ما يسحبه إلى السقف المليء بالثقوب راسمًا حلقات من دخان أحمر.

رويدًا رويدًا بدأ بعض الجيران يعودون إلى بيوتهم، يرصفون الحجارة المتناثرة هنا وهناك، يبنون غرفًا جديدة ليسكنوا فيها. كانت حارة جامع الحاج رشاد مثل كثير من الحارات قد دمّرت ولم يبق فيها إلاّ القليل من البيوت القابلة للسكن. في بداية الربيع صارت النسوة يجلسن أمام الأبواب لساعات طويلة في نور الشمس يتجاذبن أطراف الهموم، يبكين، يضحكن، ويحلفن أنهن سيبنين أعشاشهن من جديد. بعض النساء وضعن الأثافي أمام باب الدّار ليطبخن طعامهن على النار ويخبزن على الصفيح بينما طفقت أخريات ينسجن في الهواء الطلق البسط الملوّنة التي بدت مثل مرج زهور بين الأنقاض الموحشة.

بـدأت أولئـك النّسـوة اللاّئـي عـدن مـن ذل الـنّزوح إلـى أطـلال بيوتـهن يُخـرجن الحيـاة مـن المـوت. صـرن مثـل قفـير نحـل نشـيط يرسـمن لوحـة زاهيـة وسـط ذلـك الخـراب الكبير.

* * *

أرضعت عَيْشه ابنتها هيڤي ذات الشهرين ثمّ وضعتها في زاوية من المطبخ لتنام، بينما ذهب سيامند يلعب مع رفاقه ويبحث معهم عن الأغراض المدفونة تحت الركام. أما زوزان فقد بقيت تلعب وحيدة بدمية قماش عند باب الدّار تحت شمس أواخر آذار الدافئة.

كانت عَيْشه قد اتّصلت مرارًا بالمسؤولين لكي يرسلوا من يخرج جثة حماتها من تحت الأنقاض دون جدوى. في ذلك اليوم الربيعي اتّصلت عَيْشه مرّة أخرى فأخبرها المسؤولون أنهم سيرسلون الآن شخصًا يتكفّل بالمهمّة.

وقفت مع بعض النساء على ناصية الشارع في انتظار من سيأتي لإخراج الجثة. من دون مقدمات سألتها امرأة تضع يديها تحت إبطيها:

- أمّا من أخبار عن زوجك يا عَيْشه؟

ردّت بتحسّر:

- ليتنا عرفنا فقط أين أراضيه! ليتنا عرفنا أهو حي أم ميت. الله وحده يعلم أين هو، تحت أي سقف.

- وماذا عن رَوْشَنْ ومتين؟

- لقد استشهد كلاهما.

- واخ! صحيح؟

- نعم والله. لقد رأيت قبريهما بعيني.

- يا لطيف يا لطيف. ما هذا البلاء العظيم يا عَيْشه؟

- بلاء عام. لسنا وحدنا. هل تعرفين بيتًا لم يسقط فيه شهيد؟ هل بقي بيت

دون أن يتهدّم؟ لقد انهار قصر بوزان بيك. حتّى سراي الحكومة تهدّمت.

- فليكن الله في عوننا يا أختي. يقولون في الأمثال إنّ النّهب العام مثل العرس. ألا فليشمل الله داعش بغضبه.

- أنا لا أريد من الله شيئًا سوى أن يعود حَمِه.

- معك حقّ. أرجو من الله أن يعيده إليك. الفقد صعب. أصعب حتّى من الموت.

فجأة علا هدير إحدى الآليات. ظهرت على رأس الشارع آلية لرفع الأنقاض قادمة من جهة السوق تصدر ضجيجًا عاليًا. ركض سيامند ورفاقه وصاروا يلاحقون الآليّة البطيئة إلى أن توقّفت أمام باب بيت عَيْشه حيث اجتمعت النسوة:

- صباح الخير. هل هذا بيت حَمِه ابن الحاج مسلم المهاجر؟

- نعم يا أخي هذا هو.

- أين الجثّة؟

- هناك تحت ذلك السقف الهابط.

- أهي جثة أحد الدواعش؟

- أي داعش يا أخي؟ الجثّة لعمّتي. إنّها تحت ذلك السّقف.

ضحكت النسوة المجتمعات واضعات أيديهن على أفواههن بينما أشارت عَيْشه بتجهم إلى سقف البيتون الواقع على سطح الغرفة.

نزل سائق الآليّة ودار حول السّقف، ثمّ صعد مرّة أخرى واستقرّ وراء المقود يستعد لإزالة الأنقاض عن الجثّة. أسرعت عَيْشه وحملت بنتها النائمة في المطبخ، ثمّ أبعدت زوزان عن الباب وذهبت مع صاحباتها إلى الجدار المقابل لبيتها يتفرّجن على عمل الآليّة.

فجأة سمعت بين هدير الآليّة التي ترفع بأسنانها العملاقة قطع الإسمنت، صراخ ابنها سيامند:

- يا أمّي يا أمّي. لقد عاد جدّي.

- أين هو؟

سألت عَيْشه مستغربة ونظرت إلى الجهة التي أشار إليها ابنها سيامند فإذا بعجوز ملتحف بعباءة فرو وفي فمه لفافة تبغ يمشي الهوينى. حين اقترب أكثر عرفته عَيْشه. كان هو الحاج مسلم فعلًا لكنّ لحيته طالت كثيرًا وغزاها الشيب،غارت عيناه وغاب عنهما البريق وامتلأتا بالحزن. مشى صامتًا تحيط به سحابة داكنة البياض من دخان لفافته، مشى مثل تمثال ثلج إلى أن جاء ووقف عند عَيْشه وصاحباتها.

- أهلًا بك خال.

رحّبت به عَيْشه، سلمت بنتها لامرأة بجانبها وانحنت لتقبّل يده لكنّه أبعدها وجلس على الأرض بصمت. سحب آخر نفس من لفافته ثمّ رماها بخشونة.

- سيخرجون الجدّة خانِهْ.

قالت زوزان بسعادة وهي تجلس في حضن جدّها. لم يجب الحاج مسلم. ظلّ صامتًا متكوّرًا في عباءته. عكس وجهُه الخرابَ الذي دفن زوجته بين طيّاته. أصبح قلبه حطامًا متراكمًا. أخرسَه الحزن الشديد والقهر حين سمع خبر استشهاد ابنته رَوْشَنْ وابنه متين في نفس اللّحظة. استقبله بعض النّاس يصافحونه عند البوّابة، يهزّون يده ويتمتمون: الشهيد لا يموت. الشهيد لا يموت. انهار من الداخل مثل برج فجّروا فيه أطنانًا من الدّيناميت.

تناهشته الخيالات وهو يسمع هدير الآليّة الصفراء الكبيرة. استعرض حياته منذ يوم النزوح الكبير وحتّى عودته قبل قليل ووصوله إلى أطلال بيت ابنه حَمِه.

استعرض في خياله حياة البؤس والتشرّد في مخيم علي كور حيث أصبح محطّ سخرية الجميع بسبب غربال الهواء الذي رافقه طيلة أشهر. زفر بعمق، حكّ عينيه ثمّ لف لنفسه سيجارة أخرى.

- لقد رأيتُ الجثة.

صرخ سائق الآليّة وهو يقودها إلى الخلف وينزل منها. توجّه صوب الجثّة فتبعته عَيْشه والنساء الأخريات من خلال كتل الإسمنت المسلّح والحجارة حتّى وقفوا عندها. بكت عَيْشه وذرفت دموعًا كثيرة فيما أمسكت زوزان بطرف ثوبها وقد أصابتها عدوى البكاء. أما سيامند فقد وقف يتفرج صامتًا مع رفاقه.

لم يتحرك الحاج مسلم من مكانه. صار يهزّ برأسه دون أن يتكلّم. فقد الرغبة في النهوض وبقي جالسًا حيث هو يدمدم بكلام غير مفهوم.

* * *

لم يشأ الحاج مسلم أن يرافق الجنازة إلى المقبرة. غلبه النعاس. وكما تسحب دوامةُ ماء غريقًا إلى أعماقها أثقل النعاسُ جفنيه فانطبقا على عينيه ونام في مكانه تحيط به الجدران المتهدّمة. نام ذلك الرّجل، الذي لم ير أحد كيف تتهدّم جدران روحه من الداخل. نام مقابل بيت ابنه حَمِه مستندًا إلى جدار منقضٍّ.

حين فتح عينيه وجد الشمس توشك على الغروب. في تلك اللّحظة عادت عَيْشه مع أبنائها الثلاثة إلى البيت حزينة محمرّة العينين من البكاء. وضعت هيقي الرضيعة في يد ابنها سيامند وقالت للحاج

مسلم بصوت تشوبه نبرة البكاء:

- لقد دفنّا عمتي خانِهْ.

ابتسم الحاج بزاوية فمه دون أن يقول كلمة واحدة. ثمّ هبّ واقفًا، التحف بعباءته الفرو وحثَّ الخطا متوجّهًا إلى حارة سَيْدا.

عرفت عَيْشه أنه لا يزال يعاني من أزمته بل لقد ازدادت حاله سوءًا و بدا كما لو أنّه جُنَّ من قهره، لا يتكلّم، لا يأكل ولا يشرب بل يشعل اللفافة من أختها ويبقى يرنو إلى اللاّشيء لساعات.

لم تكن عَيْشه قادرة على فعل شيء لأجل مساعدته. حاولت كثيرًا أن تقنعه لكي يبقى معهم لكن دون جدوى.

وضعت نصب عينيها بعض الأهداف وسعت لتحقيقها. عرفت أنّها وحيدة بلا ظهير وأنّ عمود بيتها انهار. لم يعد أحد من عائلة أبيها إلى المدينة. كان عليها أن تجرّب مرارات الحياة وحدها وتمشي حافية على شوكها. فأصبحت تقوم بكلّ شيء بدءًا من التّسوّق إلى الطبخ إلى تربية الأطفال إلى ترميم البيت وغير ذلك. أتت ببلدوزر لترفع قطع الإسمنت والحجارة والقضبان المعدنيّة من الغرفة المجاورة للمطبخ ثمّ استدعت أحد البنائين فبنى لها غرفة جديدة لصق المطبخ سكنت فيها هي وأولادها. أصبحت عَيْشه مثار إعجاب جاراتها وصرن يتهامسن فيما بينهن: «فلتكن النساء مثل عَيْشه. مع أنّها أرملة وحيدة إلاّ أنّها تعمل عمل عشرة رجال. إنّها مثل عشبة طريّة تنمو تحت صخرة».

مضت حياة تلك العشبة الطريّة على ذلك المنوال حتّى أقبل الصيف. كانت بين الحين والآخر ترسل مع ابنها الطعام لحميها الحاج مسلم الذي اعتكف في المسجد ولم يعد يغادره. يتمدّد على بساط مغبر في إيوان المسجد، يتوسّد ذراعه ملتحفًا بغطاء أتاه به أحد زوّار المسجد ثمّ يغطّ في النوم. حاولت عَيْشه كثيرًا أن تقنعه بالعدول عن النوم في المسجد لكنّها لم تفلح فصارت تطمئنّ عليه بين فترة وأخرى عبر الهاتف الجوال الذي بقي قناة الوصل الوحيدة بينه وبين العالم. لم يكن الحاج مسلم يردّ سوى بجملة وحيدة:

- خيرًا؟ ماذا هناك؟

- أردت أن أطمئنّ على أحوالك.

- الحمد لله.

كثيرًا ما جلست عَيْشه في المطبخ لتذرف دموعها خفية عن أولادها. لم تشأ أن يعاين أولادها أو غيرهم ضعفها وذلّها. قالت لابنها ذات مرّة:

- الحياة صعبة يا ولدي. وإنّ صعوبة الحياة تقوّي المرء. تمامًا مثل الحديد الذي يُطرق كثيرًا فيتحول إلى سيف.

لم يفهم سيامند هذه العبارة فسأل:

- كيف يعني؟

- يعني لا تظنّ أن أمّك امرأة كسيرة الجناح. من اجتاز هذا الوادي لن يخيفه شيء آخر.

- الوادي؟

- أقصد النّزوح عن كوباني وحياتنا في المخيم وفقداننا لأبيك و..

- همممم.

أخرجت عَيْشه ثديها من فم هيڤي ذات الأربعة شهور وسألت ابنها:

- هل هناك أطرى من العشب يا بني؟

- العشب؟ لا.

- طيّب وهل هناك أقسى وأثقل من الصخرة؟

- لا.

- تمعن إذن في العشبة كيف تنمو تحت الصخرة ولا تقبل البقاء هناك. إنّها تخرج رويدًا رويدًا إلى حيث النّور والهواء. وهكذا يجب أن يكون المرء: عشبة طريّة تقاوم الصخور.

لم يكن سيامند أقلّ عزيمة من أمّه. تحوّل هو أيضًا مع مرور الزّمن والطَّرق المتتالي إلى سيف قاطع صغير.

حفيف السواد

مازلت في غرفة أمّي. ضوء شاحب ينفذ إلى الغرفة بكسل من النافذتين الجنوبيتين. أضيق ذرعًا بالوحدة فأغادر على عجل وأتوجّه مباشرة إلى باب الدّار المفتوح على مصراعيه الآن.

أقف عند الباب وأنظر إلى الحارة المدمّرة.

شجرة التين في بيت أخي امتلأت بثمار التين. لا ليست هي. التين لا يبدو بهذا الشّكل. أدقّق النظر فيها. أتقدّم خطوة أو خطوتين. ما تزال جثتا عنصري داعش بالقرب من باب بيت أخي. لا أعرف لم لا تنتابني مشاعر الكراهيّة تجاههما! أشيح بوجهي عنهما. «إنهما مجرّد جثتين فلماذا سأكرههما؟» أقول لنفسي. أضيف: «لا ينبغي أن أكره الجثث» وأعود لأنظر إلى شجرة التّين. أرى مئات من الغربان تحطّ على الأغصان العارية في شجرة التين ببيت أخي. أتقدّم بضع خطوات أخرى.

أجد حفنة مفاتيح على الأرض. ومع أنّه لا شمس في السماء فإنّ المفاتيح التي أجدها بين الأحجار، تلمع كما لو أنّها تعكس ضوءًا مّا. أنحني عليها وألتقطها. تئنّ المفاتيح بين يدي. أنين واضح. أشعر ببرودة المعدن في كفي. إنّها باردة كما لو كانت عصفورًا هشم فَخٌّ منصوب في الثلج عظامَه.

أمعن في التّفكير. أتذكّر إحدى بنات أختي خلال النّزوح الكبير، تواصلت معها فأدمت قلبي بالمعلومات عن سير الأحداث:

- لا تزعل علينا يا خال. ها هي مفاتيح البيت معنا. سنعود. سنعود سريعًا لذلك لم نأخذ معنا سوى المفاتيح. تصوّر، حتّى الخضار تركناها في البرّادات استعدادًا لعودة سريعة.

مع هذه الجمل المواسية، أرسلت إليّ ابنة أختي صورة مفاتيح بيتها.

- بعض الجيران تركوا الشّاي على النّار لثقتهم في أنّ الأمر لن يطول.

كتبت لي هذه الجملة مرفقة برمز إيموجي عبارة عن وجه أصفر بعين تغمز ولسان ممدود بسخرية. ردّدت عليها برمز ابتسامة: قوس بجانبها نقطتان وكتبت:

- انتبـهوا ألاّ يصـيبكم مـا أصـاب الفلسـطينيين. هـم أيـضًا حملـوا مفاتيحـهم معـهم علـى أمـل أن يعـودوا إلـى ديـارهم التـي أخـرجوا منـها ذات زمـن ظـالم. كـانوا أيـضًا يأملون عودة سريعة وها قد مرَّت ستة وستّون عامًا والمفاتيح صدئت في جيوبهم بعيدين عن مساكنهم.

انتابني الحزن بعد تلك الدردشة. أرسلت رمزًا باكيًا. واستني ابنة أختي، كتبت:

- لا تحزن يا خالي الحبيب. لن نكون كالفلسطينيين. بعد بضعة أيّام سأرسل إليك صوري من حارة سَيْدا. وعد.

لم أصدّق وعدها. نظرت إلى صورة المفاتيح فكاد الحزن يهرس قلبي. أعلم أنّ المفاتيح تصدأ حين تنأى عن الأبواب كما أن قلب المرء يصدأ حين ينأى عن وطنه. أردت الخروج من حالة الحزن فودعت ابنة أختي المتفائلة على عجل:

- أرجو أن تفي بوعدك.

أقف بضع دقائق. أفكّر في ما أفعله بحفنة المفاتيح! فجأة أرميها بكلّ قوتي على شجرة التين في بيت أخي.

تطير الغربان. تغادر الأغصان سربًا وراء سرب وترتفع في السماء. يظهر أن آلاف الغربان كانت على الشجرة. أنظر إليها. ليس سربًا واحدًا ولا بضعة أسراب. مئات من الأسراب تطير بعد أن تقلع عن الأغصان. لا نهاية لها. تبدو شجرة التين نبعًا تتدفق منه أمواج القطران.

- قغغغق. قغغغق.

تمتلئ الحارات بنعيقها.

تظلم السّماء. تسودُّ. لا سماء. إنّها أسراب غربان وحسب. حفيف أجنحتها يتحوّل إلى عاصفة هوجاء تثير الغبار المتراكم على الأطلال والخرائب. كلّما يخفق غراب بجناحيه في الجوّ ينثر ما يشبه دخانًا أسود. يعلو الغبار في الجو. يبدو كالعجاج. ثمّ يهطل مطر أسود. يتبلّل وجهي منه. أحاول أن أجفّفه فلا أستطيع. يزداد البلل ويزداد مع كلّ محاولة لتجفيف وجهي. لم أعد أرى أمامي. أسمع أصواتًا غامضة من مكبرات الصّوت في مسجد جدي. أصيخ السّمع وأنتبه جيّدًا. إنّهن أخواتي يبكين. أسمع نحيبهنّ. يردّدن اسمي. يتبادلن فيما بينهن حديثًا لا أفهمه. ألتقط بعض الكلمات: لا تخافوا، لقد غاب عن وعيه، يا أخانا الحبيب، فليحترق بيتي لأجلك، هاتوا ماءً، أحضروا الطبيب، اطلبوا الإسعاف.

أتخفّف رويدًا رويدًا. أجد نفسي ريشة في مهب الرّيح. تتكرّر الأحاديث الغامضة، يتكرّر النحيب: يا ويلي، ماذا جرى له، هاتوا طبيبًا. أسمع صوت الأذان. أسمع أصوات مئات السيّارات تعبر الشارع في مدينة كبيرة.

وأفتح عيني.

ليلة الغدر

«سلامٌ هيَ حتّى مطلعِ الفجر».

قرأ الإمام الآية الأخيرة من سورة القدر بنغمة حزينة ولحن كرديّ ثمّ ركع وهو يمدّ صوته بالتكبير.

لم يركع خلف الإمام في ذلك الفجر من يوم الخميس الأخير في شهر حزيران من عام ألفين وخمسة عشر سوى ثلاثة مصلّين كان الحاج مسلم المهاجر، المعتكف في المسجد، أحدهم.

حين غادر الحاج مسلم بيت ابنه دون أن ينتظر دفن زوجته توجّه إلى بيته فوجده مهدّمًا مثل غيره من بيوت حارة سَيْدا والحارات التي مرّ بها. لم يبقَ شيء على حاله لا الجدران ولا الغرف ولا حتّى الباب الذي كان أبناؤه يفتحونه كلّما عاد من الدكّان مساء على دراجته الناريّة. رأى ذلك الباب ممددًا على الأرض مثل قتيل.

بحث عن دراجته الناريّة التي تركها في البيت فلم يجدها، لم يجد سيّارة ابنه حَمِه ولم يعثر على نقوده أيضًا، لكنّه لم يأبه لكلّ ذلك. كانت روحه منهوبة تمامًا وأكثر خرابًا من بيته وما يحيط به.

لم تعد الأنقاض المتراكمة خارجًا ولا تلك المشاهد المؤلمة تؤثّر فيه. أدار ظهره لبيته وألقى نظرة على الشارع المستقيم الممتدّ من منطقة قريبة من سكّة الحديد في الشمال وحتّى سفح هضبة مِشْتَنُور جنوبًا. رأى الشارع خاليًا إلاّ من الصّمت والخراب. جدران تئنّ وأبواب تنادي على من غادروها. انهار آخر جدار في روحه فاتّخذ مسجد سَيْدا بيتًا له واعتكف فيه. طالت لحيته أكثر، غزت التّجاعيد وجهه ولم يعد يتكلّم إلاّ نادرًا.

فجر ذاك اليوم قبّلت الأنسامُ الرقيقة كأجنحة الملائكة وجوهَ الأطفال الذين أصرّ أهلهم على أن يوقظوهم لتناول السّحور لكنّهم أشفقوا عليهم فتركوهم نائمين.

* * *

في حدود السّاعة الرابعة فجرًا، انتهت الصّلاة وما أعقبها من تسابيح فغادر الإمام والمصليان الآخران المسجد وبقي الحاج مسلم وحده. نهض متّكئًا على عكّازه ومشى صوب إحدى النوافذ الجنوبيّة ففتحها. لاحت له النّجوم لامعة في السماء الحالكة مثل مرج ياسمين منثور على قطيفة مخمل. دارت أنسام السحر في بهو المسجد فأوشكت الشموع المتّقدة حول المحراب على أن تنطفئ. تراقصت ألسنة اللّهب على رؤوسها يمينًا وشمالًا كدراويش في حلقة ذكر. عاد الحاج مسلم ضيق الصدر من عند النافذة، رمى عكّازه بجانبه وجلس

في المحراب. تذكر كلام شيخه، الشيخ صالح: «إن الله يمتحن عبده بالمصائب حتّى يسمع شكواه. إن الله يحبّ من عباده التّضرّعَ. وإذا أحبّ الله عبدًا ابتلاه».

أغمض عينيه، أحنى رقبته بذلة ومسكنة ثمّ رفع يديه داعيًا بصوت خفيض كأنّه يكلّم أحدًا بجانبه:

«أنا عبدك يا رب. عبدك المشدود أكثر من وتر في عود والواهن أكثر من بيت عنكبوت. أكاد أتقصّف من ضعفي. إن هبّت نسمة دمّرتني. أنا شمعة تنطفئ. إنّني أذوب يا إلهي، إنّني أذوب. من أنا حتّى تبتليني بكلّ هذه المصائب؟ ماذا تريد منّي يا ربي؟ أنت تعرف ألاّ طاقة لي بخوض الامتحان، لا طاقة لي بتحمّل هذه المحن والمصائب. أنا عبد ضعيف، أنا لا شيء أمام جبروتك، لست سوى ماء وطين، مجرّد مسكين من بني آدم. إنك تعلم أنني صليت لأجلك كثيرًا، أديت الحج وحللت ضيفًا على بيتك. اخترت بابك فقرعته. تضرعت إليك وعبدتك، ساعدت الفقراء ولم آكل المال الحرام. لم أترك فرضًا واحدًا من فروضك، صمت رمضان ونفذت كلّ أوامرك. أهكذا تكافئ عبادك؟ إنّني رجل عجوز يا رب. أتفهم ما معنى عجوز؟ لقد بلوتني كما لم تبْلُ عبدَك أيوب. وهل كلّ البلاء مرض أو دود؟ إن الديدان تنغل الآن في روحي، في قلبي يا الله. لقد فقدت زوجتي وأولادي وأملاكي وأموالي وبيتي ومدينتي. ماذا تركت لي؟ لم يبق لديّ سوى هذه الروح. وهي لم تبق إلاّ لأعاني العذابات والآلام. خذ روحي أيضًا يا ربّ. أتوسل إليك بجاه الأولياء أرحني. إن الدعاء مستجاب في ليلة القدر فتقبل مني دعائي يا رب العالمين».

لم يعلم الحاج مسلم أنّ الفجر بدأ يبزغ الآن في الخارج وأنّ أنواره تعمّ الدنيا. بكى حتّى انحدرت الدّموع على لحيته فتوقف عن المناجاة، أخذ قسطًا قصيرًا من الراحة ثمّ واصل دعاءه.

فجأة لعلع الرّصاص فتوقّف عن مخاطبة ربّه وأصغى بانتباه لعلّه يعرف مصدر الصّوت. ارتفع صوت الرّصاص أكثر دون أن ينجح في تحديد مصدره. تسرّب الخوف إلى قلبه. نهض ومشى متثاقلًا صوب الباب الخارجي في جهة الشمال. هناك عرف أنّ الصّوت قادم من جهة الغرب، ومن حارة صوفيان، من حارة الجمرك ومن حارة بوطان. شيء ما غير طبيعي في هذا الفجر المبارك. خطر أحفاده الثلاثة وأمّهم على باله. شعر بمائة نداء داخلي يدعوه للذهاب إليهم. ارتدى حذاءه وولّى وجهه صوب حارة مسجد الحاج رشاد.

ما إن عبر أنقاض المخفر حتّى صادفه أحدهم وقال له بعد التحيّة:

- إلى أين تذهب يا حاج في هذا الفجر؟

- إلى أين أذهب؟ يبدو أنّك لا تسمع هذه الأصوات!

- تقصد أصوات الرّصاص؟

- وهل أقصد نهيق الحمير!

- يقال إنّ الرفاق حرروا بلدة صِرِّين. هذا رصاص الفرح.

- صرين! ما هذا الهراء؟ هذا الرّصاص كثير على عشر بلدات مثل صرين.

دون أن يصدق الحاج مسلم تابع سيره متوجّهًا إلى بيت ابنه.

هبّت نسمات باردة منعشة. وانقشع حجاب الظلام عن وجه المدينة رويدًا رويدًا. لم يبق في السّماء سوى بعض النجوم كخراف تخلّفت عن القطيع وباتت ترعى وحدها في بريّة السماء. لم ينقطع صوت إطلاق الرّصاص. مشى الحاج مسلم وئيدًا، يزيح بعكّازه بين لحظة وأخرى صغار الحجارة عن طريقه دون أن يقدر على إزاحة الخوف عن دروب قلبه العجوز. لم يكن للسراي الشهيرة التي بناها الفرنسيّون أي أثر هناك. المخفر الذي كان سجنًا ومركزًا للشرطة ثمّ مقرًا للآسايش دمر كلّيًا ولم يبق منه سوى برجيه العاليين.

ازدادت أصوات الرّصاص وضوحًا. مرّت بضع درّاجات ناريّة بجانبه مثيرة خلفها غبارًا أرعن. ميّز بينها دراجة ناريّة تشبه تمامًا درّاجته المفقودة. لم يعبأ بذلك. بعد هنيهة مرت سيّارة بيك آب هي عين سيّارة ابنه المفقود حَمِه متّجهة إلى حي كانيا عَرَبانْ. لم يعبأ بها أيضًا.

عابرًا بين الأطلال والهواجس الكثيرة وصل الحاج مسلم إلى الباب الحديد الكبير لبيت ابنه.

قبل أن يطرق الباب أصغى بسمعه إلى الداخل. لم يسمع سوى الصّمت يرفرف بجناحيه. ثمّ وجد أن الباب موارب غير مغلق فدفعه ودخل بهدوء. سمع من الداخل صوتًا ينادي بوجل:

- من هناك؟

- أنا يا عَيْشه أنا. ما هذه الأصوات التي نسمعها؟

كانت عَيْشه متكوّرة على نفسها تحت اللّحاف تحتضن أطفالها من الخوف. وحين سمعت صوت حميها تنفّست الصعداء وألقت اللّحاف عنها وعن أطفالها ثمّ اعتدلت جالسة.

تكوّر سيامند أيضًا على نفسه بعد أن انتقلت إليه عدوى الخوف من أصوات الرّصاص من أمّه. أعطاه حضور جدّه في ذلك الفجر جرعة من الجرأة فنهض وصار يتكلّم بتوتر:

- جدّي جدّي.. هؤلاء هم عناصر داعش. لقد دخلوا المدينة ليقتلوا النّاس.

أراد جده أن يطمئنه، فجاء وجلس بجانبه وهو يقول:

- لا لا. إنهم ليسوا داعش. لا تخف.

- من هم إذن يا جدّي؟

- إنّهم الشّباب يطلقون النار ابتهاجًا بتحرير صِرِّين.

ارتاحت عَيْشه بعد تطمينات الحاج مسلم، وذهب عنها الخوف الذي غزا قلبها قبل لحظات. إلاّ أنّها لم تستوعب موضوع صِرِّينْ فسألت:

- ما الذي جرى في صِرِّين يا خال؟

- يُقال إنّ الشباب دخلوها.

- الأجل صِرِّين كلّ هذا الرّصاص؟

- جهلة يا بنتي. إنّهم جهلة. لا يجوز ترويع النّاس بهذا الشّكل. ماذا يعني حرّروا صِّرين؟ تبًّا لهم ولصِّرين.

جاء سيامند وتكوّر في حضن جدّه:

- جدّي أريد حكاية.

- أيّ حكاية يا بني؟

- حكاية الذئب والجداء الثلاث.

نهرته أمّه:

- هيا إلى النوم يا ولد. لا تزعج جدّك. ليس هذا الفجر وقتًا للحكايات. ألا ترى أنّنا أصبحنا حكاية!

- لا تعاتبيه يا بنتي. دعيه. إنّه لا يستوعب ما يجري لنا.

استغربت عَيْشه من هذه اللّهجة اللطيفة والهدوء الغريب الذي اتّسم به حموها. لقد تغيّر كثيرًا. قالت في نفسها:

- لقد نفعه مكوثُه عند ضريح شيخه بلا شكّ.

داعب الحاج مسلم شعر حفيده وبدأ يسرد له الحكاية نفسها التي سردها له ولأخته عشرات المرّات:

«كان يا ما كان. في قديم الزمان. كانت هناك عنزة لها ثلاث جداء. إحداها سوداء، والثانية بيضاء والثالثة بلقاء. ذات يوم ذهبت العنزة لترعى في البرية وتركت جداءها في البيت. جاء الذئب وطرق الباب وقال: افتحوا...».

قبل أن تنتهي الحكاية نام سيامند وسرعان ما تبعه جدّه فقامت عَيْشه وألقت عليهما إحدى البطانيّات ثمّ ذهبت إلى فراشها.

لم يتوقّف صوت الرّصاص. بل ارتفعت الآن أصوات أخرى غامضة حملتها أنسام

السحر. حاولت عَيْشه جاهدة أن تفهم ما الذي يجري لكن دون جدوى.

طار النوم من عينيها.

صارت الأصوات قويّة حتّى ظنّت أنّ هناك من يطلق الرّصاص عند باب بيتها المتهدّم. عاد إليها الخوف. أسرت لنفسها: «أصوات الرّصاص قبيحة حتّى في الأعراس».

حاولت أن تنام. فتحت هيڤي عينيها. قرأت عَيْشه في ذلك الظّلام سطورَ الخوف في عيني ابنتها الرّضيعة. قالت بغضب:

- اللّعنة عليكم. أيقظتم هذه الوليدة أيضًا.

وضعتها في حضنها، قبّلت جبينها ثمّ ألقمتها ثديها ترضعها بحنان.

بدت الصغيرة جائعة فأمسكت ثدي أمّها بقوّة ورضعت بنهم. مضت دقائق أثقل النعاس فيها عيني عَيْشه. ولم تكد هيڤي تترك الثدي حتّى زررت ثوبها ونامت.

تجاوزت السّاعة الخامسة فجرًا فهدأ صوت الرّصاص ولم تعد تسمع إلاّ زخّات متفرّقة قليلة.

فجأة خيم صمت ثقيل وكأن الدنيا كلّها خلدت إلى النوم. حتّى إنّ أنسام الفجر بدت وكأنّها تعبت من الهبوب فاستراحت.

كانت بضعُ ثوانٍ كافيةً لتغوص عَيْشه في عسلِ النومِ وترى زوجها حَمِه في المنام، يقف أمام باب المنزل يطرق وينادي: «عَيْشه عَيْشه. أحضري الأطفال لنذهب».

سيّارة البيك آب واقفة عند الباب دون أن ينطفئ محرّكها. حماتها خانِهْ جالسة في مقدّمة السيّارة بينما تجلس رَوْشَنْ، خديجة وابنها دارا، متين، باران ولَوَنْدْ في الصندوق الخلفي وقد لبسوا أفضل ما لديهم من ثياب. يبدو أنهم ذاهبون إلى عرس. لم تعرف عَيْشه ماذا تفعل من شدّة فرحها. هيأت نفسها على عجل، حملت هيڤي في حضنها ونادت وهي ما تزال في الدّاخل:

- أنا قادمة.

انفجر حَمِه غضبًا. صار يضرب الباب بيده بقوّة ثمّ ركله عدّة ركلات بعنف. خافت عَيْشه. لم تعهد زوجها في مثل هذا الغضب أبدًا.

* * *

استيقظ الجميع على صوت الطرقات.

- من هناك عَيْشه؟

سأل الحاج مسلم.

اعتدلت عَيْشه، التي لم تصدّق حتى الآن أنّ زوجها قتل وزادها الحلم يقينًا بنجاته، وقالت:

- لا أعرف والله. ربما يكون حَمِه.

- حَمِه!

كان الفجر قد بزغ وتراجعت الظلمة. شاهد الحاج مسلم في أنواره وجوه أحفاده المرعوبين. تذكّر الحلم الذي رآه في نومه: زارته زوجته خانِهْ عاقدة كوفيتها على رأسها مرتدية قفطانها تقف أمام المرآة كما في كلّ مرّة يزمعان فيها السّفر إلى حلب معًا.

امتزج الطعم الرائع لذلك الحلم الجميل بصيحة «الله أكبر» خشنة.

- الله أكبر.

واقتحم بضعة مسلّحين الغرفة وهم يطلقون النّار.

- الله أكبر الله أكبر.

ردّد الحاج مسلم التكبيرةَ مكررةً بشكل تلقائي. علا صراخ الأطفال وبكاؤهم إذ شاهدوا المسلّحين وصارت عَيْشه تولول. لاحظت أنّ حماها سقط على الأرض دون حراك. خرقت إحدى الطّلقات جبينه فقضى على الفور.

- النجدة. أغيثونا.

صاحت عَيْشه وولولت من جديد وهي تحاول النهوض فأخرسها المسلّحون ببضع رصاصات.

أصيب سيامند أيضًا في صدره. نزفت دماؤه وسالت على الفراش. أما زوزان فقد أصابت بضع طلقات بطنها وفخذها وصارت تنزف أكثر من أخيها.

حين رأى المسلّحون أنّ جميع أهل الدار تمدّدوا على الأرض بلا حراك أيقنوا أنّهم قتلوا جميعًا، فخرجوا إلى بيت آخر ليكرّروا ما فعلوه هنا بينما كان مسلّحون آخرون يجولون على البيوت يطرقون الأبواب ويوزّعون الموت.

أشفق سيامند على أخته الرضيعة هيڤي التي بقيت طوال المجزرة بلا صوت.

- زوزان.... زوزي! اُنظري.. إلى...هيڤي. هل أصابها... شيء؟

لم تستطع زوزان أن تنظر إلى أختها. بردت جراحها العميقة فصارت تئنّ من الآلام. زحف سيامند صوب فراش أمه. سبح في دمه ودم جدّه حتّى وصل إلى زوزان.

بدأت جراحه أيضًا تؤلمه. لم يتحمّل الآلام. قلق على أخته الصغيرة. خشي أن تكون قد أُصيبت هي أيضًا. رآها نائمة. أنفاسها طبيعيّة. استغرب سيامند. قال

في سرّه: «حدثت مجزرة وما تزالين نائمة؟».

بعد أن اطمأنّ عليها توجّه زاحفًا إلى أخته زوزان ليبشّرها بنجاة هيڤي. كانت زوزان جثّة هامدة. لم يعد يعرف ماذا يفعل! زحف بشكل تلقائي صوب باب الدار وكأنّ نجاته تنتظره هناك. رسم الدم النازف من جراحه دربًا رفيعًا مثل سجّادة حمراء خلفه. حين وصل إلى باب الدار كان قد نزف نصف دمه. صار يتنفّس بصعوبة.

أشرقت الشمس على الخرائب والأنقاض. قبّلتْ وجهَ سيامند الجريح نسمةٌ رخية. لم تنقطع أصوات الرصاص في الخارج. استيقظت أخته الرضيعة هيڤي وصارت تهدل أصواتًا عذبة كما في كلّ صباح وتملأ الدار ببقيّة أمل.

نزفت شرايين سيامند آخر نقطة من دمه وبقيت عيناه مفتوحتيْن تحدّقان إلى فراغ الشارع آملًا أن يأتي أحدٌ لإسعافه.

شعر بأنّ جسمه يخفّ رويدًا رويدًا. أحسّ بنفسه يوشك على الطيران.

طار بجناحيْن من جراح.

المعراج الأليم

أفتح عينيَّ.

أرى أخواتي اللّواتي كُنّ قبل قليل يبكين أخي المدفون حديثًا تحت تراب كوباني متحلّقات حولي، ينظرن إليّ والقلق بادٍ على نظراتهن.

- ماذا حصل له؟

- أسعفوه.

- لقد غاب عن وعيه.

أسمع أخواتي الفزعات يتباحثن في أمري. أحدّق فيهن فأرى عيونهن تذرف الخوف، إنّهنّ مبحوحات الصوت من البكاء، ذاويات الوجوه، حزينات، أكاد أرى جراحَ قلبِ كلِّ واحدةٍ منهنّ. الماء الذي أُريق على وجهي قبل قليل، ينحدر على رقبتي فأسأل مستغربًا:

- خيرًا؟ ماذا جرى؟

تردّد أخواتي وقد استعدن بعضًا من البهجة إذ يرينني أفتح عينيّ وأتكلّم:

- خير يا أخي خير. لقد غبت عن وعيك قليلًا.

- إنّه من تعب السفر بلا شك.

- الحمد لله أن ذلك لم يطل كثيرًا. دقائق قليلة.

- كدنا نسعفك إلى المستشفى.

لا تعرف أخواتي شيئًا عن الرحلة التي تحتّم عليّ القيام بها حين كنت غائبًا عن الوعي. لا يعرِفن إلى أين سافرتُ بخيالي. لا يعرفن أيّة آلام استوطنتْ قلبي. لا، لا يعرفن شيئًا من ذلك. ولو أنّني سردتُ على مسامعهنّ تفاصيل ما رأيته خلال غيابي عن الوعي لدقائق معدودات وقصصتُ عليهنّ ما رأيته في هذا المعراج الأليم لما صدّقنني، تمامًا مثلما لا يصدقني الآن كثير من القراء الّذين أنهوا هذه الرواية.

لندن 2017

الفهرس

كلمة شكر
جان دوست وموقعه في الرواية الكرديّة
يوم جمعة عادي
الفاجعة والربع
حَمْزِراقْ المهاجر
شموعٌ مدفونة
الحاج مسلم حَمْزِراقْ
حشرجة في المسجد
مظاهرة
وطنٌ مسفوح على الإسفلت
الهرب من الطوفان
نحيب المئذنة
الباكورة
رائحة الذكرى
الخروج من غابة الزيتون
فخاخ الذاكرة
موجة غريبة على ضفاف الراين
محاولة حياة
موعد مع الراين
مدرسة الزاروب
في ظلال البندقية
العريس
الكَرْمِ اليتيم
جديلة مشاكسة
أطلال أغنية

في ظلال السوسن
وترٌ متمرد
الطريق إلى الفردوس
مقام الدم
ذكريات عمود كهرباء
المفاتيح
شابّ في السيّارة
عودة السنونو
الأبواب إذ تبكي
سِفْر الحدود
مثل جدار ينقضُّ
على بعد 500 كم
رسائل إلى مِيران
حمامة مبقّعة بالأحمر
الشّاعر في معطف العسكريّ
جنديّ الله
حياة من شوك
Dégage
الأفعى
صلاة الدّاعشيّ الأخيرة
صخب الصّمت
قطار يرسم الحدود
Made in Swiss
السّقف القاتل
المهاجر
اكتشاف النّار
معبر الموت
أنين الزمن

سيلفي
الأستاذ أحمد أرزاق
أحد عشر جرحًا
هيفي
امرأة من نور
عودة اليمام
عشب طري
حفيف السواد
ليلة الغدر
المعراج الأليم
الفهرس

Notes

[←1]

الباغلمة أو البغلمة هي آلة موسيقيّة تشبه البزق أو الطنبور.

[2←]

الگَريلا: هي قوات غير نظاميّة تعتمد أسلوب حرب العصابات. وأطلقت التسمية لدى الكُرد على مقاتلي حزب العمال الكردستاني حصرًا.

[←3] خجّه لفظ تحبّب يطلقه الأكراد على من اسمها خديجة.

[4→] قبعة صوف يرتديها الأكراد خاصة.

[5←]
سَيْدا كلمة تُطلق بشكل خاصّ على رجل الدّين المسلم. وجامي محرف جامع.

[6←]

آزادي Azadî تعني الحرّيّة في اللغة الكرديّة والفارسيّة أيضًا.

[←7]

ولات في الكرديّة تعني «وطن».

[8→]

الآبوجيّة: أنصار آبو. وآبو تعني العم وهو لقب عبد الله أوجلان زعيم حزب العمال الكردستاني.

[9←]
ب ك ك: اختصار لاسم حزب العمال الكردستاني بالكرديّة پارتيا كارْكَرىٚ كُردستان.

[←10]

پِسْمام كلمة كرديّة تعني ابن العم.

[←11]

البلم زورق مطاطي بمحرك صغير سافر به أغلب اللاجئين من تركيا إلى الشواطئ اليونانيّة حيث قضى كثيرون غرقاً.

[12→] كاريتاس هي منظمة إغاثة كاثوليكيّة.

[13←]

الجنـوب الصـغير: صـفة تـرد فـي أدبيـات حزب العمـال الكردسـتاني الأولـى تعنـي المنطقـة الكـرديّة فـي الشـمال السـوري تمـييزًا لـها عـن «الجنـوب الكبـير» أي إقلـيم كردستان العراق. تحولت فيما بعد إلى جنوب غرب كردستان ثمّ غرب كردستان وأخيرًا روجافا التي لا تعني سوى جهة جغرافيّة هي الغرب مجرّدًا من كلّ صفة أخرى.

[14←]

مَعْمِهْ لقبٌ يطلقه الكرد على كلّ من يسمى محمود كعادتهم في تحوير الأسماء.

[15←]

الفلك في الثقافة الكرديّة مرادف للقدر، للزمن والدهر.

[←16]

من قرى كوباني.

[17←]

حي يقع جنوب شرقي كوباني وهو أوّل الأحياء التي وصلها عناصر داعش. أصل الاسم مقتلة إذ يروى أن معركة دامية حدثت هناك.

[←18]

حرفيًا فليختل نظامك: Pergalê te bela bê.

[←19]

مثل كرديّ.

[20←]

باران في الكرديّة تعني مطر وهو من الأسـماء الشـائعة.

[←21] اسم ولات يُكتب في الكرديّة WELAT أي أنه يتألف من خمسة أحرف.

[←22]

آزادي: حرّيّة.

[←23]

شراب أحمر مسكر.

[←24]

مسكر قويّ لونه أبيض.

[25←]

ارحل. وهو الشّعار الأساسي في ما اصطلح عليه بالربيع العربي الذي بدأ من تونس.

[←26]
الهوتة: حفرة طبيعيّة عميقة جدًا قريبة من بلدة سُلوكْ التابعة للرقة، استخدمتها داعش كمقبرة جماعيّة رمت فيها المئات من النّاس.

[←27]

نفض الذنوب في الكرديّة كناية عن الرقص.

[←28]

امتلأ السراج بالزيت، مثلٌ شعبيٌّ في كوباني. ومعناه أن الأمور تيسرت بعد عسر.

[29←]
هيڤي Hêvî تعني في اللغة الكرديّة أمل وهو اسم شائع بين الأكراد.